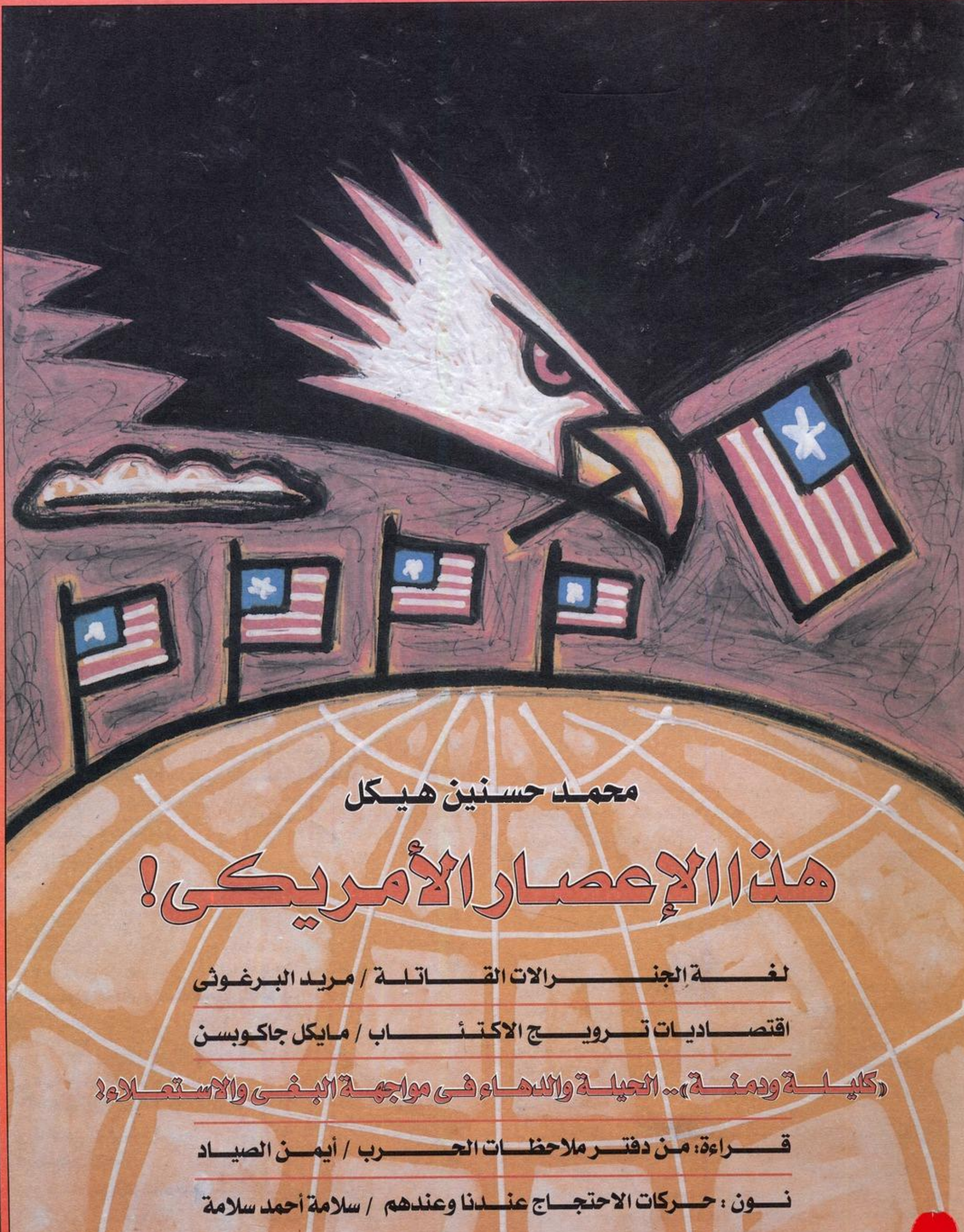
الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

مجلة شهرية. العددالواحد والخمسون. السنة الخامسة. أبريل ٢٠٠٣. الثمن عشرة جنيهات

Weghat Nazar - Volume 5 - Issue 51 - April 2003



محمد حسنين هيكل

هذا الإعصار الأمريكى!

لغة الجنرالات القاتلة / مريد البرغوثى

اقتصاديات ترويج الاكتئاب / مايكل جاكوبسن

«كليلة ودمنة».. الحيلة والدهاء فى مواجهة البغى والاستعلاء!

قراءة: من دفتر ملاحظات الحرب / أيمن الصياد

نون: حركات الاحتجاج عندنا وعندهم / سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

مدير التحرير
أيمن الصياد

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

السنة الخامسة
العدد الواحد والخمسون
أبريل ٢٠٠٣

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

البحوث والمتابعة
هديل غنيم

محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- إدوارد سعيد.. أستاذ الأدب المقارن بجامعة كولومبيا.
- إسحاق لاور.. شاعر وروائى يعيش فى تل أبيب.
- أيمن الصياد .. صحفى.
- ديفيد بلانكس.. أستاذ التاريخ بالجامعة الأمريكية بالقاهرة.
- سلامة أحمد سلامة .. صحفى.
- عبد الله على إبراهيم.. أستاذ مشارك فى التاريخ، جامعة ميسورى
- فاروق عبدالقادر.. كاتب.
- مايكل بورخ - جاكوبسون .. أستاذ الفرنسية والأدب المقارن بجامعة واشنطن.
- مريد البرغوثى .. شاعر فلسطينى يعيش فى القاهرة.
- محمد حسنين هيكل .. صحفى.
- محمد عبد الرحمن يونس .. محاضر فى جامعة الدراسات الأجنبية ببكين.
- محمود الكردوسى.. صحفى.
- نبيل على .. خبير الأبحاث اللغوية العربية والإلكترونية.

رسوم العدد للفنانين :

محمد حجى - أحمد اللباد

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): *e-mail: info@alkotob.com*
الموقع على الإنترنت: www.weghatnazar.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص. ب: ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ - *e-mail: weghat @alkotob.com*

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ٢٠ ريالاً - الكويت ١,٥ دينار - الإمارات ٢٠ درهماً - البحرين ديناران - قطر ١٥ ريالاً - عُمان ريالان - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria , France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £3 - USA $5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة

كلمة..

فى كتب وجهات نظر



في عدد سبتمبر ٢٠٠١ من «وجهات نظر» وتحت عنوان «تقرير رئاسى أمريكى.. خريف خطر» قدم الأستاذ محمد حسنين هيكل قراءته لتقرير عن سياسة أمريكا فى الشرق الأوسط، كان قد عرف وقتها أنه ربما يتصدر مجموعة تقارير على مكتب الرئيس الأمريكى الجديد جورج دبليو بوش. وكان قد رأى - يومها - أنه (أى التقرير) يقدم إطلالة على القرار الأمريكى فى الشرق الأوسط وتوجهاته فى المرحلة القادمة.. وكانت تلك الإطلالة «الواجبة» هى قصد هيكل (فى سبتمبر ٢٠٠١) كما قال فى تقديمه لمقاله.

التقرير الذى اختاروا له عنوان «الملاحة فى بحور مضطربة» Navigating Through Turbulence والذى كان على مكتب الرئيس الأمريكى قبل أحداث سبتمبر (لاحظ) حدد الخطوط العامة للسياسة الأمريكية والتى لخصها هيكل فى الآتى:

* إن الولايات المتحدة لا تستطيع أن تدعى لنفسها «رئاسة العالم» وإلا جلبت لنفسها مشكلات تستثير الحساسية أو تستدعى المنافسة أو تستفز الآخرين بغير لزوم لكن عليها فى نفس الوقت أن تحتفظ لنفسها بالكلمة الأخيرة فى أى موضوع.

وذلك يعنى:

* إن الولايات المتحدة لا تقبل قسمة أو توزيعًا فى مسئولية القرار العالمى.
* ولا تقبل قيادة جماعية أو نوعًا من مجلس الإدارة مسئولاً بالتضامن حتى ولو كان لرئيسه صوتان أو حتى ثلاثة!

ويتضمن التقرير الذى عرض له هيكل فى «وجهات نظر» قبل عام ونصف توصيات مستشارى الرئيس فيما يخص الشرق الأوسط والتى منها ..

«عليك أن تكون مستعدًا للقيام «بإجراءات نهائية» ضد القوى التى تهدد المصالح الأمريكية فى المنطقة، وأولها العراق وإيران.. وسائلك إلى ذلك على النحو التالى:

١- عليك تشجيع التغيير فى إيران وفى العراق، وعليك أن تلاحظ أن التغيير فى إيران يمكن أن يتم بوسائل سياسية، أما التغيير فى العراق فلا يمكن أن يتم بوسائل سياسية. ومعنى ذلك أن التغيير فى إيران يمكن أن يتم من الداخل، أما التغيير فى العراق فيقتضى دعمًا من الخارج... ولتسهيل التغيير فى العراق وتقليلاً لتكاليف العنف اللازم له يستحسن إشغال صدام حسين وتشتيت انتباهه على أكثر من جبهة واحدة.

* عليك تقدير ردود فعلك العسكرى مبكرًا إزاء أى تطور يحدث فى العراق.

وفى كافة هذه الحالات ليس هناك ما يمنع من أن يكون صدام حسين على علم برد فعل الولايات المتحدة وتصرفها إزاء كل حالة، ويجرى ذلك بالتوازى مع إعادة بناء إمكانية مالية وعسكرية وتكنولوجية لقوى المعارضة العراقية، على أن تكون هذه القوى على علم أكيد بحجم الدعم الذى يمكن أن تقدمه لها الولايات المتحدة فى كل ما تقوم به من أجل نظام ديمقراطى فى عراق ما بعد صدام حسين.

* عليك أن تشجع المعتدلين فى إيران ضد المتطرفين، وأن تصل من وراء الاثنين مباشرة إلى الشعب الإيرانى: شجع السياحة بين إيران والغرب - شجع القطاع الخاص فى إيران - ابحث عن قنوات للحوار مع القوى الديمقراطية فى إيران.

٢ - بصرف النظر عن الموجة العادية لأمريكا - وهى تجتاح المنطقة الآن - فإن عليك أن تعزز التيارات والمواقع الموالية للسياسة الأمريكية.. وسائلك إلى ذلك على النحو التالى:

* عليك أن تشجع عملية واسعة للتعريف بالقيم الأمريكية والديمقراطية الأمريكية والممارسة السياسية فى أمريكا.
* عليك أن تعمل على ظهور قيادات جديدة صديقة لأمريكا وقادرة على إجراء إصلاحات توفر لها (لهذه القيادات) شرعية مقبولة.



* عليك تشجيع الاتجاه نحو الديمقراطية وحماية حقوق الإنسان، وفى هذا الميدان فإن عليك أن «تفكر بجرأة وتتصرف فى حذر» لأن عملك فى هذه المجالات يمكن أن يخلق حساسيات تعطل جهودك. ركز على مصر باعتبارها أكبر دولة عربية. ركز على السلطة الفلسطينية لأن قضية فلسطين موجودة فى كل بلد عربى، وهناك احتمالات واسعة لتطورات ديمقراطية مهمة فى «عصر ما بعد عرفات»!

٣ - «عليك» أن تهتم بتقوية قواعد ووسائل عملك فى «الشرق الأوسط» لمواجهة أية احتمالات تنشأ دون أن يفاجئك منها شيء.. وسائلك إلى ذلك على النحو التالى:

* عليك أن تعرف أن إسرائيل هى الركيزة الأولى لضمان أمن الإقليم، والتحالف الأمريكى مع إسرائيل بالفعل وبالقول هو القاعدة المتينة لكل الخطط والسياسات، والحقيقة فإن قوة الشراكة بين البلدين هى أداة الفعل الرئيسية فى المنطقة، ولابد أن تكون العلاقة بين الطرفين (الأمريكى والإسرائيلى) نظيفة من أى سبب للتوتر.
* عليك - للاستفادة القصوى من هذه الحقيقة الاستراتيجية - أن تكفل لإسرائيل «تفوقًا نوعيًا» متجددًا طول الوقت على كل الأطراف العربية، وهنا فإن عليك أن تقاوم وترفض بشدة كل محاولة من جانب أى طرف عربى يطلب أو يسعى للتساوى مع إسرائيل.
* عليك أن تبذل جهدك لتأييد وتسريع عملية التطبيع بين الأردن وإسرائيل، وإقناع الأردن أن ذلك أفضل ضمان له سياسيًا واقتصاديًا، وحذر الأردن من غواية تصورها أنها تستطيع مغازلة أو مهادنة صدام حسين، ذلك سوف يضر بسلامة الأردن واعتداله.
* عليك أن تشجع تركيا على القيام بدور رئيسى فى المنطقة مع إفهامها بطريقة واضحة أنها لا تستطيع أن تمارس هذا الدور، ولا أن تحقق نتائجه السياسية والاقتصادية إلا بالتعاون مع إسرائيل.

وبشأن مشكلة الشرق الأوسط يلفت التقرير الذى عرضه هيكل نظر بوش إلى أن: «الممكن هو «إدارة» أزمة الصراع العربى الإسرائيلى وليس حله»

وأن «إدارة الأزمة مهمة ثقيلة لكنها ليست خطرة طالما أمكن تحقيق المطالب الرئيسية فى صلب تقرير اللجنة الرئاسية (الفصل فى منطقة الشرق الأوسط بين نطاق البترول «سريع الاشتعال» ونطاق الصراع العربى الإسرائيلى «القابل للانفجار» ثم التركيز على الدول المعتدلة «الموالية للغرب» على حافة الصراع العربى الإسرائيلى (مصر والأردن)».

وفى مارس ٢٠٠١، قبل عامين كاملين، وبمناسبة انعقاد قمة عمان، اختار هيكل «نهايات طرق» عنوانًا لمقاله مذكّرًا بأنه إذا لم تنتبه القمم العربية إلى أنها قرب «نهاية طريق» فقد يتأكد بأسرع مما يتوقع أحد أنها «نهاية القمة» بمثل ما أنها «نهاية طريق».

وموضحًا أن أول قوانين الصراع أنه حين يرضى طرف لنفسه أن يَستَخذى فإن الطرف الآخر مدعو لأن يَستَقوى «لأن الغاية النبيلة لا تُحقِّقها وسيلة ذليلة»، يقلب هيكل كعادته فى صفحات «التاريخ» ليبين لنا كيف أنه يُواصل حركته، ويضع نقاط تَحَوُّله، ويُحَدِّد «نهايات طرُقه»، سواء تنبه أصحاب القرار فى حينه واستجابوا، أو أنهم غفلوا حتى فات الأوان أو أوشك.

مقالات هيكل تلك جمعها كتابان صدرا عن «وجهات نظر» أحدهما عن «العربى التائه - نهايات طرق»، والثانى عن «الزمن الأمريكى».

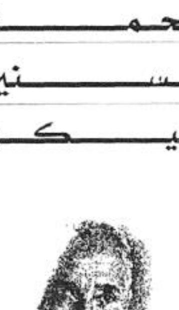
وجهات نظر

لاعتبارات طباعية وفنية تأخذ «وجهات نظر» شكلاً، تأمل هيئة تحريرها معرفة رأى قرائها فيه.



هذا الإعصار

محمد حسنين هيكل



لكى يمكن فهم وتحليل مشهد هذا الإعصار الأمريكى الذى يضرب المنطقة العربية هذه اللحظة (أبريل ٢٠٠٣) - فقد يلزم الاتفاق كمقدمة - على مجموعة من الطبائع والأحوال، وبقع اللون والظل والفراغ فى هذا المشهد - حتى تبين الصورة وتتضح التفاصيل.

ومع أن مشهد هذا الإعصار الأمريكى العاتى فيه الكثير مما هو مألوف ومعروف - إلا أنه فى بعض الأحيان وعندما تحل الطوارئ - يكون استرجاع المألوف والمعروف ضروريا ولازما لسببين:

- من ناحية - إعادة التأكيد - حتى مع محظور التكرار.

- ومن ناحية ثانية - فرز المألوف المعروف عما هو طارئ مستجد - وذلك هو الطلب!

"١"

أسلوب جديد فى استخدام السلاح

١ - وبداية فإنه يلزم الاتفاق على أن حركة التاريخ مجرى إنسانى عريض وعميق صبت فيه الجماعات والشعوب والأمم ملكاتها الفكرية والعقلية، ومنجزاتها فى العلوم والتكنولوجيا، وما حققته من حصيلة الإنتاج والتراكم، وما تجمع لديها من مطالب القوة والتفوق - محفوفة بما توفر لديها من حكمة وقيم وفلسفة وفن.

٢ - ثم إنه يلزم الاتفاق - أيضا - على أن التدافع الهائل للحركة الإنسانية عبر التاريخ هو الذى سمح بظهور مجتمعات ودول وإمبراطوريات ضخمة برزت على طول مجراه، وأن هذه المجتمعات والدول والإمبراطوريات حافظت وأضافت فى أحوال صعودها أو انحلالها على مستودع ذاكرة إنسانية متعددة فى منابعها الثقافية متلاقية فى مجرى واحد أصبح منهلا وموردا لكل من يريد أن يدرس ويستوعب قصة الحضارة من بدايتها وحتى اللحظة الراهنة.

٣ - ويلزم الاتفاق بعدها مباشرة - على أن قصة الحضارة يقوم على تمثيلها كل بطل علا صيته فى زمانه. وفى أزمنة قريبة فإن تمثيل الحضارة الإنسانية تجلى مرة بملامح فرنسية على عهد «لويس الرابع عشر»، ومرة بملامح إنجليزية على عصر «فيكتوريا»، وأخيرا تجلى بملامح أمريكية ابتداء من رئاسة «فرانكلين روزفلت» للولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية - دون أن يعنى ذلك أن عصور «لويس الرابع عشر» أو «فيكتوريا» أو «فرانكلين روزفلت» هى كاتبة النص الحضارى - فذلك النص كتبته الثقافات الإنسانية جمعاء، وتعاقب على تمثيله النجوم مع اختلاف العصور، وقامت عليه الإمبراطوريات بأحكام التقدم والغلبة!

٤ - ويلزم الاتفاق - كذلك - على أن الإمبراطورية الأمريكية حلقة أخيرة فى



سلسلة متوالية من الإمبراطوريات ـ لكن هذه الإمبراطورية الأمريكية جاءت لأول مرة فى التاريخ مستغنية عن وطنية شعب على أرض ـ أو جامع أمة بعلاقة قرابة أو لغة أو تاريخ، لأن قيامها بالدرجة الأولى لم يكن له رابط غير المصلحة ـ تعبر عنها «السوق» فى نهاية المطاف، وكان توسيع السوق هو حافز الحرب الأهلية الأمريكية كى تضم الجنوب الزراعى إلى الشمال الصناعى وتتمدد غربا، ثم تعبر المحيطات إلى عوالم أبعد ـ أى سوقا أكبر.

٥ ـ ويلزم الاتفاق ـ أخيرا ـ على أن هذه الإمبراطورية الأمريكية وبأحوال وظروف نشأتها وصعودها، أخذت بنزعة القوة لبلوغ غاياتها حتى وإن جاء ذلك على حساب قيامها على التراكم الحضارى الإنسانى، ولأن منطق السوق الذى هامت غراما به هو بطبائعه عملية إزاحة لأى منافسة ـ وإصرار يسعى بالضرورة نحو سيطرة غير مشروطة ـ وذلك طبع الاحتكار.

وكان استعمال القوة فى عهود إمبراطورية سبقت ـ مغلفا على الأقل ـ باعتبارات ملاءمة إنسانية جرى عليها العُرف واستقرت التقاليد.

....

....

[وفى هذا الموضع أتذكر حوارا أشرت إليه من قبل ـ دار بينى وبين القائد العسكرى البريطانى ذائع الصيت الماريشال «مونتجمرى» (بطل العلمين، وهى واحدة من أهم معارك الحرب العالمية الثانية ـ وقد جرت على صحراء مصر الغربية خريف سنة ١٩٤٢ ضد الجيش الألمانى) ـ وفى هذا الحوار أورد الماريشال العتيد ما أظنه نوعا من التوصيف «المحترم» لشروط استعمال القوة المسلحة (الحرب) ـ وقال الماريشال فى كلامه:

«إنه لابد في استعمال قوة السلاح من توافر عناصر مبدئية لتسويغ الحرب مؤداها: أن يكون لدى شعب أو أمة أو إمبراطورية هدف مطلوب سياسيا، وممكن عمليا، وجائز قانونيا، ومبرر أخلاقيا».

ومع أن القوانين والأخلاق فيما سبق من تجارب التاريخ ـ تعرضت للذرائع والأهواء، إلا أن استعارة مبادئها ـ حتى تعسفا ـ لم يغب قط عن ساحات الحرب. وبسائر المبادئ فإن الحروب الاستعمارية لم تكن للاستيلاء على موارد وأقدار شعوب ـ وإنما كانت «لنشر الحضارة فى قارات الظلام»، أو «منع الرق» وتحريم استغلال الإنسان للإنسان (رغم أن الجماعات المهيمنة لم تؤرق نفسها ببؤس الرق إلا عندما اطمأنت إلى أن طاقة البخار حاضرة لتعويض عضلات العبيد، وأنها كذلك طاقة أرخص!).

وعلى نفس القياس فإن الحرب العالمية الأولى لم تكن مذبحا هائلا للبشر من أجل توزيع المستعمرات ـ وإنما كانت حربا من أجل الحرية والتحرر.

والحرب العالمية الثانية التى انتهت بكابوس نووى، لم تكن حربا ورثت بها أمريكا ما سبقها من إمبراطوريات ـ وإنما كانت حربا لتصفية شرور النازية والفاشية.

والمعنى أن الحروب على طول التاريخ، احتاجت إلى سواتر أو ذرائع قانونية وأخلاقية أو شبه قانونية وأخلاقية، وأما فى حالة الإمبراطورية الأمريكية فإن استعمال القوة مع تركيزها أو احتكارها ـ جاء مكتفيا بما لديه، مستغنيا عن أية إضافات إنسانية «جمالية» فوقها!

....

....

[وهنا فإن منطق القوة الأمريكية حين تمارس دورها ـ عبر عن نفسه بأصرح وأصدق ما يمكن بنظرية الدكتور «هارلان أولمان» (وهو أحد المستشارين المسموعين فى البيت الأبيض، وفى الأصل أستاذ علوم سياسية فى كلية الدفاع الوطنى) ـ وكان تعبيره عن نفسه أقرب إلى البوح ـ بحيث يصح أن يستعاد للتذكر والتفكر.

فقد كتب الدكتور «أولمان» مذكرة بعنوان «الصدمة والرعب» (Shock and awe) وُضعت أمام الرئيس الأمريكى ونشرتها الصحافة الأمريكية (وبينها جرائد نيويورك تيمس، وواشنطن بوست، ولوس أنجلوس تيمس) ـ وفيها يقول بالنص:

«إن الولايات المتحدة عليها أن تستعمل أقوى شحنة من القوة المكثفة والمركزة، والكاسحة ـ بحيث تنهار أعصاب أى عدو يقف أمامها، وتخور عزيمته قبل أن تنقض عليه الصواعق من أول ثانية فى الحرب إلى آخر ثانية، ويتم تقطيع أوصاله وتكسير عظمه وتمزيق لحمه دون فرصة يستوعب فيها ما يجرى له!».

ومن المقلق أن الدكتور «أولمان» ظهر بنفسه على شبكة C.B.S (وهى أكبر شركات التليفزيون الأمريكية) فى ٩ فبراير الماضى يتحدث عن «نظريته فى الحرب» مركزا على عدة شروط:

ـ أن استعمال أقصى درجات العنف من أول لحظة كفيل بتوليد إحساس بالعجز لدى العدو، يجعله مأخوذا بطغيان تفوق عليه لا مثيل له (ولعل ذلك الأثر هو المقصود من مشاهد الحشد العسكرى الأمريكى

الأمـــريكى!



المتوحش حول العراق من قبل بدء أية عمليات. والظاهر أنه أحدث أثره ساحقا في عدد من العواصم العربية وصلت إلى التسليم اليائس بأنه طوفان كاسح لا يمكن إيقافه - ومن قبل أن تقتحم الجيوش حدود العراق!).

- أن تكون بداية الضربة الأولى على بغداد حاملة لـ ٨٠٠ صاروخ من طراز كروز متلاحقة على مدى يومين أي بمعدل صاروخ كل أربع دقائق. وفي هذين اليومين - طبقا لأولمان - فإنه لابد من تدمير كافة محطات الطاقة والماء، وعليه فإنه عندما يجيء اليوم الثالث يكون «سكان العاصمة العراقية قد تأكد استهلاكهم نفسيا ومعنويا - قبل ماديا وجسمانيا».

- والأثر الذي يجب أن تُحدثه اللحظة الأولى من الحرب، لابد أن يكون مقاربا لأثر قنبلة هيروشيما التي أقنعت القيادة العليا اليابانية والإمبراطور «هيروهيتو» بأن حياتهم ذاتها تحت رحمة الغزاة، وفي رأي «أولمان» أن ذلك ممكن في حالة العراق حتى إذا لم يقع استعمال قنابل نووية، اكتفاءً «بأسلحة متفوقة» لها قوة فتك غير محدودة.

ثم يختم الدكتور «أولمان» شرحه لنظريته في حديثه التليفزيوني بقوله: «إنه قام بتدريس منهج كامل عن نظريته لكبار القادة السياسيين والعسكريين في كلية الدفاع الوطني، وكان بين الجالسين على مقاعد الدرس والتحصيل أمامه: «كولين باول» (رئيس هيئة الأركان السابق في إدارة بوش (الأب)، ووزير الخارجية الحالي في إدارة بوش (الابن)!».

(وذلك في الوقت نفسه - حتى تتصل الجذور بالفروع - منطق يختصر الوقت، ويقلل في التكاليف، ويوفر الخسائر في أرواح المهاجمين الذين تربوا على أن الوطن مساهمة في شركة وليس تضحية بدم)].

....

....

٦ - يجيء بعد ذلك في سياق ما يلزم الاتفاق عليه - أن هذه الاستراتيجية في استعمال القوة المسلحة الصاعقة، لم يكن ممكنا تطبيقها في زمن الحرب الباردة، لأن وجود الاتحاد السوفيتي في مواجهة الإمبراطورية الأمريكية فرض درجة من التحفظ استوجبها ميزان الرعب النووي.

ومع أن كلا من «القوتين الأعظم» زمن الحرب الباردة، كلتاهما اهتمت بالحروب المحلية المحدودة وربما شجعتها وحرضت عليها كميادين لاختبار القوة، واحتلال - أو إخلاء - المواقع، فإن «الإمبراطوريتين الأكبر» في نفس الوقت وعلى امتداد قرابة نصف القرن حرصتا على حصر دائرة النار وإبعادها بكل وسيلة عن خط التماس المباشر بينهما.

وهكذا فإن الصراع بين الإمبراطوريتين - إمبراطورية السوق وإمبراطورية الشيوعية - دار بالوساطة، ودار بالأساليب الخفية والنفسية والاقتصادية، أملا في اتقاء المحظور وتجنب الدمار المتبادل في جحيم نووي!

٧ - وأخيرا يلزم الاتفاق على أنه في تلك الفترة الحرجة (من الحرب الباردة) - فإن الولايات المتحدة الأمريكية، منحت تفويضات مفتوحة في مناطق مختلفة من العالم لقوى إقليمية كلفتها بدور رجل البوليس المحلي ينوب عنها في استعمال السلاح عندما تقتنع الولايات المتحدة بأن دور السلاح قد حان في التعامل مع بؤر مقاومة في إقليم معين - ثم إنه في إطار هذه التفويضات برز دور إسرائيل في الشرق الأوسط قبل أي وكيل غيرها (مثل كوريا الجنوبية أو جنوب أفريقيا العنصرية أو إيران الشاهنشاهية)، وزاد أن إسرائيل نتيجة اعتبارات إضافية، تمكنت من خلق توافق استراتيجي مع الولايات المتحدة شجعته الإمبراطورية الأمريكية واستفادت من نتائجه.

والشاهد أن إسرائيل إلى جانب التوكيل الممنوح لها في حفظ المصالح الإقليمية للولايات المتحدة - بدت قادرة - بالزيادة فوقه - على تعبئة يهود العالم وراء الولايات المتحدة - وعلى التأثير في أهم وسائل الإعلام والترفيه - وعلى جمع المعلومات من قلب الاتحاد السوفيتي ومحيطه - ومستعدة لأية مهمة تكلف بها دون تدقيق في المقاييس والمعايير - وذلك خلق في الشرق الأوسط - ضمن ما خلق - تناقضا بين الحقائق وخللا في الموازين: بحكم أن المصالح الأمريكية كلها عند العرب، وتأمين نفس المصالح موكول إلى إسرائيل - مع تفويض لها تتصرف كما ترى - أو كما يُطلب منها! ■

«٢»

سباق بين «البيان» - و«الإعلان»!

■ ■ بعد ذلك وفي طلب مزيد من الفهم والتحليل لمشهد هذا الإعصار الأمريكي العاتي الذي يضرب المنطقة العربية، فقد يكون مطلوبا استعادة بعض المشاهد - بعد لزوم الاتفاق على مقدمة له سبقت.

ومع أن المشاهد فيها - بدورها - ما هو مذكور ومشهور، إلا أن مراجعة المذكور والمشهور قد تكون ضرورية - لسببين أيضا:

- استثارة الذاكرة وتحفيزها - من ناحية.

- والربط والوصل بين المواقف إذ يتضح سياقها - من ناحية ثانية.

١ - وعلى سبيل المثال فقد يكون مطلوبا استعادة أسلوب الدعوة والترويج التي اتبعتها القوتان الأعظم في فترة الحرب الباردة، لأن الحرب الباردة كانت على الواجهة محاولة من كل طرف لتقديم نفسه للعالم، وتزكية نظامه أمام الشعوب، وتصويره على أنه شكل المستقبل، وبضرورة الأشياء فقد كانت طبيعة كل واحدة من القوتين موجهة لأسلوبها في الدعوة والترويج.

وفي حين أن الإمبراطورية الشيوعية اعتمدت أسلوب التبشير بفردوس تصنعه الطبقة العاملة بريئا من الاستغلال - فإن الإمبراطورية الأمريكية - وهي بالدرجة الأولى «إمبراطورية سوق» - اعتمدت أسلوب الإعلان في توزيع وبيع السلع!

وفي حين أن الإمبراطورية الشيوعية أخذت بالخطب الرنانة والبيانات الحماسية، يجيء ختامها دائما هتافا بالتحية «لنضال الشعوب» و«بسالة كفاحها» - فإن الإمبراطورية الأمريكية أخذت بفنون الإعلان، وأهمها أنه شعار واحد يقول كل شيء في عبارة واحدة مختصرة تستثير صورا حافلة بالتشويق والإثارة.

وفي حين أن الفردوس الشيوعي (مثل أي نعيم مقيم) مؤجل إلى ما بعد إتمام «بناء الشيوعية» - فإن السلع الأمريكية معروضة للكافة وفي إيحاءاتها أن شكل زجاجة الكوكاكولا وحده وإلى جانبه عبارة «هي الأصل» جاهز لاستدعاء مذاق منعش، وأن صورة ملونة للهامبورجر وإلى جانبها عبارة «لحم صاف» جاهزة لاستدعاء الشبع والامتلاء، (بل إن صورة الشارة المعدنية الصغيرة لسيارة كاديلاك جاهزة دون زيادة كلمة واحدة، لخلق جو من الفخامة والعز يجري على أربع عجلات!).

وبالفعل فإن معروضات السوق الجاهز فعلا، تمكنت من إزاحة وعد الفردوس المنتظر!

كان أسلوب الإعلان الأمريكي يقول كل شيء في عبارة واحدة أو صورة واحدة، وكان البيان الشيوعي وعدا مبهما يكرر ويزيد إلى درجة القتل بالملل!

ومن المدهش أن الإعلان الذي يكتفي بعبارة واحدة وصورة واحدة، أدى في مجال السياسة إلى مشاهد ملفقة، لكنها - اعترافا بالواقع - حققت غرضها.

....

....

[وأتذكر أيام كنت أغطي وقائع الثورة الإسلامية في إيران أنني صادفت طواقم عدد من شركات التليفزيون الأمريكية تبحث في «طهران» و«قم» و«أصفهان» عن مظاهرات تحرق العلم الأمريكي، وكانت تلك هي الصورة المطلوبة لإظهار أن الثورة الإسلامية عدو للولايات المتحدة وللغرب، وبالتالي فإن الرأي العام الأمريكي والأوروبي عليه أن يعاديها.

إن الحروب على طول التاريخ، احتاجت إلى سواتر أو ذرائع قانونية وأخلاقية أو شبه قانونية وأخلاقية، وأما في حالة الإمبراطورية الأمريكية فإن استعمال القوة مع تركيزها أو احتكارها. جاء مكتفيا بما لديه، مستغنيا عن أية إضافات إنسانية «جمالية» - فوقه!

وفى مــرة من المرات فى ســاحــة «الشاهيـاد» في طهران، صادفت موقفا لا يكاد يُصَـدَّق، فـقـد وصل طاقم إحـدى وكـالات الـتليـفـزيون الأمـريكى جـاهزا بمصـوريه وعـدسـاتـهم، واللافت أنـهم جاءوا معهم أيضا بمجموعة من الأعلام الأمـريكيـة يسلمـونهـا بأيديهم إلى المتظاهرين كى يحرقوها أمام الكاميرات، وكان المتظاهرون بحماسـتهم متلهفين على تخاطف الأعلام الأمريكية وإشعال النار فيها إظهارا لمشاعرهم، دون أن يخطر لهم أنهم وقعوا - غير مدركين - فى شراك فخ الصور، الذى يبغى تسجيل المشهد الذى يقـول كل شىء - ويعـبـر عن كل «واقع» - فى لقطة واحدة.

وفى الممارسة العملية فإن الخطاب على الناحيتين لم يلبث أن فقد مصداقيته:

- فـخطاب الإعـلان الأمـريكى ظل سطحيـا كـالقشـرة يحرض على شراء سلع، ولا يستطيع تأصيل قيم.

- وخطاب البيـانات - السـوفيـتى - أصبح تناقضا مع الواقع يبشر بالجنة ويسـوق الناس نحـوها على الطريق - بعصـا غليظة (على حـد تعبير الزعيم السوفيتى «نيكيتا خروشوف» في نقده الشـهيـر للزعيم الشيـوعى «جـوزيف ستالين»!).

....

....

[ولعل نفس الكلام يصدق من ناحية أخـرى على الرئيس الأمـريكى الحـالى «جورج بوش» - ففى خطابه العام دعوة تقول أنها تريد تكريم الشعوب العربية بنعـمـة الديمقـراطيـة - ولكن بإطلاق الصواريخ على من تشاء بينها!].

....

....

وفى مـجـال الخطاب بعـد مـجـال الصور، فإن أسلوب الكلمة الواحدة زاد واستفحل، لأن أى معترض على السياسة الأمريكية لاحقه وصف واحد يدمغه مرة بأنه «شـيـوعى»، أو «إسـلامى»، أو «إرهابى» إلى آخر القائمة. كما أن أى رافض لهيمنة واشنطن أعيدت تسميته بـ: «هتلر» - أو «مـوسـوليـنى» - أو «ستالين» - أو «أسامة بن لادن» أخيرا، وكان لا فارق بين صروح برلين وكهوف قندهار، ولا بين الجيش السوفيتى وجند طالبان، ولا بين أرقى القوانين الرومانية وفتاوى «المُلا عمر» بأن الأرض مسطحة وليست كروية، كما يزعم «أهل الكفر»!].

....

....

٢ - وقـد يكون من المطلوب - أيضـا - استـعـادة ما ظهر من أن فنون «الإعلان الأمـريكى» تفـوقت بشـدة على وعـد «الفردوس الشيـوعى»، وبرغم ذلك فإن إمبراطورية السوق ظلت تواصل الضغط ضد الخطر السوفيتى وتبالغ فيه، حتى وقت لم يعد باقيا فيه من هذا الخطر غير ترسـانة نووية ضـخـمـة مـهـددة بالشيخوخة بسبب نقص الموارد - ومن باب الحيطة فإن هذه الترسانة المتهالكة بقيت في الظنون، باحتمال أن زعيما سياسيا يائسا أو جنرالا عسكريا مجنونا قد يقوم فى اللحظة الأخيرة بمغامرة ابتزاز حمقاء يقترب فيها بأصابعه من الأزرار الحمراء، واضعا الدنيا على حافة هاوية!

ولم تجد الولايات المتحدة طمـأنينة وهى تتابع مرور عشرين سنة من الركود الكبير قضاها الزعيم السوفيتى المريض «ليـونيـد بريجنيف» على القـمـة فى الكرملين.

ولم تجد الولايات المتحدة طمـأنينة حتى وهى تتابع المواكب الجنائزية لقادة سوفييت («بريجنيف» و«تشيرنينكو» و«أندروبوف») بعد أن وصلوا إلى القمة، وقد أخذت منهم السنون والعلل ضرائبها، وراحوا يموتون واحدا بعد واحد.

فـفى تلك الأوقـات كـانت الترسـانة النووية السوفيتية الضخمة سيفا معلقا، واحتمال وصول زعيم يائس أو جنرال مجنون إلى شفرة تشغيلها - واردا ومؤرقا!

٣ - ومن المطلوب استـعـادة لحظة سقوط حائط برلين (٩ نوفمبر ١٩٨٩) - وسقوط الاتحاد السوفيتى نفسه بعد ذلك بسنتين، عندما آلت قيادته إلى رجلين، أولهما واقعى إلى درجة الاستسلام بهيئه الضـعف واليـأس (جـورباتشـوف)، والثانى خيالى إلى حد الأوهام ومعظمها بهيئه إدمانه للفودكا (يلتسين) - ومع ذلك ظلت الولايات المتحدة الأمريكية غير مصدقة للمشهد الذى تراه أمامها ويراه العالم بأسره.

وظل البيت الأبيض - وفيـه أيامها الرئيس «رونالد ريجان» - مأخوذا بهذه الصورة المذهلة لما يجرى داخل وخارج أسوار الكرملين. وكان أكثر ما فاجأ واشنطن أن الرجلين الباقيين على دفة الإمبـراطورية الشيـوعيـة (يلتسين وجورباتشوف) - كلاهما راح يستعين بها ضد رفيقه، ومن جانبها فقد كان مُناها الخلاص من الرجلين معـا، وفى نهاية المطاف تكفل كلاهما بإنجاز المهـمـة وتحقيق المُنى.

ومع أن المعلومات المتـدفـقـة على المكتب البيـضـاوى - مكتب الرئيس فى واشنطن - كانت مؤكدة ومفصلة في رصدها للسقوط الكبير - فإن كافة أجهزة الإدارة الأمريكية حول البيت الأبيض، وفيها وزارة الدفاع (البنتاجون)، ووزارة الخـارجيـة، ووكالة الاستخبارات الأمريكية (C.I.A) ظلت تفرك جفونها تتأكد أن ما تراه هو الحقيقة، ثم كان أول همها وسعيها بعد أن ثبتت الرؤية إبداء اللهفة على مصير الترسانة النووية السوفيتية، والهرولة على عجل بعروض مساعدة على تأمينها (إزاء عمر افتراضى قارب أجله) - وخوفا من مجهول يمد أصابعه إلى زر أحمر مع لحظة مزاج انتحارى!

٤ - ومن المطلوب استعادة حقيقة لا يصح أن تغيب عن الاعتـبـار، وهى أن الصـراعات الكبرى بين إمبراطوريات التاريخ الكبرى - وحين تستحيل المواجهة المباشرة بالقوة - ترتبط نتائجها بمعادلة معروفة فى علم الصراع.

فـهى ليـست معادلة نصر أو هزيمة بالمعنى التقليدى، وإنما هى اختبار صبر وقدرة على الاحتمال.

(وتلك حكمة مأثورة فى الأدب العربى ترى «أن الشجاعة في القتال بين اثنين يقع حسمها عندما يصرخ أحدهما أولا!»).

فى مجال الخطاب، فإن أسلوب الكلمة الواحدة زاد واستفحل، لأن أى معترض على السياسة الأمريكية لاحقه وصف واحد يدمغه مـرة بأنه «شـيـوعى»، أو «إسلامى»، أو «إرهابى» كما أن أى رافض لهيمنـة واشنطن أعيـدت تسـميته بـ: «هتـلر» - أو «موسولينى» - أو «سـتالين» - أو «أسـامة بن لادن»

أى أن المعـول عليـه فى ختـام أى صراع بين طرفين منوط عند نهايته بمن يفقد إرادته قبل غيره، ومن يلحقه الوهن تاليا!

وقـد ترامت إلى أسماع واشنطن فى تلك الظروف صرختان بالألم صادرتان عن موسكو - تلاحقتا بفارق سنوات قليلة:

● صرخة من «جورباتشوف» بأنه لم يعد يستطيع!

● وصرخة ثانية من «يلتسين» بأنه فقد الأمل!

....

....

[بمعنى أن الطرف الأمريكى كان لديه - بدوره - مـا يدعـو إلى الصـراخ من مواجعه وآلامه، لكنه تحمل ولم يصرخ حتى سمع صرخة خصمه قبله، وبالفعل فقد حدث فى بداية التسعينيات - وكان «رونالد ريجان» قد ترك مكانه فى المكتب البيضاوى لنائبه «جورج بوش» (الأب) - أن الولايات المتحدة وجدت نفسها مثقلة ومستنزفة.

- فقد تبين لها أنها مدينة للعالم بما يزيد على مجمل إنتاجها السنوى (٥ تريليون دولار).

- وتحققت من أن اقتصادها فى عمومه تأثر بالضرر (بما جعل سقوط «جورج بوش» فى انتخابات الرئاسة الثانية محققا على أساس شعار أطلقه «بيل كلينتون» بـ «إنـه الاقتصاد يا غبى»).

- واكتشفت أن نظام التعليم الأمريكى تراجع فى جدول الأسبقية العـالمية من المكانة الأولى إلى المكانة السابعة عشرة.

- وتبدى لغيرها - ولها - أن لعبة السياسة - المعتمدة على الإعلان - بعد نصف قرن من الحرب الباردة - نزلت بمستوى الأداء وجعلته هو الآخر صورا متحركة تكلف مالا وتصنع خيالا. ولعل سطوة الإعلان وغوايته كانت من أهم العناصر التى هزمت رمادية «جورج بوش» (الأب)، إزاء الألوان الخـلابة (والفاضحة فيما بعد) لحيوية وشباب «بيل كلينتون».

- وأهم من ذلك كله فـإن الولايات المتحدة ظهرت خارجة من الحرب الباردة وقد استنزفت كثيـرا من أرصدتها السياسية (وأولها المصداقية)، كما استنزفت كثيرا من مدخراتها (وأهمها احتياطى الذهب فى فورت نوكس)، ثم إنها - وهذا هو الأخطر - أسرفت فى استعمال الطاقة حتى أصبحت مستوردة للبترول - بقرابة ٨٠٪ من احتياجاتها.

وكـان ذلك يقـتـضى مراجعة، ويلح في طلب حل،



وإلا فإن «إمبراطورية السوق» معرضة لإشهار إفلاسها].

....

....

٥ - ومن المطلوب - أيضا - استعادة مناخ التبرم والضيق والغيظ مما شعرت به الولايات المتحدة حيال حلفاء لها فى أوروبا اعتبروا انهيار الاتحاد السوفيتى انتصارا لهم، دون أن يتنبهوا بالقدر الكافى لنوازع الولايات المتحدة فى تلك اللحظة الفارقة. ذلك أنهم وهم يحتفلون بانتهاء الحرب الباردة وسقوط الاتحاد السوفيتى، لم يظهر عليهم (من وجهة النظر الأمريكية) إدراك لحقيقة أنهم يحتفلون بنصر لم يصنعوه، ولم يتحملوا تكاليفه، بل إنهم على العكس استفادوا على الحساب - من حيث إن الولايات المتحدة وفرت لهم طول الوقت عمليات إنقاذ متوالية ابتداءً من مشروع مارشال الذى أسعفهم فور انتهاء الحرب العالمية الثانية، وحتى ضبط أسعار بترول رخيص أتاحته لهم الولايات المتحدة من أسواق الشرق الأوسط التى استحوذت عليها. ثم إن هذا الدعم ظل متاحا حتى أعقاب حرب أكتوبر ١٩٧٣ عندما قفزت أسعار البترول، (وبعدها وقف الدكتور «هنرى كيسنجر» وزير خارجية الولايات المتحدة فى مؤتمر باريس لتدوير فوائض النفط العربى (١٩٧٤) قائلا لدول أوروبا «إن مشروع مارشال قد انتهى الآن وانتهى معه تطوع الولايات المتحدة بضمان سعر بترول رخيص كان لازما لعملية إنعاش أوروبا) - وعلى أى حال فإن هذا المزاج الأمريكى الصارم لم يطل أمده ولم يلبث سعر البترول أن نزل من ذُراه العالية ليتيح - مرة أخرى - وفرة طاقة رخيصة لأوروبا الغربية فى وقت دخلت الحرب الباردة فيه إلى مرحلتها الحاسمة مع النصف الثانى من السبعينيات وطول الثمانينيات.

وكانت بقية الدواعى الأمريكية إلى التبرم لدرجة الغيظ من الحلفاء الأوروبيين، «ظنها» أنهم عاشوا زمن الحرب الباردة فى أمان وفرته لهم مظلة نووية أمريكية تولت حمايتهم دون أن تكلفهم شيئا، وهذه المظلة لم تكفل لهم الأمن فحسب، وإنما كفلت لهم أن يتوفروا على صنع الثروة وتكديسها، وتجديد وسائل إنتاجهم وتطويرها، وتحسين خدماتهم والارتقاء بها وأولها التعليم. والآن هرعوا للاحتفال على حساب ما أنجزته أمريكا وحدها، ثم هم فوق ذلك يحاولون تلقينها درسا فى طرائق السلوك والتصرف، ويتبجحون بالرغبة فى اعتبار أنفسهم أقطابا دولية - أوروبية على قدم المساواة مع أمريكا.

وكان معظم الضيق إلى حد الغيظ موجها إلى فرنسا وألمانيا، وأما القوة الأخرى فى الثالوث الأوروبى وهى بريطانيا، فقد برئت من اللوم لأنها ألحقت نفسها مبكرا جدا بالولايات المتحدة - سواء بقرابة اللغة أو بلغة المصالح.

وكان الحلفاء الأوروبيون لأمريكا حاضرين دائما بردود تثير الخواطر أكثر مما تلطفها، فهم يعترفون بفضل المظلة النووية الأمريكية، لكنهم يضيفون أن هذه المظلة كانت أمنا لأمريكا بالدرجة الأولى، ثم إنها لم تكن بلا ثمن، لأن أوروبا أعطت الكثير وتحملت الأكثر سواء من غموض النوايا السوفيتية أو من تجاوزات القوة الأمريكية، ومع ذلك فإن أوروبا - فى الأول والآخر - كانت قابلة بدور متميز لأمريكا فى قيادة عالم ما بعد الحرب الباردة، ومنتهى طلبها شراكة في المستقبل متكافئة وليس إملاءً إمبراطوريا متعاليا، فهم ليسوا دول عالم ثالث، وإنما هم دول أقدم وأعرق، وثقافات أسبق فى الزمن وأعمق، وخبرة أسلم وأعقل!

ثم يضيف هؤلاء الحلفاء «أن أوروبا فى كل الأحوال لم تكن عبئا ثقيلا على الولايات المتحدة، ولم تكن هى التى أرهقت الموارد الأمريكية، وإنما أرهقها السباق الفضائى والنووى فيما أسماه «رونالد ريجان» «حرب النجوم»، ثم إن أوروبا لم تكن هى التى تسببت فى استنزاف مخزونات الذهب فى فورت نوكس، وإنما حسابات حرب فيتنام ورغبة الرئيس «جونسون» فى تمويل هذه الحرب بعيدا عن رقابة الكونجرس - وذلك ما أدى إلى تذويب السبائك الذهبية، وتسييل مخزونها المتراكم!

٦ - ومن المطلوب أخيرا فى هذا المفصل الدولى الهام، ملاحظة أن التبرم الأمريكى والضيق وصل جنوب البحر الأبيض المتوسط وشرقه بحيث طال أطرافا عربية متعددة، تحسب أنها تحمست وتطوعت لتحقيق التفرد الأمريكى بقمة العالم:

● فمن ناحية كانت هناك دول تظن أنها لعبت دورا هاما فى أفغانستان، حيث وقعت الضربة القاضية Coup de Grace ضد الاتحاد السوفيتى تحت رايات الجهاد الإسلامى المقدس الذى أرهق الجيش السوفيتى، ومرغ أنفه فى التراب وأوصل الدولة السوفيتية إلى قبرها تحت ذلك التراب.

● ومن ناحية ثانية دول أخرى تظن أنها لعبت دورا أساسيا فى وقت تقدم المد الإسلامى الذى مثلته الثورة الإيرانية، وأقامت ضده سدا هائلا مدعوما ماليا ومخابراتيا حتى أوقفته وحصرته، وبالتالى فإن العقيدة الشيوعية لم تركع أمام القنابل النووية للولايات المتحدة، وإنما أرغمتها على الركوع - تلك السيوف المشهرة للجهاد الإسلامى الذى وهب - بدوره - نصر الله للولايات المتحدة!

والآن كانت هذه الدول العربية على الناحيتين (الفريق الذى صد الزحف الشيوعى فى أفغانستان، أو الفريق الذى حصر التيار الإسلامى فى إيران) - تتقدم مطالبة بحقوق تعتبرها إنصافا وعدلا!

ولم تكن الولايات المتحدة على استعداد للاعتراف للطرفين بما قدما، ورأيها - بأثر رجعى! - أن هؤلاء العرب لا يستحقون منها مكافأة، فقد فعلوا ما فعلوا ووقفوا حيث وقفوا دفاعا عن مصالحهم الذاتية، وعن أمنهم قبل الأمن الأمريكى، وبالتالى لا تصح لهم بعد ذلك مطالبة بمستحقات متأخرة أو متقدمة.

ومن المفارقات أن بعض العرب لم يكونوا يطالبون بحق شراكة بإسهام ما قدموا، وإنما كان قصاراهم طلب الرعاية، وأول أملهم أن تكف الولايات المتحدة الأمريكية عنهم أذى إسرائيل وغرورها، مع العلم بأنهم لم يقصروا فى حق إسرائيل، فقد اعترفوا بها دون استثناء - واعترفوا كذلك بعلاقتها الخاصة بالولايات المتحدة، بل إنهم وبدون استثناء أيضا تعاملوا مع إسرائيل - بعضهم فى العلن وبعضهم فى السر - حتى تنفك العقد المتخلفة من القضية الفلسطينية بحيث تدارى أمام الناس وتستر، وحينئذ تكون العلاقات مع إسرائيل شمسا فى عز الظهر وقمرا بلغ ذروته وصار بدرا (وأكثر).

(والغريب أن القيادات العربية المعنية لم تدرك أنها بهذا النوع من «الأمل» تزكى إسرائيل وترفع من قدرها وأهمية دورها فى نظر الولايات المتحدة، لأن ما جاءوا يطلبونه بعد كل ما قدموا هو بعينه اعترافهم للولايات المتحدة بأنها لم تخطئ فى سياستها حين اعتمدت إسرائيل وكيلا لها فى المنطقة، وكانت على حق عندما استثمرت فى ذلك البلد ما استثمرته من مساعدات مدنية وعسكرية، لأن حساب التفوق الإسرائيلى أضيف فى النهاية إلى الأرصدة الأمريكية وزاد من قدرتها على ضبط تصرفات العرب رضى أو غصبا!). ■

«٣»

«المناقشة الكبرى» فى واشنطن

■ ■ بعد الاتفاق على ما يلزم الاتفاق عليه وبعده على المطلوب استعادته - فإن هناك لحظة تستحق التوقف أمامها لأنها - فى الحقيقة - توقيت ولادة هذا الإعصار الأمريكى العاتى الذى يضرب المنطقة العربية ويدوى الآن رعدا ويلمع برقا على آفاقها.

وكان هذا التوقيت بالضبط لحظة سقوط حائط برلين (٩ نوفمبر ١٩٨٩)، وما تداعى بعده من بشائر أو مخاطر، وتدفق طوفانا ذابت فيه جبال الجليد فوق تضاريس الحرب الباردة مرة واحدة.

كان «جورج بوش» (الأب) لحظتها - رئيسا للولايات المتحدة وقد وجد أمامه فرصة نادرة فى التاريخ، وعليه أن يتغلب على وساوسه الشخصية ويتقدم صفوف إدارته الجمهورية ويقود، وكان اعتقاد كثيرين أن «بوش» ظل حتى بعد سنتين من رئاسته يتحرك فى ظل سلفه «رونالد ريجان» الذى أدار المراحل الأخيرة من استراتيجية هزيمة الاتحاد السوفيتى بجرأة بلغت حد التهور بمشروع حرب النجوم، وذلك هو المشروع الذى أقنع «الكرملين» بعد طول مكابرة بأنه لم يعد قادرا على المضى إلى النهاية فى سباق السلاح، وأن الوقت حان لمواجهة الحقيقة حتى وإن كانت فى مرارة العلقم أو لسع النار.

وفى ممارسة «جورج بوش» لمسئوليته فرصة نادرة وجدها أمامه، فإنه وجه الدعوة إلى مجلس الأمن القومى الأمريكى لعقد سلسلة من الاجتماعات، مهمتها مواجهة موقف مستجد وطارئ - حاسم وفاصل فى مستقبل الولايات المتحدة الأمريكية - ومستقبل العالم.

وكان بين حضور الاجتماع رجال مازالوا من أهم راسمى السياسات وصُناع القرارات فى واشنطن - من تلك اللحظة سنة ١٩٨٩، وحتى هذه اللحظة (أبريل ٢٠٠٣)، وضمنهم:

- «جيمس بيكر» وهو وقتها وزير

الخارجية (وفيما بعد مسئول الحملة الانتخابية لبوش (الابن) وإن لم يقبل بالمشاركة فى إدارته).

ـ و«برنت سكوكروفت» وهو وقتها مستشار الرئيس للأمن القومى (وقد آثر هو الآخر أن لا يشارك فى إدارة بوش (الابن) دون أن يفصح عن أسبابه).

ـ و«ريتشارد تشينى» وهو وزير الدفاع حينئذ (والآن نائب الرئيس).

ـ و«دونالد رامسفيلد» وهو أيامها وزير دفاع سابق مع «ريجان» (والآن وزير الدفاع مرة ثانية).

ـ و«كولين باول» وهو رئيس أركان الحرب حينئذ (والآن وزير الخارجية).

ـ و«ريتشارد بيرل» وهو نائب وزير الدفاع (والآن مسئول هيئة وضع السياسات الاستراتيجية فى مجلس الأمن القومى فى البيت الأبيض، ولقبه الشائع فى الإدارة هو «أمير الظلام» (Prince of Darkness)).

ـ و«بول وولفويتز» وهو مساعد وزير الخارجية حينئذ (والآن مساعد وزير الدفاع).

ـ و«ريتشارد أرميتاج» وهو سكرتير مجلس الأمن القومى حينئذ (والآن مساعد وزير الخارجية).

ـ و«جيمس وولسلى» وهو مدير وكالة المخابرات المركزية حينئذ (والآن مستشار الرئيس لمكافحة الإرهاب).

وغيرهم كثيرون كانوا فى المواقع المؤثرة والحساسة لإدارة «رونالد ريجان»، وانتقلوا منها إلى إدارة «جورج بوش» (الأب) ووصلوا أخيرا إلى إدارة «بوش» (الابن)، كأن الزمن لم يتغير، وكأن رئاسة «بيل كلينتون» لم تقع ولم تتصل ثمانى سنوات، ووصل «كارل روفر» وهو كبير مستشارى البيت الأبيض (وأقوى رجل فى المقر الرئاسى اليوم) ـ إلى حد وصف رئاسة «بيل كلينتون» بأنها كانت «فاصلا جنسيا»، تخلل عهدين لرئيسين اسمهما «بوش»! (مع ملاحظة أن ترجمة كلمة «بوش» Bushإلى العربية هى: الخميلة أو الغابة الصغيرة!).

فى ذلك الوقت من رئاسة بوش (الأب): عقد مجلس الأمن القومى الأمريكى خمسة اجتماعات متوالية على مساحة ثلاثة شهور ما بين أواخر سنة ١٩٨٩ وأوائل سنة ١٩٩٠، ثلاثة منها داخل البيت الأبيض فى واشنطن، واثنان داخل المنتجع الرئاسى «كامب دافيد»، وفيما بين الاجتماعات تواصلت لقاءات «مجموعات العمل» الخاصة التى كُلِّفت بالغوص إلى العمق فى تفاصيل القضايا التى تناولتها مناقشات الرئيس وكبار مساعديه، وهى اجتماعات ولقاءات أُطلق عليها فيما بعد وصف «المناقشة الكبرى» «The Great Debate»، إقرارا بأهميتها عند مفترق طرق أساسى تتحدد فيه وتتقرر سياسات أمريكا فى القرن الحادى والعشرين. ولم تكن موضوعات هذه «المناقشة الكُبرى» سرا، بل إن الكثير من أوراقها ومداولاتها مع شهادات بعض المشاركين الكبار فيها ـ خرج ليرسم صورة شبه كاملة لما دار حوله البحث وترتبت النتائج.

وبصفة أولية فقد كانت لهذه الاجتماعات واللقاءات ـ نقطة بداية سبقت ونقطة وصول لحقت.

● نقطة البداية التى سبقت ـ هى الإقرار بأن السياسة الأمريكية تمكنت بعد نصف قرن من تنفيذ التوجيه الرئاسى «رقم ٦٨ لسنة ١٩٥٠» (وهو توجيه صاغه الخبير الاستراتيجى الأشهر «بول نيتزى» وقدمه إلى «دين أتشيسون» وزير الخارجية الذى وضعه أمام الرئيس «هارى ترومان» مع طلب توقيعه واعتماده) ـ وكان نص مقدمة هذا التوجيه يقول:

«إن الهدف الاستراتيجى لسياسة الولايات المتحدة يتحدد فى تدمير الاتحاد السوفيتى، وتحقيق تفوق عسكرى أمريكى كامل عليه!».

● و«نقطة الوصول» التى لحقت ـ أن هناك الآن مشروع توجيه رئاسى جديد تولت صياغته لجنة خاصة رأسها «ريتشارد بيرل» وفيه بالنص:

«إن الولايات المتحدة الأمريكية بعد أن توصلت إلى تحقيق هدفها المطلوب بالتوجيه الرئاسى رقم ٦٨ لسنة ١٩٥٠، على امتداد أربعين سنة من الحرب الباردة، ووصلت إلى تفوق اقتصادى وعسكرى غالب ـ عليها عند هذا المفصل التاريخى أن تضع وتنفذ السياسات الكفيلة بضمان استمرار القوة الأمريكية غالبة، وبحيث تظل إرادتها غير قابلة للتحدى ودورها غير قابل للمنافسة!».

وفيما بين نقطة البداية التى سبقت، وحتى نقطة الوصول التى لحقت، وفى التطلع إلى المستقبل ـ وهو هذه اللحظة أُفق واسع وليس مجرد نقطة على أفق ـ وجد المكلفون بالأمن القومى أنفسهم أمام مجموعة اعتبارات أساسية طرحت ضروراتها على المناقشة الكُبرى.

وكانت هذه الاعتبارات الأساسية قائمة طويلة:

١ ـ منذ كان الرئيس «كارتر» فى البيت الأبيض سعى مستشاره «زبجنيو برجينسكى» إلى تشكيل هيئة من أربعمائة خبير يرأسهم «بول نيتزى» (ذاته)، مهمتها التحضير للسيناريوهات المحتملة لنهاية الاتحاد السوفيتى والاستعداد لعواقبها كيفما تجىء، وكان «برجينسكى» يرى نهاية الاتحاد السوفيتى قادمة (فى وقت ما من بداية القرن الحادى والعشرين!).

وكانت معظم السيناريوهات المحتملة للنهاية تتحسب لمغامرة حرب مسلحة، أو مفاجأة انقلاب، أو محنة فتنة أهلية ـ لكنه لا يبدو أن أحدا توقع أن تجىء هذه النهاية بسكتة قلبية هادئة وسلمية، مستعدة للنهاية دون محاولة إنقاذ ولو بالصدمة الكهربائية، سواء قام بها الحزب الشيوعى أو الجيش الأحمر، والمثير لدهشة الجميع فى واشنطن أنه بدا فى بعض اللحظات وكأن كل الأطراف فى الداخل السوفيتى حريصون على «سرعة تكفين الميت ودفنه» ـ أكثر من حرصهم على إنعاش قلبه واسترجاع نبضه.

وهنا فإن تلك التصورات المدروسة مقدما واحتمالاتها المتوقعة سلفا ـ لم يعد لها داع أو نفع، وكانت تلك أكبر المفاجآت فى قائمة الحقائق الأساسية المطروحة على المناقشة الكُبرى.

٢ ـ ثم لاحظ الجميع فى واشنطن أن مستشار ألمانيا «هيلموت كول» تحرك بسرعة مستغلا فرصة سقوط حائط برلين، ليطرح مطلب «وحدة ألمانيا»، ومع أن الولايات المتحدة الأمريكية ظلت حتى اللحظة الأخيرة تأمل أن تكون مقاومة الوحدة الألمانية آخر معركة يخوضها الاتحاد السوفيتى قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة ـ فإن المستشار «كول» فاجأ الكل حين عرض مبلغ ثلاثين بليون دولار على الاتحاد السوفيتى المُفْلس مقابل أن لا يعترض أو يعارض وحدة ألمانيا، وقد رضى «جورباتشوف» بالصفقة، وأمله أن هذه الجرعة من السيولة تخفف من وجع السقوط، وبالتالى فإن القول الفصل بعد الرضى السوفيتى عاد إلى واشنطن. وطار «كول» إلى العاصمة الأمريكية التى لم يعد لديها عذر مقبول لرفض الوحدة الألمانية، وهى فى صميم القلب لا تريدها، مخافة أن تكون مقدمة لبعث ألمانيا ـ أو تجديد مشروع الرايخ الكبير ـ أو ترسيخ قوة أوروبا كمنافس محتمل وقادر على عرقلة السيطرة الأمريكية المطلوبة والمستهدفة.

على أن البيت الأبيض اضطر للموافقة على مضض ـ لأنه لم تكن لديه سياسيا ذريعة مقبولة للاعتراض ـ وقد بقى رجاؤه أن الوحدة الألمانية ربما تخيف فرنسا أكثر مما تقلق أمريكا، وربما تزعج بريطانيا أكثر مما تهدد أمريكا، وذلك يؤدى إلى انقسام أوروبا أكثر من ترسيخ لقوتها، وإلى جانب ذلك (هكذا التقدير الأمريكى) ـ فإن ألمانيا الغربية سوف ترهق مواردها بأكثر مما تتصور فى تحقيق الوحدة، حين تتكلف ما هو فوق طاقتها لرفع مستوى ألمانيا الشرقية إلى مستوى ألمانيا الغربية، وهذه عملية استنزاف اقتصادى وسياسى مهولة، وهى بالتأكيد كافية لإرباك ألمانيا الموحدة عشرين سنة على الأقل (وذلك صحيح إلى حد كبير).

والخلاصة هنا أن الولايات المتحدة وافقت على مضض، عارفة أن هناك ـ ربما ـ مشاكل قادمة مع ألمانيا (أو مع أوروبا) ـ لكن هذه المشاكل مؤجلة إلى مدى غير منظور.

٣ ـ أن هناك دواعى للخلل خطرة تتعلق بالأحوال الأمريكية ذاتها، وكلها تقتضى علاجا

كانت معظم السيناريوهات المحتملة لنهاية الاتحاد السوفيتى تتحسب لمغامرة حرب مسلحة، أو مفاجأة انقلاب، أو محنة فتنة أهلية ـ لكنه لا يبدو أن أحدا توقع أن تجىء هذه النهاية بسكتة قلبية هادئة وسلمية

هذا الإعصار الأمريكي



يحتاج إلى جهود مركزة، فأوضاع الولايات المتحدة هذه اللحظة مضطربة في مجالات عديدة:

- فهي مرهقة اقتصاديا بقسوة، حتى أنها الآن أكبر مدين في العالم.

- وهي مجروحة - على الأقل نفسيا - من تأثير هزيمة فيتنام التي لم تشف بعد جراحها.

- وهي مشوهة في صورتها العالمية من كثرة الحملات التي وجهت إلى سياساتها في العالم الثالث وفي أوروبا أيضا!

- وأخيرا فهي مكشوفة في هيبتها، وبعضه من سوء صورة عدد من رؤسائها، خصوصا بعد فضيحة «ووترجيت»، وقد ترتب عليها عزل رئيس أمريكي لأول مرة في القرن العشرين (ريتشارد نيكسون).

والمعنى أن الولايات المتحدة هذه اللحظة كانت أشد ما تكون في حاجة إلى عملية ترميم شامل للقوة، لأن قيادة العالم نحو عصر من السلام الأمريكي Paxa Americana مهمة يصعب تحقيقها بالسلاح وحده، أو بسباق فضائي أو نووي ضد طرف منافس - أو بكل ما تقدر عليه فنون الإعلان مهما بلغت مهاراتها - أو ببرامج للمساعدة تماثل مشروع «مارشال» الذي اشترت به الولايات المتحدة صدارتها لحلف الأطلنطي، كما فعلت بعد الحرب العالمية الثانية - والسبب حسابي بحت، ففي تجربة مشروع «مارشال» كانت المساعدات المقدرة لأوروبا الغربية حتى تستأنف تشغيل طاقاتها - مساعدات محدودة أو محددة، وهي في مقدور أمريكا التي خرجت من الحرب العالمية الثانية بأكبر مخزون ذهب في العالم - وأما الآن فإن مجتمع الدول كله ينتظر مكافآت الحرب الباردة، وأمريكا لا تستطيع الوفاء بها، وأخطر من ذلك فإن طالبي المساعدة - خصوصا في العالم الثالث - لم ينشئوا بعد طاقاتهم القادرة على «تنمية ولادة للتنمية»، ومن ثم فإن حاجتهم إلى المساعدات ضخمة وأجلها ممتد، وكل ذلك غير مطروح لأنه غير متاح في هذا الوقت!

٤ - أن هناك شبح خطر يلوح على الأفق وهو خطر نفاد مصادر الطاقة المتوافرة للعالم هذه اللحظة، ودواعي هذا الخطر متعددة:

- أبرزها أن البترول لا يزال عماد الطاقة المحركة في أمريكا وفي العالم.

- والبترول مورد يستنفد طبيعيا بتزايد استهلاكه سنة بعد سنة، خصوصا في الولايات المتحدة، وهو بلد وقع في «غرام الكهرباء والسيارة والطائرة»، وكلها «بالوعات شرهة للنفط».

- وكانت الولايات المتحدة منذ صدمة ارتفاع أسعار البترول سنة ١٩٧٣ - ١٩٧٤ - تسعى إلى بدائل أخرى (كالطاقة النووية وحرارة الشمس، وقوة الريح، وتدافع الموج)، لكن هذه البدائل لم تصنع معجزاتها المتوقعة، رغم ما تدفق عليها من استثمارات.

- والآن فإن الولايات المتحدة عليها واجب الاحتفاظ بما لديها من احتياطيات النفط، مقابل الاعتماد في استهلاكها على ما تستورده عبر المحيطات، ومؤدى ذلك أنها سوف تستورد كل يوم ٢٠ مليون برميل من النفط، وذلك عبء اقتصادي وأمني وسياسي ثقيل.

لكن الولايات المتحدة ليس أمامها غير أن تتحمل هذا العبء الثقيل، لأنه مسألة «حياة أو موت» - مع مواصلة البحث عن اختراق علمي يتوصل إلى مصدر آخر للطاقة - أو مصادر - لا تنفد. ومعنى ذلك أن الولايات المتحدة التي اعتمدت على «سباق السلاح» وعلى «التقدم التكنولوجي» في الحرب الباردة، لم يبق أمامها الآن - وحتى تكسب معركة السيادة على العالم - إلا أن تدخل في سباق من أجل السيطرة على النفط مهما تكن الوسائل!

- ومن الواضح إلى درجة اليقين أن الشرق الأوسط بقي مصدر أكبر إمدادات النفط، وأكبر مكمن للاحتياطيات المحققة منه، فهذه المنطقة وفيها السعودية والعراق وإيران وإمارات الخليج - وبالقرب منها شطآن بحر قزوين - مخزن أكثر من سبعين في المائة من النفط الموجود بيقين تحت سطح الأرض.

والمشكلة العويصة أن هذه المنطقة هي في ذات اللحظة أكثر بقاع العالم تأزما وتوترا: بسبب الصراع العربي الإسرائيلي وتعقيداته - وبسبب الثورة الإسلامية في إيران وسخونتها - وبسبب تردي الأوضاع السياسية في شبه الجزيرة العربية - وبسبب الوهن الذي لحق بالدول المؤثرة في هذه المنطقة تقليديا.

وكانت الولايات المتحدة في مرحلة السبعينيات والثمانينيات - على استعداد للسكوت، لكن المسألة باتت أكثر تعقيدا، لأن استهلاك البترول يتزايد (دون بديل)، ولأن الاستمرار في اضطراب الأسعار يربك الدول الصناعية (ويستنزف الفوائض والعوائد).

- وعليه فإنه لا مفر من أن تكون منطقة الشرق الأوسط - وليس غيرها - مجال الاختبار الأمريكي الحاسم، مع ملاحظة أن أوروبا منافس على البترول باعتبارها قارة تتشكل من جديد على أساس سوق مشتركة، ثم إن آسيا مستهلك قادم يطالب بزيادة نصيبه من الطاقة، فهناك كتل بشرية هائلة تستعد لدخول سوق النفط بشهية متزايدة مثل الصين والهند.

وعلى هذا الأساس كانت الولايات المتحدة تدرك أن الشرق الأوسط يحتاج إلى عمليتين متوازيتين:

● الأولى: تسكين الأطراف المنتجة للبترول كل منها في مربع لا تتجاوزه، وذلك يتطلب:

- تثبيت الأوضاع في السعودية ودول الخليج.

- وترويض الجموح الإسلامي في إيران.

- والتعامل مع عراق خرج من حربه مع إيران مرهقا يطلب تعويضا عن حرب استنزفته ثماني سنوات لوقف المد الإسلامي الصادر عن إيران، وحجز تأثيراته، خصوصا عن منطقة الخليج.

● والثانية: إيجاد حل للصراع العربي الإسرائيلي، وهو بؤرة التوتر في الشرق الأوسط ومحرك الغضب لدى الشعوب العربية، وهي في قلب الشرق الأوسط (والمقصود تخفيف احتقان أعصابها).

وحتى ربيع سنة ١٩٩٠ (رئاسة «بوش» الأب) - كانت «المناقشة الكبرى» مازالت جارية في واشنطن تتجاذبها الاجتهادات والتقديرات، وفي ذلك الوقت ظهر في مجلس الأمن القومي رأيان:

١ - رأي يمثله «الحمائم» من دعاة التحفظ (وزير الخارجية «بيكر» - ومستشار الأمن القومي «سكوكروفت» - ورئيس الأركان «باول»)، ومجمله «أن السيادة الأمريكية المطلقة على العالم مستحيلة، والأفضل منها قبول سيادة نسبية تسمح بوجود شركاء آخرين بأنصبة محدودة، خصوصا مع الأوروبيين - وفي إطار حلف الأطلنطي بعد إعادة تنظيمه بقيادة الولايات المتحدة بطريقة تتناسب أكثر مع ضرورات ما بعد الحرب الباردة.

٢ - ورأي آخر يمثله «الصقور» دعاة الاندفاع، ومنطقهم «أن الولايات المتحدة لم تتحمل - وحدها - بمسئوليات الحرب الباردة وأعبائها، لكي تقبل الآن شراكة تزاحمها على جوائز النصر، خصوصا من أوروبا التي غازلت الاتحاد السوفيتي (كما فعلت فرنسا على عهد «ديجول» وخلفائه) - أو حاولت استرضاءه (كما فعلت ألمانيا بسياسة التوجه شرقا كما حدث أيام المستشار «ويلي برانت» ومن حذوا حذوه حتى «هيلموت كول»)».

٣ - ثم إن الموقع الأكثر سخونة في العالم الجديد وهو الشرق الأوسط مفتوح بالكامل أمام الولايات المتحدة، «بما في ذلك أن كافة الأطراف فيه يطلبونها بالتخصيص ولا يعبأون بغيرها (باعتبار أن العرب يأملون في ضغط أمريكي على إسرائيل في حل لقضية فلسطين، ولا يعولون كثيرا على أوروبا، بل ويرفضون الاعتراف لها بدور مؤثر) - ثم إن النفوذ الأمريكي في الخليج بأسره طارد لغيره - كما أن النفط وهو عماد أي مستقبل موجود فعلا في حوزة شركات أمريكية عاملة في المنطقة، والشاهد أن الدول المؤثرة في الإقليم، وأهمها مصر وتركيا (وبالطبع إسرائيل) - تتسابق فيما بينها على الحظوة في واشنطن ولا تطلب غير الرضا والقبول».

من الواضح إلى درجة اليقين أن الشرق الأوسط بقي مصدر أكبر إمدادات النفط، وأكبر مكمن للاحتياطيات المحققة منه، فهذه المنطقة وفيها السعودية والعراق وإيران وإمارات الخليج. وبالقرب منها شطآن بحر قزوين. مخزن أكثر من سبعين في المائة من النفط الموجود بيقين تحت سطح الأرض

وإذن (كذلك رأى الصقور) - فإن الولايات المتحدة ليس لها الحق إذا ترددت، وليس لها العذر إذا تخلت.

وكانت المناقشات في مجلس الأمن القومي لاتزال محتدمة - بينما مختلف الأجهزة الأمريكية السياسية والأمنية في المنطقة - بضرورات الاستمرار في الإدارة - تمارس مهامها على مسئوليتها حتى يبلغها قرار نهائي.

وطالت المناقشات بين الحمائم والصقور، وطال الجدل بين التحفظ والاندفاع، وحلت في المنطقة حالة ارتباك شديدة بين سياسات تنتظر قرارات من واشنطن - وبين أجهزة سياسية وأمنية تتحرك وفق اجتهادها على الأرض في منطقة الشرق الأوسط، وسط أجواء شديدة الفوران (بعد انتهاء الحرب الباردة، واختفاء العدو السوفيتي التقليدي الذي تصدى أربعين سنة وأكثر) - كل ذلك مع تصورات أطراف خطر لها أن أمامها فرصا متاحة لكسب أرض جديدة ومواقع أكثر تقدما.

وفي هذه اللحظة بالتحديد وقع خطأ الحسابات في بغداد، فجر يوم أول أغسطس سنة ١٩٩٠ حين قررت القيادة العراقية ضم الكويت، ليصبح المحافظة التاسعة عشرة للعراق، ولم يكن القرار في حقيقته مجرد قيام بلد عربي باجتياح حدود بلد عربي آخر (مهما كانت الذرائع)، وإنما كان جوهر الحقيقة أن خطا أحمر وقع تجاوزه، وفي مناخ لا يسمح لطرف بالتجاوز، وفي ساعة مفتوحة لكل الاحتمالات!

٤

ذلك الخط على الرمل سنة ١٩٩٠

....

....

[سمعت رئيسة الوزارة البريطانية «مارجريت تاتشر» أكثر من مرة تحكي عن دورها الحاسم في تشجيع الرئيس الأمريكي «جورج بوش» (الأب) على الوقوف بحزم في وجه الغزو العراقي للكويت، وكيف أن ضغطها عليه بشدة وصل - إلى درجة التأنيب - عندما لاحظت تردده (كذلك قالت) - حتى يرسم خطه المشهور على الرمل قائلا: «إن ذلك لا يمكن قبوله!» (يقصد غزو الكويت).

وفي رواية «مارجريت تاتشر» أنها كانت يوم ٢ أغسطس ١٩٩٠ على موعد للقاء «جورج بوش» في إطار مؤتمر مُغلق (أمريكي - بريطاني) ينسق الاستراتيجيات ويرتب الخطط بين البلدين، وكان المقرر عقد هذا المؤتمر في منتجع «آسبن» على سفوح مرتفعات كلورادو، وعندما عَرِفَتْ «مارجريت تاتشر» نبأ الغزو العراقي للكويت ساورها الظن بأن «جورج بوش» ربما يقرر البقاء في واشنطن لمتابعة الأزمة الطارئة، وكذلك سارعت إلى الاتصال به تقول له (وفق روايتها) ما يكاد نصه أن يكون:

«جورج - لا تؤجل مجيئك إلى هنا مهما نصحك مستشاروك، فلا يصح أن يظن الرأي العام العالمي أن «طاغية شرقيا» أرغم رئيس الولايات المتحدة على التزام مكتبه وتأجيل ارتباطاته، عليك أن تضع الأمور في حجمها المناسب لها، فضلا عن أن ما جرى في الشرق الأوسط موضوع لابد لنا أن نبحثه سويا، وقد كنت على استعداد أن أطير إلى واشنطن للقائك، لكني عدلت لنفس السبب، وهو أن لا يظن أحد أنه أرغمنا جميعا على تغيير جدول أعمالنا».

وتستطرد «مارجريت تاتشر» «أن جورج جاء إلى آسبن، وجلسنا معا وأحسست أنه «مخضرض» وأن ركبه «سائبة» Wobbly، وبعد ساعة ونصف الساعة تمالك «جورج» نفسه وأكد لي «أنه سوف يضرب بكل قوته» - وأكدت له أننا معه!».

وتستطرد «مارجريت تاتشر» في روايتها قائلة «أنها كانت تقدر مبكرا أن هناك في الغرب خصوصا «أصدقاءنا عبر المانش في باريس» (تقصد الرئيس الفرنسي «فرانسوا ميتران» أيامها) - سوف يدعون الحكمة، ويطلبون الانتظار، ناسين درس «هتلر» و«موسوليني» في أوروبا (قبل الحرب العالمية الثانية) - لكي يستأنفوا إدمانهم لسياسة التهدئة، وأما هي فلم تكن - ولا تزال - من الرافضين لهذه السياسة إزاء العدوان، واعتقادها أن السكوت مرة معناه السكوت كل مرة وإلى آخر المشوار، لأن شهية الغزو تنفتح أكثر حين يهضم ما أكل - ويعود مطالبا بالمزيد!»].

....

....

والواقع - كما أظهرت الوثائق والشهادات الحية لاحقا - أن «مارجريت تاتشر» كانت مبالغة (أو على الأقل متفائلة) في حجم الدور الذي لعبته في تشجيع «جورج بوش» (الأب) على التصدي بالقوة لاحتلال الكويت.

والحاصل أنه بصرف النظر عن كل الخطوط الحمراء التي اجتازها العراق فجر أول أغسطس ١٩٩٠، حين اقتحم الأرض المحظورة لمواقع النفط في الخليج - أن «جورج بوش» لم يكن مُفاجأ بالدخول العراقي إلى الكويت، بل لعل العراق - بذاته وصفاته - لم يكن تلك اللحظة بعيدا عن أفكار مستشاري البيت الأبيض ولا عن تصوراتهم لشكل المستقبل في القرن الحادي والعشرين، الذي كان قرنا لابد له في تقديرهم - وبأي ثمن - أن يظل قرنا أمريكيا تنفرد فيه أمريكا بالسيطرة على العالم - ولأول مرة - دون شريك.

● ومن ناحية أن البيت الأبيض لم يفاجأ، فمن المؤكد الآن أن الأجهزة الأمريكية المعنية - وضمنها وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، والمخابرات العسكرية، ومكتب استطلاع القيادة المركزية التي يقودها الجنرال «نورمان شفارتز كوبف» - كانت تتابع تحركات القوات العراقية، وترصد تقدم فرق الحرس الجمهوري لاتخاذ أوضاع هجومية حول منطقة البصرة، وكانت تلك الصورة كافية لتظهر بجلاء أن هناك نية، وأن هذه النية على وشك أن تتحول إلى خطة لاحتلال الكويت.

واتصل رئيس الأركان «كولين باول» بالبيت الأبيض - يوم ٢٥ يوليو ١٩٩٠ - يتشاور مع مستشار الأمن القومي للرئيس «برنت سكوكروفت»، فيما إذا كان الأوفق تكليف السفيرة الأمريكية في بغداد «أبريل جلاسبي» بطلب مقابلة عاجلة مع الرئيس العراقي، حتى تلفت نظره بتحذير مبكر إلى التزام أمريكي بحماية الكويت لكي يراجع حساباته، لكن «سكوكروفت» عاود الاتصال برئيس الأركان يبلغه بما استقر عليه الرأي بين مستشاري الرئيس وهو أن أي تحذير مبكر «للعراقيين» لا داعي له، وأن القرار هو الانتظار «حتى نرى ما سوف يفعلون ثم نتصرف بما نجده مناسبا!».

ومن الغريب أن «أبريل جلاسبي» - ذات اللحظة - كانت تنقل إلى الرئيس «صدام حسين» رسالة مرتبكة لعلها (إذا جرى استبعاد نظرية المؤامرة) أن تعكس حالة اللاقرار التي كانت سائدة في الإدارة الأمريكية إزاء مشهد سقوط الاتحاد السوفيتي، وبالطريقة التي جرى بها ذلك السقوط وتداعياته، وأولها كيف يمكن للإمبراطورية الأمريكية أن تستغله لحسابها؟!

● ومن الناحية الثانية فإن العراق بذاته وصفاته لم يكن بعيدا تلك اللحظة عن أفكار مستشاري الرئيس «بوش» (الأب) وتصوراتهم لشكل المستقبل في القرن الحادي والعشرين.

والواقع أن العراق بذاته وصفاته كان متداخلا بشدة في مسار مناقشات مجلس الأمن القومي واجتماعاته الخمسة (أواخر سنة ١٩٨٩ وأوائل سنة ١٩٩٠) - بل وكان حاضرا قبل ذلك في مناقشات لجنة الأربعمائة خبير التي درست احتمالات سقوط الاتحاد السوفيتي وحاولت أن تتحسب لعواقب هذا السقوط.

وبالتحديد فإن العراق كان داخلا في عديد من الاعتبارات التي طرحتها المناقشات:

- كان بالطبع داخلا في قضية النفط وضرورة السيطرة الكاملة على منابعه وإنتاجه (فالعراق وحده يملك ١١٣ بليون برميل من البترول المؤكد، أي ١١٪ من الاحتياطي العالمي، ولديه فيما هو مرصود ٧٠ حقلا لم يستثمر منها غير ١٥ - مما جعل وزارة الطاقة في الولايات المتحدة ترفع حجم الاحتياطيات العراقية - في تقديراتها السرية - إلى ٢٢٠ بليون برميل أي أكثر من ضعف ما هو محسوب عالميا أو مرصود.

- وكان العراق طرفا نشيطا في ظاهرة الغضب



الإقليمى. فقد خرج من حرب طالت ثمانى سنوات مع إيران، متصورا أن الغرب الذى ناصره فى التصدى للمد الثورى الإسلامى فى إيران (رغم أن هذا الغرب نفسه قاوم الاتحاد السوفيتى بسلاح الجهاد الإسلامى فى افغانستان) ـ توقف عن مساعدته، ثم إن الدول العربية ـ خصوصا دول الخليج ـ وهى أول وأشد محرضيه على التصدى لإيران، تركته بعد أن أرهق طاقاته وانصرفت تركز على مصالحها.

ـ وكان العراق داخلا فى قضية أمن إسرائيل، لأنه بسبب عدم وجود حدود بينه وبين إسرائيل ـ لم يلزم نفسه باتفاقية هدنة، ولم يدخل فى مفاوضات سلام، بل على العكس فإنه اتخذ أكثر المواقف تشددا إزاء أى محاولة لتسوية الصراع العربى الإسرائيلى، وفوق ذلك فإن ضغط العراق كان محسوسا على سوريا، لمنعها من اللحاق بمصر إلى عقد اتفاقية صلح مع الدولة اليهودية.

ـ وكان العراق ـ أولا وأخيرا ـ طرفا رئيسيا فى قضية تكدس السلاح فى منطقة الشرق الأوسط، لأن الولايات المتحدة اعتبرت أن الثورة الإسلامية فى إيران التى أطاحت بنظام الشاه ـ وهو أقرب الأصدقاء إلى أمريكا وإسرائيل ـ ضربة قاسية لها، ومن ثم فإنها لم تدخر جهدا فى تسهيل تسليح العراق حتى يستطيع صد المد الإسلامى الإيرانى، ومعاقبة ثورة «الخُمينى» وجموحها الجارف.

....

....

[والحاصل أن الاستراتيجية الأمريكية سعت إلى ضرب إيران بالعراق، والعراق بإيران، وقصدها استهلاك قوة بلدين لا يمكن الاطمئنان إليهما معا على المدى الطويل، وكانت تلك السياسة هى التى سميت فيما بعد بسياسة «الاحتواء المزدوج»، وقد عبر عنها «هنرى كيسنجر» بقوله: «هذه أول حرب فى التاريخ أتمنى أن لا يخرج بعدها منتصر، وإنما يخرج طرفاها وكلاهما مهزوم!».

أى أن سياسة الولايات المتحدة فى تلك الحرب كانت زيادة تأجيج النار وتزويدها بوقود جديد كلما هدأ الحريق].

....

....

[والغريب أن كثيرين لم يلتفتوا بالقدر الكافى إلى الداعى الذى دفع الإدارة الأمريكية فى عهد «بوش» (الابن) (٨ نوفمبر ٢٠٠٢) إلى خطف تقرير العراق المقدم لمفتشى الأمم المتحدة عما بقى لديه من أسلحة الدمار الشامل، وكان السبب هو أن الإدارة الأمريكية أرادت أن تحذف من التقرير كل إشارة إلى أن أكثر من ٢٥ شركة أمريكية عملاقة تولت توريد معظم هذه الأنواع من أسلحة الدمار الشامل إلى العراق أثناء حربها ضد إيران!].

....

....

ـ وكان العراق بعد ذلك داخلا فى قضية القلق الإسرائيلى من درجة «المعرفة العربية» بأسرار صنع وإنتاج أسلحة الدمار الشامل (أكثر من الاهتمام بما هو موجود فعلا من هذه الأسلحة) ـ لأن هاجس إسرائيل الدائم كان إقصاء كل طرف عربى عن «علوم وتكنولوجيا» إنتاج الأسلحة المتطورة.

وأمام اجتماعات مجلس الأمن القومى برئاسة «جورج بوش» (الأب) ـ كان هناك سيل من تحذيرات إسرائيلية تبدى القلق مما يجرى فى مصانع العراق ومعامله، وتلح على ضرورة اتخاذ إجراء حياله، باعتباره «خطرا محتملا فى المستقبل، حتى وإن لم يكن هذه اللحظة الدقيقة «خطرا متيقنا»!».

وطوال الفترة ما بين دخول العراق إلى الكويت أول أغسطس ١٩٩٠، وحتى خروجه منها فى فبراير سنة ١٩٩١، كان «جورج بوش» وأركان إدارته يشعرون أنهم على أول الطريق المؤدى بهم إلى تأكيد أن القرن الحادى والعشرين سوف يكون ـ قرن أمريكيا!

وكانت التجربة الإمبراطورية الجديدة ـ استعدادا للقرن الأمريكى الجديد (الحادى والعشرين) ـ فريدة من نوعها، فقد قابلت فرصتها، وساعدها أن الفرصة واتتها ـ ومع الفرصة قضية.

فهى أولا قضية البترول مباشرة.

وهى ثانيا قضية خلل فى الحسابات وقع فى المكان الخطأ والمناخ الخطأ والزمان الخطأ.

بمعنى أن الولايات المتحدة كانت تفكر فى أمر العراق بالتحديد، ثم إنها حامت حوله وقابلت فرصتها عندما ظهر العراق أمامها على الناحية الأخرى من خط الرمل وليس معه غير كتل من الجماهير المحبطة باحثة فى التيه عن علم، ناظرة إلى النجوم على أمل ـ وكانت إدارة «جورج بوش» (الأب) مصممة أن لا يفلت منها طرف الخيط الذى أمسكت به، وهنا فإن جهدها تحرك على عدة محاور:

● المحور الأول ـ الاستفادة من صدمة غالبية العرب ـ على المستوى الرسمى والشعبى ـ بمفاجأة غزو الكويت، وهنا فإنها بادرت إلى استغلال هذا الشعور لتثبت أرضية عربية تؤسس لمشروعية ضرب العراق. وكان المطلوب هو الإسراع بتجهيز هذه الأرضية قبل أن يتبدد أثر الصدمة، أو يراجع العراق تصرفه عندما يرى النذر، أو يتمكن من تحويل الأغلبية التى تعارض تصرفه إلى أغلبية تسكت عليه بأمل أن تتمكن القدرة العراقية المتضخمة من دور فاعل فى الصراع مع إسرائيل.

● وكان المحور الثانى التأكد ـ وقد دخل العراق إلى الصندوق ـ أنه لن يخرج منه. وهنا فإن الضغط الأمريكى كان صارما للحيلولة دون حل عربى لأزمة غزو الكويت. وهنا جاءت ـ للإنصاف ـ محاولة ملك الأردن «حسين» (مع التسليم بأنه فيما سعى به كان يحاول الحفاظ على وحدة الأردن وعلى عرشه، وعلى مستقبل أسرته وربما فرصها فى عرش هاشمى فى العراق ذات يوم) ـ وكان أن الملك «حسين» (كذلك قال لى وأكد ـ وساندته فيما قال وأكد ـ وقائع ووثائق صحيحة)، توضح أنه توصل إلى إقناع القيادة العراقية يوم ٥ أغسطس ـ بعد أن لمعت البوادر والنُذر ـ بأنها إذا لم تنسحب من الكويت فسوف تواجه ما لا طاقة لها به، وكان شرط العراق في طلب الأمان ـ صدور تعهد أمريكى بأن الولايات المتحدة لن تطارد الجيش العراقى فى وطنه ـ إذا عاد وراء حدوده وترك الكويت.

لكن البيت الأبيض مارس كل نفوذه لقطع الطرق ومنع أى مخرج عليها، وكان مؤتمر القمة العربى فى القاهرة يوم ١٠ أغسطس، وأجواؤه وملابساته بمثابة عملية إغلاق للصندوق حول العراق بالمفتاح وبالترباس!

● وكان المحور الثالث تكثيف الحشود حول العراق، وكذلك راحت الفرق المدرعة وحاملات الطائرات وقواعد الصواريخ الأمريكية ـ تتسابق إلى اتخاذ مواقعها فى القواعد والتسهيلات العربية ابتداءً من يوم ٦ أغسطس، أى من قبل انعقاد القمة العربية، وكان شكل الحشود قاطعا أنها الحرب ليس فقط لتحرير الكويت، ولكن ـ بالدرجة الأولى ـ لتدمير القوة العراقية والسيطرة على مقدرات ذلك البلد، وفى أواخر سنة ١٩٩٠ كانت الحشود العسكرية الأمريكية البريطانية (ومعها تشكيلات متحالفة من كل مكان) تحكم حصارها حول العراق بطوق حديدى.

وكان الملك «حسين» لايزال يبذل مساعى يعرف أكثر من غيره أنها يائسة، وجرى بينه وبين السيدة «مارجريت تاتشر» رئيسة الوزارة البريطانية لقاء عاصف فى مقر رئاسة الوزارة فى لندن، فقد جلس الملك أمام المرأة الحديدية، يقول لها بعد المقدمات «أنه يريد أن يشرح لها النتائج التى يمكن أن تترتب على غزو العراق وتدميره» ـ وإذا «مارجريت تاتشر» تهب فى وجهه صارخة:

«اسمع.. أريدك أن توفر على نفسك حججك السياسية والقانونية، وتعرف أنك تضع رهانك على الطرف الخاسر، ثم صاحت فيه «أنت تراهن على الخاسر» «You are backing a loser» وكانت عيناها تبرقان بالغضب، وأحس ملك الأردن أنه أُهين، وقال بأدب محاولا ضبط غضبه «سيدتى.. لا يحق لك أن تتحدثى إلىّ بهذه اللهجة».

وقصد الملك بعد لندن إلى الولايات المتحدة يلتقى الرئيس «جورج بوش» (الأب) فى ضيعته «كينيبنكبورت» بولاية «ماين»، وقال له وهما يمشيان قرب شاطئ البحر «إنه يخشى من اندلاع نار مدمرة فى المنطقة»، ورد عليه «بوش» (الأب) بقوله «إنه يعرف أن النار سوف

طوال الفترة ما بين دخول العراق إلى الكويت أول أغسطس ١٩٩٠، وحتى خروجه منها فى فبراير سنة ١٩٩١، كان «جورج بوش» وأركان إدارته يشعرون أنهم على أول الطريق المؤدى بهم إلى تأكيد أن القرن الحادى والعشرين سوف يكون قرنا أمريكيا!

تندلع، لكنه حريص على الملك لا يريد له أن يحرق أصابعه بلهبها».

● وكان المحور الرابع هو تشكيل تحالف عالمي واسع لشن الحرب على العراق، وهنا أصدر مجلس الأمن مجموعة قرارات لفّت الصندوق العراقي بسلاسل من الفولاذ حتى لا يدخل إليه ولا يخرج منه شيء، وكان الطوق اقتصاديا وسياسيا ودعائيا بحبكة لم يسبق لها مثيل، وعندما توقفت كل أنابيب ضخ البترول العراقي عبر تركيا وسوريا والسعودية، فقد بدا أن العراق - داخل الصندوق الفولاذي - يتعرض لعملية خنق تمهد للضربة القاضية عندما يجيء دور السلاح.

وكانت الولايات المتحدة قاسية مع الجميع، خصوصا هؤلاء الذين بان ترددهم من الأطراف الدوليين، وأولهم فرنسا (واضطر الرئيس «ميتران» إلى تغيير موقفه الذي مال إلى الاعتدال ولو قليلا، لأن ممثلي الشركات الفرنسية الكُبرى ذهبوا إليه شاكين أن سياسة فرنسا سوف تحرم شركاتها من أكبر العقود في التاريخ، وهي عقود الامتيازات في بترول العراق وعقود المقاولات لإعادة تعميره) - وكذلك شاركت القوات الفرنسية في الحشد العسكري الكبير المحيط بالعراق.

● وكان المحور الخامس هو شن الحرب فعلا ابتداءً بتمهيد جوي تواصل أكثر من أربعين يوما، ولم تكن القيادة العراقية تتصور إمكانيات الحرب الإلكترونية عندما يطلق لها العنان، وكان ظنها أنها سوف تستطيع ممارسة مقاومة مؤثرة اعتمادا على ما لديها من إمكانيات.

وحدث في «فترة الريبة» قبل أن تفتح المدافع فوهاتها - أن رئيس وزراء بريطانيا الأسبق «إدوارد هيث» قصد إلى بغداد وقابل الرئيس «صدام حسين» وقال له ضمن ما قال «أنكم لا تعرفون حجم الأسلحة الأمريكية التي تستطيع الولايات المتحدة أن تستعملها ضدكم»، وكان الرد الذي سمعه «أن الولايات المتحدة تعرف حجم الأسلحة التي يستطيع العراق أن يقاوم بها».

لكن الحرب عندما جاءت أظهرت أنه مهما كان ما تملكه دولة في العالم الثالث (حتى وإن حصلت على معظمه من شركات أمريكية أو أوروبية) - محسوب كله في إطار لا يتجاوزه، وأن ترسانات القوة العظمى (بالتحديد الولايات المتحدة) - تحتوي على ما هو قادر عليه!

● وكان المحور السادس أنه عندما انكسرت مقاومة العراق، وبان أن الحرب البرية بعد الضربة الجوية مجزرة شنيعة - راح بعض ملوك ورؤساء الدول العربية (وهم أطراف تحالف فيها) يظهرون قلقهم من الاستمرار أكثر من ذلك في مواصلة المذبحة، وتشاور الرئيس «جورج بوش» (الأب) مع كبار مستشاريه وبينهم هيئة الأركان المشتركة، وكان رأيهم - وفيهم «كولن باول» أن الحرب حققت أهدافها، لأن الضربة الجوية دمرت فعلا معظم السلاح العراقي، وأما بالنسبة للنظام في بغداد، فإن ثورة محققة (شيعية في الجنوب - كردية في الشمال) سوف تتكفل ببقية المطلوب، وفي أرجح الاحتمالات فإن الجيش العراقي سوف يقوم بانقلاب على قيادة ورطته في حرب غير متكافئة، وحينئذ تقوم في بغداد حكومة جديدة ترضى بالشروط السياسية للمنتصر (بعد قبول النظام الحالي بالشروط العسكرية اللازمة لوقف إطلاق النار) - ثم إنه لن يكون في وسع هذه الحكومة العراقية الجديدة أن تفعل شيئا، سوى أن تفتح الأبواب لعهد جديد مع الولايات المتحدة، وحينئذ يتحقق تغيير النظام، وبعده استدعاء أمريكي إلى قلب بغداد.

● والمحور السابع أن آلة الإعلام الأمريكية الضخمة - وكذلك أجهزة العمل السري راحت تحرض الجنوب الشيعي والشمال الكردي على الثورة، وبدا لعدة أسابيع أن النظام في بغداد معزول، لكنه في نفس تلك اللحظة وقعت معجزة لم تكن في حساب أحد، ذلك أن الجيش العراقي الذي رأى وحدة الوطن العراقي توشك على الانفراط قبل أن يتحقق سقوط النظام - بذل جهدا خارقا للعادة في مقاومة الثورة جنوبا وشمالا، وتمكن من السيطرة على الوضع.

وفي ظرف شهور قليلة، بان أن الحرب لم تحقق كامل أهدافها، فقد وقع تدمير الاقتصاد العراقي، واستهلاك قوة الجيش العراقي وسلاحه، لكن النظام تمكن من البقاء، كما أنه على وجه القطع ظل يسيطر على قوة عسكرية لها شأن، مع التسليم بأنها توازي نصف حجمها السابق وربع سلاحها!

ولم تكن هذه النتائج مرضية من وجهة النظر الأمريكية، لكن معظم العالم أصبح يعتقد أن العراق دفع ما فيه الكفاية كفارة عن خطأ الحسابات، ومع ذلك فإن الرئيس الأمريكي «جورج بوش» (الأب) - كان له اعتقاد مختلف - اعتمدته إدارته، باعتبار أن الأسباب التي استهدفت العراق أكبر من الكويت وأولى من المنطقة العربية، وأهم من بقية العالم.

وعندما سقط «جورج بوش» (الأب) في محاولته للحصول على مدة رئاسة ثانية، وأفسح مكانه في البيت الأبيض لرجل غيره هو «بيل كلينتون»، فإن هذا الرئيس الجديد لم يكن في فكره تغيير السياسات الأمريكية، وإنما كان في مزاجه تغيير الأسلوب، وقد اختار أسلوبا آخر لتحقيقه.

وكذلك ظلت إدارة «كلينتون» على طول ثماني سنوات تضع العراق تحت نظرها، وتضيق عليه خطوة بعد خطوة معتمدة على سياسة الصندوق المغلق، أي استمرار حصاره اقتصاديا وسياسيا ودعائيا، تظن بذلك أن الخنق - حتى وإن كان بطيئا، أشد قسوة من القتل الذي يجيء سريعا - وزيادة عليه فإنها كانت بين الحين والحين توجه إليه ضربة صاروخية تذكره «بالمصير المحتوم».

وفي أيام رئاسته الأولى وجه «بيل كلينتون» إلى العراق ضربة صواريخ، بحجة أن عملاء عراقيين حاولوا اغتيال الرئيس السابق «جورج بوش» (الأب) أثناء زيارة قام بها إلى الكويت، (وتلقى في آخرها هدية توازي وزنه ذهبا).

ثم تكررت ضربات الصواريخ، وآخرها ضربة «ثعلب الصحراء»، التي استمرت عدة أسابيع، وهدفها إعادة تحطيم ما أصلحه الشعب العراقي من مرافقه التي دمرتها عاصفة الصحراء، حتى يدرك أنه غير قادر على ترميم حياته في ظل النظام الذي يحكمه (وكان ضمن ما استهدفه القصف الكبير من مرافق الحياة: محطات المياه والمجاري، ومحطات الكهرباء، والمصانع، ومولدات الطاقة وغيرها وغيرها).

وبالتوازي مع ذلك جرى الضغط على مفتشي الأمم المتحدة، (ورئيسهم في ذلك الوقت «ريتشارد بتلر») يعاونه مساعده الأول «سكوت ريتر» (الذي اعترف فيما بعد أنه كان ينسق كل تصرفاته مع إسرائيل، وأنه في فترة عمله زارها سرا اثنتين وعشرين مرة) - لكي يحولوا دورهم من مهمة تفتيش - إلى محكمة تفتيش.

وبالتوازي مع ذلك أيضا جرى تشجيع المعارضة السياسية للنظام العراقي، وكان معظم التشجيع في المنافي البعيدة، لكنه بعد الأخذ بسياسة مناطق الحظر الجوي في جنوب العراق وشماله (وقد فرضته واشنطن خارج إطار الأمم المتحدة) - جرى إنشاء مناطق آمنة بالذات في الشمال الكردي، وعليها فإن المجال أصبح مفتوحا لجماعات مقاومة متعددة الهويات والأعلام والوسائل.

وفوق ذلك كله راح الإعلام الأمريكي يشدد كل يوم ضغطه على الجهاز العصبي للنظام في بغداد!

كان الصندوق المغلق الذي وُضع فيه العراق - يزداد إحكاما كل يوم دون السماح بثغرة تتسرب منها أنفاس هواء تسمح بحياة صحية أو نصف صحية.

ومع ذلك فإن تلك المجموعة التي توافرت على دراسة الضرورات المُلحة للإمبراطورية الأمريكية في القرن الحادي والعشرين، والتي نشطت تحت لافتة «ضرورات قرن أمريكي جديد» - لم تكن عاطلة عن العمل، رغم أنها لم تعد مؤثرة على القرار السياسي من البيت الأبيض، فهذه المجموعة كانت جمهورية في غالبية

عندما سقط «جورج بوش» (الأب) في محاولته للحصول على مدة رئاسة ثانية، وأفسح مكانه في البيت الأبيض لرجل غيره هو «بيل كلينتون»، فإن هذا الرئيس الجديد لم يكن في فكره تغيير السياسات الأمريكية، وإنما كان في مزاجه تغيير الأسلوب، وقد اختار أسلوبا آخر لتحقيقه



أعضائها - بينما الإدارة والبيت الأبيض في حوزة الديمقراطيين - الآن.

وفي الواقع العملي فإن تلك المجموعة أصبحت بالفعل وبالقول أداة ضغط (لوبي) تفرض على الإدارة القائمة (الديمقراطية) إيقاعا أسرع مما ترغب فيه هذه الإدارة (فالاستراتيجيات في العادة متفق عليها والأساليب وحدها تقبل الاختلاف) - لكن مجموعة الضغط الجمهورية لا تتوانى في تشديد ضغطها - لأنها تخشى من مستجدات تطرأ على الساحة الدولية تشوش أو تعطل.

وبشكل محدد فإن القوى المؤثرة في الولايات المتحدة - في البيت الأبيض أو خارجه - ديمقراطيين وجمهوريين على السواء - ظلت متفقة على مشروع جدول أعمال.

- إمبراطورية أمريكية واتتها الظروف «وواجبها المقدس» - والحال كذلك - أن ترث ما سبقها من إمبراطوريات، وأن تحتفظ بما ورثت، وتضيف إليه، ثم تضمن إحكام قبضتها على السابق واللاحق.

- وعالم لابد من إعادة ترتيب أحواله وإقامة موازينه من جديد على أساس مختلف، يحتفظ للإمبراطورية الأمريكية بالكلمة العُليا في كل شأن.

- وبين أهم اللوازم سيطرة كاملة على موارد الطاقة لأنها محرك القوة والتقدم، حتى إشعار آخر.

- وفي إطار ما هو ضروري ولازم فإن الولايات المتحدة مستعدة بشروط أن تقبل بحق كبرى الدول الصناعية الغربية في شراكة تكون لها نسبة مقررة في القرار العالمي، ونصيب مقنن - في موارد النفط، على أن تظل الكلمة الأخيرة في الموضوعين لواشنطن.

- يساعد على ذلك أن الضرورات واللوازم التي اقتضت أن يكون مجال الحركة الرئيسية مع مفتتح القرن الحادي والعشرين هو الشرق الأوسط - توافقت مع كون الولايات المتحدة حاضرة ومتمكنة منه فعلا، ثم إن النظم الحاكمة في بلدان هذه المنطقة صديقة وموالية.

- وفي التقدير الأمريكي أن الشريك الرئيسي المعتمد في هذه المرحلة بالذات، ليس هؤلاء الأصدقاء الموالين من العرب، وليس بريطانيا كما يبدو على السطح - وإنما هو إسرائيل، فهي - وليس غيرها - بالواقع العملي موجودة على الأرض، وهي بحقائق القوة مؤثرة في الساحة، وبالإضافة إلى ذلك فإن إسرائيل لظروف علاقتها مع الولايات المتحدة لا تتردد من وازع قانوني أو أخلاقي، وإنما هي بيقين داخلي عميق تدرك أن حياتها وبقاءها بعيدا عن الولايات المتحدة الأمريكية - مشروع غير قابل للبقاء ومحكوم عليه تاريخيا!

- والشعوب العربية المعادية لإسرائيل - وأولها الشعب الفلسطيني الذي يدافع عن أرضه ووجوده - لابد لهم أن يتعلموا درس الواقعية السياسية ويقبلوا به (حتى لو أدى إلى خروجهم من المستقبل).

- ومع أنه من وقتها سنة ١٩٩١ وحتى الآن (أكثر من عشر سنوات) - تغيرت الظروف، ودفع العراق كفارة الخطأ عدة مرات، وتحمل شعبه بأكثر مما تحمل أي شعب غيره - فإن العراق حتى وإن لم يعد خطرا داهما - مازال من الممكن استعماله شبحا تحوطه الأوهام!

- وكان مما يزكي العراق لسياسة مطاردة الشبح وحرب الوهم، عنصران:

أولها: أن العراق مستنزف بالحرب والحصار، وبالتالي فهو هدف مكشوف ومعرض!

والثاني: أن العراق بلد موفور الغنى بالثروات الكامنة فيه، وبالتالي فهو قادر على دفع «تكاليف عملية تدميره»، وقادر على دفع «فاتورة إعادة تعميره»، (دون أن يحتاج مثل غيره إلى معونات أو مساعدات!).

وطوال رئاسة «بيل كلينتون» للولايات المتحدة الأمريكية كانت جماعة الضغط الجمهوري (اللوبي) - المطالبة بالإمبراطورية، والسيطرة على البترول، والتحالف مع إسرائيل، وتطويع الشعوب العربية، والتلويح بشبح «الخطر» من العراق - تزداد نشاطا، وتضم إليها مناصرين جُددا، يساعدون على توسيع دائرة نفوذها باستمرار (تحت نفس شعار: «ضرورات قرن أمريكي جديد»!).

والشاهد أنه يمكن متابعة ورصد عدد من قادة هذه الجماعة وتتبع حركتهم عبر دوائر متشابكة - فهُم دائما نفس الوجوه - ودائما نفس الأصوات.

- وكانت البداية من عضوية لجنة الأربعمائة الأصلية التي كلفت ببحث احتمالات سقوط الاتحاد السوفيتي تحت رئاسة «بول نيتزي».

- ومنها إلى دائرة الانتشار والظهور في مناصب كبيرة في وزارات الدفاع والخارجية والطاقة ومراكز المخابرات المركزية الأمريكية (وعضوية مجلس العلاقات الخارجية الأمريكي، وغيره من المراكز السياسية والاستراتيجية).

- ومنها إلى دائرة الجلوس حول مائدة اجتماع مجلس الأمن القومي تحت رئاسة «جورج بوش» (الأب) - عندما طرحت الخطوط العامة الأولى للمشروع الإمبراطوري الأمريكي للقرن الحادي والعشرين.

- وأخيرا إلى دائرة النشاط والمتابعة في عهد الرئيس «بيل كلينتون» بعد أن خسر الجمهوريون انتخابات سنة ١٩٩٢، (وكان ظنهم أن عاصفة الصحراء وحدها تكفل لهم أن يفوزوا فيها).

■ والحاصل أنه في كل هذه الدوائر - تكررت نفس الأسماء:

«ريتشارد تشيني» (نائب الرئيس الآن) - «دونالد رامسفيلد» (وزير الدفاع الآن) - «ريتشارد بيرل» (رئيس فريق التخطيط الاستراتيجي الآن) - «بول ولفويتز» (نائب وزير الدفاع الآن) - «ريتشارد أرميتاج» (نائب وزير الخارجية الآن) - وغيرهم كثيرون، وفيهم من رأسوا وكالة المخابرات المركزية مثل (جيمس وولسلي)، وفيهم من رأسوا شركات طاقة كبرى (مثل فرانك كارلوتشي)، ومع هؤلاء حشد من أعضاء بارزين في الكونجرس ديمقراطيين وجمهوريين على السواء (مثل جوزيف ليبرمان وجون ماكين).

طوال رئاسة «بيل كلينتون» كانت جماعة الضغط الجمهوري - المطالبة بالإمبراطورية، والسيطرة على البترول، والتحالف مع إسرائيل، والتلويح بشبح «الخطر» من العراق - تزداد نشاطا، وتضم إليها مناصرين جُددا، (تحت شعار: «ضرورات قرن أمريكي جديد»!)

وكان هؤلاء وزملاء لهم في الفكر والفعل هم الذين أشرفوا على بناء تحالف حرب الخليج الثانية (سنة ١٩٩٠ - ١٩٩١)، وهم الذين خططوا لمؤتمر مدريد لتحقيق صلح شامل بين العرب وإسرائيل (١٩٩٢)، وهم الذين ساعدوا على تمهيد السبيل إلى لقاء بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل (المعروف باتفاقية أوسلو ١٩٩٤).

وكانوا هم الذين كتبوا خطابا مباشرا إلى الرئيس «كلينتون» بتاريخ ٢٦ يناير ١٩٩٨، يقولون فيه بالنص:

«السيد الرئيس

«إننا نكتب إليكم عن اقتناع بأن السياسة الأمريكية الحالية تجاه العراق لم تحقق أهدافها، وإنها في الغالب سوف تواجه تهديدا في الشرق الأوسط أشد خطورة مما واجهناه وقت الحرب الباردة، ونحن نظن أن خطابكم القادم في شأن «حالة الاتحاد» يمكن أن يكون الفرصة الملائمة لإظهار عزم أمريكا على أن يكون القرن الجديد أمريكيا، ونأمل أن تنتهز هذه الفرصة لكي تعلن استراتيجيات الكفيلة بتأمين مصالح الولايات المتحدة وأصدقائها وحلفائها في العالم.

إننا نهيب بالإدارة أن تضع كل جهود «الأمة» الدبلوماسية والسياسية والاقتصادية والعسكرية لتأكيد سيطرة الولايات المتحدة بخطوة أولى تتضمن إزاحة «صدام حسين» عن حكم العراق، وأن تفعل ذلك من خلال الأمم المتحدة - أو منفردة إذا اقتضى الأمر».

(وكان بين الموقعين على هذا الخطاب: «ريتشارد تشيني»، و«دونالد رامسفيلد»، و«ريتشارد بيرل»، و«بول وولفويتز»).

وتردد «كلينتون» وتصوره أن المعركة ضد الإرهاب لابد أن تحقق انتصارها أولا، لكنه لم يلبث أن توصل مع جماعة «قرن أمريكي جديد» إلى حل وسط، وكانوا هم وبكلماتهم من تولوا صياغة وطرح «مشروع قانون تحرير العراق»، الذي قبله الرئيس «بيل كلينتون»، وأرسله إلى الكونجرس حيث تم إقراره سنة ١٩٩٨، ليصبح نافذ المفعول، ملزما للرئيس الأمريكي.

وفي إطار معركة انتخابات الرئاسة

الأمريكية سنة ٢٠٠٠، كان «قانون تحرير العراق» وضرورة تنفيذه الفورى، قضية أثيرت أكثر من مرة فى المناظرات بين المرشحين: الجمهورى «جورج بوش»، والديمقراطى «آل جور» دون أن يذكر أحد أن استهداف العراق لم يكن إلهام مبدأ وإنما إلحاح مصالح، ولم يكن قضية عدالة وإنما سبق إصرار على القتل، لأن العراق خلال حقبة التسعينيات - وبعد تحرير الكويت - لم يخرج مرة واحدة فى تصرف، ولم يعص أو يخالف، بل كان أمله أنه بالإذعان والامتثال يستطيع أن يخرج من خنق الحصار ويتخلص من كارثة العقوبات.

والحقيقة أن القضية لم تعد قضية العراق، وإنما كان العراق بداية خيط وقع العثور عليه لإمبراطورية القرن الحادى والعشرين.

وكان «جورج بوش» (الابن) هو الأعلى صوتا، خلال الحملة الانتخابية إزاء «آل جور»، عندما يجيء ذكر موضوع العراق، ففى هذه النقطة بالذات كان ادعاء «بوش» أنه الأقدر على استكمال المهمة لأنه عاشها (عائليا)، قبل أن يلتزم بها (سياسيا)، وكانت الإيحاءات بعد ذلك تومئ إلى أن «آل جور» تعايش فى البيت الأبيض الوقت نفسه مع «مونيكا لوينسكى» - دون أن يعرف بما يجرى فى المكتب البيضاوى، أو أنه عرف ولم يتجاسر على النظر إلى رئيسه فى عينيه، وهو فى الحالتين لا يصلح، فإذا لم يكن عرف فهو لا يقدر على الإمبراطورية، وإذا لم يكن تجاسر فهو لا يستطيع مواجهة العالم.

وفاز «جورج بوش» بالرئاسة، وإن لم يكن فوزه بمفاضلة أخلاقية أو سياسية (أو شعبية)، وإنما كان فوزه بحيل انتخابية وتلفيقات قانونية - وراءها خطط إمبراطورية، وسياسات مشى فى إطارها أحد عشر رئيسا للولايات المتحدة الأمريكية على مدى نصف قرن من الزمن، تحرك فيها كل منهم بأسلوبه - وبمزاج إدارته - وفى أجواء زمنه (بصرف النظر عن مبادئ الأخلاق وضوابط القانون، لأن الإمبراطوريات لا تحتاج إلى حدودها وقيودها!).

وقد مشى هؤلاء الرؤساء جميعا على نفس الطريق:

١ - الرئيس «فرانكلين روزفلت» (فى البيت الأبيض من سنة ١٩٣٢ إلى سنة ١٩٤٥) - تولى قيادة الحرب العالمية الثانية إلى ظرف ظهرت فيه الإمبراطورية الأمريكية «وريثا شرعيا» مطالبا بالإمبراطوريات الأوروبية التقليدية.

٢ - الرئيس «هارى ترومان» (فى البيت الأبيض من سنة ١٩٤٥ إلى سنة ١٩٥٢) - وهو الذى وضع توقيعه على التوجيه الرئاسى رقم ٩٨ لسنة ١٩٥٠) بتحديد الهدف الاستراتيجى للولايات المتحدة الأمريكية «بتدمير الاتحاد السوفيتى، وتحقيق تفوق عسكرى أمريكى غير قابل للتحدى وغير قابل للمنافسة».

٣ - الرئيس «دوايت أيزنهاور» (فى البيت الأبيض من سنة ١٩٥٢ إلى سنة ١٩٦٠) - وهو الذى أشرف على عملية احتواء الإمبراطورية السوفيتية وحصرها - (وهى الإمبراطورية الطالعة المتجددة) - وراء الستار الحديدى وتطويقها بسلسلة من الأحلاف العسكرية فى أوروبا وجنوب شرق آسيا، مع محاولة أولى فى الشرق الأوسط لبناء نظام عسكرى غربى يكمل حلقة الحصار تحت اسم «حلف بغداد»، وقد تعطلت المحاولة (بسبب الحركة الفوارة للقومية العربية).

٤ - الرئيس «جون كيندى» (فى البيت الأبيض من ١٩٦١ إلى سنة ١٩٦٣) - وهو الذى جرب أسلوبا آخر فى الاحتواء يعتمد على جاذبية النموذج الأمريكى تحت شعار إدارته المشهور - «الحدود الجديدة».

٥ - الرئيس «ليندون جونسون» (فى البيت الأبيض من ١٩٦٤ إلى سنة ١٩٦٨) - وهو الذى عاد إلى أسلوب الاحتواء العنيف مرة أخرى فى الشرق الأقصى (بحرب فيتنام)، وفى الشرق الأوسط (بحرب سنة ١٩٦٧)، مصمما على أن حركة التحرر الوطنى مهما قالت ومهما حاولت هى عنصر مقاوم للإمبراطورية الأمريكية، وبالتالى فهى صديق أو احتياطى (ولو بالمصادفة) للإمبراطورية السوفيتية.

٦ - الرئيس «ريتشارد نيكسون» (فى البيت الأبيض من سنة ١٩٦٨ حتى سنة ١٩٧٥)، وهو الذى اعتمد بمشورة من وزير خارجيته «هنرى كيسنجر» سياسة وفاق تقصد إلى تثبيت الإمبراطورية السوفيتية فى شرق أوروبا - حتى تتمكن الولايات المتحدة أن تعطى نفسها حرية عمل فى الشرق الأوسط وفى أفريقيا وآسيا، مع محاولة تكريس الخلاف بين الإمبراطورية السوفيتية وبين الصين وهى القوة الصاعدة فى الشرق الأقصى.

٧ - الرئيس «جيرالد فورد» (فى البيت الأبيض أكثر قليلا من سنة واحدة من ١٩٧٥ إلى ١٩٧٦) لم تعطه الفرصة لعمل شىء يذكر له.

٨ - الرئيس «جيمى كارتر» (فى البيت الأبيض من سنة ١٩٧٦ إلى سنة ١٩٨٠) وهو الذى ركز جهده بتأثير مستشاره للأمن القومى «زبجنيو برجينسكى» - على قوس المتاعب على الحزام الشمالى للشرق الأوسط، فتصدى للثورة الإسلامية فى إيران، وفتح معركة استنزاف الإمبراطورية السوفيتية فى أفغانستان بسلاح الجهاد الإسلامى التى جر إليها العالم العربى كله فى خدمة سياساته وتنفيذ أغراضه.

٩ - الرئيس «رونالد ريجان» (فى البيت الأبيض من سنة ١٩٨١ إلى سنة ١٩٨٨)، وكان هو الذى خطا بسباق السلاح خطوته الحاسمة نحو حرب النجوم، ثم استطاع أن يحول أفغانستان إلى مصيدة حقيقية للدب الروسى، وقاد الحرب الشهيرة ضد إمبراطورية الشر.

١٠ - الرئيس «جورج بوش» (الأب) (فى البيت الأبيض من سنة ١٩٨٨ إلى سنة ١٩٩٢)، وهو الذى سقطت فى عهده الإمبراطورية الروسية - الشيوعية - وفى أجوائها حقق بحرب الخليج اختراقا هائلا فى الشرق الأوسط، حين تمكن من اصطياد العراق فى فخ الكويت، وإذا المنطقة كلها حليف للولايات المتحدة وشريك، ثم تنازل التحالف والشراكة إلى درجة أدنى مع ارتهان العرب للسياسة الأمريكية، على أمل حل للصراع العربى الإسرائيلى - يكبح جماح إسرائيل ويكف أذاها!

١١ - وقُرب النهاية جاء الدور على «بيل كلينتون» (فى البيت الأبيض من سنة ١٩٩٢ إلى سنة ٢٠٠١)، وهو الذى حاول - رغم تسمية رئاسته «فاصل جنسى» بين رئاسة «بوش» (الأب) و«بوش» (الابن) - إكمال المهمة بقانون تحرير العراق، وجرب تصفية بقايا الصراع العربى الإسرائيلى، ولم تكن قد بقيت منه إلا سلطة وطنية مُحاصرة باليأس ما بين غزة ورام الله.

١٢ - أحد عشر رئيسا حتى جاء الدور أخيرا على الرئيس الثانى عشر «جورج بوش» (الابن)، وهو الآن فى البيت الأبيض يزيل آثار المعركة الطويلة التى أسقطت الإمبراطورية الباقية الأخيرة - إمبراطورية الشر - ويجمع الشظايا المتناثرة هنا وهناك، خصوصا على أرض الشرق الأوسط حتى يرسى صرح البناء الإمبراطورى.

وبالطبع فإن «جورج بوش» (الابن) لم يكن وحده، وإنما اتسع المسرح من حوله لتحقيق المشروع الإمبراطورى - الذى يبقى ويحكم فى العالم إلى الأبد (هكذا العزم والقصد).

....

....

[كان طريق هذا الطابور من رؤساء الولايات المتحدة طويلا وكان حافلا بالإنجازات الكُبرى، وبالأخطاء الفادحة، وبالسقطات والحماقات، وحتى بالفضائح المجلجلة - لكن اثنى عشر رئيسا مشوا جميعا على هذا الطريق الإمبراطورى - كل واحد منهم بمقدار جهده وباتساع فرصه، بعضهم سار أمتارا وبعضهم جرى أميالا، بعضهم تراجع خطوة وبعضهم تراجع شوطا - لكن كلا منهم حاول، لأن المشروعات الإمبراطورية الكُبرى لا تحيد عن أهدافها مهما صادفها، ولا تطيل الوقوف أمام الصدمات بدعوى العجز عن استيعابها، ولا تمارس فعلها بالأهواء الشخصية - فى غيبة استراتيجية وطنية أو قومية - وذلك هو الدرس الذى لم تتعلمه ولم تحفظه السياسة العربية، حيث كل رجل فى حد ذاته بداية ونهاية - لأنه مستودع الحكمة الأكبر - ومصدر القرار الأوحد - وفى يده المصير!]. ■

....

....

جاء الدور أخيرا على «جورج بوش» (الابن)، وهو الآن فى البيت الأبيض يزيل آثار المعركة الطويلة التى أسقطت الإمبراطورية الباقية الأخيرة - إمبراطورية الشر - ويجمع الشظايا المتناثرة هنا وهناك، خصوصا على أرض الشرق الأوسط حتى يرسى صرح البناء الإمبراطورى

"٥"

من الحظيرة إلى المسيرة!

ولم يكن ما يجرى فى الولايات المتحدة خافيا على قوى العالم الكبرى، فقد تقابلت كلها فى ظروف سبقت المشروع الإمبراطورى الأمريكى، ورأت مقاصده واحتكت مرات به، وكان الاحتكاك فى بعض هذه المرات حادا، يكاد أن يحدث شررا ـ وربما يشعل نارا.

والآن سنة ٢٠٠٠ وبداية قرن جديد ـ كانت القوى الكُبرى فى العالم تتابع دخول إدارة أمريكية جديدة إلى السلطة، عارفة مسبقا أنها سوف تكون رئاسة خشنة:

ـ كان أنصار المشروع الإمبراطورى الأمريكى فى صميم العملية الانتخابية وعلى مواقع توجيهها وقد تحقق الفوز لمرشحهم فيها بما يشبه المعجزة.

ـ وقد دخلوا من «الخارج» إلى «الداخل» واحتلوا أهم المواقع داخل البيت الأبيض، وعلى رأس الإدارة، وحول مائدة «القرار» فى مجلس الأمن القومى وفى أيديهم أهم مفاتيح القوة الأمريكية، وبالتالى فإن الفرصة «الآن» ـ و«هنا».

ـ ومما يسهل المهمة عليهم أنهم مع «رئيس» مستعد بما لديه لأن يتأثر ويسمع ويندفع، وقد أقنعوه (وهو صحيح) أن استكمال مشروعهم ضمانه لمدة ثانية فى رئاسته، بحيث ينجح فى انتخابات سنة ٢٠٠٤ نجاحا ساحقا لا تشوبه الريب ولا تحوطه الشكوك.

وفوق ذلك فإن جماعة الإمبراطورية كانت تقدر أن مشروعها لفرض سلام أمريكى على العالم(Pax Americana) لن يواجه معارضة جدية حتى من تلك القوى التى ترى «الحالة الأمريكية المستجدة» وتفهم معانيها:

ـ القوى الأوروبية الكُبرى سوف يضايقها ما تراه وتفهم أنها الإمبراطورية وليس ـ كما كانت هذه القوى تامل ـ مشروع نظام عالمى جديد، لكنه ليس فى مقدور هذه أن تفعل الكثير، وإذا أخذ فى الاعتبار أن بريطانيا مضمونة (بسبب شراكتها فى بترول الشرق الأوسط) ـ فإن فرنسا وألمانيا لديهما فى أوروبا ما يشغلهما، وأوله رغبة دول الشرق التى تحررت من قبضة الاتحاد السوفيتى أن تزحف إلى الغرب طالبة عضوية الأطلنطى وبعدد السوق الأوروبية المشتركة.

ـ والاتحاد الروسى الوريث للاتحاد السوفيتى لديه ما يكفيه من المشاكل، ومع أن ترسانته النووية المتهالكة مازالت قادرة على الردع، فإن السياسة الأمريكية تستطيع تركيب صمام أمان على الموقف الروسى بضبط فاعليته. وكانت المجموعة الإمبراطورية الأمريكية تعرف من تجارب سابقة أن لحظة المُنى فى موسكو هى تلك اللحظة التى تبدى فيها واشنطن بادرة تدل على أنها مازالت تعتبر الاتحاد الروسى قوة عظمى (أو قوة متساوية) ـ وكذلك كان أول سعى الرئيس الأمريكى الجديد (الثانى عشر فى ترتيب الرؤساء البناءين للإمبراطورية) هو الذهاب إلى مقابلة «فلاديمير بوتين»، ثم خروجه بعد المقابلة يقول: «إنه نظر فى عينى «بوتين» وعند تلاقى نظراتهما أحس على الفور بشعاع ضوء يوحى بالثقة، وهكذا وقع بينهما الغرام من أول لحظة، واقترح عليه أن ينادى كل واحد منهما الآخر باسمه الأول «فلاديمير وجورج»!

ـ والدول الآسيوية الكُبرى (الصين واليابان) مشغولة بشئونها، وهى اقتصادية بالدرجة الأولى، وهى لن تعطل نفسها باعتراض على المشروع الأمريكى الإمبراطورى، حتى بمنطق فلسفة (كونفوشيوس وبوذا) يحضها دائما على نظام فى الأولويات والمراتب قادر على التحمل وعلى الانتظار.

وفى هذا كله لم يكن هناك حساب يذكر (لسوء الحظ) لرد فعل من العالم العربى على مشروع إمبراطورى يرسى ويرفع أهم ركائزه على أرض عربية ـ ومواقع عربية ـ وموارد عربية.

وعلى نحو ما فإن الولايات المتحدة أخذت العالم العربى مسالة مفروغا منها دون كبير عناء، والسبب أن معظم الدول العربية دخلت «حظيرة» التحالف من وقت حرب تحرير الكويت، ثم إنها مشت من الحظيرة إلى «المسيرة»، وهى عملية صنع السلام مع إسرائيل التى زادت عليها الحركة من مؤتمر مدريد سنة ١٩٩١، ولا تزال مستمرة عليها، لأنها المفاوضات بلا بديل آخر، أى مفاوضات إلى الأبد والاعتماد فيها على الولايات المتحدة وليس على غيرها، وبالتالى فإنه ما بين «الحظيرة» و«المسيرة» لا خوف على العرب ولا خوف منهم!

كذلك كانت حسابات جماعة المشروع الإمبراطورى الأمريكى عندما دخل أقطابه إلى المكتب البيضاوى فى البيت الأبيض، وحين جلسوا حول مائدة مجلس الأمن القومى، وحين أمسكوا بأهم مفاتيح القوة الأمريكية الهائلة، وراحوا يحركونها لحساب مشروعهم التاريخى.

كانت حساباتهم فى بعض النواحى صحيحة، وكانت الحسابات فى نواح أخرى خاطئة، وكان أول دواعى الخطأ هو العجلة ونفاد الصبر، باعتقاد جماعة الإمبراطورية أنهم أمام نافذة مفتوحة ـ على فرصة غير محدودة.

وعندما زادت احتمالات الخطأ، ومعه تزايدت أسباب الخطر.

لم يكن هناك حساب يذكر
(سوء الحظ) لرد فعل من العالم العربى
على مشروع امبراطورى يرسى ويرفع أهم ركائزه
على أرض عربية ـ ومواقع عربية.
وموارد عربية

أمـــريـــكـــا

> السيد عرفات لم يكن يحلم إلا بأمر واحد وهو أن يدعى شخصياً إلى البيت الأبيض ويتفاوض مباشرة مع هذا الرجل من البيض، السيد بيل كلينتون

في الأول من شهر شباط / فبراير ورد في بعض الصحف خبر صغير مفاده أن الأمير الوليد بن طلال تبرع مؤخراً بمبلغ عشرة ملايين دولار للجامعة الأمريكية في القاهرة من أجل إنشاء قسم خاص بالدراسات الأمريكية. وكان هذا الملياردير الشاب قد تبرع بدون أن يحضه على ذلك أحد، بمبلغ عشرة ملايين دولار لمدينة نيويورك بعد تعرضها للاعتداء في ١١ أيلول / سبتمبر عام ٢٠٠١. وقد أوضح في رسالة التبرع أن الهبة ما هي إلا من باب الاحترام للمدينة لكنه رأى فيها أيضاً أن على الولايات المتحدة أن تعيد النظر في سياستها في الشرق الأوسط، في إشارة إلى دعمها غير المشروط لإسرائيل كما إلى مجمل سياستها الاستخفافية بالإسلام أو في مطلق الأحوال إلى ما فيها من قلة احترام له.

لكن السيد رودولف جيولياني، حاكم مدينة نيويورك (وهي المدينة ذات الجالية اليهودية الكبرى في العالم)، وقد تملكه الغضب، أعاد الشيك إلى الأمير بدون أي رسميات في تصرف ينم عن ازدراء من النوع العنصري رمى فيه إلى الإهانة والاحتفالية العدوانية في آن واحد. فهو عبر دفاعه عن صورة تميزت بها نيويورك أراد أن يقدم هو شخصياً دعمه لمدينته التي كانت تبرهن عن تماسكها وأن يؤكد رفضه المبدئي لأي تدخل خارجي في شئونها، من دون أن ينسى بالتأكيد تملق الناخبين اليهود الموحدي الرأي كما يفترض بدلاً من أن يعمل على توعيتهم.

هذا التصرف الفظ من جانب الحاكم شبيه برفضه في العام ١٩٩٥، أي بعد عامين على توقيع اتفاق أوسلو، الموافقة على حضور السيد ياسر عرفات الحفلة الموسيقية في الـ «فيلهارمونيك هول» التي دعيت إليها جميع الشخصيات التي كانت موجودة في الأمم المتحدة. وقد كان رد حاكم مدينة نيويورك على تبرع الشاب السعودي متوقعاً، وهو يأتي في سياق ما تتميز به المناورات الدنيئة التأثيرية التي يقوم بها رجال السياسة الأكثر رداءة في المدن الأمريكية الكبرى.

فمع أن المال كان مخصصاً لمدينة جريحة نتيجة عملية وحشية رهيبة، وهي كانت تحتاجه، إلا أن النظام السياسي والفاعليات الكبرى فيه كانت تقدم إسرائيل على كل ما عداها.

وما من أحد كان يعلم كيف ستكون ردة فعل الطائفة اليهودية لو أن الحاكم قبل الهبة لذلك بادر إلى استباق تحرك اللوبي المقرب من إسرائيل، وهو أساساً على أهبة الاستعداد دائماً. وكما أوضحت الروائية الشهيرة والصحافية جوان ديديون في مقالة لها في «نيويورك ريفيو أوف بوكس»، فإن مبدأ أساسياً في السياسة الخارجية الأمريكية، يعود إلى عهد الرئيس روزفلت، يدعو، وضد كل منطق، إلى دعم النظام الملكي السعودي ودولة إسرائيل في آن واحد. وتضيف قائلة: «إلى درجة أنه لا يمكننا أن نطرح على بساط البحث أي أمر قد يسيء إلى علاقاتنا مع حكومة إسرائيل الحالية».

ربما تؤكد هذه النافلة النظرة الخيالية تماماً إلى الواقع الأمريكي التي ينطلق منها القادة العرب ومستشاروهم المتخرجون عادة من الولايات المتحدة لتحديد سياسة بلدانهم. لكنها نظرة تفتقد فعلا إلى التماسك إذ يتمحور حول الفكرة القائلة بأن «الأمريكيين» يقررون كل شيء في العالم، حتى وإن كان هناك في التفاصيل تشكيلة واسعة وحتى معقدة من الآراء المختلفة، بدءا بالمقتنعة أن الولايات المتحدة ليست سوى مؤامرة يهودية إلى تلك القائلة بأنها ليست إلا مصدراً لا ينضب للبراءة والطيبة ومساعدة الضحايا، أو أيضاً أنها تدار من الألف إلى الياء من البيت الأبيض عبر شخصية بطولية تتمثل برجل أبيض لا نزاع على سلطته.

وعلى مدى عشرين عاماً كنت فيها أتردد على السيد ياسر عرفات، حاولت مراراً أن أوضح له أن أمريكا هي مجتمع معقد تتشابك فيه التيارات والمصالح والضغوط والقصص المتميزة، وأنها لا تحكم مثل سوريا مثلاً، وأنها كحكم وسلطة نموذج مختلف يستحق الدراسة. وقد جندت لهذا الغرض صديقي المرحوم إقبال أحمد الذي تحلى باطلاع عميق على المجتمع الأمريكي والذي كان ربما أفضل المنظرين والمؤرخين لحركات التحرر الوطنية، وقد رغبت إليه أن يبحث بمشاركة غيره من الخبراء مع السيد عرفات في تطوير نموذج أكثر دقة كان في إمكان الفلسطينيين أن يستفيدوا منه في الاتصالات التمهيدية مع الحكومة الأمريكية في أواخر الثمانينيات. لكن ذلك باء بالفشل. كان إقبال أحمد قد درس العلاقات بين جبهة التحرير الوطني في

بترتيب خاص مع:
Le Monde Diplomatique, Paris
الترجمة إلى العربية بواسطة:
mafhoum.com
(المترجم المعتمد والناشر الإلكتروني الرسمي للجريدة الفرنسية)



إدوارد سعيد

الجزائر وبين فرنسا خلال حرب ١٩٥٤ - ١٩٦٢ كما درس الطريقة التي اعتمدها الفيتناميون الشماليون في مفاوضاتهم مع السيد هنري كيسنجر خلال السبعينيات. وقد صدمه هذا الفرق الشاسع بين المعرفة الدقيقة والمفصلة من جانب جبهة التحرير الوطنية والفيتناميين بمجتمع العاصمتين (باريس وواشنطن) وبين معرفة الفلسطينيين الأقرب ما تكون إلى الكاريكاتور بأمريكا (والمستندة بشكل أساسي إلى المزاعم وإلى قراءات سريعة لصحيفة تايم). فالسيد عرفات لم يكن يحلم إلا بأمر واحد وهو أن يدعى شخصياً إلى البيت الأبيض ويتفاوض مباشرة مع هذا الرجل من البيض، السيد بيل كلينتون، كما يحصل له عندما يجد نفسه في موقع الند مع الرئيس المصري حسني مبارك أو الرئيس السوري حافظ الأسد.

وفي انتظار ذلك برز السيد كلينتون كصنيعة السياسة الخارجية الأمريكية وكسيّدها في آن واحد فعرف كيف يربك الفلسطينيين بجاذبيته وبراعته في المناورة، ومع أن هؤلاء دفعوا الثمن فإنهم لم يغيّروا نظرتهم إلى أمريكا. ففيما يتعلق بعمل المقاومة وبصنع السياسة في عالم لم يبقَ فيه سوى قوة عظمى وحيدة طاغية، ظلت الأمور كما كانت عليه منذ أكثر من نصف قرن، فغالبيتهم يرفعون أيديهم متذمرين كالعشاق المحبطين، مرددين أن لا أمل يرجى من أمريكا.

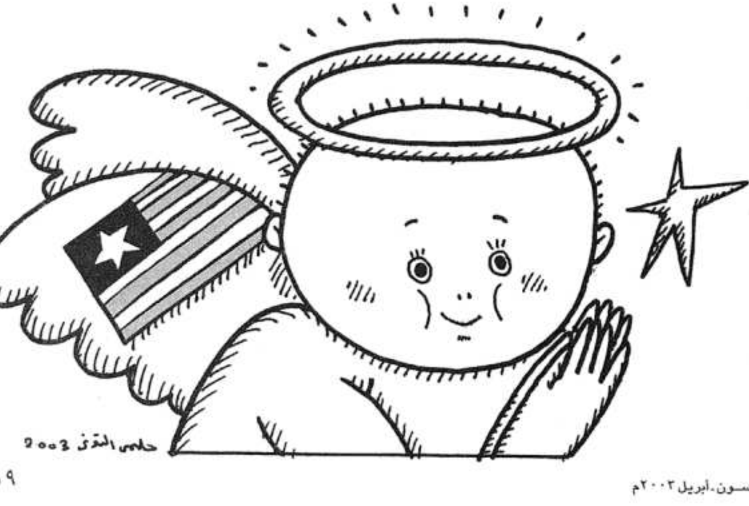
أما الوجه الآخر الأكثر تشجيعاً في هذه القصة فقد ارتسم مع استراتيجية الأمير وليد بن طلال الجديدة، الذي موّل مركز الأبحاث المذكور. فعلى حد علمي أنه باستثناء بعض الدروس أو الندوات المتفرقة في جامعات العالم العربي حول الآداب والسياسة الأمريكية، لم يفتتح ما يمكن اعتباره مركزاً جامعياً للتحليلات المنتظمة والعلمية للولايات المتحدة وشعبها ومجتمعها وتاريخها. ليس حتى في مؤسسات تعليمية مثل الجامعتين الأمريكيتين في كل من القاهرة وبيروت. والحال أنه في عالم بات تحت القبضة الضاغطة لقوة عظمى ذات قدرات لا حد لها، بات من الملحّ معرفة ديناميتها الداخلية المتفاعلة كالإعصار. وهذا ما يستدعي إتقان لغتها، وقلة من الزعماء العرب يجيدونها. نعم إن أمريكا هي بلد ماك دونالدز وهوليوود والجينز والكوكاكولا والسي.إن.إن.، والبضائع المصدرة التي نجدها في كل مكان بفعل العولمة ونتيجة ما يبدو تعطشاً لا يرتوى في العالم أجمع إلى سلع استهلاكية مريحة وسهلة الاستعمال. لكن علينا أن نفهم أيضاً سبب ذلك وكيفية تفسير هذه السيرورة الثقافية والاجتماعية التي تجسدها. فالخطر البارز للعيان هو في النظر إلى الولايات المتحدة نظرة تبسيطية خامدة اختزالية.

ففي مختلف أنحاء العالم دول عاصية باتت تنصاع تحت ضغط المطرقة الذي تمارسه أمريكا في استعداداتها لحرب على العراق لا تحظى أبداً بالتأييد الشعبي (أو أنها تتحالف معها في موقف انتهازي صرف كما هي حال إيطاليا وأسبانيا). ولولا هذه التظاهرات والاحتجاجات الشعبية التي انفجرت في أرجاء العالم، وخصوصاً في ١٥ شباط / فبراير، لجاءت هذه الحرب مجرد قرار فاحش ووقح بالهيمنة لا يلقى أي معارضة. وأن تلقى هذه الحرب الاعتراضات في أوروبا وآسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، كما لدى الكثير داخل أمريكا، فهذا يعني أن هناك في النهاية شعوراً بأن الولايات المتحدة، أو أقله ثلة الرجال البيض اليهود - المسيحيين الحاكمين فيها حالياً، قد قرروا فرض هيمنتهم على الكرة الأرضية. فما العمل إذن؟

أود أن أقدم نظرة إجمالية للمشهد العام العجيب للولايات المتحدة، كما يراه أمريكي مثلي يحتفظ، بحكم أصوله الفلسطينية، بنظرة الأجنبي. وأريد أن أقترح بعض الطرائق لفهم هذا البلد من أجل مقاربة أفضل، وإذا ما سمحت الظروف في العالم من أجل مقاومة هذا البلد وهو غير أحادي التركيب كما يظن على الدوام.

وإذا كان لكل امبراطورية أصالتها وتؤكد عزمها على عدم تكرار طموحات أسلافها الجموحة، فإن الولايات المتحدة تدّعي إضافة إلى ذلك غيرية قدسية وبراءة سليمة القصد. وقد تحركت، دعماً لهذا الوهم المقلق، كتائب بأكملها من المفكرين من ذوي النزعات اليسارية السابقة إلى حد ما. وهؤلاء تميزوا في الماضي بمعارضتهم القيام بأي مغامرة عسكرية، وقد باتوا اليوم مستعدين للدفاع عن فكرة الامبراطورية الفاضلة بأساليب متنوعة تراوح بين النزعة الوطنية الديماجوجية والصلافة المرائية. وقد لعبت أحداث ١١ أيلول / سبتمبر دورها في هذا التحول. وعلى كل حال فإن التعامل مع الاعتداءات على البرجين التوأمين وعلى البنتاجون، وبالرغم من هولها، يتم على أنها أتت من العدم وليس من عالم ما وراء البحار الذي فقد اتزانه بسبب التدخلات والوجود العسكري الأمريكي. لا يمكن تبرير الإرهاب الإسلامي، المقيت في كل حال، لكن ما يمكن تلمسه هو أن كل نظرة تاريخية وكل حس بالنسبية قد غاب عن التبريرات المتشددة للأعمال الأمريكية ضد أفغانستان والآن ضد العراق.

والغائب الأكبر في المداخلات الإعلامية لصقور «اليسار» هؤلاء، يبقى اليمين المسيحي (المشابه للإسلاميين بحماسته وادعائه الفضيلة)، وهو في الولايات المتحدة ذو تأثير كبير، بل حاسم. ونظرة هذا اليمين إلى العالم، المستمدة بشكل أساسي من العهد القديم، قريبة من نظرة إسرائيل إليه. ومن غرائب هذا التحالف بين هؤلاء المحافظين الجدد المفرطي الحماسة في الدولة اليهودية والمتطرفين المسيحيين هو أن هؤلاء يشجعون الصهيونية لأنهم ينوون إعادة اليهود جميعاً إلى الأرض المقدسة لدى المجيء الثاني للمسيح، وعندها سيكون على اليهود إما أن يتحولوا إلى المسيحية وإما أن يفنوا



من الوجود. حتى في صفوف اليهود المناصرين لإسرائيل نادراً ما يشار إلى هذه الغائية الدموية والمعادية بعنف للسامية.

والولايات المتحدة هي الدولة الوحيدة في العالم التي تبدى بشكل علني تمسكها بآداب الدين. فحياة الأمة مشبعة بالإحالات على الله، من قطع النقد إلى المباني العامة إلى الشهادات اللغوية من مثل «بالله نؤمن» «In God we trust» إلى «بلاد الله» «God's country» إلى «بارك الله أمريكا» «God Bless America»، إلخ. والقاعدة الشعبية التي يقوم عليها حكم جورج دبليو بوش مؤلفة من حوالي ٦٠ إلى ٧٠ مليون رجل وامرأة يؤمنون مثله بأنهم التقوا يسوع المسيح وأنهم وجدوا على الأرض من أجل إتمام عمل الله في بلاد الله. وقد زعم بعض علماء الاجتماع والصحافيين (ومنهم فرنسيس فوكوياما) أن النزعة الدينية في أمريكا المعاصرة نابعة من التطلعات الجماعاتية ومن حنين إلى الاستقرار في وقت يغير فيه باستمرار ٢٠ في المائة من الشعب الأمريكي وظيفته ومكان إقامته. وليس هذا سوى جزء من الحقيقة، وما يهم أكثر هو أننا إزاء ديانة نورانية نبوية ذات قناعة راسخة برسالتها الرؤيوية التي لا علاقة لها البتة بواقع الأمور وتعقيداتها. والعامل الآخر يعود إلى هذه المسافة الشاسعة التي تفصل هذا البلد عن العالم المضطرب وإلى عجز جيرانه في الشمال والجنوب، أي كندا والمكسيك، على الحد من نوثباته.

وكل هذه الأيديولوجيا تتوافق على القول بأن الولايات المتحدة تمثل الاستقامة والصلاح والحرية والأمل الاقتصادي والتقدم الاجتماعي. وهذه الأفكار تنصهر في الحياة إلى درجة أنها لا تبقى مجرد أيديولوجيات بل تبدو كحقائق «طبيعية». فأمريكا تساوي الخير وتساوي الصدق والمحبة الصافيين. فهناك الإجلال غير المشروط تجاه الآباء المؤسسين وإنما أيضاً تجاه الدستور، تلك الوثيقة العجيبة في الواقع وإنما الإنسانية في أية حال. فأمريكا الأزمنة الأولى هي نقطة ارتكاز الأصالة.

فما من بلد في العالم يلعب فيه العَلَم دور الأيقونة المركزية إلى هذه الدرجة، فهو يُرى في كل مكان، على التاكسيات وعلى الياقات والنوافذ وسطوح المنازل، وهو خير تجسيد للأمة، يرمز إلى حالة التجلد البطولية وإلى شعور الحصار من جانب أعداء يفتقرون إلى الجدارة. ويبقى الشعور الوطني هو الفضيلة الأولى، يرتبط بالدين وبفكرة التمتع بكامل الحقوق. ليس داخل البلاد وحسب، وإنما في كل مكان في العالم. كما قد يكون الشعور الوطني جزءاً من النشاطات الاستهلاكية كما حدث بعد أحداث ١١ أيلول / سبتمبر عام ٢٠٠١ حين طلب إلى المواطنين القيام بالكثير من عمليات الشراء تعبيراً عن ازدرائهم الإرهابيين الخبثاء.

والرئيس بوش وموظفوه، السادة دونالد رامسفيلد وكولن باول وجون أشكروفت والسيدة كونداليسا رايس، يستنزفون كل هذه العدة من أجل تجييش القوات المسلحة للحرب في أماكن بعيدة بغية «تصفية الحساب» مع صدام، كما يسمونه في كل مكان. كل ذلك تحت راية آليات الرأسمالية التي تواجه تغيراً جذرياً يزعزعها. فقد بيّنت عالمة الاقتصاد جولي شور أن الأمريكيين يعملون اليوم لوقت أطول مما كانوا يعملون منذ ثلاثين عاماً ليربحوا أقل نسبياً. ومع ذلك تنعدم حتى الآن أشكال الاحتجاج السياسي الجدي والمنظم على معايير «السوق الحرة». وكما لو أن أحداً لا يهتم لضرورة تغيير النظام الذي يبقى الرأسمال الكبير المتحالف مع الحكومة الفيدرالية عاجزاً عن توفير التغطية الطبية الشاملة والمدارس العامة الجديرة بهذا الاسم. فأخبار البورصة تعود بالفائدة أكثر من إعادة النظر في النظام.

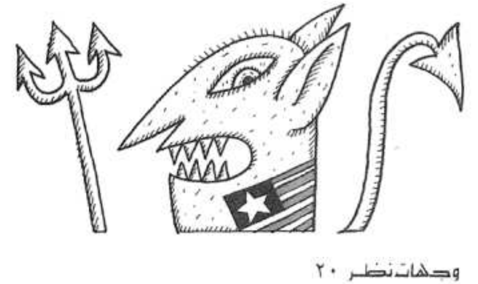
فكل ما في الأمر اختصار سريع لمفهوم الإجماع في الولايات المتحدة، والسياسيون يستغلونه ويحاولون اختزاله إلى مجرد شعارات تبسيطية.

لكن هناك في هذا المجتمع العجيب بتعقيداته، عدد من التيارات المعاكسة والبديلة. فالاعتراضات المتزايدة على الحرب والتي يحاول الرئيس التقليل من شأنها، تحصل في أمريكا من نوع آخر، أكثر تجرداً من الصفة الرسمية، هي أمريكا التي تحاول وسائل الإعلام (الصحف المرجعية مثل «نيويورك تايمز»، ومحطات التلفزة وعلى نطاق واسع المجلات ودور النشر) التعتيم عليها على الدوام. فنحن لم نشهد أبداً هذا النوع من التواطؤ المخزي، كيلا نقول الفضائحي، بين نشرات الأخبار المتلفزة واندفاع الحكومة إلى الحرب. فحتى المواطن من أدنى المستويات الذي يشاهد السي.إن.إن. أو أياً من المحطات العامة الكبرى ينطق بأحاديث انفعالية حول ما يمثله صدام من شرور وعن الحاجة إلى أن نقوم «نحن» بوقفه قبل أن يفوت الأوان. وكأن هذا لا يكفي، فإذا هناك هجمة على المحطات من العسكريين السابقين ومن الخبراء المتخصصين في شئون الإرهاب ومن المحللين السياسيين لأوضاع الشرق الأوسط من الذين لا يتكلمون أياً من لغات هذه المنطقة وربما لم تطأها أقدامهم، يرطنون جميعاً بما حفظوه عن ظهر قلب وهم يعظون المشاهدين حول ضرورة أن نحتل «نحن العراق ونقوم في الوقت نفسه بحماية نوافذنا وسياراتنا من أي هجوم مداهم بغاز الحروب».

وهذا الإجماع الذي رسم وأدير بكل عناية يطبق فيما يشبه الحاضر خارج الزمن. ففي الولايات المتحدة لا مكان للتاريخ في الخطابات العامة، بل إن الكلمة نفسها تحمل معنى العدم أو اللامعنى وخصوصاً في الجملة المستخدمة للتحقير ورمز الازدراء «أنت من التاريخ» «you're history» والمقصود بها أن «الزمن قد تجاوزك» وإذا تمت العودة إلى «التاريخ» فالمقصود بالكلمة ما يفترض بالمواطنين أن يؤمنوا به بالنسبة إلى وطنهم (وليس بالنسبة إلى سائر العالم المعتبر «قديماً» ومتخلفاً بشكل عام، أي لا يواكب العصر)، فيصدقون كل ما يقال من دون إعمال الروح النقدية أو الفحص التاريخي. وهنا يمكن تبين نوع من الاستقطابية المستغربة. ففي ذهن الشعب يفترض بأمريكا أن تبقى من جهة فوق التاريخ أو أن تتجاوزه، لكن من جهة أخرى هناك في كل البلاد تشبث بتاريخ كل شيء وأي شيء، من المواضيع المحلية الصغيرة إلى أخبار امبراطوريات العالم الرحبة.

ويجدر هنا التمثيل بما حدث منذ عشر سنين، إذ دارت معركة فكرية كبيرة حول أي صيغة من التاريخ يجب أن تعلم في المدارس. وفي النهاية فرضت نفسها وجهة نظر قالت بتاريخ للولايات المتحدة على شكل قصة وطنية بطولية واحدة لا يكون لها إلا أصداء إيجابية في أذهان الشباب. فدراسة التاريخ لا تهدف فقط إلى معرفة الحقيقة لكن إلى ضمان الصوابية الأيديولوجية في العروض الكفيلة جعل الطلاب مواطنين مطواعين مستعدين لاعتناق عدد من المواضيع الثابتة حول موقع الولايات المتحدة بالنسبة إليهم وإلى سائر العالم. ويجب أن تستأصل من هذه الرؤية المركزة على الجوهر مكوّنات ما يسمّى «ما بعد الحداثة» و«التاريخ الذي يفرق» (تاريخ الأقليات والمرأة والعبيد، إلخ).

غير أن هذه المحاولات لفرض معايير مضحكة بهذا الشكل قد باءت بالفشل، وقد لخصت ليندا سيمكوكس ما حدث: «بالتأكيد من الممكن الدفاع، كما أفعل، عن الفكرة القائلة بأن المقاربة (المحافظة الجديدة) لتعليم الحضارة تشكل محاولة لا يمكن تمويهها لزرع الرؤية الإجماعية في أذهان الطلاب، وهي رؤية خالية نسبياً من التناقضات. لكن المشروع سيئول إلى تغيير الاتجاه كلياً. فما بين أيدي المؤرخين للمجتمع وللعالم الذين يدبجون عملياً التعليمات للمعلمين ستصبح أي وثيقة رافعة للرؤية التعددية التي تحاول الحكومة محاربتها. وفي نهاية المطاف إن التاريخ الإجماعي (...) سيتعرض لنقد قاس من



كل هذه الأيديولوجيا تتوافق على القول بأن الولايات المتحدة تمثل الاستقامة والصلاح والحرية والأمل الاقتصادي والتقدم الاجتماعي. وهذه الأفكار تنصهر في الحياة إلى درجة أنها لا تبقى مجرد أيديولوجيات بل تبدو كحقائق «طبيعية»

أولئك المؤرخــــين الذين يؤمنون بـان العـدالة الاجـتـمـاعـيـة وتقـاسم السـلطة يفـرضـان قـراءة الماضى بطريقـة أكـثـر تركيبا».

وفـى الدوائر العـــــامــــة، وإن تكـن خـاضــعـة بـآلاف الطرق لوسـائل الإعـلام الكبــرى، نقـع على سلسلة كـاملة من «موضوعات الأخبار» كما أسميها، التى تنظم النقاش وتغلفه وتضع له حـدودا، بالرغم من مظاهر التنوع والتـعـدد، ولن أذكر هنا إلا بعضاً منها مما يبدو وثيق الصلة بأحداث الساعة. فاحدها هو هذه الـ «نحن» الجـمـاعـيـة، الهوية الوطنية المتجسدة ظاهرياً، بدون أى مشكلة، فى رئيسنا ووزير خارجيتنا وقواتنا المسلحة المنتشرة فى الصحراء، وفى مصالحنا المحددة عادة تحت عنوان الدفاع المشروع عن النفس، والمجردة من كل نوازع خـفـيـة والمفعمة بـ «البراءة».

ومـثل آخـر عن هـذه «الموضـوعـات» يتمـثل فى عدم مـصـداقـيـة التـاريخ ولا شرعـيـة الحـديث مـجـدداً عن السـوابق المحرجة، كالدعم الأمريكى للرئيس صدام حسين مـثـلاً أو لأسامة بن لادن، أو أيضـاً لكون حـرب فـيـتنام ومـا رافقـهـا من دمـار متميز يعتبر أمراً «سيئاً» بالنسبة إلى الولايات المتحدة، أو أنها شكلت، كما أكد السيد جيمى كارتر فى يوم من الأيام شكلاً من أشكال «التدمـيـر الذاتى المتـبـادل». والمستغرب أكثر أيضاً هو عملية التهميش المتـواصل وحـتى المؤسـسـاتى لأمـرين معـيشين رئيسين فى تكوين المجتمع، والمقصود استعباد الشعوب الأفرو- أمـريكيـة واغـتـصـاب أراضى الهنود الأمريكيين وإبادتهم بشكل ناجز تقريباً. ففى حين نجد فى العـاصـمـة واشنطن متحفاً للمحرقة اليهودية، ليس فى أى مكان آخر ما يماثله لا بالنسبة إلى الأفرو- أمريكيين ولا إلى الهنود الأمريكيين.

والمثل الثالث هو هذه القناعة العمياء بأن كل معـارضـة لسياستنا هى من نوع «العداء لأمريكا» وقائمة على الغيرة، إنهم يحسدوننا على «ديموقراطيتنا» (الحرية والثروة والنفوذ...) أو أيضاً أن فى الأمر شيئاً من الخبث الطبيعى لدى الأجانب الأوغـاد، كـمـا هى الحـال بالنسـبـة إلى فرنسا فى معارضتها الحرب على العراق. وفى هذا السياق يجرى باستمرار تذكير الأوروبيين بأن أمريكا قد أنقذتهم مرتين فى قـرن واحـد، على أسـاس أن مـعظم الأوروبيين ظلوا فى صفوف المتفرجين فى حين أن الأمريكيين هم وحدهم خـاضـوا الحرب.

أما فيما يتعلق بالمناطق التى تورطت فيـهـا الولايات المتحدة منذ نصف قرن تقـريبـاً، مـثل الشـرق الأوسط وأمـريكا اللاتينيـة، فـإن الموضـوعـة التى تقـدم الولايات المتـحـدة على أنها الوسيط الحيادى، كقوة دولية تعمل للخير، لا تجد من يدحضها جدياً. فنحن هنا إزاء فكر لا يأخـذ فى الاعـتـبـار رهانات السلطة والمكاسب المحققة ونهب الثروات وتغيير الأنظمة بالقوة و/أو بالانقلابات (مثلاً فى إيران فى العـام ١٩٥٣ وفى تشـيلى فى العام ١٩٧٣)، وهو فكر لا يكاد يسمح بأن تزعزعه جهود أولئك الذين يذكّرون بهذه الوقائع.

ونقـتـرب أكـثـر هنا من هذا النوع من الواقعية، مع التوريات المقيتة من جانب مؤسسات الأبحاث أو من الحكومة حيث يشار إلى «القوة الهادئة» أو إلى عملية «الإسقاط» أو «الرؤية الأمريكية». وقلما ظهرت فيها أيضاً (أو حتى يثار الحديث فيها) أخبار عن السياسة الوحشية والظالمة التى تضطلع فيـهـا واشنطن بالمسئولية المباشرة مثل دعمها حملة السـيـد أرييل شارون على المدنيين الفلسطينيين أو الخسائر الرهيبة فى أوساط المدنيين فى العراق بسبب نظام العقوبات، أو حتى الدعم المقدم للنظامين التـركى أو الكولومبى. وهذا كله يبقى خارج إطار أى بحث جدى فى السياسة الخارجية.

وهناك أخيراً الموضوعة الخاصة بالحكمة الأخلاقية المتجسدة تلقائيا فى رجالات الدولة (السيد هنرى كيسنجر أو السيد ديفيد روكفلر، كما بجميع مسئولى الإدارة الحالية)، وهى التسبيحة المتكررة فى كل مكان من دون فوارق تقريباً. فمثلاً إن تعيين اثنين من المحكومين قضائياً من زمن فضيحة واترجيت فى مناصب مهمة فى الحكم، وهمـا السـيـدان جـون بويندكستر واليوت ابراهمز أثار القليل من التعليقات، والأقل من الانتقادات. ويبـرز هذا النوع من التقـبـل الأعـمى للسلطة، الماضية أو الحالية، النظيفة أو الفاسدة فى أشكال متعددة تراوح بين الأسئلة، المحترمة وحتى المجاملة، من جانب المعلقين والخبراء، واقتصار النظرة لرجالات الدولة على صورتهم المجملة (مـثـلاً البدلة الداكنة اللون والقـمـيص الأبيض وحتماً ربطة العنق الحمراء)، البريئة من أى ماضٍ قد يشوهها ولو فى أدنى حـد. ومـا وراء ذلك هناك الإيمـان بالبراجماتية كنظام فلسفى يعتمد لإدارة الواقع، إنها براجماتية مضادة للماورائية وللتـاريخـانيـة وحـتى، وهنا الغرابة، للفلسفة. وهذا النوع من اللامسمّى من زمن مـا بعـد الحداثة يشكل إلى جـانب الفلسـفـة التحليلية أسلوب تفكير بالغ التأثير فى الجامعات الأمريكية. ففى الجامعة حيث أعلم مثلاً يدرِّس مفكرون مثل هيجل أو هايديجر فى فروع الأدب أو تـاريخ الـفـنـون، وإنمـا نـادراً فى بـاب الفلسفة.

إن هذه السلسلة من «رواية الأحداث الكبـرى»، العجيبة بثباتها هى التى تتولى وسائل الاتصال الأمريكية التى أنشئت ونشطت مؤخراً، نشرها مهما كلف الأمر وخصوصاً فى العـالمين العربى والإسلامى.

أما السياسات التى تتشبث بالتمايز فيجرى التكتم عليها عن قصد، وهى تشكل نوعاً من الذاكرة المختلفة شبه الرسمية نابعة من كون الولايات المتحدة بلد مهاجرين. وتبرز هذه الاختلافات من خـلال بعض الفجوات أو حـتى داخل مخـتلف «مواضيع الأخبار» هذه. لكن وللأسف قلة هم المعلقون فى الخـارج الذى يأخذون فى الاعتبار هذا «البحر من الانشقاقات». وسواء أكانت مجموعات الرأى هذه تقدمية أم رجعية فإنها تشكل، وتبـرز للعـين المتـمـرسـة، الرابط بين «مواضيع الأخبار» الكبرى وهو رابط غير بديهى.

فلو نظرنا مثلاً فى المعارضة الشديدة جداً على الحرب ضد العراق فإن صورة مـخـتلفـة تبـرز عن البـلاد. إنهـا ولايات متحدة مستعدة أكثر للتعاون الدولى والحوار. ولندع جانباً العدد الكبير من الأشخاص الذين يعترضون على الحرب خوفاً من الخسارة فى أرواح الأمريكيين أو بسـبـب كلفـة العـمـليـات، ناهيك بالانعكاسات المدمرة على اقتصاد هو أساساً فى حالة معاناة. كما أننى لن أنظر فى هذا المزيج المعقد الهائل من المحافظين الذين يرون أن أمريكا تتعرض لافتراءات الأجـانب المخـادعـين والأمم المتـحـدة والشيوعيين الكفار. أما بالنسبة إلى الفـريق الفـوضـوى والانعـزالى، هذا التحالف الغريب بين اليسار واليمين، فإنه لا يستدعى أى تعليق آخر هنا.

كـمـا أننى سـادع جـانبـاً أيضـاً هذا القسم الكبير جـداً من الطلبة الذين يعيشون حالة من الشكوك العميقة تجاه السياسة الخارجية الأمريكية فى مختلف أشكالهـا عملياً وخصوصاً فى مـجـال العولمة الاقتصادية، فهذه المجموعة التى تحدوها مبادئ أخلاقية والتى تصل بتصرفاتها أحياناً إلى حد الفوضوية، تمكنت من تحريك الجامعات فى الظروف الكبرى مثل حرب فيتنام والتمييز العنصرى فى جنوب أفريقيا والحقوق المدنية فى الولايات المتحدة نفسها.

إلا أنه يبقى علينا النظر فى العديد من جماعات الوعى، والتى تشبه ما يسمّى اليسار فى أوروبا وفى أفريقيا وآسيا علماً أنه لم يقم فعلاً فى أى لحظة منذ الحرب العالمية الثانية أى تشكيل فى الولايات المتحدة يشبه من زاوية ما الحركات الاشتراكية أو اليسار ذا النزعة البرلمانية، إذ أن نظام الحزبين يحكم قبضته جيداً.

إن هــذه السلســلة مـن «روايـــة الأحــــداث الكبـــرى»، العجيبـة بثباتهـا هــى التـى تتـــولى وســائـــل الاتصــــال الأمريكيـــــة التــــى أنشـــــئت ونشــــطت مؤخـــــراً، نشـــرها مهمـــا كلـف الأمـــــر وخصوصـــاً فى العالمـــين العـــربى والإســـلامى



الخطأ الكبير فى نظرية فوكوياما حــول «نهايــة التاريـــخ»، أو فى نظـريــة صموئيــل هنتنجتــون فى «صــدام الحضــارات» ناتج مــن كــون كليهما يفـترض خطـأ أن تاريـخ الحضارات يختصر بمسألة مراحل محددة، فى مواقـع زمنيــة محـددة بدقة

فهناك أولاً الجناح اليسارى من الجماعة الأفرو - أمريكية، أى تلك المجموعات المدنية التى تناضل ضد وحشية البوليس والتمييز فى مجال العمل وبؤس المساكن والمدارس، وتتزعمها أو تمثلها شخصيات مثل القس آل شاربتون والسيدين كورنل وست ومحمد على وجيسى جاكسون (وإن كان نجمه قد أفل إلى حد بعيد) وآخرين ممن يسيرون على خطى مارتن لوثر كينج.

وإلى هذه الحركات يمكن ضم العديد من التجمعات الإثنية اللاتينية والهندو - أمريكية والمسلمة، وقد بذلت جهوداً جبارة من أجل دخول الحكومات المحلية والوطنية والتمكن من المشاركة فى هذا أو ذاك من برامج الحوار المتميزة ليتسنى لها احتلال مواقع فى مجالس إدارات المؤسسات والجامعات والشركات الكبرى. لكن فى الإجمال لايزال يحرّك معظم هذه الجماعات الشعور بالظلم وبالتمييز أكثر منه الطموح، وهى بالتالى ليست جاهزة للالتحاق كلياً بهذا «الحلم الأمريكى» الخاص بشكل أساسى بالطبقات الوسطى البيضاء. وما يثير الاهتمام لدى شاربتون أو فلنقل لدى رجل مثل رالف نادر هو أنهم بالرغم من قدرتهم على الرؤية وإلى أنه يجرى التساهل معهم إلى حد ما فإنهم يبقون خارج النظام حيث لا يمكن استيعابهم كونهم متصلبين جداً ولا تغريهم بما يكفى المكافآت المعهودة.

وهناك فريق واسع من الحركات النسائية التى تناضل من أجل الحق فى الإجهاض وضد أعمال العنف والإرهاب ومن أجل المساواة فى العمل، يشكل ورقة رابحة أخرى فى التيار المعارض. وكذلك هناك بعض أصحاب المهن المتحفظين عادة وقد استغرقتهم مسائل المصالح الشخصية أو العملية (أطباء ومحامون ورجال علم وجامعيون بنوع خاص، إلى بعض النقابات وقطاع الحركة البيئية) ممن يساهمون فى دينامية هذه التيارات المعاكسة التى أعددها هنا حتى وإن تكن كهيئات نظامية تبقى مرتبطة بالنظام الاجتماعى وبما يفرضه من متطلبات.

وثم يجب عدم التقليل قط من قدرة الكنائس القائمة على أن تكون معيناً للمعارضات ولإرادة التغيير. ويجب الفصل بين أتباعها وأولئك الأصوليين أو المبشرين التلفزيونيين المذكورين أعلاه. فالمطارنة الكاثوليك مثلهم مثل العلمانيين وكهنة الكنيسة الانجليكانية إضافة إلى الكواكرز والمجمع الكالفانى، وبالرغم من الفضائح الجنسية فى أوساط الأول وتراجع تأثير الآخرين، قد اتخذوا مواقف تقدمية لافتة فى مسائل الحرب والسلام أو ثاروا على انتهاك حقوق الإنسان فى الخارج أو على الموازنات العسكرية الضخمة أو على السياسة الاقتصادية النيوليبرالية التى قضت على القطاع العام منذ أوائل ثمانينيات القرن الماضى.

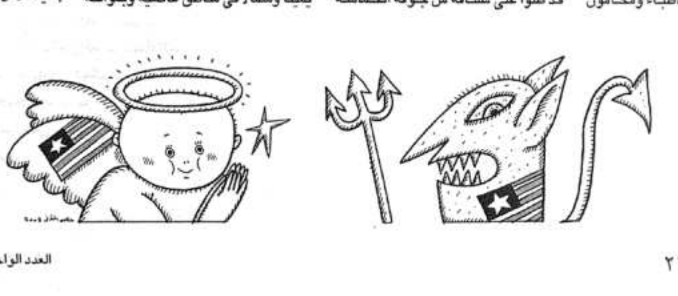
وتاريخياً كان هناك قسم من الطائفة اليهودية المنظمة التزمت على الدوام حركات النضال من أجل حقوق الأقليات داخل البلاد وخارجها. لكن منذ عهد ريجن، كان من شأن صعود المحافظين الجدد، وقيام التحالف بين إسرائيل واليمين الدينى إضافة إلى النشاطات المحمومة للحركة الصهيونية الهادفة إلى إقامة نوع من المعادلة بين انتقاد إسرائيل والعداء للسامية وحتى لإثارة المخاوف من «أوشفيتز أمريكية»، أنه خفف إلى حد كبير من الأثر الإيجابى لهذه القوة.

وأخيراً فإن عدداً كبيراً من هذه المجموعات والأفراد الذين يدعون إلى التجمعات والتظاهرات وسائر اللقاءات، قد ظلوا على مسافة من جوقة الحماسة الوطنية المرهقة هذه. وقد تجمعوا للدفاع عن الحريات المدنية (ومنها حرية التعبير عن الرأى) التى باتت مهددة بفعل «قانون الوطنية» «U.S.A. Patriot Act». فالتعبئة ضد قانون الإعدام وأحياناً ضد كل أشكال التعسف المتمثلة فى معتقلات جوانتانامو، والكراهية العامة تجاه السلطات العسكرية والمدنية، وحالة الإرباك الناتجة من نظام السجون الذى يخصخص أكثر فأكثر ليأسر من الأفراد (نسبة إلى عدد السكان) أكثر مما فى أى بلد آخر فى العالم (وبينهم عدد غير متكافئ من رجال ونساء ملونين...)، كل هذا يقض مضاجع الطبقات الوسطى.

وينعكس هذا الوضع المرتبك فى الحيز الافتراضى، حيث أمريكا شبه الرسمية تعارض أمريكا الرسمية. فمن المواضيع المقلقة مثلاً، الهوة التى تتعمق بين الأغنياء والفقراء إلى ما لا يمكن تصديقه من التبذير والفساد المسيطرين فى الدوائر المالية العليا وإلى المخاطر المستحقة مع نظام التقاعد بسبب مختلف أشكال الخصخصة وما يرافقها من جشع نادر، كل ذلك يستمر يغطى بقوة على الفضائل التى طالما امتدحت فى هذا النظام الرأسمالى الخاص بالولايات المتحدة.

فهل أمريكا هى فعلاً موحدة وراء هذا الرئيس الأمريكى صاحب السياسة الخارجية الاحترابية وصاحب النظرة الاقتصادية المبسطة بشكل خطير؟ وبكلمة أخرى هل هوية الولايات المتحدة قد حددت نهائياً بشكل يفيد أنه بات على سائر العالم أن يتعلم كيف يعيش فى ظل قوتها العسكرية (ونحن نجد العسكر الأمريكى فى العشرات من الدول)، فى ظل كتلة أحادية الأساس تخوض الحروب يميناً وشمالاً فى مناطق عاصية وبموافقة تامة من «جميع الأمريكيين»؟ لقد اقترحت هنا نظرة أخرى إلى الولايات المتحدة كبلد تعصف به الصراعات وحيث حالات الاحتجاج أكثر نشاطاً مما يقال بشكل عام. إنها أمة واقعة فريسة صراع هويات جدى، وقد تمكنت من كسب الحرب الباردة كما يطيب للبعض أن يقول، لكن انعكاسات هذا النصر فى الداخل قد لا تبدو جلية حتى الآن، فالصراع لم ينته. فالتركيز جداً على السلطة المركزية والعسكرية والسياسية، أى على الجناح التنفيذى، يعنى مجانبة المواجهة الداخلية المتواصلة والتى يبدو أن حسمها مؤجل.

فالخطأ الكبير فى نظرية فوكوياما حول «نهاية التاريخ»، أو فى نظرية صموئيل هنتنجتون فى «صدام الحضارات» ناتج من كون كليهما يفترض خطأ أن تاريخ الحضارات يختصر بمسألة مراحل محددة، فى مواقع زمنية محددة بدقة، لها بداياتها ونموها ونهاياتها. بينما فى الواقع يعتبر الحقل الحضارى السياسى ميداناً لصراع الهويات وتقرير المصير والإسقاطات مستقبلاً. فأى حضارة، وخصوصاً حضارة الولايات المتحدة، تكون مؤلفة من أطوار من الهجرات المتلاحقة، وذلك هو ربما أحد الانعكاسات غير المتعمدة للعولمة، أى ظهور جماعات عبر الحدود ذات مصالح عالمية مثل حركة حقوق الإنسان والحركة النسائية وحركة مناهضة الحروب إلخ. وليست الولايات المتحدة فى منأى عن كل ذلك، ويجب النظر ما وراء واجهة الوحدة البادية والمشاركة فى مجمل هذه الجدالات التى ينضوى تحتها عدد كبير من البشر فى العالم أجمع. وهكذا سيكون فى الإمكان إحياء الأمل والشجاعة. ■



أمريكيون فقـط!

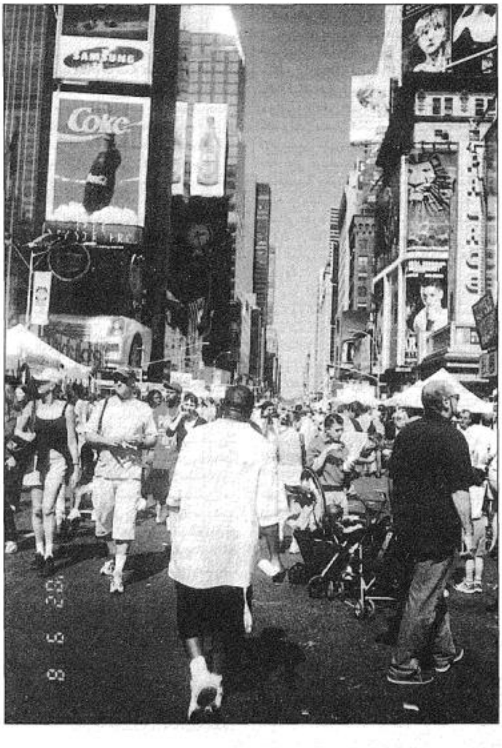
ديفـيـد بلانكـس

إذا استوقفت مواطنًا أمريكيًا عاديًا، فى شارع عادى، فى مدينة عادية من مدن الغرب الأوسط، وسألته عن رأيه فى الإسلام، فالمحتمل هو أنه سيهز كتفيه. ذلك أن معظم الأمريكيين ليست لهم آراء قوية بشأن العرب والشرق الأوسط والإسلام، أو بشأن العالم الخارجى بصورة عامة. ومن المؤكد أنك ستعثر على الشخص المتحمس الاستثنائى، من ذلك الصنف الذى يحب أن يكتب رسائل للمحرر، غير أن معظم الناس لا يقرءون حتى الصحف، ناهيك عن الكتابة إليها. وعمومًا تكشف رسائل القراء وجهة النظر المتطرفة، سواء أكانت فى اتجاه اليمين أم ناحية اليسار.

والمواطن الأمريكى، شأنه شأن غالبية مواطنى معظم الدول، تشغله أسرته وصحته ووظيفته (إن كانت له وظيفة) وسيارته (إن كان يملك سيارة). وهو يشاهد التليفزيون كثيرًا، أربع ساعات فى اليوم تقريبًا. وحين يبلغ الخامسة والستين يكون قد أمضى تسع سنوات كاملة أسيرًا لجهاز التليفزيون. ويكون قد أمضى القليل نسبيًا من هذا الوقت فى مشاهدة الأخبار. أما برامج الألعاب والبرامج الجماهيرية والبرامج الرياضية وقنوات الموسيقى وكوميديا الموقف والمسلسلات - أى عالم الخيال - فهى الغذاء اليومى.

وصحيح إلى حد كبير أن رجل الشارع ينشغل أحيانًا بحالة الأمة، إلا أن همومه، كما فى أى مكان آخر، فى معظمها هموم محلية؛ فهناك الاقتصاد والمدارس والجريمة والضرائب والفضائح السياسية وغيرها. وهو مستعد إلى حد كبير أن يغامر بالإدلاء برأيه فى السياسة الخارجية، ولكنه طبقًا لاعترافه هو سيكون رأيًا موحدًا. فالأمريكى العادى يعرف القليل عن العالم فيما وراء حدود الأمة. أما فيما يتعلق بالإسلام والعرب والشرق الأوسط على وجه الخصوص، فهو لا يعرف شيئًا البتة، بل ولا يهتم كثيرًا بذلك.

يقع بعض اللوم على الإعلام. ففى كثير جدًا من الأحيان لا تتخذ المنظمات الإخبارية موقفًا نقديًا من المعلومات التى تحصل عليها من الحكومة. بل الأدهى من ذلك أنها غالبًا ما تكون مذنبة فيما أسماه ناعوم تشومسكى «بروباجندا الصمت»؛ وهو ما يعنى عدم نقل تلك الأحداث التى تتنافى مع مصالح مجلس التحرير أو كبار من يقدمون لها الدعم المالى والسياسى. إلا أنه لا بد أن نكون حريصين على عدم المبالغة فى آثار تلك التشويهات. فالواقع أن هناك قدرًا من التواطؤ بين الحكومة وجماعات الضغط والمؤسسات المالية والإعلامية الكبيرة أقل مما يفترضه هؤلاء الذين يعيشون فى مناطق حرية الصحافة فيها مقيدة. وتستحق الصحف وشبكات التليفزيون الغربية انتقادنا حين لا تقدم رؤيتنا للأحداث. فقد جرت العادة منذ زمن بعيد على تجاهل قضايا تحظى بالاهتمام فى هذا الجزء من العالم، أهمها النفاق الخاص بتأييد أمريكا الأعمى لإسرائيل ورفضها إعطاء الفلسطينيين حقوقهم. إلا أن ما أريد توضيحه هنا هو أن السبب فى كون اللوبى اليهودى يبدو على هذه القوة فى واشنطن العاصمة هو نفس السبب الذى يجعل جماعات ضغط أخرى مثل «اتحاد البندقية القومى» على هذا النحو من القوة، أى لأنها تسعى سعيًا لا تحيد عنه لتحقيق أهداف بعينها لا تهم الأمريكيين كثيرًا. ومن ثم فإن تركيز الدعاية الإعلامية لن يصل إلى أصل المشكلة، الذى يكمن إلى حد ما فى نظام التعليم وفى الإحساس الأمريكى باللامبالاة والنزعة الانعزالية.



وهناك الكثير الذى يمكن قوله. فمعظم الأمريكيين لا يقرءون صحيفتى «واشنطن بوست» و«نيويورك تايمز». بل إن شبكة سى إن إن الدولية، التى يعتبرها المراقبون فى الخارج مرجعًا، ليست متاحة داخل الولايات المتحدة. ولا يشاهدها الأمريكيون بالمرة. أما المهتمون بالأخبار - ويبدو لى أن هؤلاء أقلية من السكان - فيحصلون على جرعتهم اليومية مع تناول وجبة الإفطار وهم يشاهدون برنامج Good Morning America أو Today Show ومقدارها ثلاث دقائق من الأخبار الدولية وساعات وساعات من أخبار الطقس والموضة وهوليوود والدردشة المحلية. أو ربما يشاهدون نشرة الأخبار المسائية على إحدى الشبكات القومية («إن بى سى» أو «إيه بى سى» أو «سى بى سى»). أو يقرءون «يو إس توداى»، وهى الصحيفة التى نادرًا ما تستكتب النقاد الإعلاميين الدوليين ولكنها تمثل آراء رجل الشارع الأمريكى أكثر من مطبوعات الساحل الشرقى البارزة التى هى أهداف معتادة للمفكرين غير الغربيين.

ولكن حبرًا كثيرًا جدًا استغل فى الكتابة عن هذا الموضوع. غير أننى أظن أن الأمر يستحق التفكير فى الجانب الآخر من المعادلة. فبدلاً من تحليل ما يقال للأمريكيين، قد يكون من المفيد محاولة تحديد ما الذى يفكرون هم فيه بالفعل. صحيح أنهم يتلقون جرعات يومية من المعلومات غير الدقيقة والناقصة، ولكن هذا نصف التحليل. ونحن نقرأ القليل جدًا عن كيفية استيعاب هذه المعلومات المنحازة وتأويلها. وإذا كان العرب والمسلمون يريدون أن يكونوا فعالين فى جعل أصواتهم مسموعة، فإن عليهم أن يقطعوا شوطًا بعيدًا جدًا فى محاولة فهم نفسية جمهورهم المستهدف. وهذه ليست بالمهمة السهلة.

بداية، ليس هناك بالطبع شىء اسمه «الأمريكى العادى»، فكل إنسان له آراؤه الخاصة (أو يفتقر إليها)، التى عادة ما تشكلها الظروف الشخصية أكثر من الأمر القومى. وينطبق هذا على المجتمعات الأخرى كذلك. إلا أنه بدون أن يعيش المرء التجربة بنفسه، ومع مرور معظم المعلومات من مصفاة إعلامها القومى، يصعب على مواطنى الدول الأخرى أن يفهموا فهمًا تامًا مقدار تغاير الولايات المتحدة. قد يدهش كثيرون فى العالم النامى حين يعلمون، على سبيل المثال، أن أكثر من ٣٤ مليون أمريكى (١٢,٥٪) يعيشون دون خط الفقر، أو أن أقل من ٢٥٪ حاصلون على شهادات جامعية.

هذه الإحصائيات مهمة لأن هناك علاقة متبادلة بين الثروة والتعليم واحتمال أن يكون لدى الأمريكيين آراء مقبولة عن الإسلام والعالم العربى. ففى أغلب الأحيان لا يمتلك الفقراء والأميون الأدوات الفكرية اللازمة للتمييز بين شعب ما وحكومته، أو بين دين ما والطيف العريض من الممارسات والتأويلات التى ترتبط به. ويعنى هذا أن هناك حدًا لمدى تعليم «الأمريكى العادى» كيف يفهم أن المسلمين والعرب أفراد، يعيش كل منهم ويفكر بطريقته، وأن الأنماط المقولبة شديدة التعميم التى تقدمها وسائل الإعلام هى كذلك وحسب. وهذه مشكلة يمكن التغلب عليها، ولكن ليس من خلال الوسائل التقليدية مثل إنشاء

الأمريكى العادى يعرف القليل عن العالم فيما وراء حدود الأمة. أما فيما يتعلق بالإسلام والعرب والشرق الأوسط على وجه الخصوص، فهو لا يعرف شيئًا البتة، بل ولا يهتم كثيرًا بذلك

مواقع إسلامية على الإنترنت أو بث برامج موالية للإسلام. وهذا لا يعنى أن هذه المبادرات غير مفيدة، بل هى مفيدة بالفعل. ولكنى أود فقط أن أوضح أن أمريكيين كثيرين لا يطلعون بالمرة على تلك الأنماط من التقارير الإعلامية الموضوعية التى يطالب بها كثيرون فى الشرق الأوسط. وإذا أمكن إقناعهم بحال من الأحوال، فلا بد أن يكون ذلك من خلال وسائل مختلفة.

ومن الناحية الدينية كذلك، تعد أمريكا أكثر الأمم تغايرًا. فكل نظام إيمانى فى العالم قد حط على شواطئها. وقد يكون مستغربًا كذلك بالنسبة لبعض غير الغربيين أن يكتشفوا أن الأمريكيين عمومًا شديدو التدين. فالأمريكيون الذين يؤمنون بالله أكثر بكثير من نظرائهم الأوروبيين أو الإسرائيليين، وهم أكثر انتظامًا فى حضورهم الصلوات فى أماكن العبادة. وتبين دراسة أجريت مؤخرًا بعنوان «مسح التعرف على الهوية الدينية الأمريكية» (٢٠٠١) أن الأمريكيين أقل علمانية مما يفترضه كثير من غير الأمريكيين. وقد طرح الاستطلاع على المستجوبين السؤال التالى: «حين يتصل الأمر بموقفك، هل تعتبره (١) علمانيًا أم (٢) علمانيا إلى حد ما أم (٣) دينيًا بعض الشىء أم (٤) دينيًا؟». إجمالاً، وصف ١٦٪ موقفهم بأنه علمانى أو علمانى إلى حد ما، بينما وصف ٧٥٪ موقفهم بأنه دينى أو دينى إلى حد ما.

وتحت سطح هذه الاستطلاعات تقع متاهة التعقيدات المتصلة بالانتماء والإخلاص والمكانة الاجتماعية والهوية والنفسية الشخصية وما شابه. ومع أن نصف الـ٧٦.٥٪ من الأمريكيين الذين وصفوا أنفسهم بأنهم مسيحيون تقريبًا من البروتستانت، فإن العقائد والممارسات البروتستانتية متنوعة تنوعًا يدعو للدهشة: فهى تتراوح بين أساليب الحياة المسالمة المعادية للحداثة الخاصة بطائفة الأميش فى أوهايو وبنسلفانيا وطوائف البقاء المسلحة والخطيرة فى الشمال الغربى الباسيفيكى. فالمسالمون يحبون الجميع، بينما الفاشيون لا يفعلون سوى الكره، وبهذا المعنى لا تقف أى من الجماعتين مع الشرق الأوسط. إنهم قد يعانقون الجميع (أو يطلقون النار عليهم) دون تفريق بينهم.

وكشأن الكثير من هذه الجماعات الهامشية، يعتمد كذلك عدد كبير من الطوائف البروتستانتية الأكثر انتماء إلى التيار العام على التفاسير الحرفية الصارمة الخاصة بهم للكتاب المقدس. ولكن فى غياب سلطة لاهوتية مركزية كالبابوية، وصلت هذه الجماعات إلى نتائج شديدة الاختلاف بشأن معانى نصوصها الدينية. ومن ثم فليس من الحكمة المبالغة فى التعميم عند تقييم أدوارها فى التيار العام للسياسة الخارجية الأمريكية. ويصف نصف السكان تقريبًا أنفسهم بأنهم بروتستانت، ولكن هذا لا يعنى أنهم جميعًا يفكرون بطريقة واحدة. فالأمر ليس كذلك بالمرة.

ولنأخذ فلسطين على سبيل المثال. فاليمين الإنجيلى المحافظ كان على الدوام الأكثر تأييدًا لإسرائيل. وفى وقت الانتخابات الرئاسية السابقة فى عام ٢٠٠٠، كان معظم الناس فى العالم العربى يؤيدون الجمهوريين، لأنهم كانوا مرعوبين من فكرة وجود نائب رئيس يهودى فى البيت الأبيض الديمقراطى. وما لم يدركوه هو أن المسيحيين الإنجيليين جمهوريون فى أغلبهم، وأن أجندتهم أكثر تأييدًا لإسرائيل من أى أمريكيين ليبراليين، بمن فيهم الكثير من اليهود.

وهذا أمر مرعب آخر. فلماذا يؤيد الإنجيليون إسرائيل؟ لماذا يجمعون المال ويوقعون التماسات البريد الإلكترونى وينشئون المنظمات المحلية؟ هذا ليس نتيجة للإعلام، أو الضغط من جانب اللوبى اليهودى، أو أى عامل خارجى آخر. ومع أن قيادتهم تتحدث بلغة الأمن، فإن معظم المؤمنين يؤيدون إسرائيل لأسباب دينية: أى تلك الأسباب التى وردت فى سفر الرؤيا، آخر أسفار العهد الجديد الذى يتنبأ بهرمجدون، وهى المعركة الأخيرة مع المسيخ الدجال التى سوف تنتهى بانتصار المسيح وبداية مملكته على الأرض. وفى استطلاع أجرته مؤخرًا «تايم/سى إن إن» ذكر ٥٩٪ ممن أجريت معهم المقابلات أنهم يؤمنون بأن نبوءات الكتاب المقدس سوف تتحقق، وقال ٣٦٪ إنهم يؤيدون إسرائيل. لماذا؟ لأنهم يؤمنون بنبوءة الكتاب المقدس بضرورة أن تكون الغلبة لإسرائيل قبل أن يعود المسيح إيذانًا بقيام القيامة ونهاية العالم. ويعتقد حوالى ٢٥٪ ممن استطلعت آراؤهم أن الكتاب المقدس تنبأ بهجمات الحادى عشر من سبتمبر. فماذا نفعل مع إحصائيات كهذه؟ إنها فى أهون الظروف تبين أنه على من يشعرون أنه يمكنهم كسب الدعم للقضية الفلسطينية عن طريق الشكوى من اللوبى اليهودى أن يعيدوا النظر فى موقفهم، فليس من الممكن كسب اليمين المسيحى.

ومع ذلك هناك فرصة كبيرة فى الوسط. فأغلبية الأمريكيين - بروتستانت التيار العام ونظراؤهم من الكاثوليك - على استعداد للمطالبة بأن لا تقف الولايات المتحدة مع أى جانب فى الصراع الفلسطينى الإسرائيلى. ورغم صحة أن حوالى ٤٧٪ من الأمريكيين متعاطفون مع الموقف الإسرائيلى - وهو نفس الرقم الذى لم يتغير منذ عام ١٩٦٧ - فإن الغالبية العظمى، التى تبلغ أكثر من ثلاثة أرباع الأمريكيين، تريد من الحكومة أن تعيد كل القوات التى فى الخارج، وتلغى المساعدات الخارجية، بل وتنسحب من الأمم المتحدة، تلك المؤسسة التى لا يفهمها الكثير من الأمريكيين ولا يثقون فيها فى واقع الأمر. (تصور سلسلة من الروايات الجديدة عن سفر الرؤيا تحظى بشعبية كبيرة، السكرتير العام للأمم المتحدة على أنه المسيخ الدجال.) وهذه آراء غير واقعية، ولكن مصدرها ليس الإعلام. إنها نتيجة للنزعة الانعزالية بكل تجلياتها.

ولم يعتد الأمريكيون عمومًا كشعب محاولة فهم الثقافات الأجنبية. فهم مبعدون - ذهنيًا وماديًا - عن سائر العالم. وهم لا يتحدثون اللغات الأجنبية. ولا يسافرون. قد يكون من الصعب تصديق أن أقل من ١٠٪ من الأمريكيين لديهم جوازات سفر، ولكن هذا هو الواقع. بل إن الرئيس بوش نفسه لم يسافر خارج الولايات المتحدة إلا مرتين قبل انتخابه، إحداهما للمكسيك والأخرى لكندا. وهذا معناه كبير. وليس هناك ما يجبر المواطن العادى فى إحدى مدن الغرب الأوسط العادية على النظر خارج حدوده. فما الداعى لذلك؟ فالعالم الخارجى لا يؤثر عليه فى واقع الأمر بأية طريقة كانت. وليس مستغربًا أن يهز كتفيه. ومع أن هذا أمر يدعو للأسف، فهو مفهوم كذلك. إذ ما عدد من يعرفون فى الشرق الأوسط الكثير عن الصراعات الواقعة فى أماكن مثل أيرلندا الشمالية أو زيمبابوى أو كشمير أو سريلانكا؟ من المؤكد أن هناك اختلافات كبيرة. فالحكومات العربية بصورة عامة غير مشاركة لهذه الدول من الناحية السياسية. بل إن الموضوع هو أنه حين يتصل الأمر بالواقع اليومى، نجد أن الأمريكى العادى بعيد عن المشاكل التى فى فلسطين بعد المصرى العادى عن المشاكل التى فى كولومبو.

ولكن من الناحية الجدلية هناك مسئولية أخلاقية على مواطنى أقوى دولة فى العالم كى يُعْلِموا أنفسهم بأثر سياسات حكومتهم المدمر فى كثير من الأحيان على الدول الأخرى، ولكن من غير الواقعى أن نظن أنهم سوف يصلون فى يوم من الأيام إلى مستوى الوعى السياسى اللازم لخلق سياسة خارجية مستنيرة والسعى لتحقيقها. وكشأن معظم الناس فى الأزمنة والأمكنة الأخرى، يهتم الأمريكيون أكثر ما يهتمون بالأشياء التى تتصل بهم اتصالاً يوميًا؛ وهم على عكس من يعيشون فى أماكن أخرى من العالم، وخاصة فى الشرق الأوسط، نادرًا ما يتأثرون بالأحداث التى تقع خارج منطقتهم. فهم لا يرون أن لذلك صلة بحياتهم، ولا يريدون فى الواقع أن يشغلوا أنفسهم بالسياسة، وخاصة سياسة الدول الأخرى.

إن فى أذهانهم أشياء أخرى. وهذه هى الطبيعة البشرية، ربما يكون الأمر محزنًا ولكنه واقع البشر. ولنتذكر أنه قبل الحادى عشر من سبتمبر كلف أقل من ٤٠٪ من الأمريكيين الذين يحق لهم التصويت أنفسهم عناء الإدلاء بأصواتهم فى انتخابات الرئاسة. وهذا معناه أن فريق بوش فاز بتأييد من حوالى ٢٠٪ من الأمريكيين، وكان معظم هؤلاء يصوتون بشأن قضايا محلية. أما عدد الأمريكيين الذين صوتوا لمصلحة جورج بوش بناء على سياسته الخارجية فضئيل جدًا. فالغالبية لا تهتم. ذلك أنها مسألة بعيدة كل البعد. وكان الذين هاجموا مركز التجارة العالمى يدركون هذا، وتغير الموقف تغييرًا مؤقتًا، إلا أنك ستدهش من السرعة التى تمكن بها الناس من العودة إلى عاداتهم الذهنية المألوفة.

ومن المفارقة أن مواقف الأمريكيين تجاه الإسلام والعالم العربى ربما تكون قد تحسنت بعد الحادى عشر من سبتمبر. إذ يبين استطلاع للرأى أجرته مؤخرًا «إيه بى سى نيوز/بيليفنت»، أنه بينما ذكر ٣٩٪ من الأمريكيين أنه تَكَوّن لديهم انطباع سيئ عن الإسلام فى أعقاب الهجوم على مركز التجارة العالمى، هبط هذا الرقم إلى ٢٤٪. وطبقًا لما أظهره الاستطلاع نفسه، ينظر ٤١٪ من الأمريكيين إلى الإسلام نظرة طيبة، ويعتقد ٤٢٪ أن الإسلام يدعو إلى احترام معتقدات غير المسلمين، ولا يعتقد ٥٧٪ من الأمريكيين أن الإسلام يشجع العنف. وهذا يعطينا شيئًا ننطلق منه. ففى الوقت الذى يزداد فيه اهتمام الأمريكيين بالشرق الأوسط، تكون هناك فرصة لعرض وجهة النظر العربية والإسلامية على الأمريكيين الذين يسعون للحصول على المزيد من المعلومات وعلى قدر أكبر من الفهم.

على سبيل المثال، وفيما يتعلق بالدين، لم يكن هناك قبل الحادى عشر من سبتمبر كتاب واحد ضمن المائة كتاب الدينية الأكثر مبيعًا على قائمة موقع «أمازون» عن الإسلام. أما الآن فهناك أربعة كتب عن الإسلام ضمن الكتب العشرة الأكثر مبيعًا. وبالمثل، اتجه ٢٣٪ من مرتادى الإنترنت الأمريكيين منذ الحادى عشر من سبتمبر إلى مصادر الشبكة للحصول على مزيد من المعلومات. وفى الجامعات كذلك يزداد عدد المتقدمين لبرامج فى الدراسات العربية والشرق أوسطية، ولأول مرة فى التاريخ الأمريكى يصبح الإسلام والعالم العربى جزءًا مطلوبًا فى منهج الجامعات والمدارس الثانوية فى أنحاء البلاد. فعلى سبيل المثال، يلزم فى إحدى مدارس كاليفورنيا الآن أن يحضر طلاب الصف السابع (١٣ عامًا) دورة مكثفة لمدة ثلاثة أسابيع عن الإسلام يتعلمون فيها مبادئ العقيدة، ويدرسون أهم الشخصيات، ويرتدون الجلباب، ويتخذ كل منهم اسمًا مسلمًا، ويمثلون جهادهم (بغض النظر عما يعنيه هذا). ورغم وجود مشاكل فى مثل هذا المنهج، إلا أن وجوده أفضل من عدم وجوده بالمرة.

وكان لا بد أن يكون هناك رد فعل معاكس. إذ اشتكى بعض أولياء الأمور من أن القوانين التى تحكم الفصل بين الكنيسة والدولة تمنع تعليم المسيحية بنفس الطريقة. وفى أماكن أخرى رفع ثلاثة طلاب ومنظمة مسيحية محافظة دعوى ضد جامعة نورث كارولينا بشأن شرط جديد يقضى بأن يقرأ كل الطلاب الجدد كتاب Approaching the Qur'an: The Early Revelation الذى يشمل تفسيرًا للإسلام وخمسة وثلاثين نصًا مترجمًا من القرآن نفسه. كما يلزمهم بحضور مناقشة جماعية للكتاب. سوف يكون الجيل المقبل من الأمريكيين على علم بالإسلام أكثر من آبائه. ويتبقى أن نرى كيف سيكون رد فعل الليبراليين داخل المؤسسة السياسية، وسائر العالم بصورة عامة، تجاه هذا. وكما أشار ستيفن والدمان وديبورا كالدويل، فإن الحادى عشر من سبتمبر يسرع عملية إيجابية كانت تحدث بشكل من الأشكال. ومع أن هذا لا يبدو محتملاً فى الوقت الراهن، فإننا بعد عشرين سنة من الآن قد ننظر إلى هذا على أنه اللحظة التى أصبح فيها الإسلام واحدًا من أديان التيار العام الأمريكية.

إنها فرصة أخرى فى سبيلها للوجود. وبإمكان من تهمهم صورة الإسلام أن يحدثوا فرقًا. إذ يمكنهم عن طريق دعم منظمات مثل مجلس العلاقات الأمريكية الإسلامية، ومجلس التنسيق السياسى الإسلامى الأمريكى، والمجلس الإسلامى الأمريكى، المساعدة فى تشكيل مواقف الأجيال القادمة. وسوف يكون من المفيد بصورة خاصة لو أعطيت الفرصة لأفراد أمريكيين حقيقيين أحياء كى يجلسوا ويتحدثوا مع أفراد عرب ومسلمين حقيقيين أحياء؛ ولكن معظم الأمريكيين لم يلتقوا بأى من هؤلاء. ولأننا نعيش فى الشرق الأوسط، ننسى أحيانًا مدى اختلاف السكان المسلمين والعرب فى أمريكا. فمعظم الأمريكيين العرب ليسوا مسلمين، ومعظم المسلمين الأمريكيين ليسوا عربًا.

وقرأت مؤخرًا أن حوالى ٣٠٠ ألف أمريكى اعتنقوا الإسلام فى الولايات المتحدة منذ الحادى عشر من سبتمبر. وأنا أرى أن هذا رقم مبالغ فيه، إلا أن هناك اتفاقًا - وإن لم يكن



أمريكيون فقط!

عامًا - على أن الإسلام أسرع الأديان انتشارًا فى أمريكا. ومع ذلك فالأعداد نفسها غير مؤكدة، وهى مصدر للتصارع الإعلامى بين الأطراف المعنية. وتتراوح تقديرات عدد المسلمين الأمريكيين بين مليون وستة ملايين.

وهناك على أقل تقدير ثلاث دراسات قومية أجراها فى منتصف التسعينيات مركز أبحاث شيكاغو، وجامعة ميشيجان، وجامعة كاليفورنيا بلوس أنجلوس، حيث وجدت جميعها أن المسلمين يمثلون حوالى ١,٥ بالمائة من عدد السكان فى أمريكا، وهو ما يجعلهم أكثر قليلاً من المليون. ويرد بعض علماء السكان بأن تلك التقديرات المنخفضة تقلل عدد المسلمين بصورة كبيرة، لأن الكثيرين لا يثقون فى الحكومة ويرفضون الرد على أية استطلاعات. ومع ذلك يعترف الكثير من المسلمين بأن هناك شكًا كذلك فى رقم الستة ملايين. وهم تبعًا لتركيبتهم العرقية ٢٦,٥٪ عرب من الشرق الأوسط، و١٠,٣٪ شرق أوسطيون غير عرب، و٢٤,٧٪ من جنوب آسيا، و٢٣,٨٪ أمريكيون أفارقة، و٦,٤٪ من شرق آسيا، و١١,٦٪ من أماكن أخرى. وفى هذه الحالة كذلك ليس هناك «مسلم أمريكى عادى». ويدلنا هذا على أنه كما هو شأن البروتستانت والكاثوليك واليهود، إذا أثبت المسلمون أنفسهم فى أمريكا فسوف يكون شكل الإسلام الخاص بهم شكلاً أمريكيًا مميزًا. ولا بد أن يؤخذ هذا كذلك فى الحسبان فى تحليلات المناخ الاجتماعى السياسى فى أمريكا.

ينطبق الشىء نفسه على الأمريكيين العرب. فهم جماعة مختلفة، ولا يعلم أحد كم عددهم على وجه الدقة. ويزعم المدافعون عن الأمريكيين العرب أن هناك خطأ فى تعدادهم وأنهم مقدرون بأقل من عددهم الحقيقى، إلا أن أعدادهم مبالغ فيها من جانب نفس المدافعين عنهم. وإذا أخذنا كل الأمور فى الحسبان، فمن المعتقد أن ما يتراوح بين مليون وثلاثة ملايين عربى يعيشون فى أمريكا، ٤٧٪ منهم لبنانيون، و٩٪ مصريون، و١٥٪ سوريون و٣٪ عراقيون وغيرهم ممن يمثلون اثنتين وعشرين دولة. ويتركز معظمهم فى المدن الكبرى فى كاليفورنيا وميشيجان ونيويورك. وأغلب هؤلاء من المسيحيين موزعون كالتالى: ٤٢٪ كاثوليك، ٢٣٪ كاثوليك، و٢٣٪ مسلمون، و١٢٪ بروتستانت. ومن بين الأمريكيين العرب المشهورين كيسى قاسم وياسمين بليث وسلمى حايك ودوج فلوتى ورالف نادر وسبنسر ابراهام وشانون إليزابيث وتونى شلهوب وبولا عبدول. والمواجهة الشخصية المباشرة مع أى من ملايين الأشخاص هؤلاء سيكون لها أثر فى تشكيل رأى أمريكى عن الإسلام والعالم العربى أكبر بكثير من التصريحات الصوتية القصيرة نصف المهضومة من السى إن إن. وهذا هو ما يجب أن نوجه جهودنا إليه.

لماذا يصعب تحقيق الفهم المتبادل؟ إذا نظرنا إلى الأمر من اتجاه واحد لوجدنا أن العرب والأمريكيين تجمعهم أشياء مشتركة كثيرة تفصلهم عن الأوروبيين. فهناك الإيمان بواجب الضيافة والصداقة، وروح الدعابة، وعمق الشعور الدينى، وتقدير الأسرة، والمقاربة البريئة المرحة للحياة. فلماذا لا يكونون على وفاق؟ شعورى هو أنهم كانوا كذلك فى الماضى، وسيعودون كذلك من جديد فى المستقبل القريب، وأنه بمجرد تغير المناخ السياسى الحالى - وسوف يتغير - سيتقارب الشرق الأوسط والغرب الأوسط الأمريكى. وهما قريبان بالفعل، وإن كان هناك الكثير الذى يجب عمله.

إن أعظم وسائلنا لتحقيق ذلك هى أنفسنا. غير أن هذه الوسيلة لا تحقق النتيجة المرجوة دائمًا. فقد أمضيت نصف عمرى مدافعًا عن الوطن العربى وشرحه للأمريكيين، والنصف الآخر مدافعًا عن الأمريكيين وشرحهم للعرب، ولم تكن أى من الجماعتين فى يوم من الأيام سعيدة بسماع ما كان يجب أن أقوله. والتفكير فى هذه الأشياء يقلب ميزان افتراضاتنا الدقيق. وما من أحد يريد ذلك، لأنه مزعج شديد الإزعاج. وفى يوم من الأيام قال صمويل جونسون: «الغضب من شخص يعارض رأيًا تقدره أنت هو النتيجة الحتمية لما تشعر به من ضيق. فأى إنسان يهاجم معتقدى يقلل إلى حد ما ثقتى فى هذا المعتقد، الأمر الذى يجعلنى أشعر بالضيق. وأنا أغضب ممن يجعلنى أشعر بالضيق».

سمعت أمريكيين يقولون كلامًا معاديًا للعرب، غير أنى لم أواجه قط أى تحامل شخصى ضدى، ولا ضد عائلتى المصرية، ولا ضد أصدقائى المصريين. بل على العكس من ذلك، يخرج الناس عن عاداتهم كى يشعرونا بالترحيب. وبالمثل، حين يكون لدى أصدقاء وزملاء عرب يتفوهون بأشياء سيئة عن أمريكا، لم أواجه قط أى تحامل شخصى ضدى، ولا ضد عائلتى الأمريكية، ولا ضد أصدقائى الأمريكيين. إن أكثر الأنماط المقولبة سلبية، على الجانبين، عابرة وليست ذات صفة رسمية وغير متروية. فأى تعليق معاد للمسلمين غير صادر عن تفكير متروٍّ لا يتساوى مع السياسة الراسخة الموالية لإسرائيل أو المعادية للعراق. فمعظم آراء الناس سطحية، ومن السهل زعزعتها.

ولكن مواقع الإنترنت، ومقالات صفحات الرأى، وحشد الجماعات، والمؤتمرات الأكاديمية لا يمكنها وحدها أن تؤدى الغرض. أول كل شىء هو أن الأحداث العالمية لا بد أن تأخذ مجراها، وهناك القليل الذى يمكننا كأفراد عمله بشأن ذلك. إلا أنه يمكننا فى الوقت ذاته كأفراد أن نحدث فرقًا، مع الأفراد الآخرين. وهذا ما ينبغى أن يفعله العرب والأمريكيون؛ فنحن أفراد متفردون مستقلون فى أفكارنا ولدينا أنساقنا الشخصية من الحاجات والمعتقدات والحدود والتناقضات. وإذا تذكرنا ذلك، حين ندلى برأى عن الجانب الآخر، سوف نقطع بذلك خطوة كبيرة فى اتجاه التمهيد لفرص جمة تنتظرنا فى المستقبل. ■

كتاب الزاوية

مقدمة ابن خلدون

مقدمة ابن خلدون التى اشتهرت بهذا الاسم هى مدخل موسع لكتابه الشهير «العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر».

ويقع الكتاب فى سبعة مجلدات يتصدرها المقدمة التى تحدثت عن حقائق جغرافية ورياضية وعمرانية وفلكية كثيرة.

كما تناولت أحوال البشر واختلاف طبائعهم والبيئة وأثرها فى الإنسان وتطور الأمم والشعوب وأسباب انهيارها.

وقد سبقت أفكار ابن خلدون فى هذا المجال علماء غربيون كثيرون وخاصة فى أحوال المجتمع الإنسانى أو ما أسماه العمران البشرى، واعتبرها المؤرخون نقلة نوعية فى دراسة التاريخ التى لم تعد مجرد سرد للأحداث، بل ميدانًا للتفكر والتحليل والاستنباط.

ولد ابن خلدون، واسمه بالكامل عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، عام ١٣٣٢ ميلادية فى تونس لأسرة تنتمى إلى فرع من قبيلة كندة ودخل أجداده الأندلس وبسقوط أشبيلية انتقلوا إلى تونس وفيها درس العربية والقرآن والفقه وتقلد عدة مناصب ثم غادر تونس إلى القاهرة عام ١٣٨٢، ثم زار الأماكن المقدسة فى الحجاز وعاد للقاهرة ثانية حيث توفى عام ١٤٠٦ ميلادية.

امتاز ابن خلدون بسعة اطلاعه وقدرته على استعراض الآراء ونقدها ودقة الملاحظة مع حرية فى التفكير وكان لخبرته فى الحياة السياسية والإدارية وفى القضاء وكذلك أسفاره أثر بالغ فى موضوعيته وعلمية كتاباته.

العـــولمة.. والعـــولمة

أولا: عن معضلة العولمة والعولمة المضادة، وكيفية تناولها

(أ) العولمة، ويالها من ظاهرة..!!

العولمة مصطلح طاغ، شاع استخدامه حتى شبهت هذه الظاهرة الكونية بالغانية التي تطوف بجميع الموائد: موائد أقطاب السياسة، وأباطرة الإعلام، ورجال الأعمال والأموال، وكبار التكنوقراط، ومنظري الثقافة وعلم الاجتماع، بل وفلاسفة العلم والفن والأخلاق. تصبو العولمة الراهنة إلى احتواء كل أنشطة الإنسان وممارساته، وعلاقاته وأفكاره وقيمه ومعتقداته، وأمور تنميته وبيئته وصحته وشغل أوقات فراغه، بالإضافة إلى كل ما يتعلق بالسيادة والهوية وحقوق الأقليات والملكية الفكرية، وحتى عالم الشر لم يحرم هو الآخر نصيبه من غطاء العولمة: من جرائم المافيا وغسيل الأموال وتجارة المخدرات، وفساد الحكومات والمؤسسات.

إن العولمة مفهوم مجرد مركب يعني الكثير ويختلف معناه لدى الكثيرين، وربما يكون ذلك هو ما حدا بجون جراي أن يخصص فصلا في كتابه «الفجر البازغ» بعنوان «ما لا تعنيه العولمة»، وهذا حالها، فقد تعددت الآراء بشأنها! فهناك من يراها دين الحداثة ومن يعتبرها نذير نهايتها، فالمتحمسون لها يسيطر عليهم اعتقاد بأن الجنس البشري لديه القدرة - لأول مرة - على بناء مستقبله، لا على أوهام أيديولوجية سقيمة، بل على مجموعة من الأسس والقيم العامة المشتركة بين البشر جميعا، ويقوم هذا الاعتقاد على أن حداثة الغرب لا نهاية لها، ولا تعمل على نمط نهائي: فهي إلى تطوير مستمر منفتح على المجهول، وهي - أي الحداثة - تتجدد دوما كلما تجددت العلاقات بالقديم، والوعي بخصائص ما هو قادم. على النقيض من ذلك، هناك من يرى العولمة وهمًا وخداعًا، ومحاولة متسرعة لإضفاء نوع من المشروعية على الرأسمالية الراهنة وليدة التكنولوجيا الحديثة.

ومن منظور تاريخي، هناك من يرى عولمة هذه الأيام مجرد بداية تمهد لنقلة نوعية حادة من حداثة غاربة إلى ما بعد حداثة بازغة، ومن يراها مجرد طور جديد متقدم من الحداثة، واستمرار لنفس مسار التقدم القائم على استمرارية التطور التكنولوجي والنمو الاقتصادي. وأخيرًا وليس آخرًا، هناك من يرى العولمة وفاقًا يجمع البشرية جمعاء في «هيتروطوبيا»، من تنوع الثقافات وامتزاج الحضارات، ومن يرى ذات العولمة صراعًا يؤجج النزعات العرقية والدينية واللغوية.

(ب) العولمة المضادة، ويالها من غموض..!!

لم يعد شعار «التقدم الاقتصادي بأي ثمن» ينطلي على أحد، ولم يعد العالم مستعدا لأن يصغي مرة أخرى لآدم سميث جديد يبشر الإنسانية بخير عميم في ظل سوق عالمية جديدة. لقد انفردت ظاهرة العولمة بأن أفرزت نسختها المضادة وهي مازالت في مهدها، وكما تسرع مناصرو العولمة في التنظير لها ليجعلوا منها أيديولوجية حاكمة تفسر من خلالها الظواهر الكونية، وتنبثق منها الحلول الجذرية للمشكلات التي يواجهها المجتمع الإنساني الحديث، كما تسرع هؤلاء، كذلك تسرع مناهضو العولمة لتجيء عولمتهم المضادة بلا أجندة واضحة، مفتقدة إلى الحد الأدنى من الأسس النظرية القادرة على الصمود أمام تيار العولمة الجارف.

وقد تراوحت ردود الأفعال إزاء العولمة من حيث مدى حدتها، بدءا من الاستسلام التام لها، والتسليم بها بصفتها مرحلة تاريخية حتمية في مسار تطور المجتمع الإنساني، إلى الرفض التام لجميع الأسس التي قامت عليها والأهداف التي تسعى إليها، ويعد الموقف العربي إزاء العولمة نموذجًا مثاليًا لهذين الموقفين النقيضين، فبعض المفكرين العرب يرون العولمة خيرًا للأمة العربية، بل هناك من يتمادى في القول بأن أمة العرب أكثر حاجة من غيرها إلى العولمة، من أجل إشاعة الديموقراطية، وضمان حقوق الإنسان، والإسراع في حركة التنمية المجتمعية، وتوطين التكنولوجيا المتقدمة في التربة العربية. على الطرف النقيض، هناك بعض يرى العولمة شرًا وتغريبًا يهدد الهوية القومية، ويقيد قدرة المجتمعات العربية على التنمية الذاتية، وضمن هذا البعض المعارض من يرى في العولمة تناقضًا جوهريًا مع «عالمية الإسلام».

بعيدا عن حدة التنافس للثنائية القبول والرفض، هناك داخل معسكر العولمة ذاته بعض من ساسته يرى ضرورة تهذيبها، وهو موقف يقوم على قناعة بأن حل مشاكل الرأسمالية هو مزيد من الرأسمالية، وحل مشاكل التكنولوجيا هو مزيد من التكنولوجيا، وإن نجاح العولمة مرتهن بوجود سلطة مركزية، عن طريق المنظمات الدولية، قادرة على التوحيد والتنسيق وعلى إلزام الجميع بسياساتها وقراراتها. أما فيما يخص تصور هؤلاء الساسة عن حل مشاكل الدول الفقيرة، فليس هناك أكثر من زيادة المعونات والهبات، وتشجيع الاستثمارات، ولا ريب أن أكثر المواقف إجحافا بالفقراء هو القول بأن قارب العولمة لا يتسع للجميع، ولا بد لفقراء العالم أن يستسلموا لقدرهم المحتوم، وبينما اقتصر الحديث فيما مضى على سكنى الفقراء، نجده الآن قد اتسع ليشمل غذاء للفقراء، ورعاية صحية خاصة بالفقراء، وتربية للفقراء، وإعلامًا للفقراء، وتكنولوجيا للفقراء، وأضاف إليها أخيرًا عالمنا أحمد زويل علم الفقراء، بل ولا يجد البعض حرجًا في الحديث عن ذكاء الفقراء، وحتمية النشأة الاجتماعية ممزوجة برواسب من الحتمية الوراثية مازالت عالقة بأذهان البعض.

خلاصة القول، فالعولمة باتت واقعًا على الجميع أن يتعايش معه، والعولمة المضادة - بالتالي - أصبحت أكثر حاجة إلى تجاوز مرحلة الاحتجاج إلى مرحلة التأسيس والتأصيل واقتراح البديل، ولن يتأتى ذلك إلا إذا تم التخلص من المنطق التكنولوجي والتمركز الاقتصادي، ولا سبيل إلى ذلك إلا من خلال النظر إلى معضلة «العولمة والعولمة المضادة» من رؤى متعددة تغطي المكونات المختلفة لمنظومة المجتمع: الاقتصادية والسياسية والثقافية والتربوية والأخلاقية والعلمية والتكنولوجية، ويأتي على رأس هذه الرؤى - في رأي الكاتب - الرؤية المعلوماتية بهدف إبراز الآثار الناجمة عن المتغير المعلوماتي الذي كاد أن يطيح بمعظم الصروح التي قامت عليها مكونات منظومة المجتمع سالفة الذكر.

(ج) الرؤية المعلوماتية، ويالها من أهمية..!!

اجتمعت آراء الكثيرين على أن إشاعة استخدام تكنولوجيا المعلومات ستسرع من معدلات التنمية البشرية، ليس في الدول المتقدمة فقط، بل أيضا في الاقتصاديات الأقل تطورا. تستند هذه الآراء إلى الإمكانات الهائلة التي توفرها هذه التكنولوجيا في التنمية العلمية والتكنولوجية، وفي زيادة إنتاجية عمالة المصانع والمزارع والمكاتب، وإلى ما توفره من بدائل كثيرة في مجالات التعليم والرعاية الصحية وتنشيط التجارة، علاوة على تنمية روح المشاركة وترسيخ الديموقراطية. وتأتي الإنترنت لتزيد من نزعة التفاؤل تلك، بزعم أن هذه الشبكة الفريدة ستجعل المعرفة متاحة للجميع، في أي وقت، وفي كل مكان. كما هو متوقع، اعترض كثيرون على هذه السيناريوهات المسرفة في تفاؤلها بالنسبة إلى الدول النامية، وتصاعدت الشكوك حول كون تكنولوجيا المعلومات وحدها هي وسيلة العلاج، بل ربما لا تكون أيضًا هي الحل الوحيد.

ولا جدال في أن تكنولوجيا المعلومات - إن أحسن استغلالها - يمكن أن تكون أداة فعالة للتنمية البشرية، إلا أنه من الضروري إدراك أن جميع الإنجازات التكنولوجية على مدى التاريخ لا تؤدي إلى تسهيل الأمور بل عادة ما تكشف عن ظواهر أكثر تعقيدا، وتستحدث أوضاعًا أكثر تداخلاً وتشابكًا. إن كل تكنولوجيا يمكن أن تحقق الشيء ونقيضه تبعًا للأسلوب الذي يتم تطبيقها به، ويصدق هذا القول - أكثر ما يصدق - على تكنولوجيا المعلومات، وذلك نظرًا لسهولة توجيهها والمناورة بمواردها، ومرونة تكييفها وفقًا لظروف الاستخدام.

ترجع أهمية الرؤية المعلوماتية لمعضلة «العولمة والعولمة المضادة» إلى عدة أسباب رئيسية نلخصها فيما يلي:

- كون تكنولوجيا المعلومات هي المحرك الرئيسي لعملية العولمة، لذا فرؤية القضية من زاويتها يعد تصديًا لها في موضع القلب.
- المحاولات المضنية من قبل مروجي النموذج الرأسمالي العولمي الساعية إلى اعتبار تكنولوجيا المعلومات مجرد مرحلة أحدث في مسار التقدم التكنولوجي، وذلك بهدف إخضاعها إلى نفس الآليات الاقتصادية السائدة، حفاظا على موازين القوى وتأمينا لمصالح الأقوياء. إنهم بذلك يطمسون الفروق الجوهرية بين طبيعة تكنولوجيا المعلومات وما سبقها من تكنولوجيات، ويكفي هنا أن نذكر أنها ترتكز - أساسا - على العنصر البشري وقدراته الذهنية والإبداعية، وما أكثر ما انهزم الكبار أمام الصغار المبدعين ذوي الأفكار المبتكرة، ولا شك أن هذا التحول الحاسم في التوجه التكنولوجي يتيح فرصًا حقيقية للتخفيف من سطوة رأس المال المادي، وسيطرة التنظيمات المؤسسية التقليدية وليدة تكنولوجيا الصناعة.
- كون تكنولوجيا المعلومات هي همزة الوصل بين التكنولوجيا والثقافة، وقد أصبحت الثقافة هي محور عملية التنمية الاجتماعية، في حين أصبحت تكنولوجيا المعلومات هي محور التنمية التكنولوجية الشاملة، وعليه يصبح فهم العلاقة بين الثقافة وتكنولوجيا المعلومات ركيزة أساسية لفهم الأداء الكلي لمنظومة المجتمع الإنساني الحديث.
- الرؤية المعلوماتية أكثر قدرة من غيرها في كشف تناقضات النموذج العولمي التي تتضح أكثر ما تتضح على صعيد المعلومات، ويكفي هنا أن نشير إلى أن تكنولوجيا المعلومات تفوق التكنولوجيات الأخرى من حيث قابليتها للاستقطاب والهيمنة، وخير شاهد على ذلك ما نسمعه حاليًا عن شكوى الشركات الأمريكية العملاقة في مجال البرمجيات والاتصالات من شدة الاستقطاب الاحتكاري الذي تمارسه عليها شركة ميكروسوفت، إنها احتكارية عصر المعلومات التي لا ترحم، والتي استطاعت أن تنفذ إلى قلب القطب الرأسمالي الأمريكي ذاته.
- الأهمية البالغة للمدخل المعلوماتي اقتصاديًا. لقد قام نموذج اقتصاد عصر

المضـــــادة .. رؤيـــــة معلومـــاتيـــة

نبيـــــل علـــــى

الصناعة على «طور الإنتاج»، وعلى ما يبدو فإن النموذج الاقتصادى لعصر العولمة سينطلق من النقلة النوعية وليدة المتغير المعلوماتي، ويقصد بها النقلة من «طور الإنتاج» إلى «طور تكرار الإنتاج»، وهو الطور الذى يقوم على أساس أن منتجات صناعة المعلومات وأصولها، من برامج وبيانات ومعلومات وموسيقى وأفلام ونصوص وأفكار، جميعها قابل للنسخ، أى تكرار الإنتاج، ولا يقتصر تكرار الإنتاج عند حد منتجات المعلومات وأصولها، بل يمتد إلى العمالة البشرية أيضا، وذلك بـ «نسخها» عن طريق الروبوت (الإنسان الآلى) والنظم الذكية والخبيرة.

* إبراز الآثار الجانبية لتكنولوجيا المعلومات، فما أن ظهرت حتى انبرى الكثيرون زاعمين أنها التكنولوجيا الرهيفة النظيفة، الودودة مع البيئة. لقد نسى هؤلاء - أو تناسوا - أن الجوانب السلبية لأية تكنولوجيا لا تظهر إلا بعد مرور وقت ليس بقصير، فما فعلته عوادم السيارات بالبيئة لم تظهر آثاره إلا بعد عدة عقود من التراكم التدريجى. وليس ثمة شك من أن تكنولوجيا المعلومات - مثلها فى ذلك مثل كل ما سبقها من تكنولوجيات - لها هى الأخرى وجهها القبيح الذى أخذت ملامحه تزداد وضوحًا يومًا بعد يوم، وها نحن نسمع عن «فجوة رقمية» تزداد اتساعًا بين من يملك المعلومة ومن يفتقدها، وعن مخاطر أخرى مستحدثة ينذر بها عصر المعلومات من قبيل: الإرهاب الرمزى، والعنف الترفيهى، والابتزاز المعلوماتى، وسوء الاستغلال الرقمى.

* الأهمية المتزايدة للمعلومات بالنسبة لفلسفة العلم الحديث. لقد تضافرت تكنولوجيا المعلومات مع اللغة من جانب، ومع الميكروبيولوجى الحديث من جانب آخر[1]. وأصبح مثلث «اللغة - الميكروبيولوجى - تكنولوجيا المعلومات» بمثابة رأس الحربة لقاطرة المعرفة الإنسانية: فلسفة وعلمًا وفنًا وتقانة، وهى المعرفة التى تعد أمضى الأسلحة فى ترسانة معسكر العولمة، وهى ذاتها مناط أمل العولمة المضادة فى إيجاد البدائل التى تحررها من حتميات العولمة وقيودها.

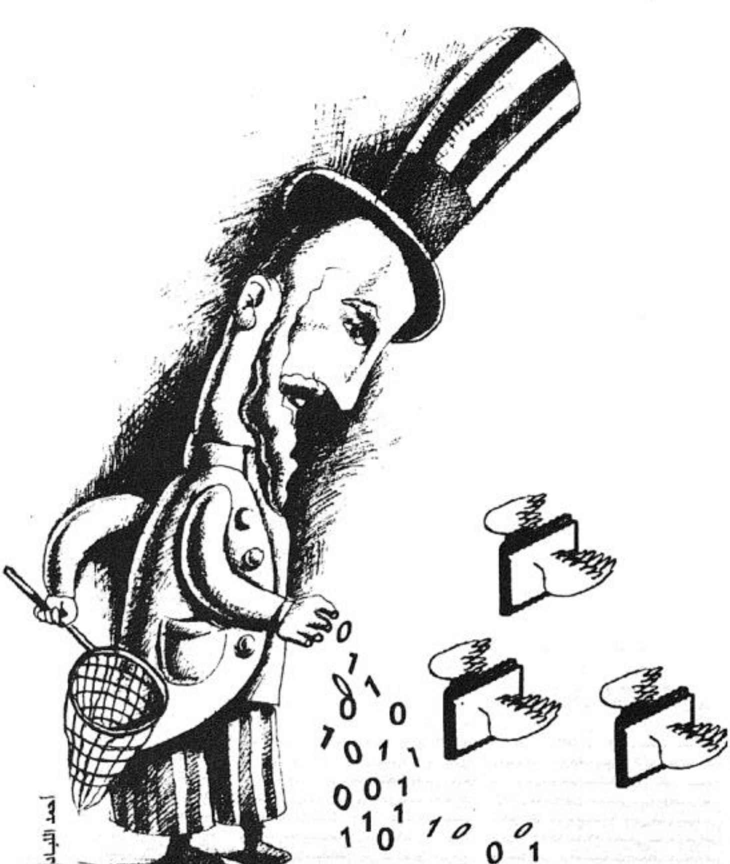
* وأخيرًا وليس آخرًا، إن التصدى لسطوة القوى المركزية، وقدرتها الطاغية على تهميش الأطراف، لن يأتى إلا بالبحث عن شكل جديد يتخلص من تراتبية hierarchy منظومة القوى الاجتماعية السائدة. لقد ترسخت هذه الهيكلية ذات الطابع الهرمى، منذ جمهورية أفلاطون إلى يومنا هذا، لتحكم معظم أمور حياتنا، سواء على مستوى الفكر أو الواقع، ويعتقد الكثيرون أن المتغير المعلوماتى هو الكفيل بتخليصنا من صرامة هذه التنظيمات الهرمية، فقد كانت تكنولوجيا المعلومات سباقة فى التخلص منها، وذلك بتحولها من نظم المعلومات المركزية إلى نظم المعلومات اللامركزية الموزعة جغرافيًا ووظيفيًا، ويتبدى هذا التوجه اللامركزى - أكثر ما يتبدى - فى شبكة الإنترنت، فهى شبكة بلا محور، وبلا سلطة مركزية، وبلا هرمية أو تراتبية.

ثانيـــا: العـــولمة والعـــولمة المضـــادة فى كبســـولة

يلخص جدول رقم ١ فى نقاط مركزة أهم مقولات العولمة والعولمة المضادة مصاغة فى مناظرة ثنائية بين الآمال التى تبشر بها العولمة، والمخاطر التى تحذر منها العولمة المضادة، وقد تم تصنيفها وفقا لأهم جوانب هذه الظاهرة الكونية، كما يراها الكاتب، وهى:

* النموذج الاقتصادى العولمى
* توزيع العمل وتنويعه وإثراؤه
* سلطة الدولة وسيادتها
* منظومة القيم والهوية القومية

لن يتعرض حديثنا الراهن لأية تفاصيل حول هذه المقولات، وقد أعفانا كثيرون من مفكرى الغرب والعرب



من الخوض فيها. وقد أوردناها هنا في كبسولة كخلفية عامة نسقط عليها حديثنا الخاص عن الرؤية المعلوماتية وقد تمت صياغته هو الآخر في ثنائية قوائم الآمال والمخاطر - جدول رقم ٢

ثالثـا: تأسـيس الرؤية المعلومـاتيـة

سنتناول فيما يلي كلاً من جوانب المناظرة الأربعة السالفة الذكر، وذلك بطرح الآمال التي تعد بها العولمة المعلوماتية متبوعة مباشرة بالمخاطر التي ينذر بها نظيرها المضاد على مستوى كل نقطة من النقاط وفقا للتسلسل الواردة به في الجدول رقم٢

(أ) جـانب المناظرة: النموذج المعلوماتي العولمي

الآمـال

يتمحور النموذج المعلوماتي العولمي حول إقامة مجتمع كثيف الاتصالات، يرتبط أفراده وكياناته، وتتفاعل ديناميا، من خلال شبكة من الطرق السريعة للمعلومات Information Super Highways، وهو المصطلح الذي أطلقه آل جور، نائب الرئيس الأمريكي الأسبق. إن الطريق السريع للمعلومات هو بمنزلة الخلف لسلفه طريق السيارات السريع، وكما كان السلف «الأسمنتي» هو شريان نقل بضاعة الصناعات الأمريكية التقليدية «محليا»، فسيكون الخلف «المعلوماتي» هو شريان نقل «بضاعة» صناعة الثقافة الأمريكية «عالميا»، ويقصد بـ «بضاعة» الثقافة هنا ما تنتجه هذه الصناعة من سلع وخدمات، والتي تشمل - على سبيل المثال لا الحصر - الأفلام، والبرامج التليفزيونية، ووسائط تسجيل الموسيقى والأغاني، وبرامج الكمبيوتر الترفيهية والتعليمية. وكما هو معروف، يحتاج نقل هذه السلع والخدمات، من منابع إنتاجها إلى أماكن استهلاكها، سعة هائلة لتدفق المعلومات تفوق بكثير سعة الكابلات النحاسية التقليدية، لذا فإن شبكة الطرق السريعة للمعلومات يتم إنشاؤها باستخدام الألياف الضوئية ذات السعة الهائلة، وهو ما يسعى إلى تحقيقه الجيل الثاني من الإنترنت، الذي سيمكن - على سبيل المثال - من نقل فيلم سينمائي من هوليوود إلى أبعد نقطة في العالم في أقل من دقيقة، وهو ما يستغرق ساعات عديدة بافتراض إمكانية نقله عبر الجيل الحالي من الإنترنت.

في إطار هذه الإستراتيجية لدعم صناعة الثقافة الأمريكية، حرص آل جور على أن ينقل طموحه المحلي خارج حدود بلاده، حيث نادى بإقامة بنية أساسية معلوماتية عالمية ينعم فيها - سواء بسواء - أغنياء عالمنا وفقراؤه، ولنسترق السمع إلى تلك الصيحة السامية النبيلة التي أعلنها «ملاكنا السياسي»، مبشر عصر الإنترنت، يقول آل جور: «دعونا نتجاوز الإيديولوجيا لنتحرك معًا صوب هدف مشترك لبناء بنية أساسية معلوماتية عالمية لمصلحة جميع الدول، من أجل خدمة اقتصادنا الحر، وتحسين خدمات الصحة والتعليم وحماية البيئة والديموقراطية».



العولمـة والعولمـة المضـادة

يتمحـور النموذج المعلوماتي العولمي حول إقامـة مجتمـع كثيف الاتصـالات، يرتبـط أفـراده وكياناتـه، وتتفاعـل ديناميـا، من خـلال شـبكة من الطـرق السريعة للمعلومات. إن هـذا الطريـق هـو الخلـف لسلفـه طريـق السـيارات السـريع

المخـاطـر

لا يخفى على أحد ما يستتر وراء دعوة آل جور من دوافع لخدمة المصالح الأمريكية، وكم كان فطنا جون ستراتون عندما لفت نظرنا إلى «سندويتش» آل جور الوارد في دعواه تلك، حينما وضع أحلام التنمية البشرية، من صحة وتعليم وحماية بيئة، بين شطري هذا السندويتش، ونعني بهما «الاقتصاد الحر والديمقراطية». لقد اعترض على نموذج آل جور هذا الكثيرون من داخل الاتحاد الأوروبي، بل من داخل الولايات المتحدة نفسها، فقد عابوا عليه تمركزه الاقتصادي، وتركيزه على الجوانب الفنية، وإغفاله للجوانب الاجتماعية للتنمية التكنولوجية، وهي الجوانب التي تنامت أهميتها بقدر كبير بالنسبة لتكنولوجيا المعلومات التي تفوق - وبقدر كبير - ما سبقها من تكنولوجيات من حيث شدة العلاقات التي تربطها بالمنظومة المجتمعية. هذا عن موقف بعض أهل الشمال إزاء نموذج الطرق السريعة للمعلومات، أما فيما يخص دول الجنوب، فإن كلفة إنشاء البنية التحتية للمجتمع الشبكي تتجاوز بكثير قدرة هذه الدول، ولا يمكن أن تحظى بالأولوية في خضم المشاكل العديدة التي تواجهها هذه الدول، وهو ما أدى بالبعض إلى رفع شعارات من قبيل «النفاذ إلى مصادر المياه قبل مصادر المعلومات»، و«البنسيلين قبل البنتيوم»[٢].

لقد أدى التقدم التكنولوجي الصناعي في الماضي إلى تراكم الثورة المالية، ويقينا فإن التقدم التكنولوجي المعلوماتي الموعود سيعمل على توسيع الفجوة الرقمية بين الأثرياء معلوماتيا وفقرائها، وهكذا يظهر إلى الوجود تراكم ثنائي أكثر ضراوة يجمع بين تراكم الثورة الصناعية المادية (المالية) وتراكم الثورة المعرفية.

الآمـال

يفترض النموذج القائم على الطرق السريعة للمعلومات الخصخصة الكاملة لقطاع الاتصالات، ضمانا لسرعة إنشاء البنى التحتية اللازمة، وتحقيق خدمات اتصالية أكثر تنوعا وأفضل من حيث مستوى الخدمة ومدى توافرها. وكم يبدو براقا الشعار الذي ترفعه حاليا كبرى شركات الاتصالات العالمية «أية معلومات، في أي وقت، ومن أي مكان». لقد توازى مع التوجه نحو الخصخصة الكاملة لقطاع الاتصالات تحريره من كثير من التنظيمات والتشريعات التي كانت تحد من نطاق نشاطه في الماضي، وهو ما أدى إلى إنشاء اندماجات غير مسبوقة بين صناعة الاتصالات، وصناعة الإعلام، وصناعة السينما، ودور النشر، وشركات برمجة الكمبيوتر وخدمات الإنترنت. لقد انتشر هذا التوجه نحو التكامل الرأسي ذي التراكم الرأسمالي غير المسبوق تحت دعوى حسن استغلال تكنولوجيا الوسائط المتعددة multi media من أجل تقديم خدمات مبتكرة وميسرة بفضل اقتصاديات الحجم مقرونة باقتصاديات النطاق.

المخـاطـر

كيف لنا أن نوفق بين هذه «الطوباوية الاتصالية»، وكل ما نسمعه من تشفير القنوات الفضائية، وما نشهده حاليا على ساحة الإنترنت من تفشي ظاهرة النوادي الخاصة للمعلومات (للأعضاء فقط)، ومع ما أورده نلسن مانديلا في إحدى خطبه من أن ثلثي سكان العالم لم يجر مكالمة هاتفية واحدة طيلة حياته. إن ترك الحبل على الغارب لتنمية قطاع الاتصالات من خلال الاستثمارات الخاصة، وجعله رهنا بالمنافسة وفقا لقوانين السوق، سوف يؤدي - بالقطع - إلى حرمان شرائح عديدة من الطبقات الفقيرة من أحقية الاتصال والنفاذ إلى مصادر المعلومات، وهي الأحقية التي تعد حاليا ضمن حقوق الإنسان الأساسية، وعلى المستوى العالمي، يمكن أن تؤدي سيطرة القطاع الخاص على قطاع الاتصالات إلى نوع من طبقية الاتصال، ينعم فيه العالم المتقدم عبر شبكات الألياف الضوئية بخدمات ذات طابع إيجابي، تسمح بالتفاعل الدينامي الحي بين المستخدمين ومصادر المعلومات، وبين بعضهم البعض، في حين يظل العالم الفقير أسير الاتصال السلبي، تحت رحمة ما تلقيه عليه القنوات الفضائية عبر الأقمار الصناعية، وشتان الفرق بين التواصل الإيجابي التفاعلي المثري للعقل والوجدان، والتلقي السلبي، أحادي الاتجاه، الذي ينمي نزعات الاسترخاء الذهني والعزوف عن المشاركة.

من حيث ظاهرة الاندماج المؤسسي بين قطاعات خدمات المعلومات المختلفة، فمن المتوقع أن تعمل على جعل هذه الخدمات حكرا على هذه الكيانات العملاقة القادرة على تحويل صناعات المعلومات، ذات الطابع الذهني، إلى صناعات كثيفة التكنولوجيا، كثيفة رأس المال، بما يترتب عليه استبعاد الصغار من الدخول في هذا المضمار الحيوي ذي الأهمية البالغة بالنسبة للتنمية الإنسانية.

الآمـال

يعد النموذج المعلوماتي العولمي بإتاحة المعرفة للجميع بما يضمن الإسراع من معدلات التنمية، ومساهمة الجميع في مسيرة التقدم العلمي والتكنولوجي والإبداعي.

المخـاطـر

يخلط أصحاب هذه الوعود الزائفة بين المعلومات والمعرفة، ويتجاهلون الفارق الشاسع بينهما، فكما تساءل تي. إس. إليوت في مقولته الشهيرة: «أين هي الحكمة وقد ضاعت في خضم المعرفة»، يمكن لنا أن نتساءل على ضوء ما يجري حاليا على جبهة الإنترنت: «أين هي المعرفة وقد ضاعت في خضم المعلومات». لقد بات العقل الإنساني مهددا بالانسحاق أمام ظاهرة الإفراط المعلوماتي over-information، وأصبح من الضروري إدراك أن الدورة الكاملة لاكتساب المعرفة لا تنحصر فقط في إمكانية النفاذ إلى المعلومات، بل تتعداها إلى المهام الأخرى لتحويل فيض المعلومات هذا إلى أداة فعالة لتنمية الفكر الإنساني، وهي تشمل المهام التالية:

- نقل المعرفة واستيعابها
- ترشيح المعرفة وتقطيرها في صورة مفاهيم أساسية وأفكار محورية
- توظيف المعرفة في حل المشاكل الفعلية
- استخدام المعرفة المتاحة من أجل توليد معرفة جديدة

لإيضاح المقصود هنا، نأخذ - كمثال - معلومات مشروع الجينيوم (الخريطة الوراثية للإنسان) والتي تنشر دوريا على شبكة الإنترنت، ولكن شتان بين توافر هذه المعلومات البيولوجية، وبين تحويلها إلى معرفة فعالة للعلاج الجيني سواء لأغراض التشخيص، أو استحداث أصناف جديدة من الدواء.

الآمـــال	جانب المناظرة	المخاطـــر
• ليبرالية جديدة لتحرير الأسواق وتوحيدها لتوفير السلع والخدمات وتخفيض أسعارها. • تذويب الفوارق، والإسراع من معدلات التنمية وزيادة الاستثمارات في البلدان النامية. • استمرارية التقدم الاقتصادي لمواجهة زيادة السكان، وتلبية مطالبهم المتزايدة.	النموذج الاقتصادي العولمي	• إفقار الدول النامية، وعجزها عن المنافسة عالميًا، وتلبية مطالب أسواقها المحلية. • فجوة اقتصادية وتكنولوجية تزداد اتساعًا، وتراكم ديون العالم الثالث واستغلال القروض كوسيلة للهيمنة. • استنزاف الموارد الطبيعية وزيادة الخلل في توزيع الدخول والثروات وتضخم النزعة الاستهلاكية.
• خلق مزيد من فرص العمل من خلال المنافسة وانفتاح سوق العمل عالميًا. • مساهمة الشركات المتعددة الجنسية في تأهيل العمالة المحلية. • زيادة إنتاجية العمالة مما يؤدي إلى ارتفاع الأجور، وتوفير وقت الفراغ.	توزيع العمل وتنويعه وإثراؤه	• سوء توزيع سوق العمل، واحتكار الصناعات الراقية وتصدير الأعمال المتدنية للدول النامية. • نزيف العقول نتيجة لعوامل الجذب من قبل الشركات متعددة الجنسية لذوي المهارات العليا. • مزيد من البطالة، بعد أن أصبح النظام الرأسمالي منتجًا أكثر من اللازم، وتدني مستوى الأجور.
• توافر سلطات مركزية عالمية تحد من تسلط الحكام المحليين. • حكومات رشيقة أكثر فاعلية، وأقل أعباء، وأكثر تجاوبًا مع مطالب شعوبها. • إشاعة الديمقراطية واحترام حقوق الإنسان وضمان حقوق الأقليات.	سلطة الدولة وسيادتها	• تقليص سيادة الدول، وانحسار دورها، وهيمنة المنظمات الدولية في مقدرات شعوبها. • تصبح الحكومات أضخم من مواجهة مشاكل الداخل، وأضعف من التصدي لقوى الخارج. • زيادة الخلل الاجتماعي واستبداد الدولة بحجة تلبية مطالب التكيف الهيكلي والاقتصادي.
• خلق نظام عالمي جديد يسمو فوق الفوارق الثقافية ويقوم على القيم والمبادئ الإنسانية المشتركة. • الاحتفاء بالتنوع الثقافي، وإحياء التراث، وامتزاج الثقافات وتشجيع الحوار بين الأديان. • التصدي لفساد المؤسسات، والسمو بالقيم الإنسانية.	منظومة القيم والهوية القومية	• تأجيج النزعات العرقية والدينية واللغوية كرد فعل للعولمة والاحتماء بالمحلية والقومية. • تجنيس الثقافات، وطمس خصوصياتها وتسطيحها وطرد الثقافة الرديئة للجيدة. • تقويض الروابط الأسرية، ونمو جرائم الكبار بدافع الجشع، وجرائم الصغار بدافع حب البقاء.

جدول رقم ١: الآمال والمخاطر (مستقاة من خطاب العولمة والعولمة المضادة)

الآمـــال	جانب المناظرة	المخاطـــر
• إقامة شبكة الطرق السريعة للمعلومات توفر خدمات معلومات جديدة لخدمة التنمية الإنسانية. • خصخصة قطاع الاتصالات، وتوسيع نشاطه لتوفير خدمات أرقى وأكثر تنوعًا ميسرة للجميع. • إتاحة المعرفة للجميع للإسراع من معدلات التنمية ومساهمة الجميع في المسيرة العلمية.	النموذج المعلوماتي العولمي	• ظهور فجوة رقمية تزداد اتساعًا، وإغفال الجوانب الاجتماعية للتنمية المعلوماتية. • حرمان الطبقات الفقيرة من أحقية الاتصال، والنفاذ إلى مصادر المعلومات. • ستعجز الدول النامية عن تحويل المعلومات إلى معرفة فعالة لحل المشاكل وتوليد المعارف الجديدة.
• ظهور نوعيات جديدة من الأعمال والوظائف الأكثر ثراءً والأقل ضجرًا. • زيادة فرص الإبداع، وتحرير الفنان من القيود التي تحد من إبداعه. • توفير فرص عديدة لمداومة التعلم ذاتيًا لجميع الأعمار، تلبية لمطالب سوق العمل.	توزيع العمل وتنويعه وإثراؤه	• زيادة البطالة واحتكار الكبار للأعمال الراقية وتكليف الصغار بالأعمال التافهة الروتينية. • ارتداد الفن إلى الحرفية وضمور الدافع للإبداع الأصيل. • الإهلاك السريع للمعارف والمهارات وعجز الإنسان والمجتمع عن ملاحقة التطور.
• تقليص حجم الحكومات وأعبائها، والتخلص من سطوة البيروقراطية من خلال الحكومة الإلكترونية. • إقامة نظم حكم عالمية لزيادة التنسيق والتعاون الدولي وإشاعة نظم الحكم الصالح. • توفير مناخ أفضل لممارسة الديمقراطية والتصدي لسطوة النظم وسيطرة المنظمات.	سلطة الدولة وسيادتها	• عجز الحكومات عن خدمة مواطنيها، وظهور مزيد من معلوقراطية لزيادة الاعتماد على نظم المعلومات. • انتهاك سيادة الدول واختراق الحدود باستخدام المعلوماتية. • استخدام نظم المعلومات كسلاح أيديولوجي، وكأداة للرقابة الإلكترونية على الأفراد والجماعات.
• تكنولوجيا المعلومات كأداة للدعوة الدينية والتسامي الرمزي المتجاوز لعالم الماديات. • دعم تكنولوجيا المعلومات للغات القومية، والاحتكاك اللغوي، وكسر الحواجز اللغوية. • نظم المعلومات كوسيلة فعالة للمحافظة على التراث وإعادة بناء التاريخ خائليًا.	منظومة القيم والهوية القومية	• مزيد من الخواء الروحي، بفضل المعلوماتية وانحسار الخطاب الديني مع التقدم العلمي والتكنولوجي. • انقراض اللغات تحت طغيان اللغة الإنجليزية في نظم المعلومات والإعلام. • تكنولوجيا المعلومات كأداة لنهب تراث الشعوب وتزييف التاريخ بإعادة بنائه خائليًا.

جدول رقم ٢: الآمال والمخاطر (من منظور الرؤية المعلوماتية المطروحة هنا)

(ب) جانب المناظرة: توزيع العمل وتنويعه وإثراؤه

الآمـــال

ستؤدي تكنولوجيا المعلومات إلى ظهور نوعيات جديدة من الأعمال والوظائف، أبعد ما تكون عن تلك التي أفرزتها تكنولوجيا الصناعة، وهي بحكم طبيعتها أكثر ثراء، وأقل ضجرًا، وتتسم بالتجدد الدائم، وذلك لعدة أسباب من أهمها:

• التوسع الشديد للتطبيق التكنولوجي ذي الأساس المعلوماتي في جميع مجالات الأنشطة الاجتماعية.

• المعدل السريع لتطوير تكنولوجيا المعلومات مما يستوجب مداومة تحديث النظم والتنظيمات وأساليب أداء العمل، وهو الأمر الذي يولد بدوره فرصا جديدة للعمل والإنجاز.

• تزايد حجم المشاكل التي يواجهها مجتمع المعلومات مما يتطلب مزيدا من الجهد البشري لحلها.

المخـــاطر

لقد كاد العمل أن يصبح نوعًا من الرفاهية في مجتمع المعلومات، مجتمع الخمس الوحيد العامل كما أطلق عليه البعض، وذلك بعد أن أطاحت تكنولوجيا المعلومات ونظم أتمتتها بفرص العمل، وأصبح العامل، شأنه شأن قطع الغيار، يمكن استبداله بغيره من أصحاب الياقات الزرقاء أو من أصحاب «الياقات المعدنية» من فصيل الروبوتات. لقد اكتملت فصول تراجيديا العمالة الإنسانية على مرأى ومسمع من الجميع، بعد أن تم استقطاب المهارة إلى أعلى، وقد احتكرها أصحاب الياقات البيضاء من نخبة التكنوقراط، من مخططين ومستشارين ومصممين ومحللين اقتصاديين ومسوقين محليين وإقليميين وعالميين، المدججين بنظم معلومات فعالة تجعلهم في غنى عن الوظائف الوسطى التي كانت تفصل بينهم وبين مستويات التنفيذ النهائية التي تقوم بها عمالة المصانع والحقول والمكاتب. بالإضافة إلى ما سبق، وبرغم أن تكنولوجيا المعلومات تتيح أعمالا أكثر ابتكارية وإثارة على المستويات العليا، إلا أنها ـ على العكس من ذلك ـ تؤدي إلى مزيد من الضجر والاغتراب على المستويات الدنيا من سلم العمالة.

إن أخطر أسباب اغتراب عمالة العصر يرجع إلى ما تطبقه الإدارة الحديثة من أساليب تكنولوجية وتنظيمية لتفتيت المهارات، أي تفكيكها إلى مهارات أصغر فأصغر ليتلاشى مع عملية التفتيت هذه الطابع الشخصي لمهارات العمال. ولا شك أن تكنولوجيا المعلومات تلعب دورا حاسما في الإسراع من عملية تفتيت المهارات، ولا غرابة في ذلك، فهل لنا أن ننسى أن جميع المسائل، من ظواهر ومشكلات وحلول يتم «تفتيتها» من خلال البرمجة وهندسة النظم، وغيرها من وسائل تكنولوجيا المعلومات، القادرة على سحق هذه المسائل في نهاية الأمر إلى «ذرات» «الصفر والواحد»، وهل لنا أن ندرك مغزى ما خلص إليه أحد علماء الكمبيوتر في صدد تعريفه لعملية الذكاء الاصطناعي بأنها تلك العملية التي نظل نفتت من خلالها حتى لا يبقى هناك ذكاء..!!.

خلاصة القول، لقد احتكرت مراكز التطوير المعلوماتي الأعمال الراقية، وطردت إلى الأطراف الأعمال التافهة ذات الطابع المتكرر، الباعث على الضجر، وكمثال بارز على ذلك هو ما أوردته دراسة حديثة عن زيادة فرص العمل في دول جزر الكاريبي بفعل المد المعلوماتي الوافد إليها من الولايات المتحدة، فقد اقتصرت أنواع الأعمال الموكلة

لهذه الدول - أساسا - على المهام البسيطة لإدخال البيانات وما شابه. وينطبق القول - بدرجة أقل - على كثير من الأعمال التي تحيلها تلك المراكز إلى الشركات الهندية لتطوير البرامج، حيث غالبا ما يقتصر دور هذه الشركات على المهام شبه الميكانيكية لـ «تكويد البرامج» التي يتم تصميمها وتحديد مواصفاتها تفصيلا في مراكز التطوير الأمريكية.

الأمال

ستعمل تكنولوجيا المعلومات على توسيع نطاق الإبداع على اختلاف مجالاته، ونكتفي هنا - دلالة على ذلك - بسرد بعض مما تتضمنه باقة فنون عصر المعلومات: فن الوسائط المتعددة multimedia art - الفن التفاعلي interactive art - الفن الاتصالي communicative art - الفن السيبري cyber art الفن المفهومي conceptual art. لقد أسقطت تكنولوجيا المعلومات كثيرا من القيود التي تكبل الإبداع الفني، فحررت فنان التشكيل من قيود إطار اللوحة وثنائية أبعادها؛ حيث أصبح بإمكانه أن يرسم أشكاله في فراغ غير محدود ثلاثي الأبعاد، وحررت فنان الموسيقى من سطوة الآلات؛ حيث أصبح بإمكان المؤلف الموسيقي أن يصمم ألحانه بحيث تسجل مباشرة على الشرائط دون الحاجة إلى عازفين، بل بإمكانه أيضا أن يصمم آلات عزف جديدة، تماما كما يؤلف ألحانه الجديدة، وحررت النحات من صلابة مادته، واستاتية كتله، من خلال آليات التحريك، وبرامج توليد الأشكال المجسمة إلكترونيا، وكذلك حررت الأديب من خطية السرد المكتوب الذي فرضته عليه تكنولوجيا الطباعة. وكان للمبدع السينمائي نصيبه الوافر من دعم تكنولوجيا المعلومات؛ حيث أصبحت كل الخدع السينمائية والمناظر الخلفية والنماذج الخيالية، كمركبات الفضاء وخلافه، قابلة للتنفيذ الخائلي virtualization من خلال أساليب المحاكاة الرقمية، أما المبدع الدرامي، الذي طالما ضاق ذرعا بمحدودية خشبة مسرحه، فقد وفرت له تكنولوجيا المعلومات وسائل عديدة كي يتحرر من قبضة هذا الحيز؛ وذلك من خلال نقل المناظر الخلفية عن بعد، والمشاركة في التمثيل عن بعد وما شابه.

المخاطر

تمثل تكنولوجيا المعلومات تهديدا حقيقيا للمبدع، سواء من حيث إنتاجه أو طبيعة عمله، فتكنولوجيا المعلومات قادرة على نسخ الأعمال الفنية ومزجها وإعادة استخدامها وتوظيفها. لقد كان الفن في بداية نشأته حرفة مثل باقي الحرف، كالنجارة والحدادة والبناء، ونجح الفن - بشق الأنفس - في أن يسمو بنفسه فوق الحرفية، بعد أن نجح في إثبات تفرده، والمحافظة على تجدده، وانتهاكه الدائم للقواعد السائدة. وتأتي تكنولوجيا المعلومات لتنغص عليه سكينة برجه العاجي، تكاد ترتد به إلى سابق عهده، حرفة يزاولها هؤلاء المهنيون الجدد من «أسطوات» عصر المعلومات، ذوي القدرة على دمج الأشكال، ومزج الألحان، وتكرار إنتاج التصميمات. وهكذا، كادت نبوءة شوينبرج، رائد الموسيقى اللانغمية، أن تتحقق، فقد سبق له أن أنذرنا بأن الفنان على وشك أن يفقد ذاتية تفرده، والفن يقترب رويدا رويدا من الوقوع في فخ الحرفية، وهو ما حذرنا منه - أيضا - أديبنا الإيطالي البرتو مورافيا عندما استشعر الخوف من قرب وقوع الأدب في فخ الوثائقية.



العولمة والعولمة المضادة

لا يخفى على أحد ما يستتر وراء دعوة آل جور من دوافع لخدمة المصالح الأمريكية، وكم كان فطنا جون ستراتون عندما لفت نظرنا إلى «سندويتش» آل جور الوارد في دعواه تلك، حينما وضع أحلام التنمية البشرية، بين شطري السندويتش، ونعني بهما «الاقتصاد الحر والديمقراطية»

الأمال

تتيح تكنولوجيا المعلومات فرصا عديدة لمداومة التعلم ذاتيا مدى الحياة من أجل تجديد المعارف والمهارات تلبية لمطالب سوق العمل، وزيادة قدرة العامل على المحافظة على لياقته المهنية.

المخاطر

إن معدل التطور السريع لتكنولوجيا المعلومات، وما يترتب عليه من تسارع تغيير النظم والأعمال والتنظيمات وعلاقات العمل، سيؤدي إلى زيادة معدل إهلاك المعارف والمهارات بصورة ربما تفوق قدرة البشر على ملاحقتها. إن المجتمع الإنساني بات يلهث وراء ركب التكنولوجيا المنطلق، وهو يدفع بالمعارف والمهارات دفعا إلى محرقة الاستهلاك السريع، السمة السائدة والمتفاقمة لعصرنا هذا.

(ج) جانب المناظرة: سلطة الدولة وسيادتها

الأمال

تساعد تكنولوجيا المعلومات على تقليص حجم الحكومات، وتحجيم سلطاتها، وذلك نتيجة للتوسع في الخصخصة، وزيادة مشاركة المنظمات غير الحكومية في صنع القرار، وفي قيامها بكثير من الخدمات والمهام التي توكل للحكومات عادة. سيؤدي كل هذا إلى التخفيف من الأعباء التي تفرضها هذه الحكومات على مواطنيها في صورة ضرائب ورسوم أو تشريعات وتنظيمات، من ناحية أخرى ستعمل الحكومة الإلكترونية بفضل نظم المعلومات بصورة أكثر فاعلية، وأقل بيروقراطية، وذلك من خلال إسقاط الكثير من الحلقات الوسيطة التي تفصل بين طالبي الخدمات ومقدميها.

المخاطر

لا شك أن خصخصة كثير من الخدمات الاجتماعية التي كانت تتكفل بها الحكومات، خاصة فيما يخص خدمات التعليم والرعاية الصحية، سوف يجعل هذه الخدمات دون متناول الطبقات الفقيرة غير القادرة على سداد كلفة هذه الخدمات، خاصة مع ازدياد هذه الكلفة نتيجة لزيادة اعتمادها على التكنولوجيا بصفة عامة، وتكنولوجيا المعلومات بصفة خاصة.

وفيما يخص مساهمة الحكومة الإلكترونية في تخفيف حدة البيروقراطية، فيلوح في الأفق بزوغ بيروقراطية من نوع جديد، أو «معلوقراطية»، إن جاز القول، تحل بها الآلة ونظمها محل طبقة البيروقراط الحالية، لتحكم قبضتها على حياة البشر بعد أن أصبح كثير من المؤسسات والمرافق اليوم رهينة النظم الآلية، وعرضة للشلل التام ما أن تتعطل هذه النظم، أو يتدهور أداؤها.

الأمال

ستوفر نظم المعلومات البنية التحتية لإقامة نظم حكم عالمية من خلال المنظمات الدولية والمنظمات الأهلية العالمية، وعن طريق زيادة كفاءة هذه المنظمات وتوسيع نطاق نشاطها، وهو الأمر الذي سيعمل على زيادة التعاون الدولي والتنسيق ما بين النظم المحلية وإشاعة نظم الحكم الصالح في البلدان النامية.

المخاطر

حذر كثيرون من المصير المشئوم الذي تدفع العولمة إليه دول الأطراف، فهي تقلص من سلطات هذه الدول، وتضيق الخناق على كيفية ممارستها لهذه السلطات، وهكذا تظل سيادتها تتآكل إلى أن تصبح هذه الدول عاجزة عن الوفاء بالتزامات العقد الاجتماعي تجاه مواطنيها. يحدث هذا تدريجيا ولكن بصورة متسارعة، لتجد تلك الدول نفسها وقد تحولت من راعية لصالح المواطنين إلى حارسة لليبرالية السوق الجديدة، حامية لرأس المال الخارجي والمحلي. وما أن يشتد عود العولمة حتى تجد الحكومات المحلية نفسها أضعف من أن تفي بواجباتها كالتأمينات الاجتماعية والخدمات التعليمية والرعاية الصحية وحماية البيئة وما شابه. ولا يقف الأمر عند هذا الحد بل تصبح هذه الحكومات المحلية عاجزة أيضا عن تقديم العون للشركات متعددة الجنسية فيما يخص حماية وتأمين حقوق الملكية بأنواعها، والحفاظ على الأمن الاجتماعي، وحماية الاستثمارات ضد الجريمة المنظمة، وضد ردود أفعال المقهورين، وهنا تشيح المؤسسات المتعددة الجنسية بوجهها عن الحكومات، لتستدير صوب المنظمات الدولية طالبة دعمها، والتساؤل الذي يفرض نفسه هنا: هل سينجح نظام الدولة، الذي أثبت جدارته في عصور ثروات الأراضي وثروات الأموال، هل سينجح في عصر الثروة المعرفية والعمالة الذهنية؟!!، هناك من يشكك في ذلك متوقعا فشل الدولة في تنظيم أمور اقتصاد المعرفة، مما سيقوض مركزها ويهدد باندثار نظامها.

الأمال

إن تكنولوجيا المعلومات، وشفافية مجال الرأي العام الذي توفره، ستعمل على توفير مناخ أفضل لممارسة الديموقراطية، فما أبعد الديمقراطية السياسية السائدة حاليا عن تلك التي شهدتها ساحات أثينا القديمة، ويتردد على أسماعنا حاليا بشرى ظهور ديموقراطية جديدة، ديموقراطية الإنترنت (أو الميكروديمقراطية كما يطلق عليها البعض)، التي سوف تسقط الحلقة الوسيطة للتمثيل النيابي الحالي التي تفصل بين الجماهير وأجهزة اتخاذ القرار. علاوة على ذلك فقد أصبحت شبكة الإنترنت من أقوى أسلحة العولمة المضادة، والتصدي لمظاهر الظلم الفادح الذي تنطوي عليه اتفاقيات الجات بصيغتها الحالية، وقد وفرت بالفعل قنوات جديدة لمناهضة نظم الحكم، ومواجهة عنف القوى القابضة على زمام السلطة.

المخاطر

لقد برعت أجهزة سلطة الحكم في استغلال نظم الإعلام كأمضى الأسلحة الأيديولوجية لتضليل جماهيرها، وتمرير قراراتها، وتبرير ممارساتها، وتسعى هذه الأجهزة - حاليا - لضم الإنترنت ضمن ترسانة هذه الأسلحة، مما يخشى معه في ظل هذا الوضع أن تصبح ديموقراطية الإنترنت الموعودة مجرد وسيلة للتنفيس مآلها إلى الفوضى، مما يؤدي - بدوره - إلى مزيد من تدخل الحكومة من أجل السيطرة على جماهيرها، خاصة أن الإنترنت توفر الوسائل العملية الفعالة لإحكام هذه السيطرة؛ حيث تسجل للمواطنين مواقفهم وأفعالهم، لتكشف - بالتالي - عن أهوائهم السياسية والفكرية، مما يجعلهم أكثر عرضة لهذه الرقابة الإلكترونية التي لا تغفو لها عين، ويفسر ذلك الموقف الشديد السلبية، الذي اتخذه من الإعلام الحديث المفكر الفرنسي جان بودليار، إلى حد اعتباره ثقافة «الميديا» هي بمثابة الجريمة الكاملة التي تدفع جماهير مشاهديها إلى جحافل التجنيس والتهميش، وتعمل على

إخماد نوازع التفرقة الطبقية، وعلى ضمور الوعى الثورى لدى الطبقات المستضعفة، وعلى دمج العمال فى نسيج المجتمع الرأسمالى المعاصر.

(د) جـانب المناظرة: منظومة القيم والهوية القومية

تنطوى علاقة تكنولوجيا المعلومات بمنظومة القيم والهوية القومية على العديد من القضايا الشائكة، سنكتفى منها هنا بثلاث:

- تكنولوجيا المعلومات والدين.
- تكنولوجيا المعلومات واللغة
- تكنولوجيا المعلومات والتراث

وسنتناول كلا منها فيما يلى بإيجاز:

(أ) تكنولوجيا المعلومات والدين

الآمـال

مازال تصور الكثيرين عن علاقة الدين بتكنولوجيا المعلومات محصورا فى الأمور الخاصة بالنشر الإلكترونى الدينى، ونشر الدعوة عن طريق وسائل الإعلام، وأثر وسائل الإعلام الجماهيرى والإنترنت على منظومة القيم. بقول آخر، تنحصر النظرة إلى العلاقة «الدينية - المعلوماتية» فى إطار ثنائية تكنولوجيا المعلومات كأداة للدين، وتكنولوجيا المعلومات كقضية أخلاقية. ولا شك أن علاقة الدين بتكنولوجيا المعلومات تتجاوز هذه الثنائية، حيث أصبحت هذه التكنولوجيا تمس قضايا جوهرية فى صلب الظاهرة الدينية ومنظومة القيم، وتكمن العلاقة الوثيقة بين الدين وتكنولوجيا المعلومات فى صلة كل منهما بالرمز، ومن الجلى أن تكنولوجيا المعلومات، تقع - برمتها - فى مجال التعامل مع الرمز. أما صلة الدين بالرمز، فتتضح لنا إذا ما أمعنا النظر فى التعريفات المختلفة لمفهوم الدين كما يطرحها علم الأنثروبولوجيا، والتى نوردها فى القائمة التالية:

- الدين كنظام للمعتقدات والممارسات السلوكية والأخلاقية.
- الدين كنظام للأفكار والتوجهات.
- الدين كمجموعة من الطقوس والشعائر.
- الدين كمؤسسة اجتماعية ثقافية.
- الدين كمجموعة من التشريعات والسنن.
- الدين كنسق من الرموز، يرسخ لدى الإنسان حالات وجدانية، ودوافع قوية، وذلك من خلال تشكيل رؤيته الكلية عن الوجود.

وكل من هذه التعريفات، خاصة التعريف الأخير، ذو صلة وطيدة بالرمز، وهناك دلائل عديدة تشير إلى أن تكنولوجيا المعلومات، سيكون لها دور حاسم فى بلورة هذه العلاقة الإنسانية الرمزية، والسبب الرئيسى وراء ذلك، أن إنسان هذا العصر مثلما يرى العالم من منظور معتقداته، يراه أيضا - بصورة أو بأخرى - من خلال تكنولوجيا المعلومات، وذلك بعد أن أصبحت هذه التكنولوجيا هى وسيط الإنسان للتعامل مع حقائق واقعه. علاوة على ذلك، فإن الرموز المقدسة ذات طبيعة مجردة، وكلما ضاقت المسافة بين المحسوس والمجرد، زاد الإنسان قربا من رموزه المقدسة، وزادت قدرته على التسامى، وإقامة الروابط بين شواهد واقعه، وما مضى من دنيا هذا الواقع، أو غاب عنه. ومن هنا تتضح صلة أخرى تربط بين الدين وقيمه الروحية، وبين تكنولوجيا المعلومات، مصدر هذه الصلة أن هذه التكنولوجيا تعمل - بلا هوادة - على إسقاط الحواجز الفاصلة بين المادى واللامادى، وعلى



العولمة والعولمة المضادة

احتكرت مراكز التطوير المعلوماتى الأعمال الراقية، وطردت إلى الأطراف الأعمال التافهة، وكمثال على ذلك ما أوردته دراسة حديثة عن زيادة فرص العمل فى دول الكاريبى بفعل المد المعلوماتى من الولايات المتحدة

شحذ وسائلها لتجسيد المجردات بصورة مرئية ومحسوسة، وقد تجلى ذلك بصورة حاسمة فى تكنولوجيا الواقع الخائلى Virtual Reality.

المخـاطر

لقد قامت حياتنا المادية على تكنولوجيا غاية فى النجاح، فى حين تئن حياتنا الروحية تحت وطأة الخواء: فقد ألهتنا هذه التكنولوجيا ذات القدرة الفائقة على إحداث التغيير، فنسينا ما بقى - وسيبقى دوما - ثابتا بداخلنا دون تغيير، لقد نسينا مطالبنا الوجدانية، وحاجتنا الدائمة إلى المثل العليا وإلى الألفة والتآخى والإحساس بالذات وبالهوية. ومع المد العلمى والتكنولوجى، انحسر الخطاب الدينى، ومضى غلاة العقلانيين فى غيهم، وفى أحادية نظرتهم، يعلنون أن الدين ظاهرة لاعقلانية، مآلها إلى الاندثار حتما فى مجتمع انتصار العقل والحسم العلمى، فالإنسان - كما يقول أحد أدعيائهم - مخلوق له هذا القدر من حرية التصرف، الذى يمكنه - فى أية مرحلة من مراحل تطوره - أن يصنع آلهته كما يحلو له، فالحضارة التى صنعت الأقمار الصناعية، والمركبات الفضائية، والعقول الإلكترونية ليست فى حاجة إلى آلهة..! لقد فات عبدة التكنولوجيا هؤلاء، أن كل ما صنعوه من تكنولوجيات، وما تبعها من أيديولوجيات، قد فشل فى حسم تناقضات عالمهم، وفى تلبية الحد الأدنى من مطالبه الاجتماعية والنفسية. لقد أثبت أهل الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع ما للدين من أهمية فى منظومة المجتمع، فهو - أى الدين - ليس مجرد ظاهرة نفسية - كما زعم البعض - بل هو أحد الثوابت الاجتماعية التى لن تضمحل مع التقدم العلمى.

الآمـال

توفر تكنولوجيا المعلومات عديدا من الوسائل لمؤازرة اللغة: تنظيرا وتعليما واستخداما وتوثيقا، وتمثل الإنترنت ساحة ساخنة للاحتكاك اللغوى، وأرشيفا هائلا للنصوص اللغوية قديمها وحديثها، وتتأهل تدريجيا لتصبح ناديا عالميا لتعدد اللغات، ومعملا تجريبيا للدراسات المقارنة والتقابلية فى المجال اللغوى، علاوة على ما سبق ستكون نظم الترجمة الآلية، ما أن يشتد عودها، أداة حاسمة لإسقاط الحواجز اللغوية التى تفصل بين الشعوب والثقافات.

المخاطر

تضيق الإنجليزية الخناق على ما عداها من اللغات فى معظم المجالات العلمية والإعلامية والتكنولوجية، وهى توشك أن تخرج منفردة كلغة عالمية، أو إسبرانتو الأمر الواقع كما يقولون. لقد جعلت شبكة الإنترنت شعوب العالم بأسره، أكثر وعيا بطغيان اللغة الإنجليزية؛ حيث كشفت عنه بصورة سافرة، وأظهرت مدى خطورة العامل التكنولوجى فى التعجيل بحركة الانقراض اللغوى. إن الرصيد الإستراتيجى الثقافى للبشرية جمعاء، صار مهددا ويخشى الكثيرون من أن تكنولوجيا المعلومات كادت تقضى على التنوع الثقافى كما كادت تكنولوجيا الصناعة أن تقضى على التنوع البيولوجى.

الآمـال

أثبتت تكنولوجيا المعلومات كونها وسيلة فعالة للمحافظة على التراث، حيا أو غير حى، ثابتا أو منقولا، وذلك من خلال ما توفره من وسائل الوسائط المتعددة، والأرشفة الإلكترونية، ونظم المحاكاة والتجسيد الرقمى التى يمكن من خلالها استعادة أزمنة الماضى فيما يعرف حاليا بإعادة بناء التاريخ خائليا virtual reconstruction of history. إن تكنولوجيا المعلومات ستمكن من عرض تراث الشعوب فى نطاق جغرافى أوسع، وسياق تاريخى أشمل، بما يساعد على خلق مناخ عالمى لامتزاج أفكار الشعوب وفنونها، والاقتراض المتبادل للقيم واللغات وأساليب الحياة.

المخـاطر

تتعرض الهوية القومية إلى تهديد شديد فى ظل عولمة أعطت لنفسها الحق فى تجنيس ثقافات العالم وطمس ملامح خصوصياتها. فهم - على ما يبدو - يريدون لنا بعولمتهم تلك أن نكون عالميين بلا مكان وبلا تاريخ، وكان تكنولوجيا المعلومات التى سحقت الزمان والمكان قد عمقت لدى أهلها استخفافا بالمكان من ناحية، ممثلا فى إضعاف الارتباط بأرض الأهل وفقدان الأمكنة لطابعها الخاص، ومن ناحية أخرى استخفافا بالزمان ممثلا فى نسيان تاريخ الأجداد وإهدار تراثهم.

ولا يخفى على أحد أنه يمكن استغلال تكنولوجيا المعلومات لنهب تراث الشعوب من قبل من لديهم الوسائل التكنولوجية لتوظيف التراث عمليا، وذلك فى ظل ما يشاع حاليا فى إطار خطاب العولمة من أن التراث الإنسانى ملكية مشاعة للجميع. فى نفس الوقت إن المحافظة على التراث الإنسانى تتطلب تسجيل هذا التراث فى صورة رقمية، ومع ارتفاع كلفة الرقمنة digitization ربما تجد الدول الفقيرة نفسها مضطرة إلى مقايضة جزء من تراثها فى مقابل رقمنته.

إضافة لما سبق، هناك تهديد حقيقى فى استغلال تكنولوجيا إعادة بناء التاريخ خائليا من أجل تزييف هذا التاريخ، وتوجيه مساره لخدمة الأغراض الإستراتيجية، وخير شاهد على ذلك ما تقوم به إسرائيل حاليا من إعادة صياغة كل ما يتعلق بصلة اليهود بتاريخ الشعوب العربية، من يهود الأندلس والمغرب إلى يهود العراق وشبه الجزيرة العربية، ناهيك عما يفعله الاحتلال الإسرائيلى حاليا فى ادعاء ملكيته للتراث الفلسطينى كما تشهد على ذلك مقتنيات المتحف اليهودى بالقدس.

رابعا: الحاجة الماسة إلى تنظير جديد

يشهد التاريخ الإنسانى الحديث بأن الوسائل قد طغت على الغايات لتضطرب الأمور وتختلط الرؤى إزاء معظم الإشكاليات التى يواجهها المجتمع المعاصر، ووسط هذه الفوضى تخرج إلى الوجود تكنولوجيا المعلومات لتهز أرجاء جميع الأسس الفكرية التى تأسست عليها المنظومة المجتمعية، وتخلخل الركائز الأساسية لمؤسساته السياسية والاقتصادية والثقافية، وتكشف عن مدى العجز الذى أصاب نظمه ومنظماته، ومدى الجمود الذى لحق بمنظومة قيمه ومعتقداته. هذا، فى نفس الوقت الذى استحدثت فيه تكنولوجيا المعلومات العديد من الوسائل غير المسبوقة لإعادة توصيف الإشكاليات التى يواجهها، وينتظرها المجتمع الإنسانى، والتعامل مع مظاهر تعقدها المتفاقم، وطرح بدائل مبتكرة للتعامل معها، ولكن - يقينا - لن تؤتى تكنولوجيا المعلومات ثمارها دون أن يساندها تنظير جديد مغاير تماما لما هو سائد نكتفى منه هنا بثلاثة فروع، هى:

- تنظير اجتماعى جديد
- تنظير سياسى جديد
- تنظير اقتصادى جديد

وسنلخص فيما يلى ما نراه من أهداف ومجالات أساسية لفروع التنظير الثلاثة هذه.

كتاب الزاوية

المغلوب والغالب

إن المغلوب مولع أبدًا بالاقتداء بالغالب فى شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده.

والسبب فى ذلك أن النفس أبدًا تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت إليه: إما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعى إنما هو لكمال الغالب فإذا غالطت بذلك واتصل لها حصل اعتقاد فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به وذلك هو الاقتداء أو لما تراه، والله أعلم من أن غلب الغالب لها ليس بعصبية ولا قوة بأس وإنما هو بما انتحلته من العوائد والمذاهب تغالط أيضًا بذلك عن الغلب وهذا راجع للأول. ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبدًا بالغالب فى ملبسه ومركبه وسلاحه فى اتخاذها وأشكالها، بل فى سائر أحواله. وانظر ذلك فى الأبناء مع آبائهم كيف تجدهم متشبهين بهم دائمًا وما ذلك إلا لاعتقادهم الكمال فيهم. وانظر إلى كل قطر من الأقطار كيف يغلب على أهله زى الحامية وجند السلطان فى الأكثر لأنهم الغالبون لهم حتى إنه إذا كانت أمة تجاور أخرى ولها الغلب عليها فيسرى إليهم من هذا التشبه والاقتداء حظ كبير، كما هو فى الأندلس لهذا العهد مع أم الجلالقة، فإنك تجدهم يتشبهون بهم فى ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم وأحوالهم حتى فى رسم التماثيل فى الجدران والمصانع والبيوت حتى لقد يستشعر من ذلك الناظر بعين الحكمة أنه من علامات الاستيلاء والأمر لله. وتأمل فى هذا سر قولهم: العامة على دين الملك، فإنه من بابه إذ الملك غالب لمن تحت يده والرعية مقتدون به لاعتقاد الكمال فيه اعتقاد الأبناء بآبائهم والمتعلمين بمعلميهم. والله العليم الحكيم وبه سبحانه وتعالى التوفيق.

(أ) تنظير اجتماعى جديد قادر على:

• تأكيد محورية الثقافة فى منظومة التنمية الإنسانية، بهدف بلورة تنظير لا يرى الثقافة مجرد عامل مساعد يدفع المجتمع صوب غاياته كما فى نموذج ماكس فيبر، ولا يجعل من الثقافة ناتجا فرعيا لطور الإنتاج السائد كما فى نموذج كارل ماركس، ولا يختزل دور الثقافة فى كونها مؤسسة ضمن مؤسسات اجتماعية أخرى كما فى نموذج إميل دوراكيم.

• إقامة جسور الوفاق، وإظهار أوجه التناقض بين المحلى والعولمى، وبين العام والخاص، وبين الحكومى وغير الحكومى، وبين الرسمى وغير الرسمى، وبين النخبوى والجماهيرى.

• تاسيس معرفة جديدة أكثر صلابة، تمكن الإنسان من أن يعى عالمه على حقيقته، لا كما يصوره له فكر نخبته، او كما يقدمه له إعلام سلطته.

• التخلص من الحتميات التى خلفها الماضى، من حتميات تاريخية واقتصادية ولغوية وبيولوجية، والتعامل مع «عدم اليقين» كعنصر جوهرى كامن فى صلب الكائنات والكيانات: مادية كانت أم غير مادية.

• التخفيف من سطوة السلميات الهرمية، وافتراض النمط الشبكى القادر على استيعاب التفاعل بين أنواع الخطابات المختلفة والمتباينة التى تسرى داخل الكيان المجتمعى، وإبراز دور آليات التصحيح الذاتى بفضل نظم المعلومات.

• التأسيس لمجتمع التعلم بمفهومه الواسع، الذى لا يقتصر فيه التعلم على البشر فقط، بل يشمل الجماعات والمؤسسات والنظم والآلات، والتعامل مع الذكاء الجماعى الذى يتضاعف بصورة أسية مع زيادة التفاعل، وزيادة إنتاج المعرفة وتداولها واستهلاكها.

• تبنى مبدأ اللاكتلية demassification لتخلصنا من نزعة التكتيل وليدة تكنولوجيا الصناعة، والمتمثلة فى إنتاج الجملة، والإعلام الجماهيرى وتعليم المجموعات الغفيرة ومؤسسات العلم الضخم.

• وأخيرًا وليس آخرًا، ضمان عدم طغيان القيم المادية على القيم الروحية، واستيعاب فروع شجرة أخلاق عصر المعلومات ومن ضمنها أخلاق الإعلام وأخلاق العلم وأخلاق التكنولوجيا، والنظر إلى الأخلاق بوصفها مزيجا يجمع بين التزام تفرضه القوانين وإلزام نابع من الضمير.

(ب) تنظير سياسى جديد قادر على:

• التخلص من تبعية الفكر السياسى للفكر الاقتصادى، وتاسيسه على فلسفة اجتماعية جديدة ترد له طابعه الأخلاقى، وذلك حتى يتسنى للسياسة القيام بدورها من أجل فرض حد أدنى من النظام وسط فوضى وشيكة ينذر بوقوعها مجتمع المعلومات.

• الكشف عن وهم الديموقراطية الزائف، وتحرير «سجناء الهواء الطليق» على حد تعبير تيودور أدورنو - الذين يعتقدون فى كونهم أحرارًا وما هم بأحرار، يساقون إلى صناديق الانتخابات كالقطيع، وتحصد آراءهم وموافقتهم إحصائيات قياس الرأى العام، وذلك بغية أن تتحول هذه الديموقراطية الشكلية إلى مشاركة إيجابية حقيقية.

• التخلص من الخمول الذى أصاب خيالنا السياسى - كما خلص إلى ذلك أحد تقارير اليونسكو - فقد أصبحت هناك هوة واسعة تفصل بينه وبين خيالنا العلمى والتكنولوجى، لقد حان الوقت لهذا الفكر السياسى أن ينزل من برجه العاجى، وأن يتخلص من برجماتياته، وأسلوب إدارة الأزمات، وبرودة تجاوبه مع مشكلات الجماهير بحجة الحرص على سلامة الإجراءات وشرعية المؤسسات.

(ج) تنظير اقتصادى جديد قادر على:

• التخلص من أسر الاقتصاد العولمى، المعصوب العينين، القائم على المضاربات فى الأسواق المالية، «اقتصاد الكازينو» الذى جعل من مصير البشرية لعبة تتقاذفها أياديه الخفية، وتقلبات أسواقه، وقصر نظر إستراتيجياته وتكتيكاته. لقد بات ضروريا أن يهجر الاقتصاد انعزاليته كى يتشبث بغاياته الأصلية كما يعنيه مصطلحه اليونانى لتوفير سبل المعيشة وتلبية احتياجات الفرد.

• التصدى لمشكلات الظلم الاقتصادى والفقر والتهميش الاجتماعى المتزايد، وتفسير هذا اللغز الذى مازال يحير الجميع - على حد تعبير أمارتا سين الاقتصادى الهندى الحائز على جائزة نوبل - ونقصد به لماذا يتساقط الناس جوعى برغم توفر موارد الغذاء؟!!.

• استيعاب أثر المتغير المعلوماتى على الأسس التى قام عليها التنظير الاقتصادى الراهن، وعلى رأسها مفهوما القيمة والملكية. فالقيمة لم تعد مقصورة على ثنائية «قيمة المنفعة وقيمة التبادل»، بعد أن قام بتوسيعها بودليار لتصبح رباعية؛ وذلك بإضافة القيمة الرمزية (قيمة التهادى مثلا)، وقيمة الرمز (أو الإشارة) حيث أصبحت المعلومة ذات قيمة يمكن قياسها وحساب عائدها المادى، وقد توازى مع مفهوم القيمة هذا التوسع فى مفهوم الملكية، ليشمل الملكية الفكرية، وما يرتبط بها من رأس المال الذهنى، واقتصاد المعرفة، وما شابه، يرتبط بما أسلفناه ضرورة مراعاة التنظير الاقتصادى المنشود للطبيعة الخاصة التى ينفرد بها مورد المعلومات من حيث اختلافه عن جميع الموارد الأخرى فى كونه المورد الوحيد الذى لا ينقص، بل يزيد مع زيادة استهلاكه.

• تخليص الفكر الاقتصادى من وضعية العلوم الطبيعية، وما أدت إليه من استغراقه فى المؤشرات الكمية والمعادلات الرياضية والسلاسل الزمنية، فالأولى بالاقتصاد أن يتوجه بمناهجه صوب الإنسانيات لا الطبيعيات، بوصفه علما إنسانيا فى المقام الأول. إن المنطق الأخلاقى يفرض علينا الا تتحول احتياجات الإنسان الأساسية إلى سلعة، وقد أصبحت المعلومات - بالفعل - ضمن هذه الاحتياجات الأساسية، بعد أن أضحت موردا لا غنى عنه لإنتاج غذاء الإنسان، وتوفير مسكنه وملبسه وتعليمه ورعاية صحته والترفيه عنه.

هوامش:

(١) يقوم الميكروبيولوجى الحديث على لغة الجينات ذات الكود الوراثى الرباعى المكون من زوج من ثنائيات الرموز، وهو سر العلاقة الوثيقة بينه وبين تكنولوجيا المعلومات القائمة على الكود الثنائى binary code.

(٢) البنتيوم Pentium طراز شريحة المعالجة الرئيسية central processor chip الشائع استخدامها فى الكمبيوترات الشخصية. ■



أحمد اللباد

لغة الجنرالات القاتلة

مـريـد البـرغـوثى

سيكرر الاحتلال إعادة تعريف الفلسطينى مرةً بعد مرةٍ وبلا هوادة: سيسمونه المخرب. المسلح. المطلوب. القاتل. الإرهابى. الفائض عن الحاجة. السرطان. الصرصار. الأفعى. الفيروس. إلخ. ولا نهاية للقائمة! ولا يتحقق ذلك بدون الوسائل الملائمة: اغتيال اللغة، وقتل المعنى، وفرض التعميمات، واحتقار الدقة

«الفلسطينيون كالسرطان. هناك أكثر من طريقة لعلاج الظواهر السرطانية. فى هذه المرحلة أنا أمارس معهم العلاج الكيماوى»
موشيه يعالون
رئيس الأركان الإسرائيلى

«ذات يوم علينا أن نقلص عدد الفلسطينيين الذين يعيشون فى المناطق»
إيتان بن إلياهو
قائد سلاح الجو الإسرائيلى

«مقابل كل ضحية تسقط منا يجب أن يسقط ١٠٠٠ فلسطينى»
ميكائيل كلاينر
رئيس حزب حيروت الإسرائيلى

«أنا أومن بالتصفيات الجسدية»
الجنرال مئير داجان
رئيس جهاز الموساد الإسرائيلى

ماذا بوسع شاعرٍ أن يفعلَ إزاء لُغة كهذه؟ لغة تُحلّقُ عالياً مع قاذفاتِ القنابل، وتغوصُ عميقاً إلى حضيض الجريمة؟ وبما أننى الفلسطينى المقصود بهذا الخطاب، وبما أنه تصادف أننى الشاعر الذى على هذا الحال، فإنه يسهلُ تَصَوُّرُ كم هو شائكٌ وصعب أن أكون الشاعرَ الذى أصبو إليه. ذلك أن من يقاتل الوحش، كما قال نيتشه، يجب أن يحرص علي أن لا يصبح بِدَوْرِه وَحْشاً: «عندما تُحَدِّقُ فى الهوّة، فإن الهوّة تُحَدِّقُ فيك».

أتوق إلى أن أهمس قصيدتى فى أسماع الكون ناياً خفيفاً، بينما تاريخى الغليظ وجغرافيتى الفظة يقرعان الطبول حول كتفيّ. وهكذا، محاطاً بأهوالِ الموت اليومى، أحلم بكتابة قصيدة عن «الحياة»! ومرجوماً باللغة العنصرية لجنرالات إسرائيل، المعززة بجوقة الحضيض التى يمثلها بناة الإمبراطورية الجدد من أمثال بوش وتشينى ورامسفيلد ورايس وولفوفيتس وبيرل، أتوقُ لكتابةِ قصيدةٍ عن «الحُب»!

التجلّىَ الأوحدَ «لما بعد الحداثة» فى فلسطين هو جيش الاحتلال الإسرائيلى! وأرقى فنون «التجديد» فى فلسطين هى ابتكارات السلاحِ الإسرائيلى! لقد أدى الاحتلال إلى تصلّبِ نسيجِ لغتنا، وجعل قصيدتنا مزدحمةً أكثر من شوارعنا. ورغم ذلك يدرك معظمنا أن واجبه يتمثل فى تجنب السقوط فى الإيقاع الحربى والصور التبسيطية والشعر الكاكى. إنها مهمة لا سهولةَ فيها، لكننا نلاحقها بمحاولاتٍ مضنية، ونحيطُها بعناية تجلِبُ الألَمَ. وفى أحيان كثيرة ننجح! وهكذا، مبعثرين فى المنابذ والمنافى، مُعَرَّضينَ للقتل والسجن ومنع التجولِ والعقوبات الجماعية والإذلال وإعادة – إعادة – إعادة الاحتلال، فإننا، نحن الشعراء الفلسطينيين، ومعنا الشعراء العرب أيضاً، لا نقاوم هذه الأخطار المادية والوجودية وحدها، بل نقاوم أيضاً، أخطار الهشاشة الجمالية التى تهدد شعرنا. نعم. نحن الذين نعيش تحت ضغط الألم ونموت تحت ضغط الأمل (فالأمل يضغط كما الألم)، نحن المحاصَرين بين كابوس واقعٍ مُلَوِّثٍ وملوّث، وحلمٍ نظيف، إذا أردنا أن نكتبَ شعراً حقيقياً، فإن علينا أن نناضل «لتحرير» قصيدتنا من «عبء الحرية»!

أنا أكبر من دولة إسرائيل بأربع سنوات.

ولدت عام ١٩٤٤ فى دير غسانة قرب رام الله على التلال الشرقية من فلسطين. شاهدت فى طفولتى المبكرة عائلات وأفراداً تختلف لُكناتهم إلى حدٍ ما عنَ لُكْنة آل البرغوثى الذين يشكلون كل سكان القريةِ وعدد آخر من القرى المجاورة. كان واضحاً أنهم أتوا من أماكن بعيدة. كانوا يطلبون الطعام أو المأوى أو يتدبرون شكلا من أشكال الإقامة. فى تلك الأيام سمعت للمرة الأولى كلمة «لاجئين». قيل لى إنهم طردوا من بيوتهم فى مئات القرى والمدن الساحلية التى دمرتها الفرق الصهيونية المسلحة التى أعلنت دولة إسرائيل عام ١٩٤٨.

لاجئون؟ كنت أسأل والدى «لماذا نسميهم لاجئين بينما هم فلسطينيون مثلنا؟» إجابات بلا نهاية على أسئلة بلا نهاية سَبَّبَها ظهورُهم غيرُ المفهوم فى قريتنا. ولم أعرف معنى كلمة لاجئ إلا عندما أصبحت واحداً عند سقوط دير غسانة وكل الجزء الشرقى من فلسطين تحت الاحتلال عام ١٩٦٧، كانت نشرات الأخبار تتحدث عن «الضفة الغربية». لا يوجد ما يوضح «تلويث اللغة» أكثر مما يوضحه مصطلح «الضفة الغربية» الذى عشنا معه سنوات دون تأمل مغزاه الحقيقى. ضفة ماذا؟ وغربية بالنسبة لأى شرق؟ الإشارة هنا إلى نهر الأردن، نحن ضفة النهر لا ضفة فلسطين. ولو كانت الإشارة إلى فلسطين لتحدثوا عن الجزء الشرقى منها. الضفة الغربية للنهر موضع جغرافى وليست بلداً أو وطناً. معركة اللغة تصبح معركة الأرض، تدمير الأولى يساوى تدمير الثانية. عندما تختفى فلسطين كاسم تختفى كوطن. لا بد من قتل اسم فلسطين وطمسه. القادة الإسرائيليون، ممارسين إيمانهم بأن فلسطين التاريخية كلها لهم، سيقومون بتجسيد الخرافة ويعطون لبلدى اسما توراتياً هو يهودا والسامرة وسيمنحون مدننا

إذا كانت اللغة العادية المتداولة عبئاً على الشعر فإن لغة السياسة والسياسيين والجنرالات هى التلوّث بعينه. هذا ما كان عليه الوضع باستمرار، لكن العالم يشهد هذه الأيام «لغة تقتل». لغة غبية تلد قنابل ذكية. لغة متوحشة ترسل الشباب والصبايا إلى مراعى الفتك. فهل يؤدّى اغتيالُ الكلام إلى اغتيال البشر؟

وقرانا أسماء عبرية. لكن، سمِّها ما شئت، تظل الحقيقة أن هذه الأرض «محتلة». لكنهم لن يسمحوا لهذه الحقيقة أن تُحرِجَهم، والحل بسيط جداً: هذه الأراضى سيسميها حكام إسرائيل «المناطق». نقطة! إنه حل فى منتهى البراعة! أنا فلسطينى لكن بلدى اسمه «المناطق»! ما الذى يحدث هنا؟ بكلمة واحدة يقوم الغزاة بإعادة تعريف شعب بأكمله ويحذفون التاريخ.

وسيكرر الاحتلال إعادة تعريف الفلسطينى مرةً بعد مرة وبلا هوادة: سيسمونه المخرب. المسلح. المطلوب. القاتل. الإرهابى. الفائض عن الحاجة. السرطان. الصرصار. الأفعى. الفيروس. إلخ. ولا نهاية للقائمة! ولا يتحقق ذلك بدون الوسائل الملائمة: اغتيال اللغة، وقتل المعنى، وفرض التعميمات، واحتقار الدقة، وتجسيد الخرافة بحيث تصبح حقيقة سياسية على الأرض، وكسوة الاستراتيجيات العسكرية والتكتيكات الحربية بكساء المفردات الرسولية والأخلاقية. حينذاك يسهل كل شيء، فالوصفة جاهزة: كُن الطرفَ الذى يضعْ التعريف. عَرِّفْ! صنِّفْ! بَسِّطْ!، اختزِلْ! شَوِّه المعلومات! أخفِ المعلومات! علِّق الوصمة! ثم: أرسِل الدبابات والقاذفات.

من سيلومك بعد كل ما فعلت؟ ألستَ فى حالة دفاعٍ عن النفس؟

إذا كانت اللغة العادية المتداولة عبئاً على الشعر فإن لغة السياسة والسياسيين والجنرالات هى التلوّث بعينه. هذا ما كان عليه الوضع باستمرار، لكن العالم يشهد هذه الأيام «لغة تُقْتُل». لغة غبية تلد قنابل ذكية. لغة متوحشة ترسل الشباب والصبايا إلى مراعي الفتك. فهل يؤدّى اغتيالُ الكلام إلى اغتيالِ البشر؟

نعرفَ أن التُّسطيحَ أهمُّ أسباب خراب الشعر والنثر. وعندما يكون السمة الغالبة على خطابِ صنّاع السياسة ومحترفيها، فهو يؤدّى حتماً إلى تفريخ أشكال التعصب والسلفية يميناً ويساراً. وإذا أضيف له الشعور المريض بالرسولية والتفوق معاً، كما هو الحال الراهن فى لغة الولايات المتحدة وإسرائيل، فإن التسطيح، كما علّمَنا التاريخ، يؤدّى إلى الفاشيّة. وعليه، فإن الخطاب القائم على «هم/نحن» أو «إما معنا أو مع الشر» ليس رطانة غبيّة هوجاء فقط ،بل هو عمل من أعمال القتل.

كان الهجوم الإرهابى على نيويورك عملاً مُداناً من قبل العالم كله. وكفلسطينىٌ من ضحايا الإرهاب الإسرائيلى، وكغيرى من الشعراء الذين لا يتصالحون مع القبح، فإننى تماثلت على الفور مع الضحايا داخل البرجين وتعاطفت مع كل روح أزهقت آنذاك. الآن وبعد مرور سنة وبضعة أشهر اتساءل لماذا سُجِّلَ ذلك اليومُ فى التاريخ على انه ١١/٩ فقط، دون الإشارة إلى عام ٢٠٠١؟ يقولون لك ٩/١١ ولا يشيرون إلى السنة أبداً! المؤكد أن علماء السياسة يستطيعون الإجابة عن هذا التساؤل بدرجة من الدقة لا يمتلكها أمثالى من غير المختصين. لكنّ الواضح أن هذا التبسيط الشيطانى سيتيح لجورج بوش ومستشاريه ذوى الأنياب فى البيت الأبيض أن يصوروا ذلك اليوم بصفته يوماً خارج التاريخ وخارج السياسة، وذلك من أجل تدمير فكرة استمرارية التاريخ وترابطيته. وهكذا يمهدون الطريق لنظرية خبيثة وخطيرة تفضّل أن ترى ٩/١١ بصفته بداية القانون، بداية الحق، بداية الباطل، بداية الأعراف، بداية الصداقات، بداية العداوات، بداية المصالح، و.. «بداية التاريخ»!



سيتيح هذا النوع من التسطيح فكرةً جهنميةً توحى بان التعامل مع ذلك اليوم يجب أن يُختزَل إلى معادلة الشر المطلق ضد الخير المطلق. لا أكثر ولا أقل. هكذا سيتمكن البيت الأبيض من منع أى تحليل سياسى أو تاريخى وتحريم أى محاولة للربط بين ذلك اليوم وأية قضية أخرى على سطح هذا الكوكب. وهكذا يرغم جورج بوش دول العالم على تقبل أى خيار تختاره الولايات المتحدة، والرضى عن أية ضربة توجهها إلى أى طرف، فى أية لحظة، فى أى مكان. هكذا ينهى جورج بوش «مفهوم الحياد» فى الحروب، فينقلب على تحالفاته التقليدية دون أدنى اعتراف بالجميل للأتباع والأعوان التاريخيين، ويتمكن من تشكيل عجينة القانون الدولىّ والأمم المتحدة والنظام الدولى العالمى برمته، كما تشتهى يداه. عن طريق «اغتيال اللغة» وتلويث الكلام يهدف هو وإدارته إلى تحطيم نُظُم الاعتقاد المألوفة لدى البشر. نعم. إن ابشع ما يخشى أن تحققه هذه الإدارة بقيادة جورج بوش هو إعادة الكون إلى الفوضى وقديماً قال الشاعر العربى:

وإن النّارَ بالعودَيْنِ تُذْكَى
وإنَّ الحَرْبَ أوّلُها الكَلامُ

والآن، هل يحق للشعب الأمريكى وشعوب الأمم الأخرى أن يفكروا وأن يحللوا وأن يفحصوا هذا «الكلام» الملوث؟ نعم، نظرياً نعم. لكن إدارة جورج بوش لا تحب التحليل «الزائد» ولا تسمح به. إنها تريد أن تنظِّم النتائج الناجمة عن التفكير، وأن تسيطر على مستقبل الأفكار!

وماذا عن الكتابة والكتّاب فى عصر كهذا؟ ماذا بوسعى كشاعر فلسطينى أن أفعل بشعرى وبلغتى، هنا والآن، فى هذا الجزء من العالم حيث الموت «لا يقع لأسباب طبيعية كالشيخوخة والأمراض وحوادث الطرق. الموت هنا ينتسب، يقيم، يتجوّل فى الأرض، فى المنفى، يمارس حياته العادية بيننا، يحدّق فى وجوهنا جميعاً، يجعل البلد يطالب عكازَ الشيخ وطرحةَ العجوز ورضّاعةَ الطفل بالتُّذكُّر اليوميّ، بالنسيان اليومى، وبما هو أقسى من ذلك كله: بالبطولة...اليوميّة!

إنها حافة الحياة أو هى الحياة على الحافة. فلسطين حاضرة. وهى أيضاً ملغاة. هى النكبة. هى المقاومة. هى متاحة. هى ممنوعة. هى خائفة. هى مخيفة. هى هوية أهلها. هى فقدانهم الكامل للهوية. هى ذهابنا، مضطرين إلى الأمل. هى ذهابنا مضطرين، إلى اليأس. هى مشكلة إنسانها من الرضعة الأولى إلى الشهقة الأخيرة. إنها الطوارئ التى تقترض صفة الديمومة» حيث الاحتلال «يتدخل فى الحياة كلها وفى الموت كله. يتدخل فى السهر والشوق والغضب والشهوة والمشى فى الطرقات. يتدخل فى الذهاب إلى الأماكن ويتدخل فى العودة منها، سواء كانت سوق الخضار المجاور أو مستشفى الطوارئ أو شاطئ البحر أو غرفة النوم أو عاصمة نائية»!

فى مكان آخر تحدثتُ عن «الشعر فى مجتمع الكارثة» حيث تختل جميع الأولويات بما فى ذلك الأولويات الثقافية بمعناها الأشمل، وبمعناها الأدبى على الأخص، والشعر على وجه التحديد. قلت إنه ينبغى أن يظل هناك، حتى فى بؤرة العاصفة، نفرٌ من المبدعين الراغبين فى اكتشاف قدرة الفن الساحرة على الاحتفاظ بجدارته وصفاته، وعدم السماح بتدميره. وفى واحد من مقالاته المبكرة كتب الشاعر الأمريكى و.س. مارفن:

عندما يسود الظلم (وأين لا يحدث ذلك؟) لا خيار أمام الشاعر سوى أن يسمى الخطأ باسمه وبأدق صورة ممكنة وأن يحاول الإشارة إلى مطالب العدالة، كما يراها الضحايا الذين يشاطرهم حياتهم.

وأنا اتفق معه هنا، كما أننى أشاركه مخاوفه من الخطر الذى يواجه الشاعر فى هذه الحالة، من حيث المجازفة بفرديته التى لا تُعَوَّض، وتشويه موهبته ذاتها إذ يتحول إلى «مكبّر صوت». لقد أخذت منا إسرائيل أرض القصيدة وتركت لنا قصيدة الأرض. لكنَّ أفق قصيدتنا يحاول أن يكون اكثر اتساعاً من هذه الثنائية المخنوقة، ليحيط بالكونيّ والإنسانيّ من جهة، وبالشخصى والحميم من جهة أخرى. ويعى أفضل الشعراء الفلسطينيين والعرب الحقيقةَ التالية: التبسيط أو التجريد يفيد المتعصب لكنه بالنسبة للشاعر، انتحار.

إن معاناة أمة من الأمم يجب الا تكون ذريعة لتبرير الركاكة والتسطيح فى أى شكل من أشكال التعبير الفنى. فليس مقبولاً، لأننا نعيش على الحافة الماساوية للتاريخ، أن نختزلَ اللوحةَ إلى الملصَق، والأغنيةَ إلى نشيد، والمسرحيةَ إلى موعظة، والروايةَ إلى أيدلوجيا عارية، والشعرَ إلى شِعار.

وقد اختلفت دائماً مع المفهوم المنتشر حول ما اصطلح النقاد الكسالى على تسميته الشعر الوطنى، رغم أن عالمنا يشهد أوقاتاً ضاغطة قليلة الرحمة أصبحت الحرب فيها هى الخيار «الأول» فى إدارة شئون الكون؛ وانتشرت الحروب الصغيرة كالفطر فى أكثر من مكان على امتداد السنوات الأخيرة، وصار مصطلحُ «عملية السلام» أبلغ علامة من علامات التلوث اللغوى بل أصبح بذاءةً لغوية تشير إلى إطالة أمَد الصراعات الدامية عن قصد وتصميم، وبذل كل جهد ممكن من أجلِ تغييب العدالة. ولأن القوة تُملى ولا يُملى عليها، فإن العدالةَ التى تروقُ للطرف الأقوى هى الظلمُ الشاملُ.

تساءلتُ دائماً: «نحن اخترعنا

كليلة ودمنة

قراءة جديدة .. فى كتـاب قـديم

قليل من الكتب نال من إقبال الناس وعنايتهم ما نال هذا الكتاب. فقد تنافست الأمم الجادة فى ادخاره منذ كتب، وحرصت كل أمة أن تنقله إلى لغتها، فليس فى لغات العالم ذات الآداب لغة إلا ترجم هذا الكتاب إليها، وبحق عنيت الأمم بهذا الكتاب العجيب الذى يحوى من الحكم والآداب وضروب السياسة وأفانين القصص ما يملأ القارئ عبرة وإعجابًا وسرورًا.

لقد كان «كليلة ودمنة»، ولايزال، مثار اختلاف حول أصله وترجماته، وتساءل كثير من المؤرخين والنقاد عن اللغة التى ظهر بها أولاً واللغة التى جرت ترجمته إليها بعد ذلك، وفى هذا ظهرت خلافات بيّنة لم تكن هناك وسيلة لحسمها بشكل قاطع.

وتنسب الموسوعة العربية العالمية (الرياض ١٩٩٩) قصة الكتاب إلى العالم الفارسى برزويه الذى كان مولعًا بالحكمة والعلم وكان مقربًا من كسرى أنوشروان فقرأ فى كتاب الهنود زعمًا يقول إن لديهم نباتًا ينثر على الميت فيتكلم فى الحال، فارتحل برزويه إلى الهند بتشجيع من كسرى أنوشروان وواجهته مصاعب كثيرة حتى عرف أن النبات المقصود هو رمز لكتاب كليلة ودمنة الموجود لدى الراجا حاكم الهند. وبعد محاولات جهيدة استطاع برزويه الحصول على النسخة الهندية وكان يرسل إلى كسرى أنوشروان ما يحفظه منها تباعًا وتولى بُزُرجُمهُر كتابة ما يصل من برزويه وصدر الكتاب وبه نبذة عن العالم برزويه.

الكتاب كله يرتكز حول قصص يرويها الفيلسوف بيدبا للملك دبشليم، وقد اطلع ابن المقفع (توفى ٧٥٩ ميلادية) على النسخة الفارسية لكليلة ودمنة وكان لها أثر بالغ فى نفسه وتفكيره وثقافته، كان الظرف الاجتماعى والسياسى للفيلسوف الهندى بيدبا مع الملك دبشليم يشابه ما كان فيه ابن المقفع مع الخليفة العباسى المنصور الذى كان بحاجة إلى النصح غير المباشر لما عرف عنه من قوة الباس والبطش بكل من يمالئه أو يخرج عن طاعته، لذا اتسمت ترجمة ابن المقفع للكتاب بخصوصية ظرفها الزمانى والمكانى. فاضاف ابن المقفع بعض القصص من نسج تاليفه وعدل فى بعضها واكسب المترجم منها روحًا جديدة أضافها أسلوبه المشوق وعرضه الرائع.

يتناول الكتاب قصصًا تجرى على لسان الحيوان فى ظاهرها وتستنطق الحيوان لتصل إلى أهداف أخرى اخلاقية وإصلاحية لشئون المجتمع والسياسة. وقد يتحقق الهدف بعرض الحكمة مباشرة أو من خلال الفكاهة التى تظهر فى قيام الحيوان بالدور الإنسانى سواء فى المسلك أو الحوار. وفى هذا الصدد يقول ابن المقفع: «وأما الكتاب فجمع حكمة ولهوًا فاختاره الحكماء لحكمته والسفهاء للهوه والمتعلم من الأحداث ناشط فى حفظ ما صار إليه من أمر يربط فى صدره ولا يدرى ما هو».

إن للكتاب عرضًا ظاهريًا وآخر باطنيًا وحسب ابن المقفع ايضًا: «من قرأ هذا الكتاب ولم يفهم ما فيه ولم يعلم غرضه ظاهرًا أو باطنًا لم ينتفع بما بدا له من خطه ونقشه».

ويقول «كليلة ودمنة» على حكاية مثل يسال الملك دبشليم الفيلسوف بيدبا عنه فيسوق له الأخير قصة عن هذا المثل وتاخذ تلك القصص شكلاً خرافيًا على ألسنة الحيوانات تطول وتتسع لتضم فى جوانبها قصصًا أخرى متداخلة إلى أن تصل فى النهاية إلى حلقة متشابكة من القصص يفضى بعضها إلى بعض، عاقدة عالمًا من الحكم والتجارب ينهل منه القارئ فى كل قراءة جديدة للكتاب منبهرًا برشاقة الأسلوب وعمق الفكرة.



مَن علم ولم يستعمل علمه لم ينتفع بعلمه:

وكان كمَثل الرجل الذى بلغنى أنّ سارقًا دخل عليه فى منزله، فاستيقظ الرجلُ فقال فى نفسه: لأسكُتَنّ حتى أنظر غايةَ ما يصنع، ولأتركَنّه حتى إذا فرَغ مما ياخذ قمتُ إليه فنغّصتُ ذلك عليه وكدّرته. فسكت وهو فى فراشه. وجعل السارق يطوف فى البيت، ويجمع ما قدَر عليه حتى غلب على صاحب البيت النُّعاس، وحمله النوم فنام ووافق ذلك فراغ السارق. فعمَد إلى جميع ما كان قد جمعه فاحتمله وانطلق به. واستيقظ الرجل بعد ذهاب السارق فلم ير فى منزله شيئًا. فجعل يلومُ نفسه ويُعاتِبُها ويعَضُّ كفّيه اسَفًا. وعرف أنّ فطْنتَه وعلْمه لم ينفعاه شيئًا إذ لم يَستعملهما.

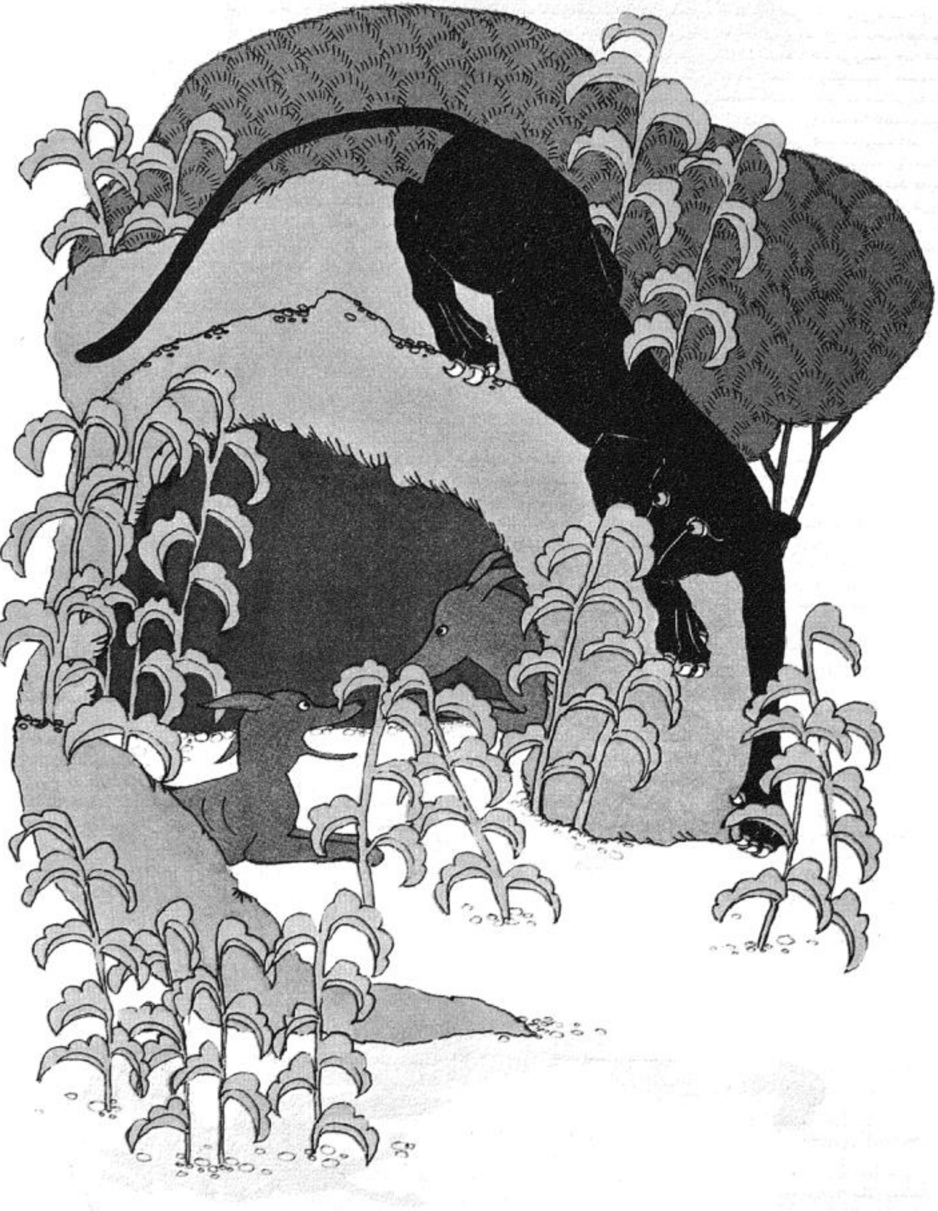
فى حمق تصديق ما لا يصدق:

زعموا أنّ جماعة من اللصوص ذهبوا إلى بيت رجل من الأغنياء ليسرقوا متاعه، فعلَوْا ظهر بيته ليلاً، فانتبه صاحب البيت لوَطئهم، وأحسّ بهم، فعرف انه لم يعلُ ظهرَ بيته فى تلك الساعة إلاّ مُريب. فايقظ امراته وقال لها: رُويدًا! إنى لأحسَب اللصوص قد علَوْا ظهر بيتنا. وأنا مُتناومٌ لك، فايقظينى بصوتٍ رفيع يسمعُه مَن فوقَ البيت من اللصوص، ثم قولى لى: الا تُخبِرُنى عن أموالكَ الكثيرة هذه وكنوزك، من أين جمعتَها؟ فإذا أبيتُ عليكِ فالحّى فى السؤال. ففعلت المرأة ذلك. وسمع اللصوصُ كلامها. فقال الرجل: أيتها المرأة، قد ساقك القدَر إلى رزقٍ واسع، فكُلى واشربى واسكتى ولا تسالى عما لو اخبرتك به لم آمن ان يسمعَه سامع فيكون فى ذلك ما اكرَه وتكرهين. فقالت المرأة: لَعَمْرى ما يقْربنا احدٌ يفهم كلامنا. قال الرجل: فإنى مخبرُك أنى لم أجمع هذه الأموال والكنوز إلاّ من السرقة. قالت: وكيف كان ذلك وأنتَ فى أعيُن الناس عَدْلٌ مَرْضىٌ لم يتّهمك ولم يسترِب بك احد؟ قال: ذلك لعلمٍ أصبتُه فى السرقة كان الطفَ وارفقَ من ان يتّهمنى احد أو يرتابَ فىّ. قالت: وكيف كان ذلك؟ قال: كنت اذهب فى الليلة المُقمِرة ومعى أصحابى حتى أعلُوَ ظهر البيت الذى أريد أن أسرقه، فانتهىَ إلى الكُوّة التى يدخل منها الضوء إلى البيت فارقىَ بهذه الرُّقية وهى: «شَولَم، شَولَم» سبع مرات، ثم أعتنق الضوء فاهبِط فيه إلى البيت، ولا يحسّ بوقوعى أحد. ثم اقومُ فى أسفل الضوء فاعيدُ الرُّقية سبعَ مرات فلا يبقى فى البيت مالٌ ولا متاع إلاّ ظهر لى، وامكننى أن اتناوله، وقويتُ على حمله. ثم أعيدُها وأعتنقُ الضوء وأصعدُ إلى أصحابى فاحمّلهم ما معى، ثم ننسلّ ولا يَشعر بنا أحد.

فلما سمع اللصوصُ ذلك فرِحوا وقالوا: لقد ظفرنا من هذا البيت بأمرٍ هو خيرٌ لنا من المال، وأمِنّا به من السلطان. وأطالوا المُكث حتى ظنّوا أنّ الرجل قد نام. ودنا رئيسُهم إلى مَدخل الضوء من الكُوّة فقال: «شَولَم، شَولَم» سبعَ مرات. ثم اعتنقَ الضوء لينزل إلى البيت فوقع مُنكّساً فوثب إليه صاحبُ البيت بهِراوة فاوجعه ضربًا وقال له: من أنت؟ قال: انا المصدّق المخدوع، وهذه ثمرة تصديقى.

النصوص واللوحات ماخوذة من النسخة التي حققها الدكتور عبدالوهاب عزام والصادرة عن دار الشروق (الطبعة الرابعة ١٩٩٤)

فى مواجهة البغى والاستعلاء



لوحات الغلاف: للفنانة سوزانا فريتز

العدد الواحد والخمسون - أبريل ٢٠٠٢م



في الخوف يودي إلى التهلكة:

يحكى أن رجلاً ألجاه الخوف إلى بئر تدلّى فيها وتعلّق بغصنين نابتين على شَفَرها فوقع رجلاه على شيء عَمَدَهما، فنظر فإذا هو بأربع أفاعٍ قد أطلعن رءوسهنّ من أجحرتهنّ. ونظر إلى أسفلها فإذا هو بتنّين فاغرٍ فاه نحوه. ورفع بصره إلى الغصنين فإذا في أصولهما جُرذان أبيضُ وأسودُ يقرضانهما دائبَين لا يفتران. فبينما هو على ذلك يهتمّ بالحيلة لنفسه إذ نظر فإذا قريب منه كُوارة نحل فيها شيء من عسل، فتطعّم منه واشتغل بحلاوته عن التفكر في أمره، ونسي الحيّات الأربعَ التي رجلاه عليها ولا يدرى متى يَثُرن به، أو إحداهنّ، ولم يَذكُر أن الجُرَذين دائبان في قطع الغصنين، وأنهما إذا قطعاهما وقع في فم التّنين فهلك. فلم يزل لاهياً ساهيًا حتى هلك.

في الدهاء والحيلة

أمام القوة والشدة:

قال دمنة: لا تنظرنّ إلى صغرى وضعفي؛ فإنّ الأمور ليست بالقوّة والعظم. وربّ ضعيف صغير قد بلغ بدهائه وحيلته ورأيه ما يعجز عنه كثير من الأقوياء. أوَلم يَبلغك أنّ غرابًا احتال لأسْوَد (نوع من الحيات) حتى قتله. قال كليلة: وكيف كان هذا الحديث؟

قال دمنة:

زعموا أنه كان وَكْر لغراب في شجرة في جبل. وكان بقربه جُحرُ أسوَد. وكان الغراب كلما فرّخ عَمَد الأسودُ إلى فراخه فأكلها. فاشتدّ ذلك عليه، وبلَغ منه مَبلغًا شديدًا. فشكا ذلك إلى صديق له من بنات آوى، وقال: أردتُ أن أستأمرك في شيء هممتُ به إن أنت وافقتَني عليه. قال: وما هو؟ قال: آتيَ الأسودَ وهو نائم، فأنقُرُ عينيه لعلّي أفقأهما. فقال ابن آوى: بئست الحيلة هممتَ بها! فالتمس أمرًا تصيبُ منه حاجتك، ولا يصلُ فيه مكروهٌ إليك. وإياك أن يكون مَثَلُك مَثَلَ العُلجوم الذى أراد قتلَ السرطان فقتَل نفسه. قال الغراب: وكيف كان ذلك؟ قال ابن آوى:

كان عُلجوم مُعشّشًا في أجَمة مُخصبة كثيرة السمك. فعاش هنالك ما عاش، ثم هرِم فلم يستطع الصيد، فأصابه جوع وجَهد، فالتمس الحيَل وقعد مفكّرًا حزينًا، فرآه سَرَطان من بعيد. فلما رأى حاله عرف ما به، فأتاه فقال له: مالي أراك كئيبًا حزينًا؟ قال العُلجوم: وكيف لا أكتئب وأحزن، وإنما كان معاشي من السمك ههنا. وهنّ كثير. وإني رأيت اليوم صيّادَين أتيا مكاننا هذا فقال أحدهما لصاحبه: إنّ ههنا سمكًا كثيرًا أفلا نصيده؟ فقال صاحبه: إني عرفت أمامنا مكانًا فيه سمك أكثر منه. فأنا أُحبُّ أن نبدأ به ثم نرجعَ إلى ما ههنا، فنفنيَه. وقد علمتُ أنهما لو فرغا من هناك رجعا إلينا فلم يَدَعا في هذه الأجَمة سمكةً إلاّ صاداها. فإذا كان ذلك فإنّ فيه هلاكي وموتي. فانطلق السرَطان إلى جماعة السمك فأخبرهنّ بذلك. فأقبلن إلى العُلجوم وقُلن: أتيناك لتُشير علينا؛ فإنّ ذا العقل لا يدع مشاورة عدوّه، إذا كان ذا رأي في الأمر الذي يَشْرَكه فيه. وأنت ذو رأي، ولك في بقائنا صلاح، فأشر علينا برأيك. قال العُلجوم: أمّا مُكابرة الصيّادَين وقتالهما فليسا عندنا ولا نطيقهما، ولا أعلمُ حيلة إلاّ أني قد عرفت مكانًا كثيرَ الماء والخُضَر، فإن شئتُنّ فانتقلن إليه. فقلن له: ومن يَمُنّ علينا بذلك؟ فقال: أنا. وجعَل يحمل منهنّ اثنتين في كل يوم، ينطلق بهما إلى بعض التّلال فيأكلهما.

ثم إنّ السرَطانَ قال له: إني قد أشفقتُ مما حذّرتنا؛ فلو ذهبتَ بي. فاحتمَله حتى دنا من المكان الذى كان يأكلهنّ فيه. فلما بَصُر بعظامهنّ مجموعةً تلوح، عرف أنه هو صاحبُهنّ وأنه يريد به مثلهنّ. فقال: إذا لقي المرء عَدوّه في المواطن التي يعلم أنه هالكٌ فيها، فهو حقيقٌ أن يقاتل كَرَمًا وحفاظًا. فأهوى بكلاليبه على عُنُق العُلجوم فعصَره، فوقع إلى الأرض ميتًا. ورجع السّرطانُ إلى السمك فأخبرهنّ.

وإنما ضربتُ لك هذا المَثَل لتعلم أنّ بعض الحيَل مُدمّر على صاحبه، مُهلك له. ولكن انطلق فالتمس حَلْيًا، فإذا ظفرتَ به فاخطفه، ثم طِرْ به - وأصحابُه ينظرون إليك حيث لا تفوتُهم فإنهم سيطلبونك - حتى تنتهي به إلى جُحر الأسوَد فترميَ به عليه.

وإنما ضربتُ لك هذا المَثل لتعلم أنّ الاحتيال ربما أجزَى ما لا تُجزِي القوّة.

بين الحزم والعجز:

قال دمنة للأسد: وأنت أيها الملك أعلمُ بالأمور، وأبلغ فيها رأيًا. وأنا أرى أن تحتال للأمر قبل تفاقمه، ولا تنتظر وقوعه، فإنك لا تأمن أن يفوتك ثم لا تستدركه؛ فإنه كان يقال: الرجالُ ثلاثةٌ: حازمان وعاجز. فأحد الحازمين من إذا نزل به البلاء لم يدهش، ولم يذهب قلبه شعاعًا، ولم يَعْيَ برأيه وحيلته أو مكيدته التي بها يرجو المخرج والنجاة. وأحزمُ من هذا، المتقدم ذو العدة، الذى يعرف الأمر مبتدأ قبل وقوعه، فيعظمه إعظامه، ويحتال له حيلته كأنه قد لزمه، فيحسم الداء قبل أن يبتلى به، ويدفع الأمر قبل وقوعه. وأما العاجز فهو الذى لا يزال في التردد وتمني الأماني حتى يهلك نفسه. ومثل ذلك مثل السمكات الثلاث. قال الأسد: وكيف كان مثلهن؟ قال دمنة: زعموا أن غديرًا كان فيه ثلاث سمكات: كيسةٌ، وأكيس منها، وعاجزة. وكان ذلك المكان بنجوة من الأرض، لا يكاد يقربه من الناس أحد. فلما كان ذات يوم، مر صيادان على ذلك الغدير مجتازين، فتواعدا أن يرجعا إليه بشباكهما فيصيدا الثلاث السمكات اللواتي رأياهن فيه. فلما رأتهما الحازمة ارتابت بهما، وتخوفت منهما، فلم تعرج أن خرجت من مدخل الماء إلى النهر. وأما الكيسة فتلبثت حتى جاء الصيادان، فلما أبصرتهما قد سدّا مخرجها، وعرفت الذى يريدان بها، قالت: فرّطتُ، وهذه عاقبة التفريط، فكيف الخلاصُ وقلما تنجح حيلة المرهوق؟ ولكن العالم لا يقنط على كل حال، ولا يدع الأخذ بالرأي. ثم تماوتت وجعلت تطفو على وجه الماء منقلبة، فأخذاها فألقياها على الأرض غير بعيد من النهر، فوثبت فيه فنجت منهما. وأما العاجزة فلم تزل في إقبال وإدبار حتى صاداها.

وأنا أرى لك أيها الملك، معاجلة الحزم والحيلة، فتحسم الداء قبل أن تُبتلى به، وتدفع الأمر قبل نزوله.

أوهام التمني:

قال دمنة: ألا إنه لا يحمله على ذلك إلا ذلك؛ فإن اللئيم الكفور لا يزال ناصحًا نافعًا، حتى يرفع إلى المنزلة التي ليس لها بأهل، فإذا فُعل ذلك به، التمس ما فوقها بالغش والخيانة. ولا يخدم السلطان ولا ينصح له إلا عن فَرَق أو حاجة؛ فإذا استغنى وأمن عاد إلى أصله وجوهره؛ كذنب الكلب الأعقف، لا يزال مستقيمًا ما دام مربوطًا، فإذا حل عاد إلى ما كان عليه. واعلم أنه من لم يقبل من نُصحائه ما يثقل عليه مما ينظرون له فيه، لم يحمد مَغَبّة أمره ورأيه؛ كالمريض الذى يترك ما ينعت له الطبيب ويعمد لما تشتهي نفسه. وخيرُ الأعوان أقلُّهم مصانعةً، وأفضلُ الأعمال أحلاها عاقبةً، وأحسن الثناء ما كان على أفواه الأحرار، وأشرَف السلطان ما لم يخالطه بطر، وأيسَرُ الأغنياء من لم يكن للحرص أسيرًا، وأفضل الأصدقاء من لم يُخاصم، وأمثلُ الأخلاق أعونُها على الورع. وقد





قيل لو أن امرأً توسّد النار، وافترش الحيّات، كان أحقَّ بأن يَهنئه النومُ عليها، منه إذا أحسّ من صاحبه الذى يغدو عليه ويروح، بعداوة يُريد بها نفسه. وأعجزُ الملوك آخذُهم بالهُوينا، وأشبههم بالفيل المغتلم الذى لا يلتفت إلى شىء، فإن حزبه أمر تهاون به، وإن أضاع ما ينفعه، جعل ذلك على قرابينه.

صاحب الشر لا يسلم منه:

قال دمنة: قيل إن نزل بك ضيفٌ ساعةً من النهار، وأنت لا تعرف أخلاقه، فلا تأمَنه على نفسك، واحذر أن يصلَ إليك منه مثلُ ما وصل إلى القَملة من ضيافة البُرغوث. قال الأسد: وكيفَ كان ذلك؟ قال دمنة:

زعموا أن قملةً لزِمت فراش رجُل من الأشراف، فكانت تُصيبُ من دمه وهو نائم، وتدبّ دبيبًا رقيقًا فلا يشعُر بها. ثم إنّ بُرغوثًا ضافها فقالت له: بِت هنا الليلة فى دم طيب وفراش وطىء لين، ففعل. فلما آوى الرجُل إلى فراشه، لذعه البُرغوث فأوجعه، فاستيقظ وأمَر بفراشه أن يفتَّش ويُنظر ما فيه. فوثب البرغوث فنجا، وأخذوا القملة فقتلوها.

وإنما ضربتُ لك هذا المثل أن صاحب الشر لا يُسلم منه.

قد يهلك الظلمة البرىء

لو اجتمع المَكَرةُ الظَّلَمةُ على البرىء الصحيح كانوا خُلَقاء أن يُهلكوه، كما أهلك الذئبُ والغرابُ وابنُ آوى الجَمَلَ، حين اجتمعوا عليه بالمكر والخِلابة. قال دمنة: وكيف كان ذلك؟ قال الثور:

زعموا أنّ أسدًا كان فى أجَمة مجاورة طريقًا من طرق الناس، له أصحاب ثلاثة: ذئبٌ وابنُ آوى وغُراب، وأن أناسًا من التجار مروا فى ذلك الطريق فتخلف عنهم جمل لهم، فدخل الأجمة حتى انتهى إلى الأسد، فقال له الأسد: من أين أقبلتَ؟ فأخبره بشأنه. فقال له: ما تريدُ؟ قال: أريد صحبة الملك. قال: فإن أردت صُحبتى فاصحَبنى فى الأمن والخصب والسعة. فأقام الجمل مع الأسد حتى إذا كان يومٌ توجه الأسد فى طلب الصيد فلقى فيلاً فقاتله قتالاً شديدًا ثم أقبل الأسد تسيل دماؤه مما جرحه الفيل بنابه. فوقع مُثْخنًا لا يستطيع صيدًا. فلبث الذئبُ وابن آوى والغراب أيامًا لا يُصبنَ شيئًا



مما كُنّ يَعِشنَ به من فضول الأسد، وأصابهم جوع وهزال شديد. فعرف الأسد ذلك منهم فقال: جُهدتُنّ واحتجتن إلى ما تأكلن. فقلن: ليس هَمُّنا أنفسنا ونحن نرى بالملك ما نرى، ولسنا نجد للملك بعض ما يُصلحُه. قال الأسد: ما أشُكُّ في مودّتكم وصحبتكم، ولكن إن استطعتم فانتشروا، فعسى أن تُصيبوا صيدًا فتأتوني به، ولعلى أكسبكم ونفسى خيرًا. فخرج الذئب والغراب وابن آوى من عند الأسد فتنحوا ناحية، وائتمروا بينهم وقالوا: ما لنا ولهذا الجمل الآكل العُشب، الذى ليس شأنُه شأننا، ولا رأيُه رأيَنا؟ ألا نُزيّن للأسد أن يأكله ويطعمنا من لحمه؟ قال ابن آوى: هذا ما لا تستطيعان ذكرَه للأسد، فإنه قد أمّن الجمل، وجعل له ذمّة. قال الغراب: أقيما مكانكما ودَعانى والأسد.

فانطلق الغراب إلى الأسد. فلما رآه قال له الأسد: هل حصلتم شيئًا؟ قال له الغراب: إنما يجدُ مَن به ابتغاءٌ، ويُبصر مَن به نظر. أما نحن فقد ذهب منّا البصر والنظر لما أصابنا من الجوع؛ ولكن قد نظرنا فى أمر واتفق عليه رأيُنا، فإن وافقتنا عليه فنحن مخصبون. قال الأسد: وما ذلك الأمر؟ قال الغراب: هذا الجمل الآكل العشب، المتمرّغُ بيننا فى غير منفعة. فغضب الأسد وقال: ويلك! ما أخطأ مقالتك، وأعجزَ رأيك، وأبعدَك من الوفاء والرحمة. وما كنتَ حقيقًا أن تستقبلنى بهذه المقالة. ألم تعلَم أنى أمّنت الجمل، وجعلت له ذمّة؟ ألم يَبلُغك أنه لم يتصدق المتصدّق بصدقة - وإن عظمت - هى أعظم من أن يُجير نفسًا خائفة، وأن يَحقن دمًا مهدورًا؟ وقد أجَرتُ الجملَ، ولَستُ غادرًا به. قال الغراب: إنى لأعرف ما قال الملك؛ ولكن النفسَ الواحدة يَفتدى بها أهلُ البيت، وأهلَ البيت تَفتدى بهم القبيلةُ، والقبيلةُ يَفتدى بها المصرُ، والمصرُ فدى الملك إذا نزلت به الحاجة. وإنى جاعلٌ للملك من ذمّته مَخرجًا، فلا يتكلّفُ الأسدُ أن يتولى غَدرًا ولا يأمر به؛ ولكنّا محتالون حيلة فيها وفاءٌ للملك بذمّته وظفرٌ منّا بحاجتنا. فسكت الأسد.

فأتى الغرابُ أصحابَه فقال: إنى قد كلّمت الأسد حتى أقرَّ بكذا وكذا. فكيف الحيلةُ للجمل إذا أبى الأسدُ أن يلىَ قتله أو يأمرَ به؟ قال صاحباه: برفقك ورأيك نرجو ذلك. قال الغراب: الرأى أن نجتمع والجملَ، ونذكرَ حالَ الأسد، وما قد أصابه من الجوع والجَهد، ونقول: لقد كان إلينا مُحسنًا، ولنا مُكرمًا. فإن لم يَرَ منّا اليوم - وقد نزل به ما نزل - اهتمامًا بأمره وحرصًا على صلاحه، أنزلَ ذلك منّا على لُؤم الأخلاق وكُفر الإحسان. ولكن هلمّوا فتقدموا إلى الأسد نذكر له حسن بلائه عندنا، وما كنا نعيش به فى جاهه، وأنه قد احتاج إلى شكرنا ووفائنا، وأنّا لو كنا نقدر له على فائدة نأتيه بها لم ندّخر ذلك عنه، فإن لم نقدر على ذلك فأنفسُنا له مبذولة. ثم ليَعرض عليه كلُّ واحد منّا نفسَه وليقلْ: كُلْنى أيها الملك، ولا تَمُت جوعًا. فإذا قال ذلك قائل، أجابه الآخرون وردوا عليه مقالته بشىء يكون له فيه عُذر، فيسكت ويسكتون، ونسلمُ كلّنا ونكون قد قضينا ذمام الأسد. ففعلوا وواطأهم الجمل على ذلك.

ثم تقدّموا إلى الأسد، فبدأ الغراب وقال: إنك احتجتَ أيها الملك إلى ما يُقيمك، ونحن أحقُّ أن نَهبَ أنفسنا لك؛ فإنّا بك كنا نعيش، وبك نرجو عَيش مَن بعدنا من أعقابنا، وإن أنت هلكت فليس لأحد منّا بعدك بقاء، ولا لنا فى الحياة خيرَ؛ فأنا أُحبُّ أن تأكلنى، فما أطيبَ نفسى لك بذلك. فأجابه الذئب والجمل وابن آوى أنِ اسكت فما أنت؟ وما فى أكلك من الشّبع للملك؟ قال ابن آوى: أنا مشبعُ الملك. قال الذئب والجمل والغراب: أنت مُنتن البطن والريح، خبيثُ اللحم؛ فنخافُ إن أكلك الملك، أن يقتله خُبثُ لحمك. قال الذئب: لكنّى لست كذلك، فليأكلنى الملك. قال الغراب وابن آوى والجمل: مَن أراد قتل نفسه فليأكل لحم الذئب، فإنه يأخذُه منه الخُناق. وظنَّ الجمل أنه، إذا قال مثل ذلك عن نفسه، يلتمسون له مَخرجًا كما صنعوا بأنفسهم، ويسلَمُ ويُرضى الأسد. قال الجمل: لكن أيها الملك، لحمى طيّب ومرىء، وفيه شبع للملك. قال الذئب والغراب وابن آوى: صدقت وتكرّمت وقلت ما نعرف. فوثبوا عليه فمزّقوه.

فى حمق الاستهانة بالأعداء،

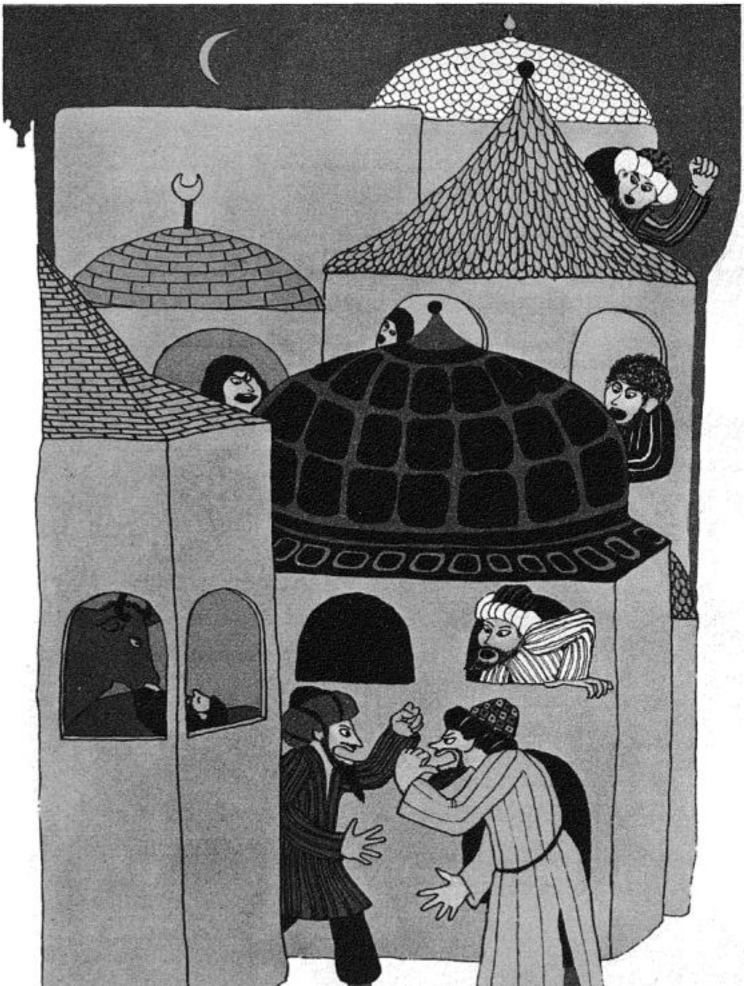
مَن استصغر أمر عدوّه وتهاون به، أصابه ما أصابَ وكيل البحر من الطّيطوى. قال شنزبة: وكيف كان ذلك؟

قال دمنة: زعموا أن طائرًا من طيور الماء يُدعَى الطيطوى كان هو وزوجته فى بعض سواحل البحر. فلما كان إبّان بَيضها أعلمتْه بذلك، وقالت له: التمس مكانًا حريزًا (آمنا) أبيضُ فيه. فقال لها: ليكُنْ ذلك فى منزلنا؛ فإنّ العُشب والماءَ كثير، ومنا قريب، وذلك أرفقُ بنا من غيره. فقالت: يا غافلُ، لتُحسنْ نظرك فيما تقول؛ فإننا بمكاننا هذا على غَرَر؛ لأنّ البحر لو قد مَدّ ذهَب بفراخنا. فقال: لا أراه يحمل علينا لما يخاف الوكيلُ عليه من الانتقام منه. فقالت: ما أشدَّ بَغْيك فى هذه المقالة! أو ما تستحى وتعرفُ قدْر نفسك، فى وعيدك مَن لا طاقة لك به، وتهدُّدك إياه؟ وقد قيل: إنه ليس من شىء أشدُّ معرفة لنفسه من الإنسان. وذلك حقّ فاسمع كلامى، وأطِع أمرى؛ فأبى أن يجيبها إلى ما تدعوه إليه.

فلما رأت ذلك قالت: إنّ من لا يسمع القول النافعَ من أصدقائه، يُصيبه ما أصاب السُلحفاة. قال: وكيف كان ذلك؟ قالتا: زعموا أن عينًا كان فيها بطّتان وسُلحفاة، وكان قد ألف بعضُهم بعضًا وصادَقه. ثم إن تلك العين نقص ماؤها فى بعض الأزمانِ نُقصانًا فاحشًا. فلما رأت البطّتان ذلك قالت: إنه لينبغى لنا تَركُ ما نحنِ فيه، والتحوّلُ إلى غيره. فودّعتا السُلحفاة وقالتا: عليك السلام فإنا ذاهبتان. قالت السُلحفاة: إنما يشتدُّ نُقصان الماء على مِثلى، لأنى لا أعيش إلا به؛ فاحتالا لى واذهبا بى معكما. فقالتا: لا نستطيع أن نفعل ذلك بك، حتى تشترطى لنا أننا إذا حملناك فرآك أحد فذكرك، ألا تُجيبيه. فقالت: نعم؛ ولكن كيف السبيل إلى ما ذكرتما؟ فقالتا: تَعَضّين على وسط عُود، وتأخذُ كلُّ واحدة منا بطرفه. فرضيتْ بذلك وطارا بها، فرآها الناس فقال بعضهم لبعض: انظروا إلى العجب: سلحفاة بين بطّتين تطيران بها فى الهواء. فلما سمعت ذلك قالت: رَغمٌ لأنفكم. فلما فتحت فاها بالمنطق، وقعت إلى الأرض فماتت.

فقال الطيطوى للأنثى: قد فهمتُ ما ذكرت، فلا تخافى وكيلَ البحر، ولا تُرهبيه. فباضت مكانها وفرّخت. فلما سمع وكيلُ البحر ذلك أحبَّ أن يَعلم كُنْه الذى يقدر عليه الطيطوى من الاجتزاء منه، وما حيلته فى ذلك. وأمهله حتى مد البحرُ، وذهب بالفراخ فى عُشهنّ فغيّبهنّ. فلما فقدتهن أمهن قالت للطيطوى: قد كنت عارفة فى بدء أمرنا أن هذا كائن، وأنها سترجع على وعليك، قلة معرفتك بنفسك. فانظر إلى ما أصابنا من الضُر فى سببِ ذلك. فقال: ستَرَين صُنعى، وما يصيرُ إليه عاقبةُ أمرى. وانطلقَ إلى أصحابه فشكا ذلك إليهم، وقال: إنكم إخوتى وأهل مودّتى وثقتى، وأنا أطلب ظُلامتى، فأعينونى وظافرونى؛ فإنه عسى أن ينزل بكم مثلُ ما نزل بى. فقالوا له: نحن على ما وصفتَ، وأنت أهل لأن تُسعف بما طلبتَ؛ ولكن ما عَسَينا أن نقدر عليه من ضُرّ البحر ووكيله؟ قال: فاجتمعوا بنا، فلنأت سائر الطير، فلنذكر ذلك لهم.





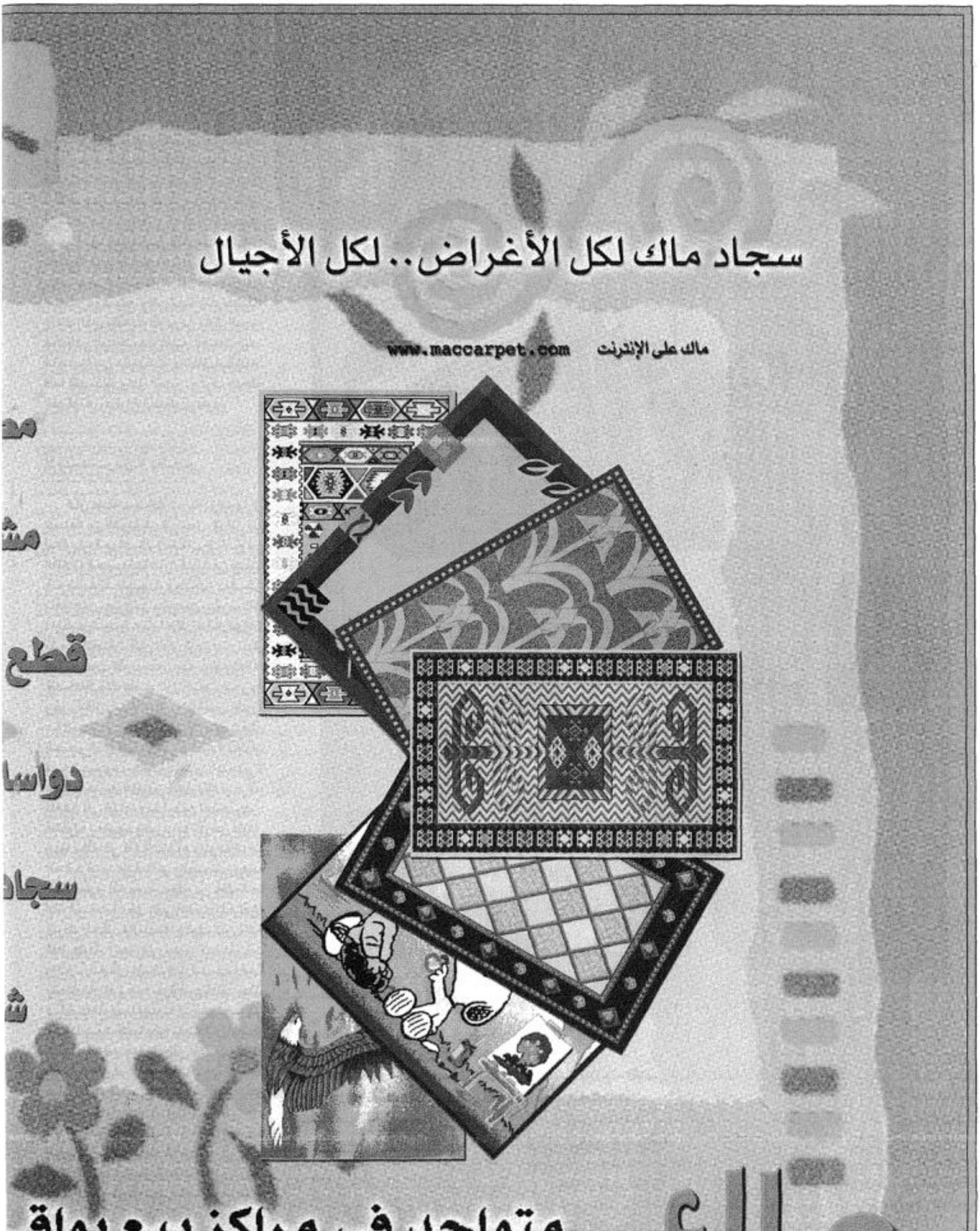
فأجابوه إلى ذلك، وأعلمهن ما أصابه وحلّ به، وحذّرهنّ أن ينزل بهنّ مثله. فقلن له: الأمرُ على ما ذكرتَ؛ فما الذى نستطيع من مساءة البحر ووكيله؟ فقال: إن مَلِكنا معشَرَ الطير العنقاءُ، فتعالوا نُصرِخْ بها حتى تبدو لنا. ففعلوا ذلك، فظهرت لهن وقالت: ما جَمعَكنَّ؟ ولِمَ دعوتمونى؟ فانهَين إليها ما لَقين من البحر ووكيله، وقلن لها: إنك مَلِكتُنا، والملك الذى يقتعدك أقوى من وكيل البحر، فانطلقى إليه فليُعِنَّا عليه. ففعلت ذلك، فأجابها إلى ما سألت، وانطلق ليقاتله. فلما علِم بذلك وكيلُ البحر، وعرَف ضعفه عند قوته، رد فراخ الطيطوى عليه.

لا تبصّر من لا يفهم.

قال كليلة مخاطبًا دمنة: زعموا أن جماعة من القِرَدة كُن فى جبل. فرأين فى ليلة باردة يراعةً، (حشرة تلمع فى الظلام) فحسبنها نارًا، فجَمَعن حطبًا فوضعنه عليها، وجعَلن ينفُخن بأفواههن، ويُروّحن بأيديهن. وقُرب ذلك الموضع شَجرةٌ عليها طائر، فقال لهن: لا تُتعِبن أنفسكُنّ، فإنّ الذى تَرين ليس بنار كما تحسبن. فلم يسمَعن منه، ولم يُطعنه. فلما طال ذلك عليه، نزل إليهنّ، فمر به رجل، فقال: أيها الطائر، لا تلتمس تقويم ما لا يعتدل، وتبصير من لا يفهم؛ فإن الحَجَر الذى لا يُقدَر على قطعه لا تُجَرَّب فيه السيوفُ، والعود الذى لا ينحنى لا يعالجُ حنيُه؛ فإن مَن فعل ذلك ندم. فلم يلتفت إلى قوله، ودنا منهن ليبصّرهنّ، فتناوله بعضهم وضرب به الأرض فقتله. فهذا مَثَلُك فى قلّة الانتفاع بالموعظة: مع أنه قد غلب عليك المكر والعُجب، وهما خَلّتا سُوء. إنه سيصيبك، من عاقبة ما أنت فيه، ما دخل على الخَب (المخادع) شريك المغفّل. قال دمنة: وكيف كان ذلك؟ فقال كَليلة: زعموا أن رجلين، أحدهما خَبّ والآخرُ مغفَّل، اشتركا. فبينما هما يتمشيان إذ وجدا بَدرةً فيها ألفُ دينار فأخذاها. وبدا لهما أن يَرجعا إلى مدينتهما، فلما دَنَوا منها قال المغفلُ للخَبّ: خذ نصفها وأعطنى نصفها. فقال الخَبّ، وكانَ قد أضمر الذهاب بها كلّها: لا، فإنّ المفاوضة أدوم للمصافاة؛ ولكن يقبضُ كل واحد منّا منها شيئًا ينفقه، وندفنُ بقيتها مكانًا حريزًا. فإذا احتجنا إليها استثرناها. فأجابه إلى ذلك، ودفناها تحت شجرة عظيمة. ثم خالف إليها الخبّ، فذهب بها. ولقيه المغفّل فقال: اخرُج بنا إلى وديعتنا فلنقبِضها. فانطلقا إلى المكان فاحتفراه فلم يجداها. فجعل الخبّ ينتف شَعَره ويدُق صدره، ويقول: لا يَثقَنّ أحد بأحد؛ رجعت إليها فأخذتها. وجعل المغفل يحلف أنه ما فعل. ثم انطلق به إلى القاضى فقص عليه الأمر. فقال له: هل من يشهدُ؟ قال: نعم! الشجرة تشهد لى بما أقول. فأنكر ذلك عليه القاضى أشد الإنكار، وأمر به فكفل، وقال: وافُونى به غدًا باكرًا. فانصرف إلى أبيه وأعلمه بذلك، وقال: إنى لم أقل الذى ذكرت إلا لأمر قد رَوّأتُ فيه؛ فإن أنتَ طاوعتنى أحرزنا ما أخذنا، وأضفنا إليه مثله من المغفّل. فقال: وما ذاك؟ قال: إنى قد كنتُ توخّيت بالدنانير شجرة عظيمة من الدَّوح جوفاءَ فيها مدخل لا يُرى، فدفنته فى أصلها، ثم خالفته إليها فأخذتها وادّعيت على المغفّل: فأنا أحبّ أن تذهب الليلة فتدخلها. فإذا جاء القاضى فسألها قلتَ: «المغفّل أخذ الدنانير». فقال: يا بُنى إنه رُبّ امرئ قد أوقعه تمحله فى ورطة؛ فإياك أن تكون كالعُلجوم الذى أهلكه تحيُّله. قال: وكيفَ كان ذلك؟ قال:

زعموا أن علجومًا كان مُجاورًا لأسود. وكان لا يدع له فرخًا إلا أكله. وكان وطنُه قد وافقه وأعجبه، فحزن لذلك واهتم. ففطن له سرطان، فسأله عن حاله فأخبره به. فقال: ألا أدُلك على شىء يُريحك منه؟ قال: بلى! فأشار إليه، وقال: انظر إلى ذلك الجحر، إنه جُحر ابن عِرس - وأعلمه عداوته إياه، وجوهره - وقال: اجمع سَمَكًا واجعله له سَطرًا فيما بين مكانيهما؛ فإنه يأكل الأول فالأول حتى ينتهى إليه فيهلكه. ففعل ذلك به فتبعه حتى وجد الأسود، فقتله. ثم جعل ابنُ عرس يخرج بعد ذلك يلتمس العادة. فلم يزل يطوف حتى وقع على عُش العُلجوم، فأكله وفراخه.

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أنه من لم يثبت، أوقعه ما يحتال به فيما عسى ألا يخلص منه. قال قد فهمت ما ذكرت. ■


سجاد ماك لكل الأغراض.. لكل الأجيال
ماك على الإنترنت www.maccarpet.com
ماك
متواجد فى مراكز بيع


QUALITY ASSURED FIRM
ISO
9001
SGS
التصدير المنتشرة فى كل أرجاء مصر

(إن ما سمعتموه عن أمريكا التى لا تريد الحرب هو شيء تافه، فالأمريكيون طالما احبوا الحرب. كل امريكى يحب القتال. عندما كنتم أطفالاً كنتم تبدون إعجابكم بأبطال الملاكمة وسباقات الركض. الأمريكيون يحبون الرابحين ولا يحتملون الخاسرين، فهم دائماً يلعبون ليربحوا. إننى احتقر احتقاراً عميقاً كل خاسر لا يبالى بالخسارة، ومن هنا فإن الأمريكيين لم يخسروا ولن يخسروا حرباً قط، لأن مجرد التفكير فى الخسارة أمر مكروه بالنسبة لهم).

من خطبة للجنرال «جورج س. باتون» فى فيلم (باتون).

عندما أعلن جنرالات البنتاجون وصقور البيت الأبيض انهم سيخوضون حرباً على ما وصفوه بـ «الإرهاب» قالوا إنها ستكون «حرباً طويلة» («روائية» بمعنى ما، لأن «الواقعى» سيشتبك فيها بـ «المتخيل»)، وغالباً ستلبى هذه الحرب ولع الأمريكيين بالسلاسل، على غرار ما يحدث فى هوليوود، ومن ثم سيجرى «تصويرها» فى أكثر من موقع Location. وقد صور الجزء الأول بالفعل فى افغانستان، وكان محكماً من الناحية الدرامية إلى حد كبير، واستخدمت فيه أحدث تقنيات «صناعة الصورة»، وحقق مردوداً أدبياً معقولاً على الرغم من أن بن لادن وفلولاً من القاعدة لاتزال طليقة (فيما يشبه النهايات المفتوحة). وفى حين استقر الرأى على أن يتم «تصوير» الجزء الثانى فى العراق، وأن يكون الإنتاج (أى الحشد السياسى والدبلوماسى والعسكرى والتقنى) باهظاً، لأن «كعكة الإيراد» ستكون هائلة هذه المرة، فإن الإدارة الأمريكية تفاضل من الآن بين أكثر من موقع لتصوير الجزء الثالث، بينها كوريا الشمالية.

وفضلاً عن عدد الأجزاء ومواقع التصوير فإن «نهاية» كل جزء - شأن أفلام هوليوود الطويلة - لابد أن تكون «سعيدة»، بقدر ما هى زائفة ومراوغة (تامل ما يحدث فى افغانستان الآن). وقد طرحت الإدارة الأمريكية بالفعل مسودة لنهاية «مبهجة» للجزء المزمع تصويره فى العراق: «مشروع» لفرض الديمقراطية ولو بالقوة، ليس فى العراق فقط، بل فى كافة البلدان العربية التى نكبت بانظمة حكم مماثلة لنظام الرئيس صدام حسين!.

ومما يؤكد عزم الإدارة الأمريكية على جعلها «حرباً سينمائية».. استخدام كلمة «سيناريو» لوصف «الخطط» العسكرية والسياسية، وهو فى الغالب تقليد مستحدث بدأ مع حرب الخليج الأولى واصبح شائعاً الآن. إن كلمة «خطة» تبدو واقعية، أى أكثر ملاءمة لفعل الحرب على ما فيه من خشونة وتقريرية، أما كلمة «سيناريو» فهى أكثر عصرية، أكثر تعبيراً عن الحرب كـ «صورة» متخيلة، أى معدة سلفاً.

يبدو الأمر فى ظاهره وكأنه «توارد خواطر» بين صانعى الأفلام وصانعى القرار فى أمريكا، غير أن العلاقة بين الاثنين منذ عشرينيات القرن الماضى، وتحديداً منذ انتهاء الحرب العالمية الأولى، لم تخل من «تنسيق» تختلط فيه الدوافع الوطنية بالمصالح المادية المباشرة، ويبلغ ذروته عادة فى أوقات الحروب والأزمات.

قبل أغسطس ١٩١٤ - عندما اندلعت شرارة الحرب العالمية الأولى - كانت صناعة السينما الأمريكية تتقاسم أسواق العالم مع إنجلترا وفرنسا وإيطاليا والدنمرك والسويد وألمانيا، وكان لانحسار السوق الفرنسية خلال الأشهر القليلة التى سبقت الحرب، وتضاؤل اهتمام الجمهور بالأفلام التاريخية المبهرة التى كانت تنتجها إيطاليا، فضلا عن استقرار نظام إنتاج الأفلام الروائية الطويلة ذات الميزانيات الضخمة فى أمريكا، وتزايد معدلات الإنتاج، واتساع نطاق الجمهور الذى يتردد على السينما، وظهور بعض الكتابات الجادة التى تعبر عن بداية احترام الفيلم الأمريكى كشكل فنى...كان لكل ذلك أثره البالغ فى التمهيد لسيطرة هذا الفيلم على الأسواق

هوليوود



..والحرب

محمود الكردوسى

العالمية. ثم جاءت الحرب ـ بما ترتب عليها من تدهور فى صناعة الفيلم الأوروبى نتيجة استخدام المواد التى يصنع منها السليلويد فى صنع القنابل ـ لتحسم هذه السيطرة بصورة نهائية ودائمة.

وقد لعبت التأثيرات الاجتماعية التى شهدتها سنوات ما قبل الحرب دورا أساسيا فى التزام هوليوود بموقف الحياد الرسمى خلال الأشهر الأولى للحرب. كانت هناك حركات قوية تدعو إلى السلام وكبح جماح قوى الاحتكار، وكان «الحس الاجتماعى المتصاعد» سببا فى انتخاب ويلسون رئيسا عام ١٩١٢ ونجاح مبادئه التى تدعو إلى «حرية جديدة». ولم يكن برنامج الرئيس ويلسون سوى تعبير عن «تطرف الطبقة الوسطى» التى هالها نمو القوى الاقتصادية وتركيزها، وفساد السياسيين الأخلاقى والإضرابات العمالية وانتشار الفقر والبطالة.. إلخ. وقد حاولت هوليوود أن تعكس المشاعر التقدمية التى سادت تلك الفترة، وظهرت خلال الأشهر التالية لاندلاع الحرب بعض الأفلام التى تندد بعدم إنسانية العنف، فكانت وجهة نظر ديفيد وارك جريفيث المعادية للحرب فى فيلمه (التعصب) جزءا من الاتجاه العام لدى مخرجى الأفلام البارعين الذين يعكسون إحساس الجماهير، هذا الإحساس الذى أمد ويلسون بملايين الأصوات عام ١٩١٦، على أساس أنه سيبعد الأمريكيين عن الحرب. وقيل إن فيلم (الحضارة) لتوماس إنس كان تصويرا حيا لشعارات السلام التى رفعها الحزب الديمقراطى، حيث يتجسد المسيح فى هيئة مهندس فى غواصة يبشر العالم بإنجيل السلام، وذكرت صحافة الديمقراطيين أن هذا الفيلم كان أحد أسباب إعادة انتخاب ويلسون عام ١٩١٦، غير أن السينما كانت فى طريقها إلى الظهور كفن جماهيرى يخضع مباشرة لضغوط العصر، كما أن بعض الشركات السينمائية كانت مرتبطة بعلاقات مالية مع هيئات اقتصادية لها مصلحة مباشرة فى تخلى أمريكا عن حيادها ودخول الحرب إلى جانب الحلفاء، وبذلك سبقت هوليوود الموقف الرسمى، وظهرت منذ منتصف عام ١٩١٥ مجموعة من الأفلام التى ساهمت فى تشكيل الرأى العام الأمريكى وإعداده لتقبل قرار دخول الحرب. وأخرج ستيوارت بلاكتون فيلما بعنوان (معركة السلام) يصور الألمان وهم يحاصرون نيويورك من البحر ويدمرون ناطحات السحاب. وظهر الألمان أيضا فى فيلم (القيصر إلى الجحيم) وهم يغرقون السفن التجارية ويطلقون الغازات السامة ويضربون مراكز الصليب الأحمر. ومثل هذه الأفلام كانت ساذجة وبدائية وفقيرة، لكنها كانت مؤثرة فى ذلك الوقت.

وعندما أصبحت الولايات المتحدة شريكا فاعلا فى الحرب.. أنشأت الحكومة وحدة سينمائية لأعمال الدعاية باسم «لجنة العلاقات العامة» كان يترأسها «جورج كريل» الذى كلف بمهمة «بيع الحرب لأمريكا»، وعملت اللجنة على تشجيع الاستوديوهات على إنتاج أفلام «ذات محتوى وطنى»، وزودتها بالفنانين والفنيين والأموال وبمقترحات للقصص وشرائط من مشاهد المعارك الحربية.

وإذا كان جريفيث قد تعرض لضغوط من قبل وزارة الحرب البريطانية وأخرج فيلما هزيلا بعنوان (قلوب العالم) اعتبره النقاد والمؤرخون بداية تدهوره.. فإن جماهيرية شارلى شابلن جعلت من المستحيل فرض قيود على عمله من دون إفساد تأثيره كممثل كوميدى. ومن خلال هذا الوضع المتميز قدم شابلن فيلمى (حياة كلب) و(كتفا سلاح) اللذين سخر فيهما من هيستيريا الحرب. ومع ذلك قص الرقيب آخر مشاهد الفيلم الثانى الذى يسخر فيه شابلن من انتصار الحلفاء. وكان حذف هذا المشهد دليلا قويا على ذلك التناقض النامى بين تطور الفيلم الديناميكى والضغوط التى تتطلب أنماطا موحدة ومضامين مأمونة. ويلاحظ المؤرخ السينمائى الفرنسى الأشهر «جورج سادول» أنه حتى بعد أن أصبحت هوليوود قوة دولية، وأخذت فى تدويل موضوعات أفلامها.. فإن قلائل من صانعى الأفلام التجارية الناجحة هم الذين جعلوا من «أمريكا» إطارا لأفلامهم، ويقول إن نزع الطابع القومى عن السينما الأمريكية كان ظاهرة عامة، بدليل عدم استطاعة هنرى كنج تحقيق فيلم (داود المتسامح) القائم على دراسة الحياة فى المقاطعات الأمريكية، وتحويله عوضا عن ذلك نحو الروايات العاطفية الرائجة. وحتى أفلام رعاة البقر التى جعل منها توماس إنس وليام هارت «فنا» سينمائيا.. أصبحت ـ باستثناء أفلام جون فورد ـ مرادفا للأفلام الرخيصة.

أتت أواخر العشرينيات بحدثين فاصلين: دخول عنصر الصوت إلى صناعة السينما والأزمة الاقتصادية، فانكفأ الأمريكيون على أنفسهم، وأصبحت عناوين الصفحات الأولى للصحف مصدرا أساسيا لقصص العديد من الأفلام الرخيصة، باستثناء بعض الأفلام التى قدمت معالجات واقعية أشبه بالتسجيلية مثل (قيصر الصغير ـ ١٩٣٠) و(عدو الشعب ـ ١٩٣١) و(الوجه ذو الندبة ـ ١٩٣٢)، وأتاحت تقنية الدوبلاج لهوليوود استعادة بعض أسواقها الخارجية التى كانت قد فقدتها بسبب نقص عدد الأفلام من ناحية، وحاجة كل جمهور إلى ممثلين يتكلمون لغته من ناحية أخرى. وانتصفت الثلاثينيات على حدثين آخرين لا يقلان أهمية، أولهما إنشاء «فرقة الأدب»، أول جهاز رقابى غير حكومى، والثانى اقتحام اثنين من عمالقة وول ستريت هما «مورجان» و«روكفلر» مجال صناعة السينما، حيث فرضا على الشركات الكبرى فى هوليوود «عملية إعادة تنظيم هائلة»، انتهت بوضع الإنتاج السينمائى تحت الرقابة المباشرة لحفنة من رجال المال. وهكذا أصبحت السينما الأمريكية بين رقابتين: أخلاقية واقتصادية، كلتاهما أشرس من الأخرى. وما إن دقت طبول الحرب الثانية حتى كانت هوليوود قد تهيأت تماما لنفس الدور الذى لعبته قبل وأثناء الحرب الأولى: خرق الموقف المحايد أو تجاوزه، والترويج للحرب بوصفها «سلعة وطنية».

قبل الحرب أنتجت هوليوود أفلاما تصور «بهجة» الحياة العسكرية وتقدمها فى صورة جذابة، ووضعت وزارة الحرب كافة إمكانياتها ـ من قاذفات قنابل وبوارج وحتى قواعد عسكرية ـ تحت تصرف أى منتج يصور فيلما يشجع المواطنين على التطوع فى القوات المسلحة. وفى عام ١٩٤٠ أخرج ألفريد هتشكوك فيلمه المثير (المراسل الأجنبى) الذى هز فيه مشاعر المتفرجين عندما أبرق بطل الفيلم «جويل ماكرى» إشارة لاسلكية من قلب لندن التى مزقتها الغارات الجوية الألمانية: «إن الأنوار تنطفئ فى أوروبا.. دثرى نفسك بالفولاذ يا أمريكا». وكان الفيلم صيحة تحريض ضد الذين ينادون بالعزلة وتجنب الاشتراك فى الحرب. وعندما دخلت أمريكا الحرب تحول الألمان واليابانيون والإيطاليون فى أفلام هوليوود إلى أشرار، ومن أصل ١٣١٢ فيلما قدمت خلال سنوات ٤٢ و٤٣ و١٩٤٤ ساهم نحو ٥٠ فيلما فقط (أى حوالى ٤٪) فى إيضاح أسباب الحرب للجمهور، سواء داخل أمريكا أو خارجها.

ثم انتهت الحرب، وتسلمت الولايات المتحدة زمام المعسكر الرأسمالى لتشعل حربا أخرى ضد الأيديولوجيا الشيوعية، ودخلت هوليوود مرحلة تخبط بلغت ذروتها أواخر عام ١٩٤٧ بمثول عدد من السينمائيين أمام لجنة مكارثى المعروفة. وبينما كانت اللجنة تباشر عملها نشرت مجلة «ستردای ريفيو» أوائل ١٩٥٠ مناقشة حول دور صناعة السينما فى دعم السياسة الخارجية للولايات المتحدة. فقد ظهرت سلسلة مقالات فى أربعة أعداد من المجلة تكشف عن الصعوبات التى تواجه القائمين على أمر الدعاية للبرنامج العسكرى لحكومة الولايات المتحدة، كما تكشف عن المهام الخاصة الملقاة على عاتق هوليوود فى الخطة العالمية.

وقد أبدى «نورمان كازينز» ـ وكان أحد الخبراء البارزين فى شئون الدعاية والإعلام آنئذ ـ أسفه لأن الأفلام الأمريكية غالبا ما تصور الولايات المتحدة كما لو كانت أمة من القتلة ورجال العصابات والكسالى والمفلسين ومدمنى الخمر وسماسرة القمار والعاهرات والنصابين، وطالب بضرورة أن تحث الأفلام على «توقير العدالة واحترام الحكومة النيابية»، فعارضه «إريك جونستون» الذى كان رئيسا لاتحاد المنتجين قائلاً: إن هوليوود تؤدى دورا عظيما بإنتاجها أفلاما «للتسلية.. خالية من الوعظ والإرشاد المذهبى». كان «كازينز» يدعو فى الحقيقة إلى ستر برنامج الحرب بمسوح الديمقراطية والحرية (وكان المأزق الذى واجهته أجهزة الدعاية واضحاً خلال الأشهر التى سبقت التدخل المسلح فى كوريا، ثم عمقته الحرب الكورية بالفعل)، فيما لم يكن «جونستون» يكن احتراما كبيرا لهذه الشعارات، بل لعله لم يكن يفهم معانيها. فهو يعبر عن احتقار كبار رجال الأعمال

للشعوب وأمانيها، ويدلل على وجهة نظره بثناء الجنرال «ماك آرثر» على أفلام هوليوود.. «لأنها أسهمت بفعالية في واجب مهم هو إعادة توجيه الشعب الياباني». لكن الاثنين - كازينز وجونستون - يتفقان مبدئيا على وجوب الحكم على الفيلم بوصفه «أداة للسياسة الخارجية»، وعلى ضرورة أن تخدم الأفلام التي تصدرها هوليوود «احتياجات الدعاية الحكومية».

في هذا السياق ظل تناول السينما الأمريكية لحرب فيتنام موضوعاً محرماً، بحجة أنه ليس من المناسب استغلال ذنوب وندم أمة، والأهم: كيف يمكن تصور إمكانية تحقيق ربح مهما كان ضئيلاً من عرض أحداث حرب تابعها الشعب الأمريكي ليلة بعد ليلة على شاشة التليفزيون؟. وقبل أن يعلن فرانسيس فورد كوبولا عن مشروعه الملحمي (نهاية العالم الآن).

لم يفلت من هذا الحصار سوى عدد محدود من الأفلام التي تعبر بالطبع عن الموقف الرسمي، مثل (البيريهات الخضراء) الذي أخرجه جون فورد، رائد أفلام «الويسترن» أو أفلام الغرب الأمريكي، عام ١٩٦٨، ودافع فيه عن تواجد البحرية الأمريكية في فيتنام. وقد عرف عن فورد أنه كان واحداً من أشد «صقور» هوليوود عداءً للشيوعية، وعمل أثناء الحرب العالمية الثانية رئيساً لفرع التصوير الميداني التابع لـ «مكتب الخدمات الاستراتيجية»، النواة الأساسية لوكالة المخابرات المركزية، حيث كانت مهمته تصوير العمليات التي تقوم بها مجموعات العمليات الخاصة والتخريب في أوروبا المحتلة، وتصوير الأفلام السرية التي تعرض على القادة ورؤساء الحكومات. وفي ١٩٤٦ أدمج شركة الإنتاج الخاصة به «أرجوسي بيكتشرز» مع مساهمين آخرين كانوا جميعاً من كبار مسئولي مكتب الخدمات الاستراتيجية. وقد كان فورد متعاطفاً تماماً مع فكرة أن تقترح أجهزة ووكالات المخابرات الحكومية موضوعات لتقديمها إلى جمهور هوليوود، وطلب منهم أن يتركوا لديه ٦ نسخ من كتيب بعنوان (الحرية المقاتلة)، كان خلاصة اجتماع سري عقده رؤساء هيئات الأركان المشتركة في ١٦ ديسمبر ١٩٥٥ لبحث كيفية التصدي سينمائياً للشيوعية، كما طلب منهم أن يرسلوا إليه ١٢ نسخة أخرى ليمررها إلى كتاب السيناريو الذين يتعاون معهم، بل إنه طلب حضور ممثل لرؤساء الأركان المشتركة إلى موقع تصوير فيلم (أجنحة النسور) للمساعدة في وضع عناصر «الحرية المقاتلة» في الفيلم.

وثمة فيلم آخر يعد من أكثر الأفلام الحربية نجاحاً فنياً وجماهيرياً هو (باتون) الذي يتناول سيرة الجنرال الأمريكي «جورج س. باتون» منذ ١٩٤٣ وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية. وقد قدم الفيلم عام ١٩٧٠، أي في ذروة إحساس الأمريكيين بوطأة الهزيمة في فيتنام، لكنه - لهذا السبب على الأرجح - حصد سبع جوائز أوسكار. وهو ليس فيلماً عن الحرب، بل عن الجنرال «باتون» الذي وصفه النقاد بأنه «الرمز العصري لإله الحرب». ومن المفارقات اللافتة أن سيناريو الفيلم كتبه اثنان، أحدهما «إدموند نورث» المتخصص في هذا النوع من الأفلام، والآخر «فرانسيس فورد كوبولا» الذي استهل بعد ذلك سلسلة من الأفلام التي تندد بعبثية ما جرى للأمريكيين في فيتنام مثل (العودة إلى الوطن) و(صائد الغزال) و(ماتوا أبطالاً) وغيرها.

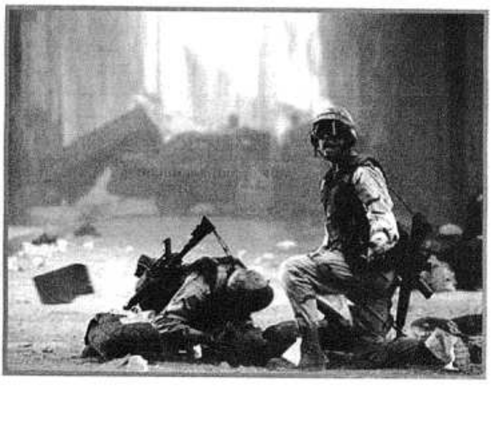
كان كوبولا قد أصبح - بفضل فيلم (الأب الروحي) - نجم شباك، ومن ثم كان الوحيد الذي يستطيع أن يفرض رأيه. وما أن أعلن عن فيلمه الضخم (نهاية العالم الآن) حتى بدأت الشركات المستقلة في إعادة قراءة السيناريوهات التي تدور أحداثها في فيتنام، والتي كان بعضها مدفوناً في أدراج مكاتبها منذ منتصف الستينيات.

• لقد أنفق كوبولا على (نهاية العالم الآن) كل ما حققه (الأب الروحي) من أموال، ويقول إن فيلمه.. «عن جنون الحرب الفيتنامية، حيث كانت التكنولوجيا الأكثر تقدماً في العالم تواجه فلاحاً بسيطاً، وحيث كان يتم إرسال علب البيرة المثلجة إلى الصفوف الأولى للقوات العسكرية بطائرات الهليوكوبتر، وحيث كانت فتيات مجلة (بلاي بوي) يقدمن عروضاً في مواقع المعارك، وحيث كان المراسلون الصحفيون يصيحون في الجنود لكي لا ينظروا إلى كاميرات التصوير وهم يلتقطون لهم صوراً تذكارية».

وفي نفس الوقت الذي كان كوبولا في صالة المونتاج في سان فرانسيسكو يحاول أن يعطي شكلاً نهائياً لحوالي ٨٠٠ ألف متر خام (٤٤٠ ساعة عرض) صورها من الفيلم.. كانت جين فوندا تسعى منذ ١٩٧٣ لإعلان موقفها المناهض للحرب من خلال فيلم سينمائي.

كانت جين في ذلك الوقت حاملاً في طفلها الثاني، وكانت تتعرض لاضطهاد مكتب التحقيقات الفيدرالية بسبب نشاطها المعادي لأمريكا، كما كانت هوليوود قد قاطعتها بعد رحلتها إلى هانوي، مما دفعها إلى التفكير في اعتزال التمثيل. ولم تكن فوندا مهتمة في ذلك الوقت إلا بفيلم روائي عن فيتنام: «سرعان ما انتهيت إلى ضرورة أن تدور أحداث القصة في الولايات المتحدة، وأن تعيد تحديد مفهومي البطولة والرجولة». وذات يوم التقت فوندا بجندي معوق يدعى «رون كوفيتش» قال لها إنه فقد القدرة على استخدام جسده.. لكنه استعاد وعيه. ونمت بينهما صداقة، وناضلا سوياً من أجل قضية واحدة هي وقف المعارك في فيتنام وانسحاب القوات الأمريكية من هناك. وكان كوفيتش قد استغل عجزه كسلاح وقام بجولة في أمريكا، وحاول حضور مؤتمر الحزب الجمهوري في ميامي عام ١٩٧٢، لكن رجال الكونجرس منعوه: «لقد أحسست أنهم يفضلون إسقاطهم بالمظلات الواقية فوق دانانج عن النظر إليّ». وبفضل كوفيتش عثرت جين فوندا على موضوع فيلمها. وبدأت كاتبة السيناريو «نانسي دود» في العمل، إلا أن النتيجة لم تعجب فوندا التي كانت قد كونت شركتها الخاصة وبدأت في البحث عن مساعدين مخضرمين. وهكذا انضم إلى المشروع كل من الكاتب «والدو سولت» والمخرج «جون شليزنجر» والمنتج «جيروم هلمان»، وهم نفس طاقم عمل فيلم (راعي بقر منتصف الليل). وخلال عام واحد أنفق سولت أكثر من ٥٠ ألف دولار من ماله الخاص لجمع المعلومات والوثائق والمستندات اللازمة، في حين مثلت فوندا فيلماً كوميدياً بعنوان (المرح مع ديك وجين) بهدف استعادة لياقتها، ومن ثم استعادة مكانتها كواحدة من نجمات السينما العالمية، وبهذه الطريقة تستطيع أن تجبر شركات هوليوود - التي كانت حتى ذلك الوقت تعارض إنتاج أية موضوعات عن فيتنام - على تمويل فيلم (العودة إلى الوطن). وبالفعل وافقت شركة «يونايتد آرتستس» عام ١٩٧٥ على توزيع الفيلم بعد أن قرأ مسئولوها ملخصاً له من ٦٥ صفحة، غير أن شليزنجر - وهو بريطاني الجنسية - فاجأ الجميع بالاعتذار عن عدم إخراج الفيلم بحجة أنه ليس من حقه «التدخل في مشكلة أمريكية صرف»، فاختير «هال أشبي» الذي بدا آنئذ مثل هيبي عجوز رغم أنه كان في الخامسة والأربعين، وأبدى حماساً كبيراً للمشروع: «أثناء الحرب كنت أشعر بالإثم لعدم حديثي عنها في أفلامي، وسيتيح لي هذا الفيلم فرصة التكفير عن ذنوبي».

ويقول «جيرومي هيلمان» منتج الفيلم إن من بين المشاكل التي واجهتهم اعتراض إدارة المحاربين القدماء على التصوير في المستشفى الخاص بها في لونج بيتش، لكن الاعتراض الأهم جاء من قبل البحرية والجيش والحرس الوطني:



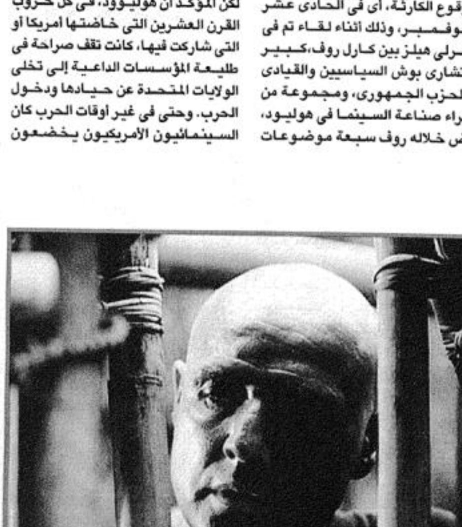
«كلهم امتنعوا عن مساعدتنا حتى عثرنا على مستشفى فى كاليفورنيا لجراحة العمود الفقرى.. تعاونوا وتعاطفوا معنا». ورغم ذلك فاز الفيلم بثلاث جوائز أوسكار، اثنتان لكل من جين فوندا وجون فويت، والثالثة لكاتب السيناريو فالدو سولت.

وبعيداً عن أن هناك أفلاماً أخرى لم ترق إلى مستوى كارثة فيتنام وما ترتب عليها من آثار نفسية واجتماعية - مثل (الجنود الكلاب) الذى أخرجه «كارل رايز»، وتناول محاولة مراسل عسكرى فى فيتنام تهريب ثلاثة كيلو جرامات من الهيروين النقى إلى الولايات المتحدة بمساعدة أحد جنود البحرية الأمريكية! - فإن هذه الموجة سرعان ما أجهضتها نعرة ريجانية (نسبة إلى الرئيس رونالد ريجان) برزت فى الثمانينيات وأطلقت سلسلة من الأفلام والأبطال الجدد، بهدف إعادة الثقة إلى المواطن الأمريكى: فى نفسه أولاً، وفى كونه «أمريكياً» بالأساس.

سئل الممثل الإيطالى الأصل سلفستر ستالون عام ١٩٨٥ عن ضرورة العنف الذى يحفل به الجزء الثانى من سلسلة «رامبو» فقال: «إنه فيلم حربى أو بعد فترة الحرب.. أقوم فيه بتحرير مجموعة من الأسرى المعتقلين بشكل غير قانونى منذ نحو ثلاثين عاماً، ويعتقد الكثيرون أنه ما زال يوجد اليوم مثل أولئك الأسرى. هل كنت تود أن ترى بطلاً يصل إلى المعسكر ممسكاً بوردة ليقدمها إلى أعدائه مقابل تسليمه الأسرى؟. مهمة رامبو فى غاية الخطورة، وهى تشمل العنف عند الأعداء، ورامبو يدافع عن نفسه فقط.. لكنه لا يتردد إذا اضطر لذلك أن يتحول إلى آلة للقتل. لقد شكلته الحرب، وهو ما أردنا تقديمه.. أقصد تأثير الحرب على الإنسان». أما الجزء الرابع من «روكى» فيراه ستالون فيلماً سياسياً لأنه يقدم «مباراة فى الملاكمة بين أيديولوجيتين: الشيوعية التى يمثلها ملاكم سوفيتى عملاق، وروكى الذى يجسد الديمقراطية والرأسمالية الأمريكية».

ومع أننى أشك فى أن أياً من الممثلين الذين لعبوا أدوار البطولة فى أفلام مثل (رامبو) و(روكى) و(كوماندو) و(غزو الولايات المتحدة) و(مت بصعوبة) وغيرها، كان مدركاً تماماً لجوهر الرسالة السياسية التى يعبر عنها.. فإن أياً منهم لم تكن تنقصه الجاهزية. فهم إما أبطال فى لعبة كمال الأجسام مثل أرنولد شوارزينجر، أو لاعبو كاراتيه مثل شاك نوريس، أو ملاكمون هواة مثل سلفستر ستالون. وقد حققت أفلامهم إيرادات هائلة فى ذلك الوقت، ولعبت دوراً بالغ الأهمية فى إذكاء الطابع الدعائى للسياسة الخارجية الأمريكية، لكن الأهم أنها مهدت الطريق لظهور «الإرهابى» بوصفه عدواً جديداً، ليس لحضارة الولايات المتحدة فحسب.. بل لكل القيم المرتبطة بالنموذج الأمريكى. وهو أحياناً أمريكى لاتينى، وأحياناً أخرى روسى أو جنوب شرق آسيوى، وأحياناً ثالثة عربى مسلم. ومع أن أحداً لا يستطيع أن يجزم بحصة أى من هؤلاء الإرهابيين فيما جرى فى الحادى عشر من سبتمبر.. فقد قررت الإدارة الأمريكية على الفور، ولأسباب لم يعلن عنها حتى الآن، أن المتهم لابد أن يكون «عربياً مسلماً»، وبدأت تنسق بالفعل مع القائمين على صناعة السينما فى هوليوود لبحث سبل دعمها فى حربها على الإرهاب، وتم تكليف لجنة فنية من ٤٠ خبيراً لهذا الغرض، اختير لرئاستها «جاك فالانتى» رئيس جمعية الصور المتحركة الأمريكية التى شكلت اللجنة، وعقدت أول اجتماع لها على شكل مؤتمر هاتفى فى ١٦ نوفمبر. وكانت فكرة اللجنة قد ولدت بعد شهرين بالضبط من وقوع الكارثة، أى فى الحادى عشر من نوفمبر، وذلك أثناء لقاء تم فى بيفرلى هيلز بين كارل روف، كبير مستشارى بوش السياسيين والقيادى فى الحزب الجمهورى، ومجموعة من خبراء صناعة السينما فى هوليود، عرض خلاله روف سبعة موضوعات تعطيها إدارة بوش أولوية على المديرين التنفيذيين لأخذها فى الاعتبار عند إعطاء الضوء الأخضر لإنتاج مشروعات سينمائية وتليفزيونية جديدة. ومن بين هذه الموضوعات ما تؤكده إدارة بوش من أن الحرب لن تكون موجهة ضد الإسلام أو أى دين آخر، لكنها حرب على الإرهاب والشر.

وعلى الرغم من أن اللجنة لم تكن قد تشكلت حتى ذلك الوقت فإن مسئوليها كانوا مصرين على أنها تعمل بصورة مستقلة عن إدارة بوش، موضحين أن تلك الإجراءات «مجهود خاص بصناعة السينما وليست عملا حكوميا موجهاً». ونفى جاك فالانتى أن يكون هناك تنسيق بين البيت الأبيض وهوليوود بشأن الدعم السينمائى للحرب على الإرهاب، كما نفى البيت الأبيض من جانبه وجود أية خطط لاستخدام السينما والتليفزيون للترويج للرسائل التى توجهها الإدارة الأمريكية. وقد يكون ذلك صحيحاً إزاء كارثة بهذا الحجم، وضعت الجميع فى خندق واحد من دون أدنى حاجة إلى خطط أو تنسيق، وحيث الحرب هذه المرة ليست اختياراً. لكن المؤكد أن هوليوود، فى كل حروب القرن العشرين التى خاضتها أمريكا أو التى شاركت فيها، كانت تقف صراحة فى طليعة المؤسسات الداعية إلى تخلى الولايات المتحدة عن حيادها ودخول الحرب. وحتى فى غير أوقات الحرب كان السينمائيون الأمريكيون يخضعون لضغوط عنيفة لكى يغيروا أو يعدلوا حبكات أفلامهم نظير الإفادة من العتاد العسكرى المكلف جداً، والتصوير فوق ممتلكات عسكرية. وما أكثر المرات التى تم فيها تعديل الفيلم بحيث تظهر القوات المسلحة الأمريكية بصورة بطولية، ولم يكن أمام شركات الإنتاج سوى أن تبادر إلى الموافقة، لأن ذلك سيوفر عليها الملايين، ولأن رفض التغيير يعنى ببساطة رفع الدعم عن الفيلم.



ثمة مذكرة عسكرية داخلية تحمل على فيلم (فورست جامب) الذى لعب بطولته توم هانكس، وتوصى بأن.. «الانطباع المعمم الذى يوحى بأن الجيش فى فترة الستينيات كان يعج بالموظفين الحمقى والجنود محدودى الذكاء.. أمر غير مقبول. إن هذا الانطباع غير دقيق، بالإضافة إلى أنه غير مفيد للجيش». وبخصوص المشهد الذى جمع بين هانكس والرئيس الأمريكى تقول مذكرة ساذجة أخرى: « إن قيام جندى فى زى رسمى بكشف مؤخرته للرئيس يعد تجاوزا سينمائيا غير مقبول». وفى فيلم G.i Jane الذى قامت ببطولته ديمى مور وظهرت فيه حليقة الرأس تماماً.. يجد أحد الجنود صعوبة فى قضاء حاجته بسبب وجودها فى نفس الخندق: «عند التعرض لمسألة تتعلق بوجود امرأة فى الخطوط الأمامية للقتال، فإن مشهد التبول فى خندق لا يحمل أى فائدة للقوات البحرية الأمريكية».. هذا ما كتبه القائد جارى شروث من قوات البحرية الأمريكية موجهاً كلامه إلى المخرج ريدلى سكوت الذى رد باستبعاد المشهد، ووافق على إجراء تغييرات أخرى، لكن النتيجة النهائية ظلت غير مقبولة. وفى فيلم توم كروز الشهير(توب جن) لم يحدث التعاون إلا بعد تعديل الدور الذى لعبته كيلى مكجيليس، من متطوعة فى الجيش إلى امرأة من خارج الخدمة، فالعلاقات العاطفية بين الضباط والمتطوعين فى القوات البحرية ممنوعة. وتظهر الوثيقة أن شركات الإنتاج غالباً ما تكون متلهفة للتعاون مع البنتاجون. فقد كتب فيليب نيمى المدير التنفيذى لشركة ديزنى: «نحن نؤمن بقوة بأنه وبمساعدة الجيش الأمريكى سيكون (أرماجيدون) أضخم أفلام ١٩٩٨ الذى سيصور ويجسد ريادة وبطولة جيش الولايات المتحدة الأمريكية». أما فيلم (The Jackal ابن آوى) لبروس ويليس وريتشارد جير فقد وافق البنتاجون على دعمه بعد أن منح دوراً أفضل لقوات المارينز، لكن الرائد «نانسى لالونتاس» اعترضت رغم ذلك

على أن دور طيارى الهيليكوبتر.. «ليس فاعلاً فى الأحداث»، وأنهم عملياً ليسوا سوى «سائقى تاكسى»!. وتقول الرسالة التى كتبها مخرج الفيلم مايكل كيتون جونز:«أنا متاكد من أننا نستطيع أن نناقش النقاط التى أثرتموها ونستطيع أن نتوصل إلى تغييرات مناسبة فى السيناريو حسب طلبكم». وفى السيناريو الأصلى لفيلم جيمس بوند (العين الذهبية) يفشى أدميرال فى الأسطول الأمريكى أسرارا للدولة، وبعد الاتفاق على التعاون أصبح الأدميرال الخائن فرنسياً. وفى (يوم الاستقلال) وافق صناع الفيلم على استبدال وزير الدفاع الذى يفشل فى صد هجوم المخلوقات الفضائية برئيس الأركان فى البيت الأبيض، لكن الفيلم لم ينل أى دعم، وقال الكاتب والمنتج دين ديفلين للبنتاجون متحديا:« إذا لم يجعل هذا الفيلم كل فتى فى البلاد يرغب فى أن يقود طائرة مقاتلة سآكل السيناريو». غير أن توصية قسم الدفاع تضمنت ما يلى: « يظهر الجيش ضعيفاً و/أو أحمق، والنجاح فى إيقاف الغزو كان نتيجة لجهود مدنية ».

لا يخلو الأمر بطبيعة الحال من وجود أفلام معادية للحرب، بعضها مستقل مثل Wag the Dog أو (هز ذيل الكلب) الذى لعب بطولته داستن هوفمان وروبرت دى نيرو وآن هيش وأخرجه بارى ليفنسون، وتكلف ١٥ مليون دولار فقط وصور فى ٢٩ يوماً، وبعضها إنتاج هوليوودى مثل (مولود فى الرابع من يوليو) و(من قتل كينيدى؟) و(نيكسون)، وكلها من إخراج أوليفر ستون.

يروى (هز ذيل الكلب)، الذى سبق اعتراف بيل كلينتون بعلاقته الجنسية مع مونيكا لوينسكى وتوجيه ضربة عسكرية لأفغانستان والسودان، قصة رئيس أمريكى يتهم بالتحرش الجنسى بطالبة كانت تزور مكتبه ولم يكن متبقيا على الانتخابات سوى عشرة أيام. يطلب الرئيس من مساعدته «وينفريد» (آن هيش) الاستعانة بـ«كونراد براين» (روبرت دى نيرو) خبير المواقف الصعبة الذى لم تخلق بعد المشكلة التى لا يستطيع حلها. يجد الخبير حلا سحريا: «نحن فى حاجة إلى حرب»!. تسأله وينفريد: «ضد من؟». يقول براين: «ضد البانيا». تسأله من جديد: «ولماذا البانيا؟». فيرد: «و لم لا؟».. ثم يطمئنها قائلاً: إنها لن تكون حرباً حقيقية!. ويبدأ بالتمهيد لهذه الحرب بخطوة ذكية جداً، حيث يعلن المتحدث باسم البيت الأبيض عن أنه ليس فى نية أمريكا الآن القيام بأى عمل عسكرى ضد البانيا. وتبلع الصحافة الطعم وتبدأ التكهنات عن إمكانية نشوب هذه الحرب. ثم يستعين براين بـ«ستانلى موتس» (داستن هوفمان) المنتج السينمائى الكبير، وتبدأ عملية الخداع الرهيبة والمتقنة إلى حد الكمال. ومن خلال تفاصيل ومفارقات لا تخلو من كوميديا.. يكشف الفيلم عن الواقع المظلم لسيطرة وسائل الإعلام على كل شىء، وكيف يمكن تسخير هذه الوسائل لخداع الأمريكيين، بل والعالم بأسره.

أما أوليفر ستون فقد كان أكثر حسماً ومباشرةً فى إدانته للمؤسسة العسكرية وللإدارة السياسية الأمريكية، إذ يتهمهما فى (جيه. إف. كيه.) - إنتاج شركة «وارنر» - بالتواطؤ لاغتيال الرئيس جون فيتزجيرالد كينيدى، ويوثق اتهامه بمشهد حقيقى للرئيس ليندون جونسون - الذى تولى الحكم خلفا للرئيس المغدور - وهو يخطب فى عدد من جنرالات البنتاجون قائلا: «أيها السادة.. إننى لن أترك فيتنام تضيع كما ضاعت الصين. إننى ملتزم بالا اسحب جنودنا من هناك حتى يعلموا أننا جادون فى أمر آسيا». وبعد أن يوقع جونسون مذكرة الأمن القومى رقم ٢٧٣ التى تعكس سياسة كينيدى فى الانسحاب وتقر فى نفس الوقت العمل السرى ضد فيتنام الشمالية.. يعود أوليفر ستون إلى جونسون وهو يستعطف جنرالاته: «انتخبونى.. وساعطيكم الحرب». وفى فيلم (نيكسون) الذى لعب بطولته أنتونى هوبكنز، تقول فتاة فقدت شقيقها فى حرب فيتنام للرئيس: « أنت لا تستطيع أن توقفها.. أليس كذلك؟. حتى لو أردت فإنك لن تستطيع لأنك لست السبب. إنه النظام، والنظام لن يسمح لك بأن توقفها». ويرد نيكسون: «الأمر أكبر مما تريدين.. وحتى أكبر مما أريد أنا». تقول الفتاة: «إذن ما الموضوع؟. ما أهمية أن تكون رئيسا؟. أنت بلا سلطة». ويرد الرئيس: « لا..لا.. لست بلا سلطة، لأننى.. لأننى أفهم النظام. أعتقد أننى أستطيع السيطرة عليه. ربما لا أستطيع السيطرة عليه تماما.. لكننى أروضه بما يكفى لأن اجعله يفعل شيئا طيبا». تقول الفتاة: «يبدو أنك تتحدث عن وحش برى». يصمت نيكسون طويلا ثم يقول: «ربما».


وزارة الطيران المدني
الشركة القابضة لمصر للطيران
مصر للطيران للخطوط الجوية
تعلن عن
تخصيص خدمة تليفونية للجمهور
٣٩٠٣٤٤٤
(ثمانية خطوط) من ١٠ ص حتى ٥ م
لسرعة الرد على استفساراتكم في الحجز و تأكيد الحجز
و معرفة اسعار و مواعيد الرحلات
كما تعلن عن تخصيص ارقام التليفونات
التالية للرد على استفسارات شركات السياحة
ت: ٣٩٢٩٧٨٧ - ٣٩٢٧٤٤٤
٣٩٢٧٤١٧ - ٣٩٢٧٢٣٦
و للاستعلام عن مواعيد الاقلاع
و وصول رحلات مصر للطيران
يمكن الاتصال باستعلامات المطار ارقام :
ت: ٦٣٥٠٢٦٠ - ٦٣٥٠٢٧٠
EGYPTAIR
www.egyptair.com.eg

خطاب الكراهية يضمن الفوز في إسرائيل



إسحاق لاور

قبل إجراء الانتخابات العامة في أواخر فبراير الماضي، فرضت إسرائيل مجددًا إغلاقًا تامًا على الأراضي المحتلة. وتم ذلك باسم الحفاظ على الأوضاع الطبيعية، والتي أصبحت في حد ذاتها إحدى القيم الوطنية «لن ندع الإرهاب يتحكم في حياتنا» وباسم الديمقراطية «نحن جزء لا يتجزأ من الدول الغربية». واحتجز مئات الآلاف من الفلسطينيين في قراهم وبلداتهم، حتى يتمكن سادتهم - أي نحن، الإسرائيليين - من التمتع بحرية الاختيار.

وسيأتي يوم نفكر فيه في عدد الجنود الصاخبين الذين تطلبهم الأمر لحماية الهدوء في أي موقع من مواقع الاقتراع. وكم تطلب من عمليات القبض والاستيلاء، ومن الركلات والصفعات، وكم من الإذلال وأعمال حظر التجول، وإغلاق المدارس وسد الشوارع، وإفراغ المستشفيات من مرضاها، وتدمير للأحواش التي يلعب فيها الأطفال. هذه الأعمال التي أتاحت لنا أن نفخر ونزهو بأن «الإرهاب لم تكن له الكلمة العليا»؟ أي قدر من الظلام يجب أن يسود هناك حتى نضيء أسواقنا (ومقاهينا ومسارحنا وسينماتنا ومراقصنا وصالات الزواج)؟ ما مدى شدة الدكتاتورية العسكرية التي ينبغي لديمقراطيتنا أن تفرضها على الفلسطينيين حتى تتاح لنا حرية اتخاذ القرار بشأن مصيرهم، بينما نحن نتفاخر طوال الوقت بأننا الديمقراطية الوحيدة في هذا الجزء من العالم؟

إن هذه الرغبة في إعادة الأوضاع الطبيعية هي الوجه الآخر للامبالاة. هل يمكن أن نعطي أصواتنا لأحزاب لا تطرح غير حلول عسكرية؟ القارئ العادي سيقول لا، ومع ذلك فالأوضاع الطبيعية هنا تعني اللامبالاة، واللامبالاة هي درع لا تخترقه المعلومات. لقد شارك آلاف الإسرائيليين في «الاحتلال»، وبذل آلاف جهودهم لتنفيذ اتفاقات أوسلو، وقاموا بقياس جغرافية نقاط التفتيش. وآلاف الإسرائيليين قد تعرفوا على واحد أو اثنين على الأقل من الفلسطينيين الذين اعتادوا أن يشتغلوا هنا كأيد عاملة رخيصة، والذين ذهبوا الآن في طوايا النسيان في الأراضي المغلقة. ومع ذلك ففي الحملة الانتخابية لم يتجاسر حزب يهودي واحد على الحديث عن العذاب الذي يعانيه الفلسطينيون.

وتم انتخاب المستوطنين ليصبحوا أعضاء في الكنيست الجديد. والسلطة الفلسطينية لم يعد لها وجود، إلا كهدف سهل لجميع أنواع الاتهامات والعقوبات. ويبدو الاحتلال كأنه في مكان بعيد أو تبدو المستوطنات قريبة للغاية، وعندما يذيع الراديو تقريرًا عن «مواطنين إسرائيليين قتلوا بالقرب من كريات عربة» (مستوطنة كبيرة بالقرب من الخليل) فإن الحديث يكون عن الإرهاب داخل وطننا، ولكن عندما يقوم جيش الدفاع الإسرائيلي بتحركاته داخل مدينة فلسطينية فإن الراديو يتحدث عنه كأنه تحرك يجري هناك، في مكان بعيد، وكأنه في موقع ناء عبر البحار.. أو على الأقل كان هذا هو الأسلوب الذي يتحدث به «اليمين» لبعض الوقت - ولكن هكذا أيضًا يتحدث «اليسار الصهيوني»، الذي قبل لأكثر من سنتين الآن هذا التوصيف الجديد للحدود المتخيلة.

وجيش الدفاع الإسرائيلي فوق الشك بطبيعة الحال. ولا يقتصر الأمر على أن الجنرالات السابقين يلعبون دورًا مهمًا على كل من جانبي الخريطة السياسية، بل إن الأحزاب اليهودية جميعًا بما فيها ميريتس، حزب مثقفي اليسار، وحزب العمل، يستنكر مواقف الرافضين. إن «شجاعة الرفض» حركة الجنود المقاتلين الذين أعلنوا «الحرب على الحرب» ستدفعهم إلى رفض الاستمرار في أداء الخدمة العسكرية في الأراضي المحتلة، قد أصابتها صدمة عندما اكتشفت أن ميريتس لا تريد أن تتعامل معها. إن إسرائيل في حالة جمود أيديولوجي، وقد استسلم اليسار، وكانت حكومة التحالف السابقة هي التعبير المؤسسي عن هذه الحقيقة. وحتى عندما كانت الأيدي هي أيدي عيسو، أي جيش الدفاع الإسرائيلي، كان الصوت صوت يعقوب، أي صوت ليكود. واليسار الصهيوني - ميريتس، والعمل، والسلام الآن - لا ينبغي أن يظل بعد الآن جزءًا من هذه اللعبة، ولكن للأسف ليس هناك سبيل لإقناعه بالابتعاد عن العسكريين، حتى عندما يؤدي هذا التقارب إلى ارتماء الناخبين مباشرة في أحضان الليكود. وفي نهاية المطاف، لماذا ينبغي للناخبين أن يقبلوا أقوالاً زائفة عندما يستطيعون أن يستمعوا لمن يتحدثون بكلمات صادقة؟

لقد كان حزب العمل عضوًا نشيطًا في حكومة شارون السابقة، ولكن ميريتس أيضًا قبل الحكاية الأساسية التي تقول أن «رئيس الوزراء الأسبق إيهود باراك عرض على الفلسطينيين كل شيء في كامب ديفيد لكنهم أرادوا أن يحصلوا حتى على أكثر من ذلك». وهكذا، أين ذهبت تلك الحفنة من أعضاء اليسار الراديكالي؟ لقد أعطوا أصواتهم لصالح «الجبهة الديمقراطية» (الحزب الشيوعي ومرشحون آخرون) أو لحزب البلد، الحزب العربي الوطني الذي يقوده عزمي بشارة. أما غالبيتهم فقد لجأوا إلى الجامعات، في انتظار أن يقوم مؤرخو المستقبل بالكشف عن أسرار النجاح الوحيد الذي حققه باراك وهو: تمزيق «حركة السلام».

لقد وجه أثناء الحملة العديد من الاتهامات، كما يحدث في كل حملة انتخابية. فاليمين اتهم اليسار بالمسئولية عن «ضحايا أوسلو» أي عن اليهود الذين قتلوا في هجمات الفدائيين والإرهابيين منذ عيد بوريم في فبراير ١٩٩٤ عندما اغتال باروخ جولدشتاين، وهو مستوطن من كريات عربة، المسلمين الأبرياء الذين كانوا يصلون في «كهف الآباء» في الخليل. وقد نسيت الآن واقعة أن هذه كانت هي بداية الأعمال الانتحارية. لماذا نسي الإسرائيليون جريمة جولدشتاين؟ ولماذا يهتمون في كل سنة في عيد بوريم بالانتقام دون أن يفكروا للحظة في المذبحة التي وقعت؟ والأهم من ذلك، لماذا نسي حزب العمل الدور الذي قام به شارون في لبنان؟ لأنهم جلسوا معه في حكومته عشرين شهرًا، كما لو كانت حرب لبنان لم تقع قط. وكيف كان في وسعهم أن يتحدثوا عن صابرا وشاتيلا بالطريقة القديمة وهم لا يرون في صابرا وشاتيلا إلا أدوات للدعاية المناهضة لإسرائيل؟

لقد وجه حزب العمل اللوم لشارون عن العمليات الانتحارية داخل إسرائيل، ولكن ذلك - إلى جانب الفساد - كان كل ما أخذوه عليه. وكان سبب لومهم له أنه كان مترددًا في بناء «سور فاصل» على امتداد الحدود القديمة بين إسرائيل وفلسطين. وكان تردد اليمين في بناء السور راجعًا إلى التردد في وضع حدود هناك، أما اليسار فيؤيد فكرة التحديد، ولكنه يريد أن يدخل كثيرًا من المستوطنات في جانبنا من السور. والواقع أن السور يجري بناؤه الآن ويقوم بابتلاع قضمات أخرى من فلسطين التي يتضاءل حجمها. والأسواق تدمر، والقرى تقسم إلى نصفين، والمزارعون لا يستطيعون الوصول إلى مزارعهم، وعمال التراحيل الفقراء يفقدون أملهم الغامض في العثور على عمل داخل إسرائيل.

أن يكون المرء معتدلاً في إسرائيل، وإلى جانب «اليسار العاقل» (وهو الوصف الذي يطلقه اليسار الصهيوني على نفسه، تمييزًا له عن اليسار الراديكالي الذي أيد النضال الفلسطيني) يكون معناه أن يؤيد السور الفاصل. ولكن إذا سافر المرء ورأى بعينيه تلك الأجزاء من فلسطين التي فصلها السور بالفعل (مدينة قلقيلية) فإنه يستطيع أن يرى كيف أن السور يفصل المدن والقرى الفلسطينية ليس فقط عن إسرائيل بل أيضًا عن بقية فلسطين. والفصل يجري بطبيعة الحال من جانب واحد فللإسرائيليين الحق في دخول الجانب الفلسطيني، ولكن لا يستطيع الفلسطينيون أن يدخلوا وطننا. ونفس المنطق يطبق في كل مكان هنا. فـ«الطرق الفاصلة» كانت دائمًا تعني ليس الفصل بين إسرائيل وفلسطين بل بين المقاصد الفلسطينية والإسرائيلية. والآن، وقد أصبحت عملية الأبرتهايد والفصل العنصري أكثر رسوخًا، لم يعد الفلسطينيون يستطيعون قيادة السيارات على تلك الطرق، بل وعلى الكثير من الطرق الأخرى في الضفة الغربية. ومن الضروري أن نفهم معنى عدم وجود الفلسطينيين في الوعي الإسرائيلي. فهم خطر. وبالتالي يجب استبعادهم من أراضينا. إن الطرق الفاصلة تخلق استمرارية حقيقية بين المستوطنات اليهودية، بينما تقضي في

بترتيب خاص مع:
London Review of Books

ترجمة: أسعد حليم

الوقت نفسه على أى شكل من أشكال استمرارية الأراضى الفلسطينية، وما نقاط التفتيش إلا استكمال لتلك العملية.

وكل المستوطنين يدلون بأصواتهم فى مستوطناتهم: فهم مواطنون إسرائيليون، والمستوطنات هى جزء من دولة إسرائيل الديمقراطية. وقد أعطوا أصواتهم بالجملة لأحزاب اليمين بطبيعة الحال، وذلك أساسًا لصالح الأحزاب التى تدعو إلى «الترانسفير» وهو التعبير المستخدم لطرد الفلسطينيين. وقد فقد حزب ميريتس ما يقرب من نصف الأصوات التى اعتاد أن يحصل عليها، وأصبح حزبًا صغيرًا له ستة مقاعد فى الكنيست، وبقى حزب العمل ثانى أكبر الأحزاب فى الكنيست، ولكن مقاعده انخفضت إلى ١٩ مقعدًا (فى حين حصل الليكود على ٣٨ مقعدًا). وبين الناخبين الذين يقل عمرهم عن ٣٠ عامًا، وبين المهاجرين الجدد القادمين من الاتحاد السوفيتى السابق والبالغ عددهم مليونًا، وبين الفقراء، ليس لحزب العمل غير أنصار قليلين. وكان ما يحتاجه شارون من حزب العمل هو إضفاء الشرعية عليه فى المجتمع الدولى. وقد منحوه إياها.. لماذا؟ بالتعبيرات المستخدمة فى إسرائيل يقولون إن السبب هو «سيارة الفولفو والسائق» بما يعنى أنهم يستمتعون بوجودهم فى السلطة. والحقيقة أكثر مدعاة للأسف: فهم لا يعرفون كيف يقاومون إغراء السلطة.

وقد ساد الإرهاب. وفى السنوات الأخيرة ألغى المزيد والمزيد من الفروق السياسية لصالح «هوية إسرائيلية جديدة»، ذلك الشعور الذاتى الهش الذى لا تظهر قوته إلا فى أيام الحداد الوطنى. وليس هناك عامل مشترك آخر، ولا حتى اللغة (فمعظم الأحزاب اليهودية استخدمت اللغة الروسية فى العناوين الفرعية والبيانات الانتخابية التى أذاعتها بالتليفزيون) وفى بعض الحالات لم يكن هناك حتى ديانة مشتركة (فنسبة تقرب من ٢٠ بالمائة من المهاجرين الروس الجدد ليسوا من اليهود). وقد لعبت كراهية الفلسطينيين دورًا رئيسيًا فى الهوية الإسرائيلية الجديدة (إن لم تنشأ مع الموجة الحالية من الإرهاب). والإسرائيليون بوجه عام لديهم أذن صماء فى مواجهة معاناة الفلسطينيين - وذلك ليس مجرد تكنيك واستراتيجية، بل هو أسلوب للحياة. ولم يكن الأدب الإسرائيلى السائد فى أى وقت أدبًا حربيًا أو شوفينيًا، وهو لم يتناول التراجيديا الفلسطينية إلا فى حالات قليلة نادرة.

ولعبت الكراهية دورًا رئيسيًا فى الحملة الانتخابية، وذلك الجزء من اليسار الذى دعا إلى إنهاء الاحتلال لم يحقق أى قدر من النجاح، فقد بدا أن الرحمة والعطف ليس لهما مؤيدون. وإذا كان هناك أى شعور بالعطف فقد حظى به شارون. وقد دعا الشعب، والجمهور، والفقراء، للدفاع عنه فى مواجهة «التحريض اليسارى». ورفعت لافتات ضخمة عبر الشوارع تحمل حروفًا زرقاء وبيضاء تقول: «الشعب ينتخب شارون» و«الشعب ينتخب الليكود فى مواجهة تحريض اليسار» (وكانت هناك لافتات أخرى تدعو نفس الشعب لانتخاب نفس شارون لأسباب أخرى).

وفى وقت ما من أوقات الحملة بدا أن الليكود سيخسر بعض مؤيديه بسبب انتشار الاتهامات بالفساد والرشاوى بين المرشحين فى انتخابات الحزب الأولية، وهذه الاتهامات لم تتوقف حتى الآن، وحتى شارون قد ينتهى الأمر بطلبه للتحقيق معه أمام الشرطة، إن لم يكن الأمر أسوأ من ذلك. ولكن نقطة التحول فى الحملة كانت اللحظة التى تمكن فيها أنصاره من تصوير الجنرال السمين العجوز آكل لحوم الخنزير وعاشق اللذات - وهو أغنى رئيس للوزراء عرفته إسرائيل فى أى وقت - على أنه ضحية لـ«وسائل الإعلام اليسارية والنظام القضائى»، وأصبحت اتهاماته بالفساد، وعلاقته بمليونير إنجليزى معين، وادعاؤه أنه «لم يعرف» شيئًا عن وديعة بمبلغ ١,٥ مليون دولار حصل عليها حتى يتمكن من سداد تبرعات غير مشروعة استخدمها فى حملته السابقة، والاتهامات بوجود ارتباطات بين ابنه عمرى (والذى أصبح الآن أيضًا عضوًا فى الكنيست) وبين أشخاص متهمين بالإجرام - كل هذه أصبحت نقاط قوة لشارون.

ولا يكف مؤيدو حزب العمل فى الصحافة الإسرائيلية عن الشكوى من أن اليهود السفرديين ينسون أن حزب العمل لم يكن هو المتصرف فى أحوال البلد خلال سنوات طويلة. وهذا صحيح - وإن كان حزب العمل يميل لأن ينسى ذلك أيضًا. ومنذ ١٩٦٧ فإن شارون، ومن قبله بنيامين نتنياهو، ومن قبلهما مناحم بيجين، كانوا يطرحون على «الإسرائيليين الجدد» وسيلة سهلة للالتقاء بالدولة، وهى كراهية العرب. وهذا يتطلب قليلاً من الشرح.

فالتفرقة بين اليهود الشرقيين واليهود الغربيين لها جذور عميقة فى حياتنا، وليس هناك جانب فى حياة الإسرائيليين لا يهدد فيها هذا التوتر بالظهور. واليهود القادمون من العراق أو مصر أو اليمن أو المغرب يجب، حتى يصبحوا إسرائيليين، أن يصبحوا أولاً.. يهودًا شرقيين: - أى أن تكون لهم هوية «شرقية» مشتركة لم يكن لها وجود قبل أن يصبحوا إسرائيليين. ثم يكون عليهم أن يصبحوا «إسرائيليين» بعد ذلك. والكراهية التى توفرها لهم الدولة - ويوفرها لهم اليمين بقدر أكبر - كانت دائمًا هى الكراهية القائمة بين إحدى الأقليات والأخرى. وأية قراءة ذكية لروايات أ.ب. يهوشوا - أشهر الكتّاب السفرديين فى إسرائيل - تستطيع أن تكشف عن الرغبة فى إلغاء هذا الفارق بين الشرق والغرب «فى داخلنا».

ولكن كيف حدث أن اليهود السفرديين لم ينجحوا فى أى وقت فى تنظيم أنفسهم لتحقيق مطالبهم، بدلاً من إعطاء أصواتهم للقادة الاشكنازيين اليمينيين؟ هذا موضوع للمناقشة داخل الدوائر الأكاديمية وخارجها، ولكن هناك أمرًا واحدًا واضحًا: وهو أن العنصرية السياسية لم تعد مقبولة. وعلى امتداد سنوات، قوبلت أية محاولة لتشكيل حزب على أساس عنصرى باستنكار شديد، ومع ذلك ففى سنوات الثمانينيات أُنشىء حزب شاس. وبدا أن هذا الحزب الذى يقوده يهود سفرديون متشددون يتوجه إلى اليهود المنحدرين من أصول شرق أوسطية سعيًا إلى هدف مزدوج: إعادة الجماهير السفردية إلى عالم التوراة، وحماية اليهود السفرديين من التمييز ضدهم، وحقق الحزب نجاحًا فلكيًا. وخلال عشر سنوات أصبح ثالث أكبر حزب فى البلد.

وكان ما يدعو للانزعاج من حزب شاس الذى حصل في الانتخابات الأخيرة على ١١ مقعدًا لدى أحزاب الاشكنازى هو أنه وجد طريقًا جديدًا إلى السلطة السياسية لليهود السفرديين: فقد كان كل ما يهمه - هكذا بدا الأمر - هو توسيع بنيته الأساسية الدينية العنصرية، وعلى حين كان ذلك التصرف مقبولاً عندما قام به المستوطنون، أو الحركات الأخرى فى تاريخ الصهيونية، فهذا أمر لا يمكن احتماله عندما قام به حزب شاس. وفى سنوات أوسلو كان حزب ميريتس هو الذى يوجه لعبة الكراهية هذه، فى حين يقامر بحدوث انشقاق نهائى بين اليسار السفردى واليسار الاشكنازى. وكان ميريتس يعرف أن أنصاره يكرهون «الآخرين» بحيث بدا كل شىء بغيض فى إسرائيل يرتبط بأولئك «الآخرين». فهل نحن ندفع ضرائب أكثر مما ينبغى؟



إذن فاللوم يقع على اليهود الأرثوذكس لماذا؟ لأن لديهم أبناء أكثر مما يجب، شأنهم شأن العرب، ونحن لا نريد أن نتولى تمويل زيادة أعدادهم. وميريتس لا يعلن ذلك صراحة، ولكن كانت تلك هى الروح السائدة فيه. هل نحن ملزمون بأن نقضى وقتًا أكثر من اللازم فى الجيش، كمتطوعين وكجنود احتياطيين؟ إذن فلنلق اللوم على اليهود الأرثوذكس لماذا؟ لأنهم لا يتطوعون فى صفوف الجيش، على الأقل الاشكنازيين من بينهم لا يتطوعون.

وفى هذه الانتخابات الأخيرة كان على حزب ميريتس أن يتنافس مع حزب آخر، وهو الحزب الذى حل محله فى الواقع: حزب شينوى الذى يضم الأجلاف المتشددين rednicks فئة متزايدة فى دولة تكاد تخلو تمامًا من العمل المنظم. وبالرغم من أن شينوى ليس لديه غير عضو واحد «سيفردى»، فهو يمثل شيئًا جديدًا فى السياسة الإسرائيلية: فهو حزب ليست لديه ممنوعات، حتى فى الطريقة التى يعرض بها مواقفه. وما رأيه بالنسبة للفلسطينيين؟ ليست هناك فرصة للسلام على أية حال.

إن رئيسه يوسف «طونى» لبيب، وهو نجم سابق على شاشة التليفزيون، يتفوق على «حيدر» و«لوبان». فهو لا يتحرج من شىء، لأن لديه الهولوكوست إلى جانبه، ولكن فلننس الهولوكوست: فطونى يعتبر نفسه الممثل الحقيقى للثقافة الأوروبية، فقد ولد لأسرة مجرية تعيش فى يوغوسلافيا. لذا يعتقد أنه يعرف كل شىء عن أوروبا، وتشمل سيرته الذاتية إعداد كتب سياحية، وبعض الكوميديات من الدرجة الثالثة، قمت بالتمثيل فى واحدة منها عندما كنت تلميذًا فى المدارس الثانوية، وقمت فيها بدور أحد رؤساء الجمهورية الافريقيين الذى يزور إسرائيل، ثم يتبين أنه يهودى بولندى وجد طريقه إلى واحدة من «تلك الدول الجديدة». وكما ذكرت من قبل فإن الخطاب الإسرائيلى مسكون بالقتال «للحفاظ على القيم الأوروبية».

دعونى أتحدث بصراحة: ثمة حاجة حقيقية لتشجيع العلمانية فى إسرائيل. وهذه دولة لا يستطيع أحد فيها أن يتزوج خارج المؤسسة الدينية. ولكن هل سيحدث شينوى تغييرًا فى التشريع؟ لا بطبيعة الحال. فمعظم القوانين لها غرضها السياسى، بل والعنصرى: فهى تحرص على وصف إسرائيل بأنها دولة يهودية، ثم تفسير اليهودية بعبارات دينية، وليس هناك حزب يهودى واحد يؤيد الديمقراطية الحقيقية، حيث تكون الدولة هى دولة كل المواطنين.

إن ما أثبته حزب شينوى بمقاعده الخمسة عشر مرة أخرى هو أن خطاب الكراهية يحقق نجاحًا كبيرًا فى إسرائيل، والأحزاب التى لم تجد موضوعًا تكرهه فشلت. ولكن شينوى أعطى ميريتس درسًا يجب على حزب العمل أن يتعلمه بسرعة: إنك إذا دخلت فى منافسة حول أيُنا سيوجه «إليهم» ضربات أشد؟ سيكون هناك دائمًا حزب يقف إلى يمينك، حزب ليست لديه محرمات، وكما عاد ميريتس إلى حجمه السابق كحزب صغير من أحزاب الحمائم إلا أن شينوى كان أكثر نجاحًا فى رسالة الكراهية التى يطلقها ضد السفرديين والأرثوذكس المتشددين، وكذلك فقد حزب العمل مكانة قوية محورية بسبب تأييده «للاحتلال». وأى شىء كان على حزب العمل أن يقوله بشأن الفلسطينيين كان يستطيع أن يجد موقعًا أكثر ملاءمة فى خطاب «اليمين».

تُرى هل هناك من يعتقد أن إسرائيل قادرة على الخروج من هذه البلبلة بدون مساعدة من الخارج؟

في وصـــــف الحـــــالة الســــودانية:

العقيـــد قـــرنـــق والحـــركة الشعبية لتحـــرير الســـودان

خـلافاً لمـا ظل يذيعـه قـرنق، في مضمـار تقـديم نفسـه كمناضـل لوحـدة السـودان، من أن أول رصاصـة أطلقتهـا الحـركة كانت ضد الانفصاليين الجنوبيين يشـير واقع الحال إلى أن تلك الرصاصة قد أطلقت نحو صدور منافسـين له حـول الشـوكة والمركـز الأول في الحـركـة.

■■ كنت قد استعنت بقوله تعالى: «بئر معطلة وقصر مشيد» لوصف الحالة السودانية. وهي حالة غاض فيه المعنى وبقي المبنى، وجف الرحيق واستخلف الزهرة، وخرجت الروح وتهافت الجسد. ويقترب عامة السودانيين من هذا المعنى كثيراً حين يصفون قاصد البئر المعطلة بانه إنما يرضع من «شطر ميت». فالفكر والتنظيم السياسيان وثوابتهما في الحالة السودانية هما أثر من ستينيات القرن الماضي. وتعطلت بئر ذلك العقد الباهر محلياً وعالمياً كما هو مشاهد للجميع غير أن القصور السودانية من أحزاب وتنظم سياسية، التي استقت من مائه ظلت كما هي عليه. فقد تفادى أهل السياسة تجديد النظر في شان بئرهم وقصرهم وانشغلوا عن ذلك بلعبة الحكم المجردة. وليس صدفة ربما أن ذاع عن خلاف الرئيس البشير والشيخ حسن الترابي عام ٢٠٠٠ أنه صراع «المنشية والقصر». فالمنشية هي ضاحية الصفوة البرجوازية في مدينة الخرطوم التي يسكنها الترابي الذي عليه عماد التجديد النظري والتربوي في الحركة الإسلامية. أما القصر فهو القصر الجمهوري الذي يدير منه الرئيس البشير أمور الحكم. وعليه فطلاق الترابي والبشير هو بعض جدل البئر المعطلة والقصر المشيد. فكلما ضلّ أهل القصر عن إصلاح البئر، استعانوا على أمرهم بالقوة العضلية فاصبحت للأحزاب جيوش، أو أصبحت الأحزاب نفسها جيوشاً. و تعسكرت السياسة وقل النظر.

جدلية البئر المعطلة والقصر المشيد وراء أكثر متاعبنا ومظاهرها الفاشية مثل الحرب الأهلية المستدامة، والحلقة الشريرة بين الحكم المدني والعسكري، وانغلاق الأحزاب على نفسها بصورة نازفة. وقد سبق أن صدر لي كتاب بعنوان «الإرهاق الخلاق» في محاولة لتشخيص كساد جسد السياسة السودانية من جراء فقدان سوائل الفكر. واسترعت نظري مؤخراً كتابات بعض أهل النظر، وهم أهل البئر، على سدنة القصر في أحزابهم. وقد أماطوا في تلك الكتابات اللثام عن فساد فكر تلك الأحزاب وخيالها. وقد سمّيت هذا الجنس الكتابي بـ «وخرجوا بغصة منه» عملاً بقول الشاعر عن الزمان الذي نخرج منه بالحسرة والخيبة برغم أنه ربما سرنا أحياناً.

وقد اعتنيت بوجه خاص بما صدر من هذا الجنس الكتابي مؤخراً باقلام أولئك الذين خرجوا بغصة من الحركة الشعبية لتحرير السودان والجيش الشعبي لتحرير السودان اللذين ظل يقودهما العقيد الدكتور جون قرنق منذ ١٩٨٣ لغاية بناء سودان جديد يقتسم أهله الثروة والسلطان بالسوية. ورغبت في الاستعانة بهذه الكتابات في معرفة هذه

Inside An African Revolution

(داخل ثورة أفريقية)

Lam Akol
Khartoum: Khartoum University Press, 2001, 348pp. £ 15.00

الحركة والجيش عن كثب من أفواه أهلها. فقد حجبت معرفة هذه الحركة الحق عني، كشمالي سوداني، أمور. وأول هذه الأمور كما لا يخفى هو مصادر المعرفة الشمالية التي خالطها الغرض. ومن الأمور المهمة ذنب السودانيين الشماليين من ذوي الحساسية تجاه مأزقهم التاريخي والمعاصر في الجنوب. وهو ذنب دفعهم لتغليب حسن الظن على الدوافع والأداء الجنوبي وإرجاء الحكم عليهما مادام الجنوبيون على جانب الصحة السياسية من حيث طلب الإنصاف ورفع الاستضعاف عنهم. بل دفع هذا الذنب بكتاب من الشماليين من أمثال الدكتور منصور خالد و الدكتور الواثق كمير للانضمام للحركة الشعبية وليكونوا «صوت عربيها» في كتابات صدرت لهم بالإنجليزية والعربية عن أفكار الزعيم جون قرنق وحركته الشعبية. وهي كتابات غلّبت الحديث عن ظلم الجنوبيين ومشروعية جهادهم وخلت من النظر الدقيق في ديمقراطية الزعيم وحركته. والحق أنها لم تقصد أبداً أن تجيل النظر في هذا الباب إلا دفعاً لما يقوله خصوم الحركة ونقدتها.

توفر لنا من جنس «الخروج بغصة» وبغصة من الحركة الشعبية كتابان مرموقان. مؤلف الأول هو الدكتور لام أكول، الأستاذ السابق بكلية الهندسة بجامعة الخرطوم وعضو القيادة العسكرية العليا من الحركة الشعبية منذ ١٩٨٨ حتى خروجه منها في ١٩٩١، ووزير النقل الحالي في الحكومة السودانية. وعنوان مؤلفه هو الحركة الشعبية لتحرير السودان والجيش الشعبي لتحرير السودان: داخل ثورة أفريقية الذي صدر بالإنجليزية عام ٢٠٠١ بالخرطوم. أما الكتاب الآخر فهو نزاع السودان الذي خطه قلم الأستاذ محمد هارون كافي، الكاتب المشغول بثقافة شعب النوبة في وسط غرب السودان، والذي انضمّ للحركة في عام ١٩٨٦ وخرج عنها في عام ١٩٩٦.

كتاب لام صادر عن فكر قسيم وعاطفة رحيمة. فلم يجعل الكاتب خلافه مع العقيد قرنق أكبر همه فينشغل به عما عداه فيمل القارئ. فهو لم يتطرق إلى الوقائع المخصوصة التي أدت إلى خروجه من الحركة. ويبدا لي أنه خشي أن يدخل في لجاج الخصومة فيحمّل القارئ عبء الحكم له أو عليه. وكبديل لذلك اختار الكاتب أن يحكي قصة الحركة الشعبية من ألفها إلى يائها ليعين القارئ لا لفهم خلافه مع قرنق وحسب بل لفهم هذه الثورة الأفريقية المشروعة: أشواقها، بسالتها، مواقعها، ومنعطفاتها. فهو لم ينتهز سانحة خلافه مع قرنق للتهوين من الحركة أو تبخيسها على أن الخصم هو الذي على رأسها. فواضح أن لام قصد إلى القول أن إدارة ظهره للحركة في الملابسات المعروفة لا تعني تنصله من المعاني الغراء التي في أصل بواعثها. وسيخرج قارئ لام وهو أكثر احتراماً للحركة وفهما لمتاعبها من أولئك الذين يروجون لها بالحق والباطل. وأهم من هذا كله سيقف القارئ على كدحنا جميعا لبناء وطن أفضل بأثمان باهظة ومنها الفجيعة في رفاق الصحوة والحلم والثورة.

يرد لام مأزق الحركة الشعبية إلى عاهة في منشئها. وقد جاء في هذا بمثل حي لإصرار أمليكار كابرال، زعيم حركة الاستقلال المسلحة في غينيا بيساو، ألا تتحول حركته، التي وصفها بانها جماعة ثورية مسلحة، إلى مجرد عصبة من المسلحين. ومنشا ومآل الحركة الشعبية، في رواية لام، مثل حي لما حذّر منه كابرال. فقد بدأت الحركة، أو كادت، كحركة سياسية ثم استأثر بها، وهي في المهد، العسكر بقيادة قرنق. وقد وقعت هذه العسكرة، وبنظر لام، عبر ثلاثة تطورات مهمة. وهي:

١) القضاء على العنصر المدني السياسي في بدايات الحركة فيما بين مايو ١٩٨٣ ومارس ١٩٨٤.

٢) تجميد قرنق للقيادة السياسية وتنصل الحركة عن ميثاقها التاسيسي.

٣) وتمكن العالم الكافكي (نسبة إلى كافكا، الكاتب التشيكي المشهور) لقرنق في الحركة وهو عالم يغرب الناس عن واقعهم بهدف إخضاعهم لإرادة غالبة.

بدأت الحركة في ١٦/٥/١٩٨٣ بتمرد حامية مدينة بور الجنوبية إثر الأمر الصادر لها بالانتقال إلى شمال السودان. وقع هذا الأمر في سياق خطة دمج فرق الجيش من الجنوبيين، وأكثرهم ممن كانوا قد استوعبوا من حركة القوميين الجنوبيين المسلحة (ممن تطلق عليهم الحكومة اسم «المتمردون». وسنستخدم هذا الاسم الحكومي لذيوعه للتسهيل) بعد اتفاقية أديس أبابا للسلام في ١٩٧٢. وقد تشككت الحامية في نوايا قيادة الجيش من هذا الأمر. فقد خشيت الحامية أن تكون عرضة للإبعاد إلى الشمال بقصد تغييبها عن مسرح السياسة في الجنوب. وهو المسرح الذي طغت عليه الريبة في الحكومة في الشمال وبخاصة ما تعلق بـ «أسلمة» الدولة التي لاح لائحها منذ مصالحة الرئيس نميري مع المعارضة الشمالية الموصوفة بالإسلامية، في ١٩٧٧. وقد سبق تمرد حامية بور لجوء جماعات مسلحة للغابة. ولدى هجوم الحكومة على الحامية دخلت الأخيرة الغابة وانسحبت إلى الحدود الأثيوبية. وتبع الحامية المتمردة العقيد جون قرنق، الضابط المستوعب من حركة «التمرد» في جيش السودان، والذي كان يقضي إجازته في نواحي بور. واصطحب قرنق في رحلته هذه السيدين ساموِيل توت وأكوت أتيم. والأول من قادة حركة أنانيا في الستينيات وجرى استيعابه كعميد في القوات المسلحة السودانية ثم استمزج السياسة وصار نائبا في البرلمان الجنوبي ووزيرا مرات عديدة. أما الثاني فهو من دهاة ساسة الجنوب.

بدأت الجماعة التي لاذت بأثيوبيا، بما فيها قرنق وأتوت، بتكوين لجنة سمتها اللجنة التنفيذية التمهيدية اختارت أتيم رئيساً لها كما ذكرنا سلفاً. وتشكلت قيادات متخصصة لهذه اللجنة منها اللجنة العسكرية التي ترأسها توت، ولجنة العلاقات الخارجية التي ترأسها جوزيف أدوهو، الذي مات سجيناً غبيناً في معتقلات قرنق، ولجنة الإدارة والقضاة التي ترأسها مارتن ماجيير قاي. أما قرنق فقد اختير

بئـــــر معطـــــــــلة وقصـــــــــــر مشـــــــيد!

عبدالله عـــــلى إبراهيم



قائداً لهيئة أركان حرب الحركة. ولم يقبل قرنق نتيجة هذه الانتخابات وسعى فى تأليب الضباط على هذه الخطة «المدنية» ونجح فى إقصاء جماعة توت وأتيم وشتت شملها. وعاد أتيم يطلب الصلح مع قرنق فى جماعته المكونة من ٨٠٠٠ بين حامل للسلاح وأعزل. وكان القائد العسكرى الأثيوبى للمنطقة يؤثر توت فزوده بالسلاح خلافاً للموقف الأثيوبى الرسمى الذى انحاز لقرنق. وذاع أن قرنق غير راغب فى الصلح. وبقيت جماعة أتيم تنتظر قدوم قرنق فى المكان والزمان المطلوبين. وحين لم يحضر قرنق انسحب أتيم وصحبه من الموقع فى جنح الظلام لأن خيار المصالحة قد تبخر. وهاجموا جماعة قرنق وأجلوها واحتلوا مكانها. واستعاد قرنق زمام المبادرة وهاجم جماعة أتيم فى مارس ١٩٨٤ بقوة متجددة وقتل أتيم. ومثّل كاربينو كوانين، نائب قرنق، بجثة القتيل. وقد جلد كاربينو الجثة ٥٠ جلدة. وكان نميرى قد سبقه بجلد الخصوم والسكارى والزناة بالسياط بعد أسلمته للقوانين فى سبتمبر ١٩٨٣. وكان قرنق حاضراً فى المشهد يرى ولا يحرك ساكناً. وقد كتب قرنق لاحقاً لمندوبه فى بريطانيا زاعماً أنهم قد دفنوا توت وشرفوه بجنازة عسكرية. ومن ثمّ تراجعت جماعة توت إلى السودان وكونوا جيش انيانيا ٢ (وكانت انيانيا رقم ١ هى التى بدأت حرب الحكومة فى ١٩٦٢ حتى تصالحت معها فى أديس أبابا فى ١٩٧٢). وقد نشب صراع دموى بين قرنق وهذا الجيش لسنوات أربع. وانتهزت الحكومة حرب الأخوان هذه وأمدت أنيانيا٢ بالسلاح والعتاد كيداً لقرنق. ونعى لام حرب الإخوة هذه قائلاً: «إن الأرواح التى أزهقت فى هذه الحرب لهى أكثر من تلك التى فقدناها فى حرب العدو، الجيش السودانى، فى نفس المدة». ولم يقبل قرنق مبدأ الصلح مع «أنيانيا٢» أبداً. وكان يسميها بـ «نياقات» (أى الشفته وقطاع الطرق فى لغة العوام) وجاء الصلح أخيراً لأن قرنق لم يقو على كسر شوكة هذه الجماعة لأنها كانت تتمتع بعطف وولاء السكان. وتصالحت الحركة الشعبية وأنيانيا بالحوار وبفضل جهود بذلها ضباط ذوو حيلة فى الحركة الشعبية. وعلق لام على هذه البدايات الصعبة للحركة بقوله: «وعليه فإن الحركة الشعبية قد دشنت نفسها فى الساحة الوطنية بحرب أهلية بين الجنوبيين. وخلافاً لما ظل يذيعه قرنق، فى مضمار تقديم نفسه كمناضل لوحدة السودان، من أن أول رصاصة أطلقتها الحركة كانت ضد الانفصاليين الجنوبيين، فواقع الحال يشير إلى أن تلك الرصاصة قد أطلقت نحو صدور منافسين له حول الشوكة والمركز الأول فى الحركة».

ولم يكد قرنق يتخلص من أتيم حتى جعل نفسه رئيساً للجنة التنفيذية التمهيدية. وتسنى بذلك أن يعقد للعسكريين لواء الصولة والجولة فى الحركة. وقد صحب ذلك تبخيس مستمر للسياسة و

تمجيد للعسكرية بوصفها سبيل وضمانة النصر على العدو. وقال لام «إن ذلك كان إيذانًا بأن الحركة قد انعطفت بشدة نحو أن تكون عصبة عسكرية». ولم يتوقف تبخيس السياسيين في حدود اللفظ والدعاية بل أصبحوا عرضةً للاغتيال حتى يتمكن قرنق من الحركة. فقد اغتيل بنجامين بول أكوك، خريج جامعة إكسفورد والبرلماني الجنوبي والوزير السابق وممثل الحركة الشعبية في لندن، في سبتمبر ١٩٨٤ بأمر من قرنق الذي كان يخشى طموح أكوك للقيادة. وأتبع قرنق ذلك بتجريد جوزيف أدوهو، من مؤسسي الحركة القومية الجنوبية في الستينيات، ومارتن قاي، عضويّ اللجنة التنفيذية التمهيدية، من كل سلطة، ثم سرعان ما اعتقلهما في مارس ١٩٨٥ بتهم مختلفة. وكان اعتقال أدوهو وأقاي بمثابة إغلاق وتشميع نهائي للجنة التنفيذية التمهيدية المدنية. وقد كانت الموئل الذي تبقى للقيادة الجماعية. فقد أعقب ذلك زحف اللجنة العسكرية واستئثارها بالقيادة، التي تغير اسمها إلى القيادة العسكرية العليا حتى يناسب لفظها فعلها. وسرعان ما بدأت هذه القيادة عسكرة الحركة. وكان قرارها الأول هو لزوم أن ينال كل عضو بالحركة تدريبًا عسكريًا وأن يؤدي الخدمة العسكرية في جبهات القتال. وكان هذا بمثابة إرساء لمبدأ تتبيع أعضاء الحركة لزعيمها لا في المعنى السياسي المعروف بل في مبدأ الضبط والربط العسكري. وهكذا، في عبارة لام، انسدل الستار على الآمال التي جاشت في نفوس الجنوبيين بإنشاء حركة سياسية شعبية. وتناوشت الأدواء الحركة من جهة تغاضيها العمل السياسي.

جاءت الحركة الشعبية إلى ساحة السياسة في أصيل الماركسية. فقد عرّفت نفسها في ميثاقها لعام ١٩٨٣ بأنها حركة ماركسية -لينينية. وسرعان ما تباطأت الحركة دون هذه الصفة النظرية الباكرة، ولتنصلها عن هذه الصفة قصة. فقد أرسل قرنق ميثاق الحركة أول صدوره في ١٩٨٣ إلى الرائد بيو كوان، قائد حامية الناصر وأحد الضباط المستوعبين من حركة أنيانيا بعد ١٩٧٢، وعضو مجلس قيادة ثورة الإنقاذ الوطني عام ١٩٨٩ (وقد توفي في حادث طائرة وقد أطلق اسمه على شارع رئيسي بالخرطوم). وقام كوان بإرسال الميثاق إلى الرئيس نميري والذي وجد فيه ضالته في التشهير بالحركة بأنها دسيسة شيوعية لا تخشى في ماركسيتها لومة لائم. وكان نميري يتقرب بهذا التشهير إلى الأمريكان الذين لم يريدوا للسودان، الذي أصبح حليفاً لهم، أن يعود إلى حضن السوفييت كما كان على عهد نميري الأول. كما وجد نميري ضالة له أخرى في وصف ميثاق الحركة لأنظمة الحكم المتعاقبة على السودان بأنها عربية مبتذلة (pseudo-Arab) ليؤلب الدول العربية على هذا الخصم الجديد الشديد لهم. واضطرت الحركة الشعبية حين رأت خسائرها من جراء فصاحة ميثاقها السياسي إلى ابتلاع صفتها الماركسية وتوصيفها لنظم السودان المتعاقبة. وشرعت الحركة في تنقيح الميثاق، أسقطت بموجبه صفة أنها ماركسية لينينية، واستبدلت مصطلح «العرب المبتذلين» بـ«طغم الأقلية».

وقد بدت الحركة الشعبية بعد هذا التنقيح كحركة ناقصة في عنصر المبدئية. غير أن ما شقّ على الجنوب حقاً الطريقة الظالمة التي عرضت بها الحركة للتاريخ



في وصف الحـــالة الســودانية

اضطـرت الحـركة الشعبيـة حين رأت خسائرها من جـراء فصاحـة ميثاقها السياسي إلى ابتلاع صفتها الماركسية وتوصيفها لنظم السودان المتعاقبة. وشرعت الحركة في تنقيح الميثاق، أسقطت بموجبه صفة أنها ماركسية لينينية، واستبدلت مصطلح «العرب المبتذلين» بـ «طغم الأقلية».

حركة الجهاد القومي الجنوبي الذي سبقها. فأنت تجد مثلاً أن حركة أنيانيا، التي قادت ذلك الجهاد لـ١٧ عامًا (١٩٥٥-١٩٧٢)، قد جرى الاستخفاف بها في التاريخ الموضوع بواسطة الحركة الشعبية. فقد وصفت أنيانيا في هذا التاريخ بأنها قد نشأت من ضيق الجنوبيين بقسمته الضيزى لأسلاب سودنة الوظائف بعد الاستقلال التي استأثرت صفوة الشمال المتبرجزة بنصيب الأسد منها وتركت الفتات لصفوة الجنوبيين المتبرجزة. كما وصف هذا التاريخ الموضوع من قبل الحركة الشعبية اتفاقية ١٩٧٢ للسلم بأنها من إملاء الشمال على الجنوب. وأنها مصالحة متأخرة جداً بين هاتين الصفوتين حول أسلاب الاستقلال غنمت بها صفوة الجنوب جملة وظائف قيادية في الدولة في حين ضحت بمصالح الجماهير.

انحلال القيادة العسكرية العليا: ولم تكن القيادة العسكرية العليا نفسها سوى قناع يخفي انفراد رئيسها والقائد العام، قرنق، بالقرار في كل شأن كبر أم صغر. ولذا سماها لام بـ«الدمية». فليس للقيادة دستور يقنن سلطتها أو يبوب نظمها في تصريف أمورها. قد يستأنس قرنق، متى شاء، برأي من شاء، على انفراد. وضرب لام لذلك مثلاً. فقد أنشأ قرنق في عام ١٩٨٥ ما أسماه بـ «العضوية المناوبة» في القيادة العسكرية العليا كمكافأة لضابط هزم خصماً لقرنق وقتله ولآخر حقق نصراً في معركة ما. ولم يكترث قرنق لوصف مهام وحقوق وواجبات الأعضاء المناوبين أبداً حتى كان هناك منهم عدد فاق الأعضاء الخمسة الأوّل الذين جرى وصفهم بالأعضاء الدائمين بنسبة ثلاثة إلى عضو دائم واحد. وكانت سنة العضو المناوب فاشية في الأحزاب الشيوعية. وقارن لام بين هذه السنة محاكاة قرنق لها وخلص إلى أن قرنق قد أخذ المقام وأفرغه من موجباته ونظمه.

وقال لام إن الذي أبقاه بالحركة للزمن الذي بقي فيها هو ثقته أن بوسعه إقناع قرنق بالعودة من سكة العسكرية الخرقاء إلى الشرعية السياسية، ومن قيادة الرجل الواحد إلى القيادة الجماعية. وقد قاد الكثيرون إلى هذه القناعة خلوص نيتهم وثقتهم في العقيد قرنق الذي اجتمعت له صفات في القيادة لم تجتمع لقائد جنوبي ممن سبقوه. فلم يكن من بين من جاءوا إلى الحركة ممن لابسته نزعة لمنافسة قرنق في موقع القيادة. كان أكثرهم بالطبع يريد أن يرتب الحركة بصورة تكفل لهم المساهمة المسئولة في إدارة الحرب التي تطوعوا لخوضها تطوعاً. غير أن هذا الشاغل الجماعي هو ما أزعج قرنق وجعله يشتبه في رفاقه الذين واصلوا محضه النصح لوجه الإصلاح. والتزم لام، كمثقف، ألا يألو جهداً في الإفضاء إلى قرنق بدخيلة نفسه بشأن الحركة ووجهاتها. وكانت آخر مساعيه في طرق هذا الباب المسدود إلى فؤاد قرنق هو مذكرته المعنونة «نحو تنظيم الحركة الشعبية لتحرير السودان».. وقد نشرها كملحق في كتابه وعلق قائلاً: «إنني ما أزال أعتقد في سداد ما جاء في هذه المذكرة وليس لديّ مزيدٌ عليها».

وكانت عاقبة هذه القيادة العضوض لقرنق ارتكابه لأخطاء سياسية بلقاء. ويذكر القارئ أن الحركة قد لاقت ببرود انتفاضة أبريل ١٩٨٥ التي أطاحت بنظام الرئيس نميري. وهو برود حير وما زال يحير كثيرًا من السودانيين ممن اعتقدوا أن سقوط حكم الفرد هو البداية الصحيحة لترتيب أوضاع السودان كله على هدى الديمقراطية والإخاء السوداني. وبلغ هذا البرود حد قول الحركة أن انتفاضة أبريل ليست سوى تجديد لنظام نميري بقرينة الدور البارز الذي قامت به قيادة القوات المسلحة السودانية في دعم وإنفاذ الانتفاضة في أطوارها الأخيرة. وصار اسم الانتفاضة في أدب الحركة الشعبية هو «مايو٢» ومعناها أننا لم نستبدل مايو نميري ١٩٦٩ إلا بمايو الانتفاضة. وبناءً على هذا التحليل طلبت الحركة من المجلس العسكري الانتقالي العالي، الذي كان مرجع الانتفاضة، بالتنحي عن الحكم. وناشدت الحركة حلفاءها في التجمع الوطني لإنقاذ الوطن، القيادة الشعبية للانتفاضة، بتشديد النضال ومواصلته لإسقاط ذلك المجلس العسكري ذي الأصول المايوية.

ولعل أجرأ ما جاء به الكتاب هو اتفاقه مع القائلين بأن قرنق إنما يريدها حرباً أهليةً لا

تبقي ولا تذر ولن يجنح للسلم أبداً. وهذا اتفاق ذو خطر لأنه يصدر عن لام الذي كان المفاوض الأول عن الحركة منذ دخلها في ١٩٨٦ حتى بارحها في ١٩٩١. ففي قول لام أن قرنق ظل يكرر قناعته من أن القوة السياسية تأتي من فوهة البندقية. وقد وسع من معنى «المناورة السياسية» حتى شملت اجتماعات له انعقدت مع الوطني الاتحادي وزعيمه السيد محمد عثمان الميرغني التي أثمرت وثيقة السلام المعروفة في نهاية ١٩٨٨. وهي وثيقة ينسب لها أهلها الأصالة والصدق وصفاء النية. وقال لام، في معرض نقده لقرنق وعقيدته الحربية الراسخة: «لا يخالطني شك أن قرنق لا يملك برنامجاً للتسوية السلمية للحرب في الجنوب. فقد خلصت إلى هذا الرأي كرئيس لوفد مفاوضات الحركة في مباحثات السلام منذ ١٩٨٨: سواء مع الحكومة أو الأحزاب أو النقابات المهنية. وكان قد سمّى هذه العناصر في حكومة الأحزاب منذ عهد ميثاق الحركة الباكر بـ (الثورة المضادة) و (الصفوة البيروقراطية المبرجزة)».

ورد لام هذا النقص في موهبة قرنق للسلام إلى أمرين. أولهما أن قرنق قد أصبح أسيراً لطموحاته نفسها حتى خاف أن ينافسه عليها المتنافسون. أما الأمر الثاني فهو أنه لم يأت إلى ساحات الحرب بالمؤهل القاطع والتزكية المعلومة. فهو غير مطمئن إلى قبول من هم دونه بجدارته العسكرية. وقال لام أن زملاء قرنق في القيادة العليا، الذين نصروه في صراعه مع السياسيين المدنيين كما رأينا، ظلوا يذكرونه بأنه من اللاحقين لا السابقين في الحركة لأنه جاء مؤخراً إلى ساحة الوغى. فقرنق لم يحضر معركة بور ضد الجيش السوداني عام ١٩٨٣ وهي المعركة المؤسسة للحركة الشعبية كما رأينا أعلاه. كما وصفوه بأنه الجنرال الذي لم يأت بجندي واحد إلى الميدان. وقالوا عنه أيضاً أنه الجنرال الذي لم يقد كتيبةً مقاتلةً في حومة الوغى. وأحرج هذا قرنق. ولذا كان يبذل طاقته القصوى للبرهنة على أنه قائد سياسي وعسكري فذ في آن معاً. فأضحت الحرب عنده شغلاً للنصر لا للتسوية متى ما لاح سبب قوي لها. ولذا كان قرنق يلزم نفسه بحضور كل العمليات الحربية متى ما عنّ له أنها قد تؤدي إلى سقوط مدينة ما. وكان يأتي مدججاً بالعتاد والجند متى ما جاء إلى هذه العمليات ليؤمن سقوط المدينة المقصودة. ولم يكن يكترث للخسائر والضحايا البشرية. وبدا للام أحياناً وكأن الجيش الشعبي لتحرير السودان هو جيشان لا جيش واحد. فقد كان هناك الجيش الشعبي العادي ذو الإمكانيات والمعدات المتواضعة. وكانت هناك، من الجانب الآخر، كتائب القائد العام المدججة ذات التأهيل والإعداد الحسن.

وترتب على انعقاد القيادة السياسية والعسكرية في شخص واحد أن الجانب السياسي والدبلوماسي للحركة الشعبية يتعطل متى ما انشغل قرنق في معركة ما. ومن الجانب الآخر كان العمل العسكري يتعطل متى ما انشغل قرنق في أسفاره المكوكية السياسية والدبلوماسية.

ولعل من أميز ما جاء به لام في نقد استراتيجية الحركة للسلام أيضاً هو قوله أنها تعتصم بشروطها الواجب استيفاؤها من قبل الحكومة قبل أن تشرع في الحديث عن السلام نفسه. فهي لن تتحدث عن السلام قبل أن ترفع الحكومة حالة الطوارئ أو تلغي اتفاقيات الدفاع مع مصر وليبيا، أو تشطب قوانين شريعة الرئيس نميري أو الرئيس البشير. وقد وجد لام في خطاب هذه الشروط نوعاً من أنواع التقاعس عن السلام وقال: «فلم يصدر عن



فى وصف الحالة السودانية

لعل أجرأ ما جاء به الكتاب هو اتفاقه مع القائلين بأن قرنق إنما يريدها حرباً أهلية لا تبقى ولا تذر ولن يجنح للسلم أبداً. وهذا اتفاق ذو خطر لأنه يصدر عن لام الذى كان المفاوض الأول عن الحركة منذ دخلها فى ١٩٨٦ حتى بارحها فى ١٩٩١

الحركة بيان هاد مرشد إلى موقفها من السلم يبين طرائقها فى مقاربة حل مسائل السودان المركزية حتى تنفض يدها عن الحرب وتخلص إلى السلم. والحق أن أمر هذا البيان الهادى لم تناقشه الحركة على أى مستوى من مستوياتها. فالقائد يصر على مناقشة الشروط المسبقة التى تؤدى إلى عقد مؤتمر السلام الموعود بدلاً عن الإمساك بالمسائل التى هى أس النزاع. فهو إذا ناقش هذه المسائل المركزية فإنما يناقشها مع الأحزاب بدلاً عن الحكومة السودانية التى تصادف وجودها فى الحكم. فقرنق لا يريد من هذه الحكومة إلا تنفيذ الشروط المسبقة أولاً. وقد ترك هذا المنهج وغيره من مناهج الحركة فى التفاوض انطباعاً سلبياً لدى المراقبين ألقى ظلاً من الشك عميقاً عن استعداد الحركة الشعبية للسلام».

وجاء لام بملحوظة نبيهة عن جفاء الحركة الشعبية للديمقراطية وعن ثمن ذلك فى أدائها الداخلى والخارجى. فقد لاحظ لام أن كلمة «ديمقراطية» لم ترد أبداً فى ميثاق الحركة التى جرها تمييزها بأنها المنظمة الوحيدة التى ستحرر الوطن الموحد وتحكمه على نهج الاشتراكية. وقد درجت الحركة فى الترويج لاشتراكيتها بإهمال لعنصر الديمقراطية مثلها فى ذلك مثل النظم والأحزاب الشمولية المعروفة فى أفريقيا وغير أفريقيا آنذاك. ويقول لام أن صمت الميثاق عن ذكر الديمقراطية مما يطعن فى اشتراكية الحركة الشعبية ذاتها. ولم يطل مع ذلك صمت الحركة عن الديمقراطية. فقد صدرت عنها بيانات مختلفة تشجب الديمقراطية الليبرالية. ويرى لام أن هذا الجفاء للديمقراطية الليبرالية هو الذى حال دون الحركة ودون الخروج بتحليل واقعى مفيد لانتفاضة أبريل ١٩٨٥. فلم تكن الحركة مستعدة برنامجيًا للحديث إلى الأحزاب الطائفية التقليدية. فهذه الأحزاب هى قوام الجماعة التى وصفتها الحركة بالصفوة العربية المبتذلة المتبرجزة، التى يقع لها الحكم والسلطان عن طريق الانتخابات متى ما استردت البلاد نظاما ديمقراطياً ليبرالياً من براثن نظام عسكرى. وهذه حقيقة لا سبيل دونها بدفن الرؤوس فى الرمال إلا بثمن سياسى فاجع. وقد كان فرع الحركة الشعبية بالخرطوم، الذى كان لام من قادته، قد لفت انتباه قيادة الحركة العليا لمراجعة موقفها من خصام الأحزاب الطائفية التقليدية. واستمعت الحركة للقول واتبعته وأخذت تتعامل مع الأحزاب التقليدية. وقال لام أن انتفاضة أبريل، التى ازدرتها الحركة أول مرة، هى التى حلت عقدة لسان الحركة المزمنة عن ذكر الديمقراطية الليبرالية. فاصبحت الحركة تلهج بذكر هذه الديمقراطية، وتنتمى إليها، وتزعم أنها تدير شئونها، كجماعة سياسية، على هدى مبادئ هذه الديمقراطية. وفخرت الحركة بأن قراراتها لا تصدر إلا بعد نقاش مستفيض طويل فى خلاياها وإطاراتها. وهذا بالتحديد ما زعمه قرنق فى رسالته للسيد الجزولى دفع الله، رئيس وزراء حكومة الانتفاضة، رداً على رسالة كان تسلمها منه. وجاء هذا التوضيح فى معرض تبرير قرنق لتأخير رده على رئيس الوزراء. ولم يكن زعم قرنق عن ديمقراطية حركته صحيحاً. فقد كان معلوماً لكادرات الحركة أن قول قرنق للجزولى قول مجانب للحقيقة لخلو الحركة من كل إطار سياسى سوى القيادة العليا التى هى دمية فى يد قرنق. فلم تكن تعرف عن خطاب الجزولى لقرنق هذا حتى جماعة فى القيادة العليا نفسها التى لم تجتمع أبداً لمناقشة الخطاب. ولم يرد قرنق على الجزولى إلا بفضل إلحاح السيدين مارتن مانيل والطاهر بيور. وكان تأخر رد قرنق على الجزولى تباطؤا مقصودا، وهذا سبب بعيد عما روج له قرنق عن الحركة وديمقراطيتها. وقد حمل رد قرنق شروطه للتفاوض مع الحكومة وهى الشروط المعجزة التى يعتقد لام أن الحركة قد تورطت فيها وظلت تحملها بشكل عقيم من مائدة مفاوضات مع الحكومة إلى أخرى كما تقدم.

منذ أن وطئت أقدام لام الحركة الشعبية وجد نفسه داخلاً فى عالم قرنق الكافكى. فقد جعله قرنق عضواً بالقيادة العسكرية العليا فى لمح البصر حتى قبل أن يتلقى التدريب العسكرى المقرر. وأعجب من ذلك أن قرنق، أو أى قيادى آخر، لم يبلغه بهذا الترفيع المفاجئ. وقد تلقى لام التهنئة على هذه الترقية من أحد ضباط الحركة وفى حضرة قرنق. وكان هذا الضابط قد سمع النبأ فى إذاعة الحركة. ولم يجد قرنق بداً من أن يمد يده للام بالتهنئة قائلاً «مبارك، طالما أصبح ترفيعك معلومةً عامةً الآن». وكانت هذه خطوة لام الأولى فى عالم قرنق الكافكى. فقد ظل شاغله أن يعثر على هذه القيادة العسكرية التى تمّ ترفيعه لعضويتها. فقد بحث طويلاً عن دستورها ولوائحها الداخلية ولم يوفق إلى شىء من هذا حتى خرج من الحركة. ولم يسمع عن هذه القيادة إلا ما يترامى إليه وهو فى الجبهة أو المؤخرة عن اعتقال بعض أعضاء القيادة العليا مثل كاربينو، نائب القائد العام، وأروك.

وتكمن تراجيدية موقف لام فى أنه اختار هجرة بيئة سياسية واجتماعية فى الخرطوم تميزت بليبرالية نسبية، على عنتها العظيم، إلى الحركة الشعبية طمعاً منه فى صحبة رفاقية لتغيير ظلم الجنوبيين بقوة وبالقوة. وخاب ظن لام ووجد نفسه حبيس عالم قرنق الكافكى. وما بكيت من شىء إلا بكيت عليه. لقد جاء لام أكول من بيئة نقص الحرية فى الخرطوم ليجد أن الحركة الشعبية هى بيئة للإجهاز على الحرية. فلم يمنع عنت بيئة الخرطوم ومصادراتها العرقية لام من أن يكون له مقبض عليها، ورأى فيها، وصحبة ماجدة فى فعل تغييرها كما هو واضح فى دوره القيادى المرموق فى انتفاضة أبريل ١٩٨٥. ظن لام أنه سيستثمر الكفاءات والمواهب والصنائع التى استفادها من بيئة نقص الحرية فى الخرطوم ليغنى ويثرى بيئة الحركة الشعبية التى هى ملاذ الخلاص الجذرى لجنوبى مثله مشغول بحالة أهله. فآيات إحسانه وانضباطه فى الحركة الشعبية، كما جاءت فى كتابه، هى بعض مهاراته كأكاديمى ونقابى وسياسى فى المجتمع المدنى السودانى. كان قرنق قد دعاه إلى الانضمام إلى الحركة فى بداياتها فلبى لام النداء. وكلفه قرنق بالبقاء فى الخرطوم حيث هو ليروج للحركة ويجند لها خيرة أبناء وبنات المناطق المهمشة وغير المهمشة فى الوطن. وأبلى البلاء الحسن فى هذه المهمة حتى لفت النظر إليه فاعتقل اعتقالاً أضطره إلى الهجرة إلى الغابة بعد الإفراج عنه.

جاء لام إلى مكتب الحركة فى أديس أبابا فوجده خلواً من أى نظام متفق عليه لفهرسة وثائق ومكاتبات الحركة ومسك دفاترها. فساءه هذا النقص فانكب على مهمة الفهرسة وانجزها فى أقل من أسبوع. كما حمل خبراته هذه إلى مائدة المفاوضات فى صلاحيته كرئيس لوفود الحركة التى جلست إلى وفود أخرى من حكومة السودان كما حمل كفاءاته هذه إلى المؤتمرات الأكاديمية، التى مثل فيها الحركة، أو فى مهامه لإعادة تنظيم هيئة الإغاثة والتنمية والإنتاج بالحركة، أو فى التحقيقات التى قادها حول إهمال فى الأداء أو فى البطش بأموال الحركة. وكان حضور خبراته الأكاديمية والنقابية ساطعاً فى كل هذه الأداءات. كانت له أذن يقظة تلتقط دقائق النبض السياسى ويد كالنول تغزل خيوط التعاطف مع الحركة. وقسم الملاحق من كتاب لام، الذى شغل ١٠٢ صفحة من كتاب ذى ٤٣٠ صفحة، شاهد على هذا الحضور. وقد حوت الملاحق الرسائل المتبادلة بالراديو بين الكاتب وقرنق وبقية أفراد القيادة، وبعض خططه العسكرية ومشروعاته لإصلاح الخطا التنظيمى فى الحركة، ووثائق المبادرات المختلفة التى ساهم فيها لحل النزاع السودانى. إن حرصه على حفظ هذه الأوراق لخمس سنوات من حياة مترحلة بين الغابة والحضر، وبين الجبهة والمؤخرة، لتعكس حسا بالتاريخ مرغوبا فيه فى الكادر السياسى وتدريباً حسناً فى الولاء للوثيقة.

ومع انضباط لام فى تنفيذ المهام الموكلة له فهو لم يتخل عن عادة التفكير فى بواعثها وسياقاتها ومآلاتها وملاءمتها لظرف الزمان والمكان. فهو لم ير مثلاً فى اتفاقية السلام مع السيد محمد عثمان الميرغنى زعيم الحزب الاتحادى ١٩٨٨، التى سار بذكرها الركبان، سوى طبعة ثانية أو متأخرة لاتفاقية كوكادام التى وقعتها الحركة فى عام ١٩٨٦ مع سائر الأحزاب والمنظمات السودانية خلا حزب السيد محمد عثمان الميرغنى. وبدا للام أن السيد الميرغنى قد احتاج لاتفاق مع الحركة إثر خلافته اللاحقة مع الأحزاب التى ائتلف معها أو اختلف حول كراسى الحكم. ومن ذلك أن لام سمع قرنق يتحدث عن تكوين حكومة جنوبية بعد معركة ما ضد الحكومة فخطر له مباشرة بؤس الفكرة لأن القائد لم يطلع أحداً من القيادة العليا على نيته المبتكرة هذه.

غير أن عادة الولاء للخاطرة، والثبات عند انثيالها، والصبر على تبعتها، هو طبع لم تأذن به عقيدة الزعيم ضاربة الأطناب فى النظم الحديثة فى السياسة السودانية. وهى عقيدة ستالينية المناطق الحارة التى جمعت بين أسوأ ما فى البطريكية التقليدية وطقوس عبادة الفرد فى أحزاب الماركسيين وأشياعهم. ولما حاربت أحزابنا الخاطرة صوحت وهجرت أذكى الطيور سربها. ولم يبق فيها إلا الفدم وصاحب الحاجة الأرعن والمرجئة الذين عطلوا نقد حركتهم خشية أن يفيد منه العدو وما دروا أنه يتسرب من ثقوب الصمت و التواطؤ. وتأخرت بذلك تنشئة عادة الديمقراطية فى قصورنا المشيدة. فقد رأينا لام يلح بخاطر ديمقراطى على تقنين سلطات وإجراءات وأحكام ونظم القيادة العسكرية والسياسية العليا، مركز الحركة وعصبها. ولم تستبن الحركة إلا ضحى الغد. فقد كونت القيادة لجنة فى اجتماع توريت، الذى انعقد خصيصا لإدانة خروج لام على الحركة، لجنة لذلك التقنين بمقتضى القرار رقم ١٦ الصادر ضمن قرارات أخرى لحصر الانقسام وضبطه. وهكذا لا تصفى النظم السياسية عندنا لأهل الخاطرة النافذة فيها إلا بعد رحيلهم عنها، وفى سياق الالتفاف على مظالمهم منها وتهوين شانها. ولا غرابة أن غاض ماء البئر فى حين ظلت القصور ألا نفاد لها.

الكتاب الثانى فى الجنس الكتابى «وخرجوا بغصة منه» هو كتاب نزاع السودان للسيد محمد هارون كافى الذى خرج على الحركة الشعبية وقيادة قرنق فى جمهرة من رفاقه من شعب النوبة فى عام ١٩٩٦ ووقع اتفاقية للسلام مع الحكومة عام ١٩٩٧. وكان كافى فى السبعينيات فى طليعة الباحثين فى الثقافات غير العربية. وجعل ثقافة شعب النوبة، أهله، الذين يسكنون وسط غرب السودان، شغله. وأصدر كافى كتاباً حسناً عن أدب هذه الجماعة هو كتاب الكجور. والكجور هو العراف بين النوبة. وترافقت عناية كافى بثقافة أهله بانشغاله بهامشيتهم السياسية. وكان فى طليعة الجهود التى سبقت انتفاضة ١٩٨٥ واتصلت بعدها لتعبئة قوى الريف فى تحالف سياسى عريض. وكان من بين من رأوا وعد الانتفاضة لأهالى الأطراف يتبدد بعد عودة الأحزاب السياسية التقليدية وغير التقليدية، المتهمة بالزيغ الثقافى العربى، إلى سدة الحكم.

وستجد فى انجذاب كافى للحركة الشعبية ١٩٨٦ ذلك السحر الذى سرى من ميثاق الحركة إلى أفئدة وعقول أبناء وبنات القوميات غير العربية. فقد توافقت نفس كافى مع دعوة

الميثاق إلى الحرية والاشتراكية ووحدة السودان الديمقراطي وشجب الحزبية، التي هي عبارة أخرى عن سيادة الثقافة العربية والإسلامية وحملتها على مصائر البلاد. وبقي كافي وغيره في الحركة حتى خرجوا منها بغصة بعد أن سرتهم أول الأمر. فقد أخذ كافي في كتابه على الحركة أنها، برغم إلحاحها لفظاً على كونها منبراً لكافة مهمشي البلاد، إلا أنها ظلت تغلب المشكل الجنوبي على ما عداه. وترتب على ذلك أن أصبح معذبو الأرض كشعب النوبة منفيين في الحركة الشعبية نفيهم عن مركز السلطان الحكومي. وليس أدل على ذلك من قرار الحركة الشعبية ضم منطقة ابيي، التي هي عظمة نزاع طويل بين الشمال والجنوب، إلى الإقليم الجنوبي بغير استشارة أبناء إقليم كردفان، ومنهم النوبة، الذين يعدون ابيي جزءا من إقليمهم. كما لم تعتن الحركة بالسوية في تمثيل كادر النوبة في مؤسساتها بما يتناسب مع وجودهم الغزير بين مقاتلي الحركة حتى قال كافي أنهم بلغوا بين ٦٠٪ إلى ٨٠٪ من عدد جيش الحركة الذي قاتل في إقليم الاستوائية وانتصر على الحكومة في مواقع معلومة.

ولم تحسن الحركة الشعبية لكادر النوبة عن وجوه أفحش كثيراً مما ذكرنا. فقد أبعدتهم إلى القتال في جبهات للحرب بعيدة عن أهلهم. وكان من المبعدين هؤلاء كافي نفسه. وكانت الحركة شديدةً في ضبط كادر النوبة. فقد قتلت المرحوم يوسف كندة كودى وهو يحاول العودة إلى جبال النوبة. كما جرت تصفية القائد المناوب عوض الكريم توتو تيه وآخرين اتهمتهم الحركة بالميل للام أكول ومشار، اللذين شقا عصا الطاعة على قرنق عام ١٩٩١. وقد جرى تعذيب لهؤلاء المتهمين بمشايعة العصاة بعد أخذهم في رحلة طويلة من جبال النوبة إلى حدود السودان الجنوبية لمحاكمتهم. وجاء كافي في كتابه بقائمة من ٤٣ اسماً من النوبة وعرب إقليم كردفان ممن صفتهم الحركة الشعبية. وقال كافي أن أطفال النوبة الجنود كانوا بمثابة «مخزون استراتيجي» يدفع بهم قرنق إلى حومة الوغى متى تراخى كبار النوبة عن خوض الحرب.

أما كافي نفسه فقد تجرع ويلات عالم قرنق الكافكي وشقي بعشوائيته. وهو عالم في بؤس رد الجميل. فكثيراً ما وردت في كتاب كافي مثلاً الجملة الاعتراضية «كان فلان يقول انه أخلص الناس لقرنق ولكن اعتقله قرنق فيما بعد». وشقي كافي بغلظة ذلك العالم. فقد التقى يوما بجماعة من رفاق الحركة على ظهر عربة ما في موضع ما. وقد استرعى انتباهه أنهم سألوه عن الأحوال والأهل من حيث جاء هو بلهفة وسرعة. واكتشف مؤخراً سر سرعتهم. فقد كانوا رفاقاً معتقلين مرحلين بواسطة الحركة. وانتهزوا فرصة لقائهم العابرة بكافي للسؤال عما أرادوا السؤال عنه بسرعة فلربما تحركت العربة قبل أن تنفد أسئلتهم.

وشقي كافي بزبانية عالم قرنق الكافكي، فقد اشتهر الضابط بول مادوت، قائد منطقة ومعتقل جبل بومة، بالشدة. وكان يحشر معتقليه في زنزانة هي عبارة عن حاوية جوها ساخن ولا دورة مياه فيها. وكان مادوت يقرأ الخطابات التي ترد للمعتقلين قبل تسليمها لهم. غير أنه كان طريفا أحياناً. فقد طلب من كافي أن يأخذ له صورة وهو يتوسط خرافه ونعاجه الطليقة.

وبقيت في خاطر كافي بعض وصايا الضحايا عالم قرنق الكافكي. فقد رأى كافي السيد جوزيف أدوهو، من آباء الحركة



في وصف الحالة السودانية

كان قرنق يبذل طاقته القصوى للبرهنة على أنه قائد سياسي وعسكري فذ في آن معاً. فأضحت الحرب عنده شغلاً للنصر لا للتسوية متى ما لاح سبب قوي لها. ولذا كان يلزم نفسه بحضور كل العمليات الحربية متى ما عنّ له أنها قد تؤدي إلى سقوط مدينة ما

الجنوبية، في معتقل بومة. وقال عنه أنه قتل في آخر الأمر «في ظروف معتمة». وانتهز أدوهو سانحة لقائه بكافي ليستودعه وصايا وحشة وصقيع المعتقل. سأل كافي عن زوجته التي كانت تقيم باديس أبابا. ووصاه أن يذهب إليها ويطلب منها أن ترسل جوارب صوفية طويلة وغياراً ومذياعاً صغيراً. كما سأله أن يطلب من ابن أخيه أن يرسل له بطانية. والتمس أدوهو من كافي أن يذهب إلى مدينة كبيوتا ويلتقي السيدة روز، زوجة أخيه، وأن يقول لها أنه بخير. واستمع كافي إلى وصايا آخرين من ضحايا الحركة. فقد حمّله البروفسير بول أنادي أنيو، الذي خرج على الحركة ومات في معارك خاضها ضد جيش الحركة، رسالة إلى زوجته الأمريكية التي تدرس الأدب الإنجليزي بولاية نيويورك.

لقد نعى كافي الصدق الثوري في الحركة. فقد تبددت الزمالة وخلقها في الحركة من جراء العالم الكافكي الذي سادها. فقد حزّ في نفس كافي أن يتأخر الدكتور منصور خالد والسيد ياسر عرمان عن التوسط لدى قرنق لإطلاق سراح صديقهما الصدوق أروك تون. كما اختطفت الحركة الدكتور كارلو مادت من قطر مجاور وأخذته إلى حدود السودان، وقيده رفاقه وربطوه بحبل إلى حجر ورموه في بحر الجبل. وحكى كافي عن كيف تقمص حرس قرنق دور البوليس الكيني وألقوا القبض على أروك تون، العضو الأصيل بالقيادة العسكرية العليا للحركة الذي اعتقل في ١٩٨٨ حتى هروبه من السجن في ١٩٩٣، في منزله في مدينة نيروبي. ولم يشفع له إلا تدخل البوليس الكيني الذي كان يراقب حرس قرنق، فتدخل، وعاد باروك إلى داره.

وعاش كافي عالم قرنق الكافكي في خاصة نفسه. فمنذ أبعد من جبال النوبة، دار أهله ومرتع غضبته السياسية، في عام ١٩٨٠ أصبح في حال «ملطشة» من المهام. فقد نصبته الحركة خبيراً ثقافياً غير أنّ المهام التي أوكلت إليه كانت باباً في الكيد له وسبباً لإقصائه. فبعد تكليفه بمراسلة الصحف الاشتراكية والثورية بأخبار الحركة ووجهاتها لم يمكث كافي سوى أيام معدودة في الوظيفة ليؤمر بليل ليمتطي عربة متحركة إلى موضع آخر ليؤدي مهمة أخرى. وبعد تحويله إلى مركز البحوث، الواقع في حيز مسئولية القائد العام، تلقى إشارة للذهاب إلى دار قبائل بعينها في إقليم الاستوائية ليدرس أوضاعها الاجتماعية. وهي قبائل لم تجد الحركة بينها موطئ قدم وكان يجري وصفها عند كادر الحركة بـ «التوحش» جرياً على عادة الإنجليز. وقد بدا لي كافي هنا في حذاء الأنثروبولوجي الاستعماري الذي كان يوفد ليدرس ديناميكية العصيان عند البدائيين حتى يتسنى للاستعمار، بفضل مثل هذه الدراسة، كسر شوكة مقاومتهم وترويضهم على قبول حقيقته. وتشكك زملاء لكافي في طبيعة هذه المهمة الأخيرة وخشوا عليه من خاتمتها. فقد قال له زميله يونس أبو صدر «اذهب وقدنا أين أنت. فستتحرك إن حدث لك مكروه». ولم ينتظر أبو صدر هذه الإفادة من كافي الذي قال «وكانت المقادير فقد اغتيل أبو صدر قبلي».

الفصل الرابع من كتاب نزاع السودان قطعة روائية غراء ضلت سبيلها إلى هذا السفر السياسي. فالفصل عذب جداً لأنه ثمرة خبرة واستثمار روحي شفيف طويل لكاتب مطبوع. فقد خبر الكاتب الحرب الأهلية، وهي أفحش الحروب، عن كثب. فالحرب الأهلية حرب إخوة. وعلى بشاعتها، فهي أيضاً ساحة إلفة وتعارف لهؤلاء الإخوة الأعداء واكتشاف عسير لمسارب هذه الأخوة التي لا تبدو للعيان. والحرب في كتاب كافي هي ما علم وذاق «وما هو عنها بالحديث المرجم». فمن مفاجآت هذه الأخوة الدفينة ما رواه كافي عن الجنوبي الذي استغرب لوجود شمالي من جند الحركة ذي لون «متقاوى» بين محاربين سود. ولم يجد الجنوبي ما يصف به زميله المحارب الشمالي إلا بقوله «أنه يشبه أسرى الحرب». فلم يعرف هؤلاء المحاربون السود من الشماليين إلا الخصوم في جيش الحكومة. وما كانوا ليقتربوا من هؤلاء الخصوم إلا حين يقع الواحد منهم أسيراً في قبضتهم. وهذه صورة عجيبة في جدل الألفة.

لا أذكر أنني قرأت مؤخراً شيئاً في كثافة وعبثية الصورة الأدبية مثل وصف كافي لنهر الباروا في أثيوبيا الذي عبره «داخل أكمة ملأى بالقرود والظلال». ولم يقع لي قريباً وصف في الاستثناء له طرافة وصف كافي لأحد المقاتلين في الحركة الشعبية. كان الرجل من شعب التبوسا الجنوبي وهذا شعب من العراة لا تخجلهم دون العري فكرة الستر وقد تستهويهم الملابس فيختارون منها ما يروقهم دون اشتراطهم الستر. وكان الرجل رائدا في جيش الحركة الشعبية وقد ارتدى بدلة وضع عليها علامة رتبته العسكرية وبقي في ماعدا ذلك عارياً كما ولدته أمه. قال كافي عن الرجل، وقد رآه يوماً، أنه «ظل يسير عارياً تماماً سوى من غنائه العالي المصاحب مشيته عبر الجو الساخن».

تمط الحرب الواقع مطاً لم يخلق له وتدمجه بالخيال دمجاً لا يتوقعه أحد. وحكاية كلاب مدينة توريت الجنوبية مثل على هذا الهجين المفاجئ من الواقع والخيال. فقد وصف كافي كيف اتفق لهذه الكلاب عادة جديدة من فرط الحرب وطولها. فإذا جاء النهار، وهو موعد قصف طائرات الحكومة للمدينة، تنادت الكلاب واجتمعت وهجرت المدينة ولاذت بالغابة. وكانت تعود إلى البلدة ليلاً حين يتوقف قصف الطائرات. وكان تنادي الكلاب لهجرة المدينة عويلاً فاجعاً. وكانت تعود في المساء بنفس النشيج الفاجع. فتامل.

يستمد هذا الفصل البديع في الكتاب نفسه الروائي من استثمار آخر في مؤسسة الحرب الأهلية. فقد أودع شماليون تقدميون، من الناقمين على استعلاء قومهم وظلمهم للجنوبيين، أملهم في حالة سودانية مستقبلية مثلى بالانضمام إلى جيش التحرير في الحركة الشعبية. وأخذهم هذا القرار إلى الغابة الجنوبية الاستوائية التي وصفها كافي بأنها «عديمة اللغة العربية». وحمل هذا الرعيل الشمالي عادات التقدميين الشماليين في الزهادة ومحبة الشعر العربي والقراءة إلى «خط تقسيم المياه (الاستوائي) حيث الأدب العربي بعيد». وروى كافي عن أحدهم الذي احتفظ بمقال لكاتب مغربي لسنوات خمس منذ انضمامه للحركة في ١٩٨٧. وقد أظهره لكافي وآخرين في قلب الغابة عام ١٩٩٢. وكان هؤلاء النفر من الشماليين المحاربين إذا خلوا تجاذبوا أطراف الشعر وبخاصة شعر الأستاذ محجوب شريف ذي المزاج الثوري الأنيق. وكان كافي يترجم النصوص إلى الإنجليزية لفائدة من لا يحسنون العربية.

نشأت من سانحة هذه الهجرة الشمالية إلى الجنوب نصوص هجين غاية في اللطف والدلالة. وقد عرّف هومي بهابها، الكاتب الهندي، النصوص الهجين، التي تنشأ في خلطة الثقافات، بأنها نصوص «مقردة mimicry» بقرينة المحاكاة. فمفردات ثقافة ما تلتبس بمفردات ثقافة أخرى، يقتحم واحدها الآخر، وتتوالد بصورة عشوائية يضحك لها الناس. وأكثر ما يضحك الناس ربما هو أن هذه النصوص، لفرط هجنتها، تزهد الناس في الصفاء الثقافي الذي يزعمونه أو يشتهونه. فقد فوجئ كافي يوماً بأن الغابة الاستوائية الوثنية، التي تعبئ الحكومة الطاقات لأسلمتها وتعريبها في زعم الخصوم، قد شهدت بأن لا إله إلا الله حتى قبل أن تحيق بها الهزيمة المرجوة. فقد سمع كافي شجار امرأتين من الجنوب تبادلتا فيه عنف اللغة والنعوت. ثم فجأة قالت إحداهما للأخرى، وهما ما تزالان في عنف الشجار، «بسم الله الرحمن الرحيم». وسيكون مثيراً أن يعرف المرء لماذا احتاجت هذه المرأة غير المسلمة إلى البسملة في السياق والزمان والمكان.



فى وصف الحالة السودانية

جاء لام أكول من بينة نقص الحرية فى الخرطوم ليجد أن الحركة الشعبية هى بينة للإجهاز على الحرية. فلم يمنع عنت بينة الخرطوم ومصادراتها العرقية لام من أن يكون له مقبض عليها، ورأى فيها، وصحبة ماجدة فى فعل تغييرها كما هو واضح فى دوره القيادى المرموق فى انتفاضة أبريل ١٩٨٥

ومن أنماط المقردة فى حرب الإخوة ما رواه كافى عن ما جرى لكمال الوسيلة وهو من الشماليين الذين التحقوا بالحركة. فقد ساله يوماً ولسن كوور، الجنوبى الذى درس بالشمال وعمل فى الجيش السودانى حتى صار ضابطاً ثم انضم إلى الحركة، قائلاً:

- أنت قلت اسمك منو؟
- كمال الدين الوسيلة.
- الوسيلة ولا الوسيطة؟
- الوسيلة.
- أنت عارف اسمك الوسيطة مش الوسيلة.
- لكن أبوى اسمه الوسيلة مش الوسيطة.
- اسم الوسيلة دا ما حصل سمعت بيهو. أنت اسمك كمال الدين الوسيطة مش الوسيلة.
- يا عم ولسن أنت عارف لو أبوى سمع اسمو ذى دا بعدين يزعل.

وضحك الحضور بما فيهم كوور وكمال. لقد احتاج كمال آن يستل الصواب من غمده الشمالى ليرد غائلة هذا التصحيح الجنوبى الجزافى على عقبيه.

وظل كمال الوسيلة، وليس الوسيطة، فى مهجره الاستوائى نهباً لهذه النصوص الهجينة. ولم يكن دائماً هدفاً لها. فقد كان هو البادئ أحياناً. من ذلك ما رواه كافى عن حكاية كمال مع مارجريت الشايقية. وهذا الاسم، مارجريت الشايقية، نص مقردة فى حد ذاته. فقد نسب النص مارجريت، وهى جنوبية، إلى شعب الشايقية وهم قوم شماليون فى أقصى الشمال. وقد قال كافى أنه لايدرى لماذا نسبت مارجريت إلى الشايقية الذين ينعى عليهم حتى أهل الشمال دهاءهم وطويل حيلتهم فى بلوغ المارب. وتجرى قصة مارجريت والوسيلة على هذا النحو. جاءت مارجريت نحو عربة توقفت عند حيّهم وكان بالعربة الوسيلة وصحبه من الحركة الشعبية. وكانت العربة محملة بخيرات الاستوائية من موز ومانجو. قالت مارجريت للوسيلة:

- ادونى موز معاكم.

فرد الوسيلة:

- أنت عندك ولد؟
- لا. أنا لسه ما ولدت... ليه؟
- الموز دا بدوه للمره العندها ولد.
- ولو ما ولدت؟
- ولو ما ولدت يونسوها. يونسوها لحد ما تلد بعدين يدوها موز.

لقد استدعى الوسيلة هنا كلمة «يونس» التى هى «يؤنس» فى لهجة عرب السودان. غير أنها أضحت تعنى فى مصطلح الجنوبيين، الذين استلفوا الكلمة، الفعل الجنسى أو الجماع. ويبدو أنّ إيحاءات الوسيلة الجنسية أغضبت مارجريت فنادت كافى وسالته عن اصل الوسيلة وفصله فقال كافى:

- هو من (مدينة) شندى (أى جعلى وهم شعب من الشمال) معانا فى الحركة.
- الزول دا هو ذاتو برجوازى.

وضحك كافى لما رأى النص الذى استمع إليه قد ازدحم بما فوق طاقته من الثقافات بما فى ذلك الثقافة الماركسية التى كانت سادت ثم بادت فى الحركة الشعبية كما رأينا فيما تقدم.

إن النصوص التى استعرضناها استثمار سودانى فريد جمع فى هجنة تراجيدية اقباساً عربية و إسلامية افريقية وماركسية عبر سد حشائش النيل المعروفة التى حجبت الشمال عن الجنوب حيناً طويلاً، وعبر حبائل الاستعمار الذى عمق الفجوة بين شقى القطر، وعبر عنجهية النظم المركزية السودانية بعد الاستقلال التى زادت الطين بلة. وقد أينعت هذه النصوص فى حنايا الغاب الجنوبى بفضل الحركة الشعبية. ولا يتفاءل المرء بان هذه النصوص الذكية ستفضى بنا إلى الوطن الهجين الجميل. فالحركة الشعبية التى أذنت بميلاد هذه النصوص قد كسدت فيها الحرية التى هى شرط نماء هذه النصوص ووعدها وخيرها. و يكفى أن كافى الذى نقل لنا خبر هذه النصوص قد آثر أن يغادر الحركة من فرط غلظتها وانسداد دروبها فى وجه الحق حتى صارت حركة تنزف شجاعة وتغيب عنها الحكمة.

خاتمة

هذه كتب عن الغصة التى تجرعها هؤلاء الكتّاب فى تنظيم سياسى أودعوه حلمهم فى وطن مغاير وخاطروا بحياتهم فداء له وهو فى رحم الغيب. وقد رأيت فيها حجراً يرمى فى ماء البئر المعطلة لتجديد النظر وإعمار القصر. وسينتقص من فعل هذه الكتب المرجو فى الإصلاح ان نلقاها باللعن او بالتبخيس من فرط تعلق بعضنا بما وجدّ عليه الآباء. وقد ناش اللعن والاتهام أصحاب هذه الكتب لدى خروجهم من الحركة الشعبية. فقد لعن المطران مكرم ماكس، مطران كنيسة النوبة، الجماعة النوبية التى خرجت من الحركة الشعبية، ومنها محمد هارون كافى، وابتهل فى صلاة جامعة إلى الله أن ينزل بهم عذابه. وكاد اليساريون والعاطفون الشماليون على الحركة الشعبية، من جهة أخرى، للام أكول اتهموه بالتخاذل عن رفاق الحركة و ببيع القضية رخيصة لحكومة البشير. وقد أزعج هؤلاء اليساريون والعاطفون تجديد لام وصحبه لمسالة انفصال الجنوب عن السودان بطرحهم لمبدأ تقرير المصير للجنوبيين. وهو مبدأ هدتهم له قناعتهم باستحالة عيش الجنوبيين فى نظام كنظام دولة الإنقاذ التى لا يرونها نشازاً، كما يراها خصومهم الشماليون، بل مرحلة أعلى فى مشروع أسلمة وتعريب السودان. وهو المشروع الذى يعتقد الجنوبيون انه لم تتعفف منه حكومة سودانية واحدة منذ الاستقلال فى ١٩٥٦.

وكان التقدميون قد انتهوا إلى تكفير كل داع إلى انفصال الجنوب. فقد اعتقدوا يوماً فى هذا المبدأ الجميل والتزموا به وعطلوا كل اجتهاد آخر برغم المشاهد من نزيف والتواء حال السودان من جراء الحرب الأهلية. وقد استهوى قرنق هؤلاء التقدميين لأنه ظل يلح على الوحدة. هى وحدة مشبوهة فى نظر خصومه لأنها فى رأيهم لن تقع إلا بشروط قرنق وتحت زعامته. وأكثر ما أغرى التقدميين فى الحركة الشعبية هو طلبها لوحدة السودان. وهذا رصيد سياسى يعول عليه التقدميون. فحجتهم على علمانية الدولة تقوم على تنوع السودان الثقافى والدينى والعرقى. فإذا انسحب الجنوب عن السودان ضعفت هذه الحجة و أضحى دعاة العلمانية فى قلة وتخطفهم حزب تديين الدولة وهو حزب كبير.

يبدو أن من خرجوا من الحركة الشعبية قد لقوا الأمرين من التقدميين حتى سماهم كافى فى كتابه بـ «التقدميين جزافاً». وسيجد القارئ سوء كيل التقدميين والعاطفين على الحركة الشعبية للام أكول وصحبه فى كتاب الدكتور منصور خالد المعنون نداء من أجل الديمقراطية فى السودان الذى هو الطبعة الثانية المنقحة المزيدة لكتابه المعنون جون قرنق يتحدث (١٩٨٧).

وهو كتاب خال من المروءة لكاتب ما انفك يسالنا نحن السودانيين الشماليين بالتحلى بعمق الذاكرة فى مواجهة ما أسماه بعارنا السياسى حيال الجنوب حتى نقوم اعوجاجنا الثقافى والتاريخى بشجاعة. فقد تفادى الكتاب الذاكرة المشوبة وراء خروج لام ومشار من الحركة الشعبية. وانحدر إلى دركٍ معلوم فى تنزيه الزعيم، العقيد قرنق، عن المماثلة والتحدى من مثل ما كان ينشر عن الزعيم كيم ايل سونغ فى إعلانات شغلت الصحف العربية والأجنبية دهراً طويلا. فقول منصور أنّ انقسام لام ومشار لم يهز جنان قرنق الذى ظل «ثابتاً على دفة المركب» هو من دارج أدبيات كيم إيل سونغ. وقد استنكر منصور على لام ومشار الحديث عن الديمقراطية بينما يعرف القاصى والدانى فخرهما بيساريتهما وأن من عصبتهم من كان يفخر بماركسيته الفاقعة على الملأ. وهكذا أوقع منصور طلاقا بائنا بين اليسار والديمقراطية على أنه غير مأذون فى هذا الفقه. واعتذر منصور عن تجاوزات الحركة بقول رديد عن حرج الظرف ومقتضيات الكفاح. وقال عن تجاوزاتها لحقوق الإنسان فيها بأنها من المقدور أن تقع فى حركة هى حزب وجيش ولا يجوز عقلاً أن تمتحن بمعايير عالمية إنسانية لحقوق الإنسان. وجاء منصور بحكاية «دموع التماسيح» التى لا يصح تبخيس إنسان بدونها. فقد استغرب لاحتجاج لام ومشار على خروق الحركة للحقوق الإنسانية ووصف تباكيهم عليها بأنها دموع تماسيح. وقال أنه حتى الحكومة السودانية ذات السجل المعروف فى تجاوز حقوق الإنسان قد سبقتهم إلى هذا التباكى. وكان بكاء أناس مما يلغى مشروعية بكاء أناس آخرين. وجاء منصور بحكاية «الأجندة الخفية» التى لا يصح تجريد إنسان من حق النقد بدونها. فقد انتهى إلى القول بأن لام ومشار من ذوى الأجندة الخفية الخائنة التى انطوت على هجر الكفاح واستسلام للعدو يدفعهم إلى ذلك مزيج مرتجل من اليأس والطموح الفطير. وهكذا لم يبق منصور مفردة من مفردات أدب التخوين اليسارى إلا واستدعاها ليستاصل شأفة الدوائر التى تحركت فى بئر الحركة المعطلة بفضل ذاكرة وشجاعة لام ومشار.

أكثر ما يفجع المرء فى كتاب منصور ما يراه من تكذيبه للام ومشار تكذيباً جامعاً مانعاً. فقد جعل من ثقته فى الزعيم قرنق وبيعته للحركة الشعبية سداً دون أن يسترق السمع إلى شكاة الرجلين عن ظلم الزعيم والحركة لهما. فقد عطل منصور بهذا آلة المثقف فيه، وهى استصحاب الذاكرة على علاتها بشجاعة، ليدين الخارجين بنص وحرف مقررات مؤتمر مدينة توريت لعام ١٩٩١ الذى عقدته القيادة العسكرية العليا برئاسة قرنق خصيصاً لمحاصرة الانقسام والسيطرة على آثاره. وهذا تاليف تعودنا عليه فى الكتاب المعروف عن تاريخ الحزب الشيوعى السوفيتى الذى ما كانت تصدر منه طبعة جديدة إلا فى مناسبة فراغ الزعيم من نصر مؤزر على أهل الزيغ والضلالة والنفاق فى حزبه.

ربما أتاح مرور مياه كثيرة تحت جسر انقسام لام وكافى على الحركة الشعبية، أن تقرأ الحركة، وكادرها وجهازها القيادى بوجه خاص، هذه الكتب التى استعرضناها فى كلمتنا هذه كجزء لا ينفصل عن ذاكرتها لا ذاكرة مضادة لمن ساءت نيتهم وارتعدت فرائصهم فباعوا القضية قبل صياح الديك. هذا إذا أرادت الحركة الإصلاح لقوامها والإحسان فى أدائها بتحريك بئرها المعطلة حتى تتسع للنقد من حيث جاء كما اتسعت للثناء والبروبجندا. فهذا سبيلها الذى لا سبيل غيره لتجدد ولاء الكثيرين الذين أقبلوا عليها من خمول الهامش السودانى ثم ارتدوا عنها حين أضحت قصراً مشيداً تعطلت بئره فانشغل بهمّ الحكومة، لا الحكم، ودسائسها وترهاتها. ■

شـــــركات الأدويـــــة روجـــت لـــه

«إن ما نشـــهده وبـــاء حـــقيقي».
ومع ذلك لا يوجـــد على حـــد عـــلم الجميع شيء
يسمى بفيروس الاكتئاب. كيف إذن تحولت تلك القلة من مرضى
الملنخوليا في خمسينيات القرن العشرين إلى ملايين
المرضى في تسعينيات نفس القرن؟

كلنا نعلم كيف يحدث الاكتئاب. ففي يوم من الأيام، وبدون سابق إنذار، تشعر على نحو غريب أنك منتزع بعيداً عن الأشياء والناس. كما لو كان يفصلك عنهم حائط زجاجي خفي. يؤدي الناس أعمالهم ولكن لسبب لا تفهمه لم يعد يستهويك أي شيء. بمقدورك الصراخ ولكن ما الجدوى؟ فأنت لا تستحق ذلك. ومبادرات الآخرين الودودة تبدو لك كأنها تأنيب له ما يبرره. بمرور الأيام يصبح الجدار أكثر سمكاً. وسرعان ما تصبح عاجزاً عن مغادرة منزلك أو حجرة نومك أو سريرك. الشيء الوحيد الذي يتبقى لك هو ألم الوجود ذاته. لم يعد بمقدورك أن تأكل أو تستحم أو تنام. فأنت متوتر ومجهد في نفس الوقت. وتواصل التفكير في المهدئات، وفي حد الموسى الذي سيسمح لك بقطع الأرق الرهيب.

لقد قرأنا جميعا مثل هذه القصص في السير الذاتية أو في المقالات الغزيرة المخصصة لهذا المرض الغريب بالصحف. ربما يكون الشخص المكتئب أحد أقربائنا أو جاراً أو زميلاً لنا. ربما تغدو قصته قصتنا. يقال إن الاكتئاب يهاجم امرأة من كل خمس نساء ورجلاً واحداً من كل عشرة. ويقدر انتشاره بين سكان العالم في أي لحظة محددة بنسبة ثلاثة في المائة، ويُقدم واحد من كل ستة مكتئبين على الانتحار.

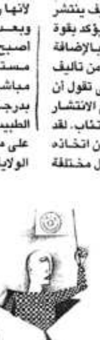
على الرغم من ذلك ولحسن الحظ تطالعنا الأخبار من كل حدب وصوب بأن مرض الاكتئاب لم يعد قدراً محتوماً. فالعقاقير المضادة للاكتئاب يتم تداولها منذ منتصف خمسينيات القرن العشرين، والجيل الجديد منها - مثبطات إعادة امتصاص السيروتونين الانتقائية SSRIs - يفعل المعجزات. فتحت تأثير عقاقير بروزاك أو زولوفت أو باكسيل يجد الأشخاص الذين أصبحت حياتهم عبئا غير محتمل متعة مجددة في الحياة فجأة، دون الاضطرار للمعاناة من الآثار الجانبية الكريهة للجيل القديم من مضادات الاكتئاب، مثل مضادات الاكتئاب ثلاثية الحلقات وعقاقير MAOIs (مثبطات أكسدة المركبات الأمينية). ولا يمكننا أن ننكر أن الجيل الجديد يؤدي أحياناً إلى تقليل الطاقة الجنسية، بل والعجز الجنسي أحياناً عند الرجال؛ لكن هذا بالتأكيد ثمن ضئيل مقابل استرداد القدرة على الإحساس بالسعادة. الاعتقاد السائد الآن أن ٢٠ مليون شخص على مستوى العالم يتناولون عقار بروزاك، ونسمع تقارير حول عصر جديد من «علم العقاقير النفسي التجميلي» الذي تستخدم من خلاله العقاقير ليس لعلاج الاكتئاب الإكلينيكي فحسب بل لعلاج التقلبات المزاجية اليومية والقلق الوجودي. لذا وداعاً كيركجارد وهيدجر.

مع ذلك هناك مشكلة في هذا التفاؤل العلاجي. فإذا كان صحيحاً أن مضادات الاكتئاب تعالج الاكتئاب حقاً، إذن كيف ينتشر المرض الآن أكثر من أي وقت مضى؟ يؤكد بقوة كتابا آلن إهرينبيرج وفيليب بينار، بالإضافة لكتاب ثالث، نشر منذ سنوات قليلة من تأليف ديفيد هيلي، الحقيقة المتناقضة التي تقول أن الاكتئاب لم يكن على الإطلاق واسع الانتشار مثلما أصبح منذ ظهور مضادات الاكتئاب. لقد كان الاكتئاب دائماً معنا، بالرغم من اتخاذه أسماء أخرى وظهوره أحياناً بأشكال مختلفة في كل عصر. فمنذ أبقراط وحتى الطب النفسي الحديث، توصف «الملنخوليا» - أي الذهان الاكتئابي أو الاكتئاب «الباطني» - في ألفاظ ومصطلحات متسقة بشكل ملحوظ. ومع ذلك حتى وقت قريب للغاية كان هذا النوع من الاكتئاب يُعتبر نادراً جداً. يشير هيلي إلى أنه ما بين عامي ١٩٠٠ و ١٩٤٥، دخل ٥٠ فقط من إجمالي مليون مريض مستشفى شمال ويلز باعتبارهم مرضى بالملنخوليا. بالمقارنة يدخل اليوم ٩٤٨ مريضًا من كل مليون مريض المستشفيات النفسية بسبب «الاكتئاب»، ويعتبر ٢٦٨ مريضًا منهم مرضى بالملنخوليا أو الذهان بشكل حاد.

الأكثر إثارة للدهشة أنه عند اكتشاف الطبيب النفسي السويسري، رولاند كوُن، في منتصف الخمسينيات من القرن العشرين لآثار الإميبرامين المضادة للاكتئاب بالتجربة على مجموعة من المرضى الذين يعانون من الاكتئاب «الباطني»، رفضت شركة الأدوية جايجي أول الأمر تمويل عملية تطوير العقار، لأنها رأت أن سوقه ستكون محدودة للغاية. وبعد أقل من أربعين سنة في عام ١٩٩٤، أصبح بروزاك ثاني أكثر الأدوية مبيعاً على مستوى العالم بعد دواء القرحة زانتاك مباشرةً. في غضون ذلك استشرى الاكتئاب بدرجة لا يمكن مقاومتها. وفي ١٩٧٠ قدر الطبيب النفسي هاينز ليمان حالات الاكتئاب على مستوى العالم بـ ١٠٠ مليون حالة. ففي الولايات المتحدة وحدها، قفز عدد الاستشارات الطبية المؤدية لوصف أدوية مضادات الاكتئاب من ٢,٥ مليون إلى ٤,٧ مليون. وفي فرنسا ارتفع الرقم إلى سبعة أضعاف فيما بين ١٩٧٠ و ١٩٩٦ وتم تسجيل ما لا يقل عن ١٤ مليون وصفة طبية في عام ١٩٩٤، وتتوقع منظمة الصحة العالمية أن يصبح الاكتئاب قريباً ثاني أضخم مشكلة صحية عامة - وتحتل مشكلة مرض القلب المرتبة الأولى. يقول بينار «إن ما نشهده وباء حقيقي». ومع ذلك لا يوجد على حد علم الجميع شيء يسمى بفيروس الاكتئاب. كيف إذن تحولت تلك القلة من مرضى الملنخوليا في خمسينيات القرن العشرين إلى ملايين المرضى في تسعينيات نفس القرن.

أكثر التفسيرات شيوعاً هي أن الاكتئاب كان دائماً حولنا، لكن تقدم العلم مكننا من التعرف عليه بسهولة أكبر. ففي عام ١٩٥٦، عندما أعلن رولاند كون اكتشافه، ظن أنه عثر على الجزيء المسبب تحديداً للاكتئاب «الباطني» أو البيولوجي، مستثنياً اضطرابات العصاب الاكتئابي التي تُعزى لسبب «خارجي» أو نفسي. ومع ذلك سرعان ما شككت البحوث الدوائية في هذا التمييز عن طريق إثبات أن جزيئات أخرى لها نفس التأثير من حيث تخفيف كلا النوعين من الاكتئاب. وقد كان واضحاً من تلك النقطة أن خطوة قصيرة فحسب تؤدي إلى الفكرة القائلة بأن نفس الاختلال الوظيفي البيوكيميائي قائم في كل حالات الاكتئاب، ويمكن علاجه بعقاقير تستهدف التأثير على الإدراك أو السلوك تأثيراً إيجابياً.

وببساطة عن طريق تبديل الجزيئات وملاحظة آثارها، بدأ الباحثون يميزون السمات العامة لمستحضر جديد قابل للتطور في مجال العلاج النفسي. ونظراً لأن عائلات مضادات الاكتئاب المختلفة أثبتت كذلك فاعليتها في علاج كل أنواع الأمراض الأخرى، تم استنتاج أن هذه الأمراض ما هي إلا اكتئاب «مستتر» (قد يبدو ذلك استنتاجاً واهياً، فربما ينتهي البعض إلى أن تلك الأدوية ليست بمضادات اكتئاب). ومن ثم أضيفت على التوالي حالات أخرى إلى الاكتئاب وهي: نوبات الذعر، والقلق، والشره المرضي، واضطرابات الوسواس (الحواذ) القهري، و«الرهاب الاجتماعي» (ما كان يسمى بالخجل)، والتوحد، وعَرَض توريت (نسبة إلى الطبيب الفرنسي جورج جيل دي لا توريت وهو اضطراب عصبي حاد يتمثل في تقلصات لا إرادية في الوجه والجسم - المترجم)، وسلس البول أو الغائط، وآلام الأعصاب والسرطان والمعدة والرقبة،



من الخطأ الاعتقاد بأن للأمراض
العقلية حقيقة راسخة وأن دور شركة الدواء
هو العثور على المفتاح الملائم لقفل محدد سلفاً...
في الوقت الحاضر نحن في حالة تستطيع فيها الشركات
ليس فقط السعي للعثور على المفتاح الملائم
للقفل فحسب ولكن تحديد شكل القفل الذي
لابـــد أن يلائمـــه المفتـــاح

La Fatigue d'etre soi: Depression et Societe

(تعب النفس: الاكتئاب والمجتمع)

Alain Ehrenberg

Odile Jacob, 414PP., £8.35

Comment La Depression est Devenue Une epidemie

(كيف أصبح الاكتئاب وباءً)

Philippe Pignarre

Decouverte, 2001, 92PP., $ 14.48

بترتيب خاص مع:
London Review of Books

ترجمة: هاني حلمي حنفي

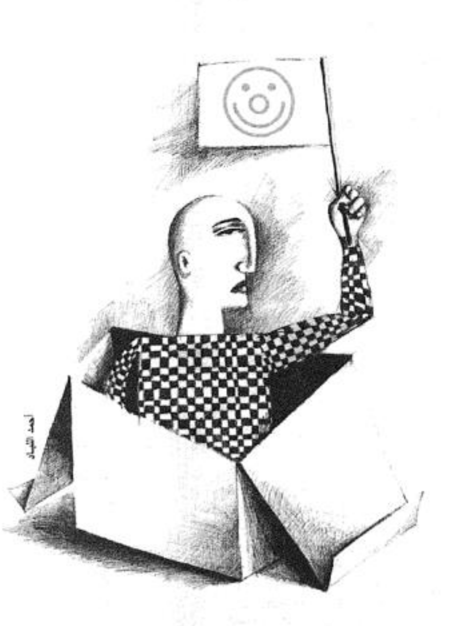
... ثم أقنعتنا بالعلاج!

الاكتئاب

وباء العصر

ميكل بورخ - جاكوبسن

والصداع النصفي، والاضطراب العقلي الذى يعقب الصدمات النفسية، وإدمان الكحوليات، وإدمان التبغ والهيروين، والإمساك، وسقوط الشعر، وفرط الحساسية لنزلات البرد. وتحت تأثير مضادات الاكتئاب زال الفرق بين اضطرابات الذهان واضطرابات العصاب؛ وبالمثل زال المجال المهنى المميز للمحللين النفسيين، حيث اختفى الفرق بين الطب النفسى والطب العام. فأصبح كل شيء اكتئاباً، لأن كل حالة تستجيب لمضادات الاكتئاب، ذلك البلسم الجديد الشافى لكل الأدواء.



وهناك بالطبع تفسير آخر أكثر سخرية وتشككاً لانتشار هذا التشخيص انتشاراً لا نهاية له فيما يبدو: وهو أنه يحقق أرباحاً لصناعة الأدوية، المُورِّد الدائم لعقاقير مضادات الاكتئاب الجديدة. فلم يمض وقت طويل على ذلك الزمن عندما كان الطبيب النفسى مضطراً أن يقنع زملاءه ومرضاه بطريقة تدريجية، بالاستعانة بالعديد من التقارير الطبية وقدر كبير من التشجيع والملاطفة، إذا أراد أن يروج لنوع جديد من التشخيص أو العلاج. أما الآن فالاضطرابات النفسية وأدويتها الملائمة يتم تعبئتها وبيعها معاً من قبل شركات الأدوية التى لا تألو جهداً لضمان ربحية استثماراتها فى الأبحاث. والسؤال الذى يطرح نفسه: ألم تكن هناك سوق لمضادات الاكتئاب فى عام ١٩٥٦؟ لا تعبأ بالإجابة، فصناعة الأدوية كانت قادرة على خلق سوق لها من لا شيء. ففى بداية الستينيات من القرن العشرين، كانت شركة ميرك تسعى لترويج خواص عقار اميتريبتيلين المضادة للاكتئاب، فاشترت ٥٠٠٠٠ نسخة من كتاب اسمه التعرف على المريض المكتئب من تأليف الطبيب النفسى فرانك آيد، ووزعتها بسخاء على أطباء النفس والأطباء الآخرين فى أنحاء العالم. وكانت فرضية آيد أن الاكتئاب، رغم حصره فى مستشفيات الأمراض العقلية، يمكن تشخيصه بنفس الكفاءة فى المستشفيات العامة وعيادات الممارسين العامين بالتأمين الصحى. وكما يصف هيلى الأمر فإن «ميرك لم تبع عقار الأميتريبتيلين فقط وإنما باعت فكرة بعينها».

ومنذ ذلك الوقت نبه العديد من الحملات المعنية بالصحة العامة أطباء الممارسة العامة والجمهور بضرورة التعرف على علامات الاكتئاب، وأجريت الأبحاث حول أضرار الاكتئاب الاجتماعية والاقتصادية، وظهرت سلاسل خاصة حول الموضوع فى المجلات، وروجت إعلانات التليفزيون بلا تحفظ لمزايا أحدث مضادات الاكتئاب - كل هذه الأنشطة مولتها صناعة الأدوية بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. فلم تتم رشوة الأطباء أو زعماء الرأى العام أو الصحفيين: لا أحد يغش هنا، فكل شخص مقتنع بحق أنه أو أنها تردد أحدث منجزات العلم بدءاً من الباحثين أنفسهم. وكان من قبيل الصدفة المحضة أن تنفق أموال الصناعة على إجراء الأبحاث العلمية حول هذا الجزيء وليس أى جزيء آخر، أو حول هذا الاختبار الإكلينيكى بدلاً من غيره، أو تخصص لهذا القسم النفسى أو لهذا المؤتمر أو لهذه الدراسة المتصلة بعلم الأوبئة بالأخص.

لا عجب إذن أن النظريات الوحيدة التى صمدت بعد هذه العملية الداروينية فى الانتقاء هى تلك التى تخدم مصالح الصناعة. فنحن نعلم على سبيل المثال أن حوالىّ الثلث تقريباً من كل مرضى الاكتئاب يستجيبون بصورة إيجابية مهما كانت حدة اكتئابهم للـ بلاسيبو (المواد غير الفعالة المستخدمة بدلاً من الدواء لمجرد إرضاء المريض الذى يظن أنه بحاجة للدواء ولتعزيز توقعاته فى الشفاء) (يتضاعف المعدل مع النساء اللائى يمررن بفترة اكتئاب غير متكررة). برغم ذلك، لا أحد يمول الدراسات الخاصة بدور العوامل غير المحددة فى علاج الاكتئاب لعدم وجود سوق لبيع البلاسيبو. فشركات الأدوية تستطيع ادعاء التفوق على منافسيها فى حالة إثبات صلة قوية و«محددة» بين منتجها وبين هذا أو ذاك العرض الاكتئابى - ومن ثم يعاد تعريف الاكتئاب باستمرار كلما انطلق فى السوق عقار جديد تلو الآخر. يلخص هيلى الموقف بدقة قائلاً:

إذا أخذنا فى الاعتبار التعديلات المتعددة فى علم تصنيف أمراض الطب النفسى خلال الثلاثين عاماً الماضية، يتضح أن من الخطأ الاعتقاد بأن للأمراض العقلية حقيقة راسخة وأن دور شركة الدواء هو العثور على المفتاح الملائم لقفل محدد سلفاً... فى الوقت الحاضر نحن فى حالة تستطيع فيها الشركات ليس فقط السعى للعثور على المفتاح الملائم للقفل فحسب ولكن تحديد شكل القفل الذى لابد أن يلائمه المفتاح.

مع ذلك لا يشرح منطق الرأسمالية كل شيء. حقاً لماذا كانت الغلبة للاكتئاب بهذه الطريقة بدلاً من أى مرض آخر؟ كان بوسع صناعة الأدوية أن تروج بنفس الأسلوب للقلق كما فعلت أثناء الستينيات من القرن العشرين مع «المهدئات» (مركبات بنزوديازيبباين المهدئة) مثل ليبريم وفاليوم. لذا من المغرى البحث فى مكان آخر عن تفسير للازدياد المطرد للاكتئاب فى سوق اضطرابات الطب النفسى. إذا كانت أعداد المكتئبين تتزايد باستمرار، ألا يمكن أن يرجع ذلك إلى أننا نعيش فى مجتمع يبعث على الاكتئاب باستمرار؟ كثيراً ما يذهب المعلقون ذوو الميول اليسارية إلى أن صناعة الدواء أضفت صبغة طبية مبالغًا فيها على البؤس الاجتماعى الحقيقى الناتج عن ضغط الحياة الحديثة، وفقدان محددات الهوية، وعزلة الفرد والبطالة إلى آخره. هذا التحليل ليس بجديد: ففى نهاية القرن التاسع عشر كان جورج ميلر يربط بالفعل بين «النوراسثنيا» (الإنهاك العصبى) و«الإجهاد العصبى» الناتج عن ضغوط المعيشة فى المدن الأمريكية الكبرى. والمشكلة التى تواجه هذا التفسير الاجتماعى هى أنه لا يفسر أى شيء. حتى مع افتراض أن المجتمع أصبح أكثر قسوة عما كان عليه فى الماضى عندما لم يكن للتأمين الصحى وإعانات البطالة وجود بعد، فلماذا يؤدى ذلك إلى الاكتئاب بدلاً من القلق أو الإجهاد أو «الانهيار العصبى» أو الغضب العادى فقط؟

كتاب الزاوية

الدولة والعصبية

إذا استقرت الدولة وتمهدت قد تستغنى عن العصبية والسبب فى ذلك أن الدول العامة فى أولها يصعب على النفوس الانقياد لها إلا بقوة قوية من الغلب للغرابة وأن الناس لم يألفوا ملكها ولا اعتادوه. فإذا استقرت الرئاسة فى أهل النصاب المخصوص بالملك فى الدولة وتوارثوه واحداً بعد آخر فى أعقاب كثيرين ودول متعاقبة نسيت النفوس شأن الأولية واستحكمت لأهل ذلك النصاب صبغة الرئاسة ورسخ فى العقائد دين الانقياد لهم والتسليم، وقاتل الناس معهم على أمرهم قتالهم على العقائد الإيمانية فلم يحتاجوا حينئذ فى أمرهم إلى كبير عصابة، بل كأن طاعتها كتاب من الله لا يبدل ولا يعلم خلافه. ولأمر ما يوضع الكلام فى الإمامة آخر الكلام على العقائد الإيمانية كأنه من جملة عقودها. ويكون استظهارهم حينئذ على سلطانهم ودولتهم المخصوصة: إما بالموالى والمصطنعين الذين نشأوا فى ظل العصبية وغيرها وإما بالعصائب الخارجين عن نسبها الداخلين فى ولايتها.

ومثل هذا وقع لبنى العباس. فإن عصبية العرب كانت فسدت لعهد دولة المعتصم وابنه الواثق واستظهارهم بعد ذلك إنما كان بالموالى من العجم والترك والديلم والسلجوقية وغيرهم. ثم تغلب العجم الأولياء على النواحى وتقلص ظل الدولة، فلم تكن تعدو أعمال بغداد حتى زحف إليها الديلم وملكوها وصار الخلائق فى حكمهم. ثم انقرض أمرهم وملك السلجوقية من بعدهم فصاروا فى حكمهم. ثم انقرض أمرهم وزحف آخر التتار فقتلوا الخليفة ومحوا رسم الدولة.



الاكتئاب وباء العصر

يحاول عالم الاجتماع الن إهرينبيرج الإجابة عن هذا السؤال فى كتابه تعب النفس. فيتتبع بالتفصيل تاريخ الاكتئاب منذ خمسينيات القرن العشرين (بالأخص فى فرنسا)، لكى يوضح كيف تم التوقف عن تعريف الاكتئاب من منظور الألم النفسى وأصبح ينظر إليه أكثر فأكثر على أنه مرض سلوكى. فـ «المكتئب» الجديد يفتقد الطاقة وغير قادر على «الإنجاز» ومعوق فى عمله وعلاقاته بالآخرين. ويشير الأطباء النفسيون إلى أنه يعانى من «إعاقة نفسية حركية». وكما لو كان من قبيل المصادفة، يظهر هذا المرض الجديد فى مجتمع يقدر المسئولية والمبادرة الفردية تقديراً لا يدانيه شىء. ومثلما كانت أشكال العصاب الفرويدى تعبيراً عن مرض ذات تتصف بالكف والصراع الداخلى، كذلك الاكتئاب المعاصر «هو النقيض للفرد المستقل، النقيض للإنسان الذى يعتقد أنه هو الذى يصنع حياته». وبهذا المعنى، فالمجتمع المعاصر ليس هو المثير أو المسبب المباشر للاكتئاب. يذهب إهرينبيرج إلى أن الاكتئاب هو بالأحرى «النظير» السلبى للذاتية التى صنعها هذا المجتمع وقدرها بشدة».

مع ذلك فى التحليل الأخير يستمر إهرينبيرج فى تفسير التطور التاريخى للاكتئاب باعتباره انعكاساً بسيطاً - حتى وإن كان مقلوباً وتتحكم فيه عوامل كثيرة - للتغيرات الحادثة فى المجتمع، وبالتالى يغفل حلقة الوصل بين الوباء وتسويق مضادات الاكتئاب. يشير إهرينبيرج إلى أن فكرة تصوير مرضى الاكتئاب من منظور الكف والإعاقة النفسية الحركية «وطدت نفسها فى نفس اللحظة التى أطلقت فيها مضادات الاكتئاب الجديدة فى السوق والتى كان أغلبها فعالاً فى مواجهة هذه الاضطرابات»، ولكن يظل الأمر بالنسبة له مجرد مصادفة كما لو أن تطور العقاقير عكس فى التوقيت المناسب صعود حالة عكست هى الأخرى التحولات فى «الشخصية الفردية فى نهاية القرن التاسع عشر». لكن لماذا لا يتم الاعتراف بالعكس وهو أن شيئاً اجتماعياً ما قد برز فى هذه الحالة بعد اكتشاف مضادات الاكتئاب: وبأنه إذا كان الاكتئاب قد انتشر إلى هذا الحد فذلك مرجعه أن الاكتئاب هو المرض الذى تؤثر عليه مضادات الاكتئاب؟

هذا هو الحل الذى يقترحه بينار. فإذا كان الاكتئاب الجديد قد ازدهر، فهذا يرجع إلى أن مضادات الاكتئاب فعالة، وأهم من ذلك أنها أكثر عملية من المهدئات والجيل الأول من مضادات الاكتئاب. فـ «حبوب السعادة» كانت تسبب الإدمان وكانت مضادات الاكتئاب ثلاثية الحلقات وعقاقير MAOIs (مثبطات أكسدة المركبات الأمينية) ذات آثار جانبية كريهة. من ناحية أخرى لم تعد مثبطات إعادة امتصاص السيروتونين الانتقائية SSRIs فعالة، لكن آثارها الجانبية قليلة للغاية. لذا لا يجب أن نندهش إذا وصفها أطباء الممارسة العامة بسهولة أو إذا طلب المرضى المزيد منها. فمن يكترث إذا كانت تساعد فقط على إخفاء الاكتئاب مادامت تتيح للمريض أن «يؤدى وظائفه»؟ من يهوى تعذيب نفسه إلى الحد الذى يجعله يتحمل جلسات التحليل النفسى الطويلة المكلفة غير مضمونة النتائج، بينما كل ما يحتاج إليه هو الذهاب لطبيب الأسرة ليحصل على جرعته من عقار السعادة؟ وكما يشير بينار «فلولا موافقة المرضى وتعاونهم الصامت لما تسنى للطب النفسى الجديد أن يحرز هذا النصر الساحق».

وبمعنى آخر «تُجنِّد» مضادات الاكتئاب المكتئبين، وهى تنجح فى ذلك بسبب فاعليتها. فكل مضاد جديد يجب أن يخضع أولاً لاختبارات تحت المراقبة بقصد إثبات أنه أكثر فاعلية من العقاقير المنافسة ومن أدوية البلاسيبو. ولاجتياز هذه الاختبارات يجب على الدواء المُقترَح أن يثمر نتائج أفضل من نتائج العقاقير السابقة على مجموعة من المرضى الذين تم اختيارهم لأنهم يمثلون عرضاً مرضياً من المرجح أن يستجيب للدواء. وكما يوضح بينار، فى هذه المرحلة المبكرة يتم تجنيد المرضى. فكل جُزىء جديد يثبت فاعليته يخلق مجموعة جديدة من المرضى، الذين يتم تحديدهم من خلال الآثار التى يحدثها: هناك مكتئبون بحاجة للاستثارة أو مكتئبون بحاجة للتهدئة أو مكتئبون قلقون أو عدوانيون إلى آخره. ثم تنتشر التحديدات المرضية الجديدة فى المجتمع بينما ينفذ العقار إلى الأسواق ويُجند أعداداً متزايدة من «الزبائن».

تكمن قوة حجة بينار فى أنها لا تختزل الوباء قط إلى مجرد وهم أو إلى تأثير التسويق أو إلى انعكاس أيديولوجى باهت للتحولات الاجتماعية. فلم يتم خداع أحد.

حتى مع افتراض أن المجتمع أصبح أكثر قسوة عما كان عليه في الماضي عندما لم يكن للتأمين الصحي وإعانات البطالة وجود بعد، فلماذا يؤدي ذلك إلى الاكتئاب بدلاً من القلق أو الإجهاد أو «الانهيار العصبي» أو الغضب العادي فقط؟

هل يعني هذا أن الطب النفسي البيولوجي قد وجد أخيراً سبب الاكتئاب لأنه يعرف كيف يعالجه؟ هذا هو ما ترغب إعلانات الصناعات الدوائية في أن نصدقه، لكن الباحثين أنفسهم أكثر دراية بالحقيقة. فليس لأن المادة (س) تحدث تأثيراً على العرض (ص) يمكننا أن نستنتج أن هذه المادة تؤثر بشكل محدد على مسبب العرض (ص). فلا أحد يستطيع القول مثلاً أن الأسبرين دواء مضاد للأنفلونزا تحت دعوى أنه يريح أعراض الأنفلونزا أو أن الويسكي «مضاد للاكتئاب» لأنه يرفع معنوياتك. لإقامة علاقة سببية بين المرض والدواء لابد من تجاوز الارتباط البسيط بينهما وعزل سبب ضروري وكاف، كما هو الحال مع الأمراض المُعدية. لا يوجد دليل في الطب النفسي يسمح لنا بأن ندعي أننا وصلنا لتلك النقطة. ويحرص هيلي وإهرينبيرج وبينار على الإصرار على أن كل الجهود المبذولة حتى الآن لربط أحد المحددات البيولوجية بعرض إكلينيكي ما باءت بالفشل. فمضادات الاكتئاب ثلاثية الجزيئات على سبيل المثال لديها تقريبا نفس التركيبة الكيمائية لمضادات الذهان، وتُستخدَم بعض من مضادات الذهان بجرعات مخفضة كمضادات للاكتئاب، الأمر الذي يبرهن على أنك لا تستطيع إقامة رابطة بين جزيء بعينه ومشكلة نفسية معينة. يقول هيلي أن «مضادات الذهان و مضادات الاكتئاب ليست محددة من حيث إنها لا تختص بمرض معين وكذلك فهي ليست محددة من حيث إنها تعمل بغض النظر عن المحيط الذي توجه إليه».

لا تنبع قوة الطب النفسي البيولوجي الجديد من اكتشاف الأسباب العضوية ولكن من التجارب التي تعتمد على الضبط باستخدام الأدوية غير الفعالة (البلاسيبو) حيث تقاس آثار الجزيئات و تقارن ببعضها، ولا تكشف هذه التجارب عن كيفية عمل الدواء، ولكن فقط عما إذا كان يحدث أثراً وما الذي يؤثر على أحسن وجه وعلى من يؤثر. إن الطب النفسي البيولوجي هو صورة من صور علم البلاغة: فهو يعرف كيف يُحدث التأثيرات دون معرفة كيفية معالجة الأسباب. ويقترح بينار تسميته «البيولوجيا الصغرى» لتمييزها عن البيولوجيا الكبرى التي تحاكيها. في نهاية المطاف، لا شيء يميز الطب النفسي البيولوجي عن الطب النفسي الديناميكي وأنواع العلاج النفسي المختلفة، التي تعتمد أيضاً في النهاية على الآثار (التغييرات) التي تلاحظ بين المرضى. الاختلاف الوحيد هو أن بلاغة «البيولوجيا الصغرى» لا تُضاهى في طريقتها في الإقناع: كيف يستطيع المرء بأي حال أن ينكر أن مضادات الاكتئاب تحدث بالفعل أثراً، ولاسيما إذا وُوجِه بكم التجارب العشوائية التي تُحجَب فيها هوية المشاركين حرصاً على الموضوعية وعدم الانحياز.

ومع ذلك يبقى السؤال: ما الذي تترك فيه المضادات أثراً؟ من الخطأ القول أن مضادات الاكتئاب تؤثر على الاكتئاب، كما لو كان المرض قد وُجِد مستقلاً عن مضادات الاكتئاب؛ فالاكتئاب ما هو إلا الشيء الذي تؤثر فيه مضادات الاكتئاب. واكتئاب الكثير منا ليس مرجعه أن الاكتئاب ينتشر ولكن لأنه تم إقناعنا أن «الاكتئاب» موجود و يمكن علاجه. هذا ما يسميه بينار «القياس المنطقي»: ١- أنا أشعر بالاكتئاب. ٢- أريد أن أشعر بتحسن. ٣- سوف أحصل على وصفة طبية بمضادات الاكتئاب. (المقصود هو أنني لم أكن لأشعر «بالاكتئاب» لولا علمي بوجود عقاقير لعلاجه. وهذا لا يعني عدم وجود التعاسة والتعب والكف، لكنهم ما كانوا ليتبلوروا في صورة «اكتئاب» ما لم تربط مضادات الاكتئاب هذه الأعراض الإكلينيكية بعضها إلى بعض. ومع ذلك، هناك من الأسباب ما يجعلنا نعتقد أن البشر الذين كانوا في زمن آخر يشعرون بالقلق، أو لديهم أعراض سيكوسوماتية (اضطرابات جسدية نابعة من أسباب عقلية أو عاطفية)، يصنفون أنفسهم الآن باعتبارهم «مكتئبين» لأن الاكتئاب هو المرض الذي نعرف معرفة جيدة كيفية علاجه. وهذا هو نفس الحال بالضبط في الطب النفسي الديناميكي، فالطب المرتبط بالأعراض يتلو المتغيرات المرتبطة بعرض الأدوية وفقاً لقانون العرض والطلب، وعلى المرضى أن يكيفوا مشكلاتهم مع الطريقة التي يتوقعون أن يتم علاجهم بها.

ليس الهدف هنا هو الزعم بأن الاكتئاب الحديث أسطورة، أو وهم نحتاج فقط أن نبدده لكي نبرأ منه. إن محنة المكتئبين حقيقية بالفعل؛ لكن هذه الحقيقة ليست متواشجة مع جيناتهم أو موصلاتهم العصبية. وهذا يعني أن الاكتئاب ليس قدراً محتوماً فتغيير الدواء والعلاج سوف يسفر عن مرض جديد. ■

كتاب الزاوية

عمر الدولة

اعلم أن العمر الطبيعي للأشخاص على ما زعم الأطباء والمنجمون مائة وعشرون سنة وهي سنة القمر الكبرى عند المنجمين. ويختلف العمر في كل جيل بحسب القرانات فيزيد عن هذا وينقص منه، فتكون أعمار بعض أهل القرانات مائة تامة وبعضهم خمسين أو ثمانين أو سبعين على ما تقتضيه أدلة القرانات عند الناظرين فيها. وأعمار هذه الملة ما بين الستين إلى السبعين كما في الحديث.

ولا يزيد على العمر الطبيعي الذي هو مائة وعشرون إلا في الصور النادرة وعلى الأوضاع الغريبة من الفلك كما وقع في شأن نوح عليه السلام وقليل من قوم عاد وثمود.

وأما أعمار الدول أيضًا وإن كانت تختلف بحسب القرانات إلا أن الدولة في الغالب لا تعدو أعمار ثلاثة أجيال. والجيل هو عمر شخص واحد من العمر الوسط، فيكون أربعين الذي هو انتهاء النمو والنشوء إلى غايته. قال تعالى: «حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة». على اعتبار الأربعين في عمر الجيل الذي هو عمر الشخص الواحد.

وإنما قلنا أن عمر الدولة لا يعدو في الغالب ثلاثة أجيال: لأن الجيل الأول لم يزالوا على خلق البداوة وخشونتها وتوحشها من شظف العيش والبسالة والافتراس والاشتراك في المجد، فلا تزال بذلك سورة العصبية محفوظة فيهم فحدهم مرهف وجانبهم مرهوب والناس لهم مغلوبون.

والجيل الثاني تحول حالهم بالملك والترفه من البداوة إلى الحضارة ومن الشظف إلى الترف والخصب.

■■ يحتفظ متابعو الرواية العربية المعاصرة بمكانة خاصة لثنائية الروائية الفلسطينية سحر خليفة: «الصبار»، ١٩٧٨/ عباد الشمس، ١٩٨٠». وهي تشغل هذه المكانة لا في إبداع صاحبتها وحده، بل في مجمل الرواية المعاصرة، فقد استطاعت أن تحقق إنجازات فكرية وفنية مهمة، لعل أهمها أنها قدمت لوحة بانورامية هائلة للحياة في كبرى مدن الضفة الغربية (نابلس) في ظل الاحتلال الإسرائيلي، فجزؤها الأول يبدأ بعده بخمس سنوات (١٩٧٢)، والثاني بعد الأول بست سنوات أخرى، أي أن أحداثه تدور في ١٩٧٨/١٩٧٩، وعلى نحو من الأنحاء يمكن القول إن هذه الجدارية الهائلة التي قدمتها للحياة اليومية في مدن الضفة وقراها هي ما جعل الانتفاضة التي شملت جسد فلسطين كله في ١٩٨٧: أرض الاحتلال الجديد في ١٩٦٧، والقديم في ١٩٤٨، أمرًا طبيعيًا يتم في سياقه الموضوعي والإنساني، مثل طفل يخرج للحياة مكتمل الجسم موفور البدن، من خلال شخصيات توفرت لها شروط الحياة وأسباب الإقناع، إضافة لمشاهد ولوحات نابضة من أسواق المدينة (نابلس: العروس التي كانت!) وطرقاتها وبيوتها ومقاهيها، ومعرفة بشروط الحياة عند تلك الطبقات المرمية أسفل السلم الاجتماعي. من ناحية ثانية طرحت سحر في روايتها العلاقة القائمة بين المواطنين العرب والقهر الإسرائيلي، ووقفت - بوجه خاص - عند قضية كانت مطروحة هناك وآنذاك، أعني العلاقة القائمة بين المثقفين التقدميين من العرب واليهود، وحددت - على نحو ذكي ورمزي ودال - المدى الذي لا يمكن لهذه العلاقة أن تتجاوزه، والبقية التي يتعين على العرب أن يقطعوها وحدهم إلى قلب النار واللهب: القضية قضيتهم والهوية هويتهم. من ناحية ثالثة أثبتت رواية سحر - بين ما أثبتت - قدرة الأدب الصادق، لا على رصد الواقع وتسجيله فقط، بل على استقرائه والتنبؤ بمسار الأحداث فيه أيضًا. الدليل الذي لا ينقض هو أن المشهد الأخير الذي تنتهي به «عباد الشمس» أصبح - قبل انقضاء عشر سنوات - حياة كل يوم في أرض الاحتلال القديم والجديد خلال الانتفاضة الأولى.

على أن هذه الثنائية لم تكن أول أعمال سحر خليفة. سبقتها رواية صدرت في القاهرة في ١٩٧٤، «لم نعد جواري لكم» لم تثر اهتمامًا كبيرًا، كانت تنويعًا على لحن أسرفت في عزفه اللبنانية ليلى بعلبكي والسورية كوليت خوري والمصرية نوال السعداوي، على تفاوت بينهن في إجادة العزف، أعني العلاقة المتوترة بالرجل والحرب الدائرة معه، وتدور رواية سحر بين جماعة من «المثقفين» يبدون محاصرين داخل مدينة «رام الله» الصغيرة من جانب، وهمومهم الخاصة من الجانب الآخر، عدد من الرجال والنساء، كلٌ في طراد وراء الآخر، تتباين وجوههم لكن الوجه الغالب عليهم جميعًا هو الفشل والإحباط في علاقاتهم بالجنس الآخر، لأنهم - ببساطة - نماذج بالغة التشوه. كانت في الرواية وجوه ضعف عديدة: احتشاد الصفحات بالمناقشات والثرثرات، والإسهاب في الوصف والسرد دون ضرورة، والعودة -

صورة الحياة الفلسطينية بين انتفاضتين...



المرة بعد المرة - إلى مناقشة القضايا ذاتها: الحب والفن، العلاقة بين الحب وممارسة الجنس، العلاقة بين الأخلاقيات والمستوى الاجتماعي.. إلخ، ثم احتشاد الصفحات الأخيرة بالأحداث والمفاجآت.

وبعد الثنائية رجعت سحر لموضوعها الأثير وهي أكثر دربة وأفصح تعبيرًا. في «مذكرات امرأة غير واقعية، ١٩٨٦» تصحبنا لنطل على الواقع النفسي للمرأة التي اختارتها «نموذجًا»، وقد سلكت أيسر السبل وأكثرها تحقيقًا للهدف: المذكرات الشخصية التي تنطلق مرة من الواقع المعيش، ومرة من ذكريات الطفولة والصبا. هكذا نعرف كيف تكونت «عفاف» بنت مفتش التعليم بين مدينتها الفلسطينية الصغيرة والقدس سنوات الأربعينيات الأولى، وفي الأعماق ذكرى تعود لها أكثر من مرة: ذكرى الاحتفال «بالولد» الذي انفتحت السماء عن عضوه، على هذا الفارق التشريحي الخالص تترتب نتيجة، يظل الجنس «المحروم من هذا العضو» يحملها - كالصليب - على دروب النضج: «الولد صح، والبنت غلط»، ومن ثم تخضع عفاف - مثل بنات جيلها وبلدها - لسيطرة الرجل/ الأب/ الأخ/ الزوج، وسيطرة مفاهيمه ورؤاه لما يجب وما لا يجب، فتختنق فيها البراءة والعفوية والانطلاق وحس الفهم، حتى

سحر خليفة: «الميراث»، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٧.
سحر خليفة: «صورة وأيقونة وعهد قديم»، دار الآداب، بيروت، ٢٠٠٢.

سحر خليفة

تتابع مشروعها الروائي

فاروق عبدالقادر

تتحول - في نظر نفسها قبل الآخرين - مجرمة دون جريمة، هكذا: تتزوج عفاف دون رأي أو رغبة، وتجهض لأنها لا تريد ما يربطها بهذا الرجل إلى الأبد، وتعقُم بعد إجهاضها، ثم تأتي مع زوجها لهذه المدينة الصحراوية البعيدة، حيث لا أهل ولا أصحاب أو معارف، وتتبادل وزوجها الكراهية والعداء، فهما في معركة لا تنتهي، وانحصر عالمها في المطبخ وغسل الثياب ومناجاة قطتها واسترجاع حياتها كما تدونها في هذه المذكرات، وتحس عفاف بالحنين إلى أمها وبلدها.. وهما عندها الشيء ذاته، فتعقد صفقة مع زوجها: أن يذهب، وحده، إلى أوروبا، وتعود هي إلى بلدها. وفي عودتها هذه لا تلتقي بأمها فقط، بل بحبيب صباها كذلك، ويشتعل الحب القديم.. «منذ تلك اللحظة لم تفارق يده يدي.. (..) وحين قبَّل يدي وقبَّلت يديه أحسست أنني آخذ وأعطي ما أستحق لي على الدنيا منذ الأزل. فقد كان لي وكنت له..» على أن هذا لم يدم طويلاً، وجاءت النهاية: بعد أن أعطت عفاف كل شيء اكتشفت - كأنما فجاة - أنه رجل، وأنه - مثل كل الرجال - لابد له من حياتين: واحدة زوجية وأخرى عاطفية، واحدة علنية وأخرى سرية. هكذا تُحبط العلاقة وتكتمل هجائية الرجل: أيًا كان أو أخًا أو زوجًا أو حبيبًا، ثوريًا كان أو متوائمًا، كلهم منقسمون منفصمون مزدوجون: بين الفكر والممارسة هم منقسمون، بين الوعي والواقع هم منقسمون، بين أخلاقيتين ومنظومتين للقيم هم منقسمون، والمرأة موضوع الانقسام وضحيته في آن، كلٌ يمارس قهره عليها، ويطلب منها أن تتقبل قهرها في ظله، هو العاجز المحبط يطلب منها أن ترى في عجزه قدرة، وفي إحباطه إنجازًا وتحققًا.

لنرجئ أية ملاحظات حول هذا التارجح بين «تحرير المرأة» و«تحرير فلسطين» وهما القطبان اللذان يؤطران عمل سحر خليفة ومشروعها الروائي كله، لننظر في عملها التالي «باب الساحة، ١٩٩٠»: بنت نابلس المحبة، وصافتها وراويتها، تقدم لقارئها وجهًا جديدًا من وجوه مدينتها القديمة، وجه نابلس التي تعيش الانتفاضة. «جاءت الانتفاضة قطار النوم، بدا الخوف يتساقط كأوراق الخريف، والتهبت الجبال والكروم والأودية.. (..)

انقلبت الساحة الحجرية المسماة باب الساحة إلى مسلخ يعلق فيه العملاء على الكلابات مثل الغنم، وسموها الساحة الحمراء». هذا الوجه الدامي من وجوه الساحة يتدخل في صميم الرواية، بل يكاد أن يكون قوامها، ففي ذلك «البيت المشبوه» الذي اتُّهمت صاحبته بالفُجر والعمالة فغرس الشباب خنجرًا في قلبها وطرحوا جثتها في الساحة - تدور معظم الأحداث، وبنتها «نزهة» المقيمة على عهدها تكاد تكون الشخصية الرئيسة فيها، كان بيتًا يتجنبه الجميع، لا يُلقون على نزهة تحية الصباح ولا يردون تحيتها، لكن الذي حدث جعل البيت محطًا ومزارًا وبؤرة للفعل: إليه لجأ «حسام» جريحًا بعد الاشتباك، وإليه جاءت «سمر» التي تعد بحثًا اجتماعيًا عن التغيرات التي طرأت على المرأة بعد الانتفاضة، وإلى البيت المشبوه أيضًا جاءت «الست زكية»: أم الشباب، عمة حسام وراعيته، وواحدة من أكثر الشخصيات في الرواية العربية صدقًا وأصالة، جعلت لها الروائية مهنة وثيقة الصلة بالحياة، فهي التي تخرج أطفال الحي إلى نورها، لكنها حين يجِدُّ الجد وتشتعل الأرض «تنقلب أدواتها البسيطة أدوات جراحة، فتخيط هذا وتجبِّر ذاك وتستخرج رصاصة وتحقن إبرة..» حول تلك الشخوص الرئيسة القليلة تدير سحر أحداث روايتها، وهي قليلة كذلك، لكن السياق الذي يشمل الشخوص ويحرك الأحداث هو تفجر الانتفاضة. والحياة اليومية في ظلها، إن المشهد الأخير الذي تنتهي إليه ثنائية «الصبار / عباد الشمس» أصبح حياة كل يوم في «باب الساحة». منذ تفجرت الانتفاضة لم يعد شيْء أو شخص على حاله، وعرف كلٌ دوره الذي يجب أن يؤديه: الشباب لهم الدور الأول، وللفتيان دور، وللنساء دور، وللأطفال دور، وكلٌ يؤدي دوره دون تلكؤ، ومن جماع هذا كله تتطور أساليب المواجهة وتتصاعد، لكن للانتصارات الصغيرة ثمنها الذي يجب أن يُدفع كاملاً غير منقوص: شهداء وجرحى ومسجونون ومهانون وبيوت مهدومة ومحال مقفلة وملاحقات ومطاردات وشباب تركوا أعمالهم أو تخلوا عن طموحاتهم لينغمسوا في تلك الحركة التي شملت كل جسد فلسطين ودامت سنوات.

والمرأة في قلب باب الساحة. المرأة في قلب أعمال سحر خليفة، ولكن.. أية امرأة هي التي تطالعنا بها الآن؟ الشخصيات النسائية في الرواية: نزهة وزكية وسمر، هي التي تحظى بالقدر الأكبر من الاهتمام والتفصيل. كلهن واقعات تحت قهر الرجل، بشكل أو آخر، بدرجة أو أخرى. ونكتفي بما حدث مع سمر فهو دليل ناصع: جاء منع التجول وهي في بيت نزهة، ولم تستطع العودة لبيتها إلا بعد أيام، وهي تعرف ما يترصدها من عقاب على أيدي إخوتها القساة الساخرين بالمرأة ودورها، وتفكر: «الواقع يتغير والانتفاضة نفضت عنا الغبار وهزت الأرض بلا إنذار».. لا للمظاهرات» وفوجيء الإخوة بالمظاهرات تأتي للنسوة في قعر الدار.. «لا للخروج والبهدلة».. وجاءت البهدلة إليهن في غرف النوم، واشتبكت النسوة بالأيدي، وصِحْن وتبادلن الشتائم والتحمن بالجند وهنّ في ملابس النوم والشعر المنبوش، وبعد بلدنا ما لنا دين، أيام ذهبية كالميلاد.. يولد المرء في الثورة مائة مرة ويموت ألوفًا لا تحصى..». لكن هذا الوعي الناضج والحس المتوهج لا يحولان دون إحساسها بالمهانة حين تتساقط ضربات الأخ الأكبر على كل مكانٍ من جسدها حتى تركها حطامًا.. «وانطلق الأذان فجاة فأحسست بالموت، فلا الاحتلال ولا الجيش ولا كل عفاريت الأرض أقدر على سحقها أكثر مما سُحقت..» إنما في هذا المشهد تبلغ هجائية سحر خليفة للرجل قمتها، حتى الصيغة الجديدة «للرجل الملثم» لا تنجو منها. نعم، هي هجائية للرجل: الحاضر والغائب، المناضل والمتخلي، الشاب والشيخ، الأب والأخ والزوج، وفي هذه الهجائية يشغل «السياسي» أو «المناضل» مكانه الذي يليق به، وثمة حكاية مترددة عن المناضل الذي يتخلى عن رفيقته في النضال، ويتزوج من سواها، ويقطع ما بينه وبينها، أو يبقيها عشيقة في أفضل الأحوال!

ها أنت ترى: تشغل سحر مقعدًا بين المقعدين، وقد أعادت صياغة السؤال: تحرير المرأة أم تحرير فلسطين، ليصبح: قهر الاحتلال أم قهر الرجال؟ (لمن شاء مزيدًا من التفصيلات عن الأعمال سالفة الذكر، راجع، من فضلك: «قراءة في أعمال الكاتبة الفلسطينية سحر خليفة» في «أوراق أخرى من الرماد والجمر»، القاهرة، ١٩٩٠، وكذلك: «نساء نابلس في ظل الانتفاضة» في «من أوراق الرفض والقبول»، القاهرة، ١٩٩٢).

ومازالت السيدة سحر تتابع مشروعها الروائي، فاتحة لقارئها نافذة يطل منها على الواقع الفلسطيني في ظل قيام «السلطة الوطنية» بعد أوسلو. وفي هذا السياق قدمت «الميراث» في ١٩٩٧، ثم «صورة وأيقونة وعهد قديم» في ٢٠٠٢، وهما موضوع هذا الحديث.

ومن الواضح أن الروائية لا تعني هذا «الميراث» الذي استُدعيت «زينب» أو «زينة» من حيث تقيم وتعمل في واشنطن إلى «وادي الريحان» في الضفة، قريبًا من نابلس لتثبت حقها فيه قدر ما تعني «الميراث» الفلسطيني الذي تراكم عبر سنوات طويلة من الحياة والنضال. زينة نموذج فتاة من أب فلسطيني نزح إلى أمريكا وعمل بائعًا يحمل الأشياء على ظهره ويدور بها بين البيوت، واستطاع - «بفهلوة شرق أوسطية» كما تقول - أن ينجح في امتلاك بقالة في بروكلين، وحين تزوج من الأمريكية حصل على «البطاقة الخضراء» وحصل على زينة، ثم كان الطلاق وحين حبلت زينة وهي في الخامسة عشرة هربت من أبيها ولجأت إلى جدتها لأمها، وعاشت معها كل تفاصيل الحياة الأمريكية، وهي الآن في الثلاثينيات، أستاذة جامعية وعالمة ناجحة في مجال عملها «الانثروبولوجي»، لكنها تحس إحساسًا راسخًا بأنها كائن هجين ليست عربية وليست أمريكية، ليست مسلمة وليست مسيحية، لذا رحّبت بالرسالة التي جاءتها من عم لها يقول لها ما معناه «عجّلي قبل أن ينقطع الخيط ويسقط حقك في الميراث». يعني ميراث الأب الذي لم تره زينة مرة أخرى إلا وهو في النزع الأخير.

أعطت الروائية لزينة رخصة شاملة، فنحن نرى الأحداث والأشخاص من وجهة نظرها وحسب روايتها، لكن هذه الرخصة الشاملة تتيح لها أن تمارس امتياز المؤلف العليم بكل شيء. فترى الأحداث التي لم تكن شاهدة عليها، وتكشف عن السرائر والخواطر والأفكار والمشاعر. وكان طبيعيًا أن تقيم في بيت عمها في وادي الريحان، وأن تعرف أبناءه: مازن، الذي يبدو الشخصية الرئيسة في الرواية، إنه الثائر المهزوم.. «كان بلبنان وانفجر فيه لغم صغير طيَّر قدمه، تعالج في موسكو وأمريكا، وعاد بوساطة إلى الضفة..»، و«كمال» مهندس يقيم ويعمل في ألمانيا حيث درس وتزوج، سيأتي إلى الضفة بعد قيام السلطة الوطنية لينفذ مشروعاً فكر فيه وأعدَّ له الدراسات اللازمة. بعدهما يأتي «سعيد»: الوحيد بين الأبناء الذي لم يتم تعليمه، يمتلك مصنعًا «للطوفي» في نابلس وخمسة أولاد، ثم «نهلة» التي قضت عمرها معلمة في الكويت «ثم طُردت مثل كل الناس بسبب الحرب..»، في الخمسين لم تتزوج. إلى جانب هؤلاء ثمة «فتنة» امرأة الأب التي مات عنها وأمها «أميرة» وقريبهما «عبد الهادي بك» وهم جميعًا ينتمون لعائلة مقدسية عريقة (كانت معها مفاتيح الأقصى) ويقيمون في القدس. ومن الجيران والأصدقاء ستتعرف إلى «فيوليت» التي تملك محل كوافير، وأمها الممرضة المتقاعدة، وأخيرًا هذا «السمسار» الأمي الثري من أقارب زوجة العم، سيقدر له أن يلعب دورًا مهمًا في أحداث الرواية: سوف تتعلق به نهلة: هو الرجل الوحيد المتاح وشمعة أنوثتها مهددة بالانطفاء، وتهرب لتتزوجه فتقوم قيامة أبنائه العشرة، وتتعقد الأحداث حين يخطفون نهلة، فترى وجهًا آخر - وجهًا «سفليًا» لو صح التعبير - للمدينة التي قدمت سحر كل وجوهها.

الحياة الفلسطينية بين انتفاضتين

من بين الخطوط الكثيرة التى يمكن متابعتها فى «الميراث» (خلْ جانبًا الميراث الذى استُدعيت من أجله زينة، فقد عمدت امرأة أبيها إلى عملية تلقيح صناعى فى مستشفى «هداسا» كى تنجب ابنًا!) سوف نختار خط التغيير الذى حدث فى الواقع بعد قيام السلطة الفلسطينية: حين جاء كمال من ألمانيا كان لديه مشروع لتدوير الزبالة وتنقية مياه الصرف، فى محطات مثل تلك التى عرفها فى فرانكفورت. وسوف تكون خطوات هذا المشروع، وقد شاركه فيه السمسار، نافذة فسيحة نرى منها الواقع. أما مازن فلديه مشروع آخر يحدث به زينة: «بيت ضخم أو قصر قديم مهجور، نعيد إليه سمات الحياة، نجعل من القصر دار ثقافة، منتدى للفكر، ومجمع فنون..»، وسوف نرى ما ينتهى إليه المشروعان.

قال السمسار لنفسه قبل أن يقرر مشاركة كمال، بعد أن رفض أبوه بيع جزء من أرض البيارة لمشاركته: هذا أوان تصنيع، الكل يتغنى بالصناعة والتصنيع، الضفة ستكون هونج كونج العرب، وغزة تايوان الشرق.. «فإذا اجتمع برجل العلم، قلنا الصناعة فى الجيب..»، لكن الذى حدث كان شيئًا آخر: أمهر السمسار عروسه الجديدة أسهمه فى الشركة، وحين قام أولاده بخطفها وإرغامها على التنازل آلت الشراكة إلى سعيد، صاحب مصنع «الطوفى»، «سقط العائلة» كما يسميه أبوه.. «وهكذا انقلب المشروع وعادت الرائحة لتملأ الجو وتملأ خياشيم المارة وسكان الدور والقرى المجاورة وحقول القمح، وامتلات المنطقة بالجرذان والضفادع وذباب أزرق وثعابين، وشاع جو من التعاسة والاشمئزاز..»، وأوفدت الروائية مندوبتها زينة كى ترى ما آل إليه المشروع: «ما هذا القبح؟ ما هذا القرف؟ ما هذا المشهد والكارثة؟ (...) هبّت الريح من الغرب فحملت إلينا رذاذ النضح والبكتريا من مراوح ضخمة خرافية تدور فوق أديم البرك. أما البرك فحاش الله! أية مصيبة.. أية جريمة!». ترتب على هذا الفشل أن قرر



كمال العودة لألمانيا والبقاء هناك، أما مازن فقد رأى فيه صورة لما آل إليه الوضع كله، هاهو يتفلسف: «قامت الثورة ولحقها الناس، دخلها المثقف والأزعر، دخلها المفلح والفاشل، وقادت الناس إلى هذا، وقبل ذلك قادتهم هناك وعصرتهم، أخذت عصارة نسغ الحياة، خلفت جيلاً غير مؤهل، غير كادح، ينام إلى الظهر ويسهر إلى الصبح، يتواصل عبر الطيارات والمطارات، يعيش بحلم فقد بريقه، فقد الأسطورة والأحلام وعاد إلى ما ثار عليه وبات قبيلة، بل قبائل، وشيخ القبيلة هو المرجع، وحين غربلنا القبيلة خرجنا بهذا: رأس واحد والكل قطيع. قطيع رؤوس ورؤوس قطيع»!

أما ما انتهى إليه مشروع دار الثقافة فكان أفدح وأفضح، وأكثر دلالة وكشفاً. كان أشبه بعدسة جمعت كل الأشعة المتناثرة فى الواقع وركزتها فى بؤرة واحدة. عن غشم وجهل بالواقع طبع مازن آلاف الدعوات والبرامج، فتجمّع الناس من كل صوب حتى ضاق بهم وادى الريحان. والقلعة القديمة - التى كانما اكتشفوا وجودها فجاة - جسدت لهم وهم أن لديهم «آثارًا» و«مواقع سياحية» تستحق أن يأتى إليها الناس من كل مكان، فتزدهر أمورهم وتنتعش. ومادام الناس قد تجمعوا فلابد أن تقام نقاط التفتيش العربية والعبرية (بتعبير الرواية: «انتشرت نقاط التفتيش من الجانبين، جانب العرب وجانب اليهود، أى جانب السلطة وسلطتها!») وحين بدأ الاحتفال وسط الصخب والفوضى والضجيج لم ينتبه أحد إلى أن القلعة ووادى الريحان قد عزلا تمامًا عن العالم بقوات أمن إضافية، ثم.. «لا أحد يعرف بالتحديد سبب انفجار ذلك الحفل واندفاع الناس إلى الخارج والاشتباك مع الشرطة وقوات الأمن فى أعنف مواجهة حدثت بين الناس والحجارة». ماذا بوسع مازن أن يفعل بحشد الصحفيين والقناصل والمحافظ نفسه؟ ماذا يفعل والسيدة فتنة لم تجد وقتًا لولادة طفلها - ابن هداسا والتلقيح الصناعى - إلا فى كواليس الاحتفال ذاته؟

إليك ما انتهى إليه الموقف، وانتهت به الرواية كلها: ثمة طريق التفافية وراء القلعة لكنها تمر بمستوطنة «كريات راحيل»، والطريق الآخر تقف فيه السيارات رتلاً طويلاً أمام نقطة التفتيش الإسرائيلية، مازن: الثورى الذى كان اسمه مازن جيفارا اختار فى البداية الطريق الأول، وحين أنكره أبوه وأخوه وتردد المحافظ، لم يجد سوى الآخر، وراح يقطع الساعات الطويلة بالحديث إلى المحافظ (لنا إليه عودة)، وفى الجزء الخلفى من سيارة الإسعاف فتنة وأمها وبينهما الطفل الوليد، ماتت فتنة بعد أن نزفت دمها كله، ثم «هجم جنديان على مازن وسيارة الإسعاف وهما يصوّبان السلاح ويصيحان: «وقّف.. وقّف»، وضربه أحدهما بخشبة الرشاش على رأسه فسقط، أفاق الطفل وأطلق صرخة، نظرت الجدة إلى الجنود وإلى ابنتها، وصاحا ثانية وصاح الطفل، وقال أحدهم وهو يصوّب بوز الرشاش: «بقول وقّف..»، فقالت بهدوء: «حاضر.. حاضر»، ومدت يديها لهم بالطفل وهو يصرخ وقالت بهدوء ورأس مرفوع، بالإنجليزية: «Thank You Very Much, This is Your Share» (شكرًا جزيلاً.. هذا نصيبكم)». هكذا إذن استرد الإسرائيليون بضاعتهم، ولم يقدر.. لابن هداسا.. أن يكون حفيدًا لعائلة «الشايب» المقدسية العريقة. واستنتج من هذه النهاية ما تشاء!

إن اختيار الروائية لشخصياتها كان دقيقًا، هادفًا لرسم صورة الحياة على أرض السلطة الفلسطينية بوجه عام، ونابلس وما حولها بوجه خاص. لدينا عائلتان يمكن أن تعدا «نموذجيتين»، ولكلٍّ منهما نصيب من «الميراث»، لننظر إليهما عن قرب: عائلة العم «أبوجابر»: أولاده جميعًا كانوا بالخارج عدا واحدًا هو أكثرهم غباءً وتخلفًا.

أولهم مازن: الثورى المهزوم، يقول عن نفسه وحياته فى لحظة سُكر وبَوْح: «عمرى ضاع على حكى فاضى، وما بقى فىّ غير حلاوة الروح.. (..) طبعًا جيفارا سيد الكون لأنه الفدائى المتزنر بحزام الموت، وأنا اللى حاطط روحى بكف والوطن بكف. وهلقيت لا باقى روح ولا كف ولا حتى وطن. راحت الشعلة من إيدى وصرت الضايع فى سوق مسروق كله عتمة. من موريتانيا لحدو إيران، ومن القاهرة حتى الظهران.. كله عتمة!» وتصفه صاحبته فيوليت فتحسن وصفه وتبلغ أعماقه: «هو من لعن الشعب وهو سكران وهو صاحٍ، وهو محبط، هو من تكبّر على أهله وعلى المزرعة والوظيفة، وبقى يتخمع هنا وهناك.. هو من تكبّر عليها وعلى كل امرأة مرَّ بها (..) هى حلأقة وهو ثورى، هى تحكى لغة بسيطة وهو يحكى لغة كبرى، لغة التحرير والقضية». ويراه أبوه.. «تعبان ومتعب الناس من همومه... داير من دار لدار ومن بنت لبنت وبين الأصحاب والقهاوى.. لما كان يحكى سياسة قلنا: آمين.. طب وبعدين؟ بعد السياسة ووجع الراس ايش ناوى يعمل بحياته؟ لا عنده شغل ولا وظيفة ولا مرة ولا ولاد ولا سيارة. ايش آخرتها؟ (..) شبعنا أمرا وسياسة، وشبعنا ناصر وجيفارا.. يا ولدى قوم، يا ولدى فيق، ايش بدك تصير، ايش بدك تعمل بباقى عمرك؟.. (..) الأشياء واضحة وما بدهاش واحد عيونه مفتوحة، لكن مازن ليش مابيشوفهاش؟». هكذا يرى نفسه وتراه صاحبته وأبوه، أما نحن فنراه مناضلاً سابقًا، يتعالى على العمل والزوجة والأبناء وهموم الناس، يهرب من الممكن إلى المطلق، مهزوم يلوك هزيمته، ولا يفعل شيئًا سوى «طق حنك» فارغ!

كمال كان، منذ طفولته، مجتهدًا مقبلاً على العلم والدراسة، كان دائمًا «غير» كما تصفه أخته، فى ألمانيا تفوق فى علمه وعمله، ثم أعاده الحنين إلى وطنه، شىء فى أعماقه كان يناديه كى يعود، أعطاه الغرب كل شىء كواحد منهم، لكنه لم يحس أبدًا أنه منهم، كتب إلى أبيه «يابا دنياهم ما بترحم..»، وهو يريد استعادة إحساسه «يريد أن يحيا بين أناس لا يولدون فى مختبرات، يريد أن يأكل فاكهة من غير لقاح أو تطعيم، يريد أن يجلس بين الناس على الأرصفة أو فى المقهى، ويأكل كنافة أو تمرية.. يريد أن ينسى أنه عاش فى الغربة مثل الحصان..» غير أن تجربته بعد أن عاد كانت مريرة: رأى قبح الواقع وفساده وتعقد خطوطه، أخفق مشروعه العملى كما رأينا، واكتمل إخفاقه حين سعى لتخليص نهلة بعد اختطافها، ولقى الضرب والمهانة من أبناء شريكه القديم، وكانت آية غربته وانفصاله التام عن الواقع اقتراحه بحل مشكلة نهلة عن طريق سفرها إلى ألمانيا!

ثمة ابنان آخران يعيشان فى الإمارات، أحدهما مهندس والثانى محام، لا نراهما ولا يرد ذكرهما إلا على نحو عرضى، لكننا نرى سعيد أو «سقط العائلة» بغبائه وسوقيته وامرأته وأبنائه الخمسة، يعيش فى نابلس، فى منطقة اسمها «المخفية»، عاشت معه نهلة يومين، مرغمة، أثناء حصار المدينة بعد عملية فدائية جريئة: «أغلقت المدينة وحوصرت، وفُرض نظام منع التجول وبدأت حملات التفتيش المسعورة عن الفاعل، لكن الفاعل اختفى فجاة كما جاء فجاة، انشقت الأرض وابتلعته كما أنبتته. فلم تجد السلطة مخرجًا إلا باتباع الأسلوب نفسه الذى ما عاد يخيف أو يضايق أحدًا. فالناس اعتادوا التفتيش ومنع التجول والإضراب وإغلاق الشوارع والدكاكين وتعفن الخضر والفواكه وامتلاء المدينة بالقاذورات وانفتاح المجارى والبلاعات وتهرؤ الأرصفة والأسفلت وانكشاف عظام المبانى وانكشاف عظام البشر..». داخل هذا الحصار حصار ثان فى بيت سعيد. سعيد هذا هو الذى سيحاول قتل نهلة حين عرف نبأ زواجها، رأت زينة المشهد فأعادها إلى ماضيها الخاص، حين اقتحم أبوها بيت جدتها فى واشنطن ليقتلها بعد حملها وهروبها قبل أكثر من عشرين سنة، وتعلّق زينة: «لو أن أحدًا أنبأنى أنى ساعود إلى

الماضي عبر نفق الزمان لما صدّقت، إذ بات الماضي هو الحاضر، ولا فرق كبيرًا إلا بالصوت والصورة..». (أليس هذا بعض الميراث؟)، وسعيد هذا نفسه سوف يسعى لإطلاق سراحها، وسيكون الأقدر على التفاهم مع أبناء السمسار، فهو يعيش واقعهم نفسه ويتكلم لغتهم نفسها، وسوف يدفع الأمور بحيث يحلُّ شريكًا محل أخيه.

بقيت نهلة: امرأة سحر خليفة النموذجية، التمرين المشهور الذى تقدمه تدليلاً على صحة قضيتها، وطبيعي أن تحظى بالنصيب الأوفى من تحليل أفكارها ومشاعرها ورؤاها للحياة والناس. كانت فتاة جميلة نضرة حين خرجت تعمل معلمة في الكويت، وظلت هناك، تعمل وتدفع للجميع، وهاهى اليوم عانس وحيدة في الخمسين. إنها تنفض همومها أمام زينة، تتحدث عن مازن وعن الآخرين: «قاعد بلا شغلة ولا عملة وداير عامل لى جيفارا وقيس وليلى.. هذا اللى صرفت عليه من شقا عمرى وعرق الكويت عشان القاه؟ هذا، وهدول كلهم، كلهم عصرونى مثل الليمونة وراحوا لحالهم.. داروا الدنيا وداروا ظهرهم.. صاروا مهندسين ما شاء الله وأنا في الكويت زى البقرة أحلب وأعلّم وأربى.. (..) سنة ورا سنة لما صاروا العمر، والعمر مر وسنين ضاعت وصحيت لقيتني ختياره بلا جوز ولا بيت ولا مين يناديني! ماما.. هاى آخرتها. هاى آخرة نهلة بنت عمك، بقرة منسية في الماخور بعد ما نشفوا حليباتها..».

ألا يبدو معقولاً وطبيعيًا وإنسانيًا كذلك أن تتعلق بالقشة الأخيرة التى لاحت في أفق حياتها؟ ولا تحسبها غافلة عن حقيقة من اختارت. هل اختارت؟ أدمنت نهلة الجلوس أمام مرآتها، تخلع وتلبس، تتجمل وتتطرى، في جلوسها هذا تتحدث إلى نفسها حديثًا طويلاً بعاميتها المعبِّرة، من هذه المونولوجات تتكشف أعماق عانس في الخمسين: «بدأت تكبر، بدأت تشيخ، الدورة تغيب وتنقطع.. ذهبت للعلاج عند الدكتور فقال الدكتور: «هذا طبيعى، هذا أوانها». بكرة بتقطع، نهلة الحلوة الحركة النغشة تقطعها؟ لم تبدأ بعد لتقطعها! لم يبدأ الخصب لتقطعها، ولم تجربه ولا مرة، مرة في العمر، مرة واحدة.. ». بهذا التوق الجارف، إذن، اندفعت نحو الرجل وهى تعرف ماضيه وحاضره تعرف أنه أمي جاهل متخلف، بدأ حياته يرعى الغنم ثم «صار يتاجر بكل شيء حتى «اختمر» أى حوّش خميرة للمشروع، وكان المشروع شراء الأرض بسعر البلاش من الفلاحين، وبيعها للمدن بسعر الذهب، وهكذا صار غنيًا»، ولكن ماذا بوسع نهلة أن تفعل، والحب كما تقول، يأكل العقل، ويجعل من المرأة الحرة عبدة ذليلة لعواطفها، ويجعل من الرجل المحموم الذى ما ذاق غير ابنة عمه عديمة الطعم، رجلاً حمشًا على استعداد للاستشهاد في سبيل الحب والمحبوبة.

هذا ما تقوله نهلة لنفسها، وأرجو ألا تصدقها فيما تقوله عن السمسار الذى هربت لتتزوجه، إذ ما أن لاحت نُذر الخطر، وخطفها أبناؤه ليرغموها على التنازل عن كل ما قيل أن أباهم منحه لها، حتى لاذ بالفرار «قطع تصريحًا وهرب من فوره إلى عمان، فعلى الأقل هناك شرطة وجيش وأمن وحكومة، أما هنا فالقتيل يُدفن بلا جنازة..»، وفي عملية البحث عن نهلة والوصول لمختطفيها تكشف الروائية عن وجه من وجوه نابلس لم تعرضه من قبل: «نابلس القديمة كالأندر جروند، عالم تتشابك أبنيته مع أقبيته ودهاليزه وأزقته وظلام الليل في وضح النهار.. (..) في الانتفاضة هرب السكان من الاشتباكات بين الجيش والشبيبة والاقتحامات المتتالية ليلاً ونهارًا.. (..) في دارٍ ما، في قبوٍ ما، كانت نهلة محوطة بالظلمة والأشباح..»، وللوصول إليها كان على أخويها - يقودهما دليل - أن يهبطا في العبّارة إلى مجارى المدينة، وأن يصعدا إلى المكان الذى احتجزت فيه. إن كل المشاهد التالية التى تدور فيها المفاوضات بين الطرفين - ويقول عنها كمال أنها «حوار الطرشان» - تكشف عن مواقف مختلفة أفرزها هذا الواقع نفسه، ثم تكشف غربة كمال وانفصاله عن واقع حياة الناس: شرطه الأول أن تطلق نهلة، والحل الذى يراه لمشكلتها كلها أن تسبقه إلى ألمانيا!

لنلق نظرة إلى العائلة الأخرى: كانت «فتنة» امرأة الأب في سن نهلة أو أصغر قليلاً، شقراء بيضاء، «مزوقة جدًا، تصطبغ بشكل غريب»، صارحت زينة بأنها كانت تتمنى أن تنجب من أبيها.. «لولا النصيب كنت عوضته وجبت لكم ولد.. (..) الولد بيحجب الميراث، من غير ولد عمك بيورث..»، وما أن لفظ الأب أنفاسه حتى سارعت إلى مستشفى هداسا وأتمت عملية التلقيح الصناعى. تقول لأمها وهى تحاول إقناعها «بنظافة» ما فعلت: «ما عملت شيء يزعل الله، كلها عملية عملها الدكتور في المستشفى وهو لابس كفوف وكمامة ومعاه ممرضة..»، غير أن أمها ترفض ما فعلت، «فالست أميرة «شيء مختلف» هى سليلة عائلة «الشايب» المقدسية العريقة، هى التى أحبّت عبد الناصر وآمنت به، وبمصر. «كانت تحس بأن حب القدس هو حب مصر، وحب مصر هو حب القدس، وخان الخليلى وباب العمود هما في الواقع من الظهر نفسه، وأن الجنين في أحشائها ليس سليل آل الشايب ولا سليل القدس فقط، بل هو سليل عبد الناصر، وحين



ولدته قالوا لها: «ماذا نسميه؟»، قالت بوجد وهى تستمع لأم كلثوم «طبعًا ناصر»، وكان ابنها عبد الناصر، أما فتنة فماذا تسميه؟ تسميه هداسا؟ تسميه كهانا؟ تسميه شلومو؟»، وقد رأيناها كيف أعادت طفل هداسا إلى آبائه بعد موت ابنتها.

ابن عمها، وكبير عائلة الشايب، نموذج فذ في الواقع الفلسطيني، تقول عنه إنه علامة ومؤرخ وسياسى وعارف بالأنساب والأصول، لكن زينة تحكم عليه، من النظرة الأولى، بأنه «قمىء قبيح»، كانوا ينادونه بالباشا والبيك، لأنه عمل في بلاطات عدة عواصم، عربية طبعًا، قنصلاً أو مستشارًا، ثم إنه من مدينة عريقة وعائلة عريقة ودار ورثها عن الأجداد تشهد بالعز القديم، أما زينة فقد رأت فيه، بعد قليل، «خروفًا محشوًا بصنوف الدهن، من غير عضل..»، وقد نفرت من حديثه عن الماضى: أيام المرحوم الحاج أمين «الحسينى» كانت الدنيا دنيا..«كان القائد يرفع الرأس بأصله وفصله وطريقة لبسه، فاللبس مهم جدًا..»، أما اليوم «فمن هم قادتنا سوى الزعران؟»، وتستطيع أن تتوقع، بطبيعة الحال، ماذا يمكن أن يكون رأي مازن فيه، وهو ليس سوى واحد ممن كانوا يطمحون لأن يكونوا بين الزعران!

لكن فيوليت هى التى تعريه وتفضحه وتكشف ستره: مندفعًا بأوهامه ورؤيته الفاسدة للحياة والناس، قرر أن تكون فيوليت عشيقته، وقرر أن يكون هذا الأمر سرًا.. «فماذا يقال لو انتشرت قصته مع فيوليت بين الناس؟ يقال الشايب مع حلاقة؟ يقال الشايب سليل العز ووريث مفتاح القدس مع نصرانية؟ يقال أصغر من بنته؟»، والمهم أنه قرر هذا كله دون أن يعرف رأى فيوليت في هذا كله! هذا موقف نموذجى تستعد له الروائية جيدًا، والحوار المتبادل بينهما - في غيبة الأم التى تجهز العشاء بعد أن فرض البيك زيارته عليهما - أشبه بمبارزة حامية بين طاووس منتوف الريش، من ناحية، وفتاة ذكية حساسة، ذات جمال وكبرياء، من الناحية الأخرى، أطاحت به وبسيفه المفلول في نهايتها: «كان صوتها أعلى مما يجب، قد يصل للناس، فبدأ يخاف: يعنى أنت بدك شرموطة، شرموطة نظيفة وظريفة وكمان ببلاش! (..) وقف دون أى تعليق، نهض بتلكؤ ودون ضجيج (..) هزّت رأسها بهزء ومرارة وأوصلته نحو الباب، وحين خرج وهو يمشي نحو الدرجات رأته قصيرًا وصغيرًا، رأته أقصر مما هو، وهى طويلة..». هكذا: حققت انتقامها - هى وبقية النساء - من البك وبقية الرجال كذلك!

غير أنها - فيوليت - تلعب دورًا آخر في هجائية لون خاص من الرجال، هم الثوريون، أو بالأحرى: المشتغلون بالثورة. إن فيوليت، الجميلة الذكية، التى تعزف على الجيتار وتغنى للحب، تسترجع علاقتها بالرجال، وتقف عند هؤلاء فتطيل الوقوف، ربما كان رجال «وادى الريحان» لهم العذر في أن تكون المرأة عندهم مجرد جنس لا أكثر «هم عمال وفلاحون سرقتهم مصانع إسرائيل من مزارع مقفرة مهجورة ما كانت لهم..»، ولكن: أى عذر للسياسيين والقادة؟ إنها تتذكر، بمرارة، زميلاتها في «ثانوية صلاح الدين» في القدس، وترسم صورة واقعية ساخرة لكيفية استدراجهن من جانب «سياسيين كانوا هم القادة، وكانت أصداء مقالاتهم وتلك الأشعار تثير الضجيج في كل مكان»، وصبايا السبعينيات مبهورات بهم، ينظرن إليهم من خلال الهدير وتهليل الناس، وتبدأ عملية الاستدراج: يبتسم لها واحدهم ويقول: «تمام.. أنت المرأة، وأنت الرفيقة، وأنت الصديقة، أنت الأمل والتغيير. أسمعتِ بروزا لوكسمبورج؟ فتقول: لا، أسمعتِ بمايا تيرشكوفا؟ فتقول: لا، اسمعتِ بمايا جولدمان؟، فتقول: لا، أسمعت وسمعت وسمعت؟ وتصمت خجلاً ويبدأ العرقُ يتصبب فيقول لها بعطف آسر: يا مسكينة، ولسه عايشة؟ تعالى معى، تعالى أعلمك فنون الحياة، ويأخذ بيدها ويدخل بها قاعة وأخرى وأخرى وأخرى، ثم دكانًا وتكية، وآخر يدخل وآخر يدخل، وهى الأخرى مجرد أخرى، ثم السقوط، تسع فتيات تعرفهن مررن بهذا، وسقطن سقوط البغايا. الفرق الواضح أن البغى تقبض ثمنًا، أما الفتيات فُرحنْ ببلاش وقبضن الثورة والتحرير..»، وحين تصل فيوليت إلى الاقتناع التام بأن الرجال حالة ميؤوس منها في هذه البلاد، تقرر الهجرة إلى أمريكا.

وقد لا يكتمل النظر إلى الشخصيات الرئيسة في العمل دون إشارة سريعة إلى «المحافظ»، رجل السلطة الوطنية، الذى حوصر أمام نقطة التفتيش الإسرائيلية، فراح يقطع الوقت بالثرثرة مع مازن، يقول له ولنفسه ولنا ما يكشف عن تكوينه العقلي والنفسى وماضيه النضالى، لا شيء لديه سوى ما بقى من تلك الكتب القليلة التى قرأها في الخمسينيات، ولديه اقتناع راسخ بأن أمريكا سوف تتغير من الداخل، سيغيرها السود، مثلما نقلت البسكليتات والزى الموحد الصين والصينيين من حالٍ لحال، لا عجب إن

أحس بغربة شديدة بين الناس رغم أنه ابن هذا القضاء ذاته. «غير أن سنوات الغربة والمنفى في الظهران ولبنان ثم تونس أبعدته عنهم «وهم لهذا لا يشعرون بأنه منهم، أو بالأحرى لا يعرفون إن كان منهم أو «منهم»، أي نحن وهُم. وهذا يعني لغة أخرى، فعلاً آخر، شعبًا آخر ومنفى آخر، منفى جديدًا لم يجربه أو يسمع عنه: أنت في بلدك ولست ببلدك...».

تلك صورة الحياة كما تقدمها سحر خليفة، وهذا هو «الميراث» الذي بقي لجيل الحاضر في فلسطين. في المطار كان عم زينة يودعها. للمرة الأولى منذ جاءت سالت دموعها وهي تؤكد لعمها أنها «راجعة، راجعة، والله راجعة». فهل ترجع حقًا؟

إذا كنا التقينا في «الميراث» بعائلتين فإننا نلتقي في «صورة وأيقونة وعهد قديم» برجل وحيد، أو بالأحرى رجل يحاول العثور على ما يتصور أنه عائلته: امرأة عرفها ثم هجرها قبل أكثر من ثلاثين عامًا، وشاب يظن أنه ابنه منها. وقد لا نكون بحاجة لاستباق القول إنه عاد من رحلة بحثه خلو اليدين (ما أصدق ما يقول المتصوفة: إن كنت تريدني حقًا، فلم هجرتني؟)، لكن الرواية هي - على نحو آخر - رواية القدس: القدس التي كانت والتي أصبحت.

هو إبراهيم وهي مريم، بكل ما يثيره الاسمان من أصداء ذات طابع ديني ومقدس، لا عجب، فنحن في أرض الأنبياء، وإنْ لم نعد في عصرهم. تحابا في أول الشباب، كان هو معلمًا في قرية إلى جوار القدس التي تقيم فيها عائلته. أما هي فكانت عائدة لتوها من البرازيل، حيث هاجر أبوها وحيث يقيم ويعمل إخوتها السبعة..«ناس يقولون رجعت لتتزوج من قريب في القرية، وناس يقولون رجعت لتترهبن وتدخل الدير، وناس يقولون رجعت البلد لتُخْطَب لأن البنت فلتانة هناك...». أما هي فقد اعترفت له - بعد أن أسقط الحب والشباب كل الأقنعة - إنها أحبَّت راهبًا جميلاً هناك، وحين عُرفت الحكاية قال الإخوة إن البلاد أحسن وأستر، هناك تتزوج وتنساه. هكذا جاءت القرية مع أمها شبه العمياء. يقول لنفسه معددًا الفوارق بينهما: هي مسيحية وأنا مسلم، هي غنية وأنا فقير، هي تعرف الدنيا والقارات وأنا لم أصل حتى بيروت، هي من طينة وأنا من طينة أخرى. رغم ذلك ربط الشباب وتأجج العاطفة بينهما، وفي القدس عاشا أجمل ساعات عمريهما، في زيارتهما الأولى، ما أن دخلا من باب العمود إلا وصارت أخرى..«صارت ماري، سائحة مجنونة مذهولة تشهق وتصيح وتناديني: إبراهيم.. إبراهيم.. شوف، ما أحلاه...». انتقت ثوبًا فلاحيًا مطرزًا، وضاعت منه في كنيسة القيامة ثم وجدها، وبعد القداس «خرجنا بصمت وهي لصقي كأنها جزء مني، ومن هناك صعدنا الأدراج إلى الحارات والأزقة ودخلنا ديرًا للأرمن، وفي إحدى الزوايا تعانقنا حتى ارتطمت فجوات العظم...». في تلك الليلة باحت له وحدثته عن غربتها: غريبة في أرض الوطن، وغريبة في تلك الأرض البعيدة، وحيدة بين الإخوة، وحيدة بين الأغراب، لا تجد نفسها إلا في القدس، في دير مظلم تختبئ فيه، تحب الرقص وتحب الله وتحب أن تلبس كل جميل وأن ترى صورتها في المرآة. في زيارتهما الثانية قضيا الليلة معًا في «هوستيل» قادته إليه.. «دخلنا الهوستيل وجه الصبح، وكان الأذان في الأقصى يعلن القيام وصلاة الفجر.. وقفنا في الساحة العلوية ورأينا القدس تغرق في الندى وضباب الفجر والياسمين يصل إلينا.. ينضح شذاه وأنسامه فيعطر الجو ويطير بنا فوق القباب والجرسيات. ومع الظلمة اكتشفت النور وظلال الجنة في امرأة جُلبت من نار. تلك المرأة باتت ملكي...»، وفي القرية واصلا لقاءاتهما مستفيدين من ضعف إبصار الأم، لكن الحمل فاجأهما، ولم تُجْدِ الوسائل الشائعة في التخلص منه، وبدأ هو يتهرب منها، وتزامن هذا التأزم في علاقتهما مع التأزم في الوضع العام: عبد الناصر أطلق بيانات عن شرم الشيخ فاشتعل الجو، وراحت إذاعات العالم، و«صوت العرب» تُرغي وتزبد، وامتلأت القدس بأقواس النصر وصور عبدالناصر.. «واجتاح الهياج كل شارع، وركب الشباب السيارات والشاحنات وهم يُلوحون بقمصانهم ويرددون: «يا فلسطين.. جينالك»، وغنى كبار المطربين أغنيات النصر والحرية ووحدة العرب المنبثقة من قلب القدس...»، وقبل الحرب مباشرة وصل اثنان من الإخوة وحاولا قتل إبراهيم، وسط هذا الهياج كله «ضاعت مريم وضاعت ذكراها وضعتُ أنا وضاعت القدس...».

الآن.. ماذا يريد هذا الرجل الستيني الذي عاد، كيف ولماذا عاد؟، واضح - مما يرويه عن نفسه: هو الراوية في أقسام الرواية الثلاثة - إنه أتم دراسته في تلك الجامعة الإنجليزية التي كان يراسلها، ثم تنقل بين الشركات والعواصم، تزوج وطلق، أمريكية ونمساوية وعربية، وفي السعودية التقى بأخته وزوجها، وعمل في مشروع الحجارة الذي بدأه أبوه، وكان يرفض مشاركته فيه (استخراج حجارة الضفة ونقلها لبناء العمارات والقصور في السعودية والخليج)، يقول: «انتعشت السوق وتدفق النفط، بتنا نعوم في البترودولار، فدخلت السوق وامتطيته وجلبت الحجارة والعمال من الضفة.. (..) ثم تعاطيت المقاولات في حرب الخليج وزوّدت الجيش الأمريكي بالمناشير والجرافات لحفر الخنادق وشق الطرق، وهكذا صرت ثريًا بالملايين...»، وشأنهم جميعًا: لا بأس بغسل أمواله وتطهير روحه: فتح مؤسسة لرعاية الأرامل واليتامى في فلسطين فعُرف بأنه محسن كبير وراعية للأدب، وعاد مع العائدين (بعد ١٩٩٣ طبعًا)، اشترى دارًا فخمة في رام الله، يعيش فيها وحيدًا مع خادمة فلبينية وطباخة مغربية «لكن لا حب ولا زوجة ولا ولد ولا بنت ولا أصدقاء...»، ولكن بجواز سفر جديد أحمر ذي امتيازات، وهو يعي التغيرات ويوظفها لصالحه.. «عالم مختلف عما عرفنا» في الستينيات والسبعينيات والتسعينيات.. صرنا بالألفين.. صرنا سلطة. أنا سلطة مال وأنفذ منها لسلطات الحكم وما يحدث خلف الكواليس، صرنا فلسطين بدل الضفة، وصارت أمريكا هي المرجع بدل السوفييت، راح السوفييت وراح العالم باتجاه السوق وتخصخصنا. بتنا فلسطين المخصوصة والمقصوصة وتغيرنا. بتنا أتباعًا لا ثوارًا. بتنا شظايا...».

القسيس الذي شهد علاقته بمريم في القرية وتطوراتها أصبح مطرانًا كبيرًا في القدس، معاديًا للاحتلال متخذًا مواقف مشهودة منه، حين التقى به وسأله عن مريم ألقى إليه ما قال إنه طرف الخيط: كان راهبًا يقول عنه المطران إنه ليس دجالاً لكنه غريب، تَرَبَّى في الدير بين الرهبان، وأتقن تدبيج الأيقونات ونحت تماثيل القديسين، ثم اتجه نحو التصوير فالموسيقى، ثم اللاهوت، ويقول عنه الناس إنه يجد المخبوء ويشفي المرضى ويرى ما يجيء به المستقبل. رحلة إبراهيم للقاء الراهب ميشيل وما دار بينهما هو قلب العمل، وهو ما يعكس رؤية إبراهيم للواقع الذي رآه على أرض فلسطين في مطلع القرن الجديد، زمن الكتابة. ولعل أهم ما رآه في هذا الواقع هو تغلغل الإيمان بالخرافة وممارسات القوى الخفية، من جانب، ثم الموضوع الأثير عند الروائية، أعني القهر الواقع على المرأة، من الجانب الآخر. إن إيغال القرويين الفقراء، أهل «الخربة» التي يقيم بها الراهب حيث قضى إبراهيم يومًا وليلة يرى ويشهد ويحاور الراهب في ممارساته، في إيمانهم بتلك القوى، وتنافسهم في رواية الحكايات التي تدور حول قدراتها الخارقة، هو ما يدفع إبراهيم إلى أن يحس بغربة كاملة.. «أحسست أني في عالم لا أمت إليه بأي صلة، كما لو كنت في السنغال، كما لو كنت في البنغال، أمن المعقول أن الثورة جاءت منهم؟ من واقعهم؟ كل الأفكار الأممية والكونية وحركات التحرر والتحرير جاءت منهم؟...» وحين تأتي الآفة الثانية، متمثلة في ارتفاع صراخ «سكينة» القروية الفقيرة وزوجها يكيل لها الضربات في قلب الليل، دون أن يبادر أحد من الساهرين في مضافة المختار إلى نجدتها، بل لا يرى أحد فيما يحدث شيئًا غير عادي يستحق التدخل، بل يقول له المختار: «سكينة مبسوطة بعيشتها (..) إذا أنت عملتها وتدخلت - لا سمح الله - بتدور عليك وبتدعي عليك وتقول: روح، أنت مالك؟ هذا جوزي وهذا بيتي وأنت شو دخلك؟..» - أقول حين تأتي هذه الآفة الثانية يبلغ صاحبنا قمة يأسه، فيندفع إلى الأدلجة والتفلسف: «لا ضوء هنا. لا ماء هنا. لا مال هنا. حتى سواعد من يبنون لا تبني هنا. فكيف، إذن، نبني أمة؟ (..) فيما مضى كنا نقول: تغيير العام يؤدي إلى الخاص، وعشنا ومتنا على هذا. كانت قناعة، بل إيمانًا. وماذا تمخض عن ذاك الفهم؟ لا قام العام ولا قام الخاص وتمرمرنا. ثم قلنا: التوعية والتثقيف، أي معناه: لا للسلاح والثورة، ونعم للوعي والتثقيف، وعشنا سنوات على هذا، فأين وصلنا: أو بالأحرى: مَن وصلنا؟».

غير أن المشكلة هنا أننا لا نستطيع أن نقبل شهادته كما هي، فهي شهادة يسهل تجريحها، كما يقول أهل القانون: هذا نموذج، بالغ الامتياز، للفلسطيني المتخلي، كان تخليه عن المرأة التي أحبها وأحبته، وجنينه الذي يتحرك في أحشائها بداية الطريق، وقاده هذا الطريق إلى الغرق في مستنقع البترودولار، لم تكفه الملايين التي جمعها من نقل حجارة الضفة لبناء القصور في صحاري النفط، في ذات الوقت الذي كانت فيه هذه الحجارة نفسها أدوات التصدي الوحيدة في أيدي الفتيان الفلسطينيين، لم يكفه هذا كله فوضع نفسه وشركاته في خدمة الأمريكيين في ضربتهم الأولى للعراق، ثم عاد مع العائدين بعد اتفاق سلام بائس، وأقام ناعمًا مرفهًا في بيته برام الله، وشاء أن



يغسل يديه وأمواله فاقام تلك المؤسسة الخيرية، ثم مضى خطوة أبعد في محاولة إلغاء ماضيه واكتساب ماض آخر لا يعود فيه متخليًا، فانطلق يبحث عما سبق له أن تخلى عنه!، ولأنه جهد عابث كان لابد أن يعود بيدين فارغتين: لم تستمع إليه مريم وأنكره ميشيل إنكارًا تامًا ونهائيًا.

ميشيل هذا يثير من الأسئلة حول مسلكه ومعتقداته أكثر مما يثير حول صحة نسبه إلى إبراهيم ومريم. إن الأدلة حول صحة هذا النسب ملتبسة مراوغة، وهو يكاد يعترف مرة ويُنكر أخرى، و«جميلة» التي عرفت جانبًا من ماضي مريم بعد أن انجبت طفلها، والتي كانت تقوم، هي، على رعايته حين كانت أمه تمضي للرقص والسهر لا تعرف أين هو، والروائية تتقصد ألا تحسم هذا الأمر، ويبقى بين أيدينا ـ نحن القراء ـ شكوك حول اسمه وتاريخ مولده، ثم حرصه الدائم على زيارة أم مريم حين كانت ماتزال تقيم في القرية قبل أن يحملها أبناؤها إلى دار المسنين التابعة للدير الذي تنتسب إليه مريم، ثم ما يراه فيه إبراهيم من شبه بخاله، هو، الفنان القديم!

أما مسلكه ومعتقده فمزيج متناقض محيِّر من الرغبة في خدمة الناس وتقديم العون لهم، من ناحية، والنأي عنهم واللامبالاة بهم، من الناحية الأخرى. يعبِّر عن الأولى موقفه حين كاد «الباص» الصغير يهوي إلى الوادي السحيق وبداخله طفل هو ابن سكينة التي سبقت لها الإشارة. يروي إبراهيم: «رأيت الراهب معلقًا بين الأغصان محاولاً الوصول إلى الموقع، كان قد فتح رداءه وربطه حول وسطه(..) ورأيته يجعل من حبله أنشوطة يشد بها أكرة الباب ثم «توفيق»، ورأيت الولد بين يديه كعصفور صغير منزوع الريش، وحين قذفه نحو الجمهور من تلك المسافة فوق الجرف فقدت الوعي..». مسلكه هذا نحو الطفل يناقض تمامًا مسلكه حين دب الشجار بين رفاقه الذين صحبهم من الخربة ليقضوا ليلة الجمعة في القدس. ولعل أوضح ما نجده تعبيرًا عن معتقده هو ما يقوله أثناء حواره مع إبراهيم قبل أن يستجيب للاستفزاز ويصارحه برأيه فيه. يقول إنه يعالج الناس بأن يعينهم على استخدام الطاقة الموجودة بداخل كلٍّ منهم: «أنا لا أفعل شيئًا سوى التكثيف، ألملم الشحنات المنفلشة وأجمعها في بوتقة فتصبح قنبلة ضوئية، وحين تنفجر وينطلق الضوء يضيء الكون، وينتشر النور وتتحرر من كل القيود..(..) قيود الجسم وقيود النفس وقيود الدين والقومية وقيود اليهود». وحين تسمع مثل هذا القول ممن في مثل وعيه ومعرفته، في ظل الشروط التي تعيشها أرض فلسطين الآن، ألا تحس بأنها دعوة جديدة، ومبتكرة، للون جديد من التخلي؟

كذلك شأن مريم، إننا لا نراها ـ خارج المستدعيات ـ إلا هادئة صامتة، لا تكاد تجيب بشيء عن الأسئلة التي تناوش حبيبها القديم. بعد البحث المتصل والتنقل وراءها من هنا لهناك التقى بها في دير «المسكوب» في القدس حيث تعتكف.. «رفعت رأسي لأجدها تقف أمامي وتتاملني. وجه محاط بالأبيض تحت الأسود وصليب ضخم، لكن الوجه لم يتغير.. (..) تبدو مرتاحة بلا أشواق..». كان كلٌّ في عالمه، لم يدر بينهما حوار بالكلمات، هو يلهث وينفعل



ويريق ما عنده وهي هادئة مبتسمة لا تكاد تقول شيئًا. إننا لا نعرف عنها شيئًا منذ فقدت «جميلة» أثرها بعد أن سكنت في بيتها، ولم نعرف كيف وصلت لذلك الحال، ولكن مهما كانت الأسباب وراء ترهبها واعتكافها وانسحابها من الدنيا، هل يمكن ألا يكون هذا المتخلي مسئولاً عما آلت إليه؟

في الحوار الأخير بينه وبين ميشيل، قال له ميشيل إنه غاضب منه لأنه يتدخل في شئونه ويتجسس عليه.. «تبحث عني في كل مكان، تبحث عن أمي في القرية. وجئت الخربة بحثًا عنها. وبين الأنقاض عند جميلة.. من بضع سنين تبحث عن أمي في الجليل، وها أنت الآن تبحث في القدس، فماذا تريد؟ تريد أمي؟ هي لا تريدك. تريد رجوعي؟ أنا لن أرجع. تريد مني أن أرضى بك؟ أنا لن أرضى(..) أمي ماتت. دخلت الدير. وحين أراها أرى أختًا لي، أختي الكبرى، وأراك أنت رجلاً غريبًا مقهورًا لا يعنيني، يريد أن يتشبث بالقشة.. (..) أرجو منك أن تنساني وتنسى أمي وتدعنا كلينا لعالمينا..».

اشتعلت القدس في اليوم الأخير. كنا في أيلول.. «ذلك الأيلول، آخر أيلول..». تقول الروائية إن أيلول ذلك الموسم كان حريقًا (واضح أنها تعني أيلول ٢٠٠٠ حين تفجرت الانتفاضة الأخيرة): بدأ الرشق بالحجارة فانهال الرصاص مثل زخات المطر، واتسعت الاشتباكات في كل مكان حول الأقصى. في هذه اللوحة التي تنتهي بها الرواية تقول الروائية الكثير: كانت قبلها قد جاءت بكل أهل الخربة إلى القدس: سكينة وزوجها وابنها الصغير الذي أنقذه ميشيل من قبل، إضافة إلى المختار وصاحب نُزل الناصرة، وهذا الروسي الذي كان مؤلفًا مسرحيًا مرموقًا في بلاده قبل أن تتفكك، وبعد أن تفككت جاء إلى إسرائيل وراء الراقصة الصغيرة التي يعشقها. كانوا جميعًا في القدس حين اشتعلت، وكانت جميلة أيضًا هناك. هذه امرأة من نوع «الست زكية» التي رأيناها في «باب الساحة»، وهي لا تفقد صوابها أبدًا، ولا تتوانى عن أداء دورها الذي تعرفه وتجيده: وسط الهول والجحيم والرشاشات والصراخ والقتلى والجرحى والمصابين، نزلت إلى قلب الناس، حملت شنطة فيها أدواتها الطبية ـ هي ممرضة ـ لتطبِّب هذا وتضمِّد ذاك، حملها عنها إبراهيم وانطلق معها (هل هي صحوة متأخرة بعد أن أيقن عبث استعادة الماضي الذي تخلى عنه؟ ربما). لكن أهم ما تقوله الروائية ـ عندي ـ يتمثل في هذا المشهد الصغير: «توفيق»، الطفل ابن سكينة، هرب منها ثم رأته على طرف السور بين الشباب والحجارة، ناداه إبراهيم.. «لكن توفيق لم يسمعني، كان يناول أحد الشباب حجارة صغيرة فيضعها ذاك في المقليعة ثم ينتشن.. (..) الشاب هناك في أعلى السور ملأ المقليعة بحجر جديد، نشنها على جوقة جنود، أصابت أحدهم فسال الدم، نظر الجندي وأشار إليه فصوَّب أحدهم رشاشه وقتله بدم بارد. ارتمى الشاب فارتمى توفيق فوق الجثمان وأخذ يبكي فسحبه شاب بالكوفية وقال له ما لم أسمعه. ربت رأسه وخلع الكوفية عن الميت وألبسها له..».

إنما على هذا النحو يتواصل الصمود، وتتقدم أجيال جديدة نحو قلب اللهب. هل تقول إن «توفيق» ليس سوى طفل؟ هذه «الست جميلة» تجيبك: «اسمع. بأيام الغفلة ما حدا صغير».

ها قد وجد المتخلي القديم نفسه وسط الاشتباك. مرة ثانية: هل هي صحوة متأخرة أم هي خيالات الكاتب الذي حلم يومًا بأن يكونه، ثم تخلى عن حلمه بين ما تخلى عنه، هي التي تجعله يرى ما يرى: «السماء بدأت تصحو في عز الخريف، وأوراق النرجس والنعنع بدأت تخضرّ، وشعاع أزرق يتلألأ في غيمة برد.. (..) نظرتُ لفوق، حيث القمة وجبل الزيتون، رأيت الليل وقد بدأ هناك من جهة الشرق، ورأيت أضواء البلدية والكشافات حول الأقصى تنير طريقي..»؟

تلك صورة الحياة على أرض فلسطين بين انتفاضتين، فمن الواضح أن الرواية الأولى تبدأ بعد قيام السلطة الفلسطينية في ١٩٩٤، وأن المشهد الأخير في الثانية يشير إلى بدء انطلاق الانتفاضة الثانية في أيلول (سبتمبر) ٢٠٠٠.

بقي أن نقول كلمات قليلة حول أبرز الملامح في تلك الصورة: من الواضح أن السلطة التي جاءت بعد معاهدة سلام بائسة، مليئة بالثغرات ووجوه النقص لدى تطبيقها على أرض الواقع، إنما هي سلطة هشة خائرة، لا تستطيع بسط نفوذها على أرضها، ولعل ما تنتهي إليه «الميراث» دليل ساطع: أمام نقطة التفتيش الإسرائيلية وقف الجميع والجنود شاهرو السلاح يهددون الناس ويوجهون إليهم الإهانات، لا فرق بين مسئولي السلطة وسواهم من الناس. انظر ما حدث للمحافظ: «نزل من السيارة، وحاول التقدم من أحد الجنود، لكن الجندي صاح به بصوت كالرعد: «وقِّف.. وقِّف..». مد يده ليفهمه أنه ينوي خيرًا وأنه فقط يريد كلمة، لكن الجندي عاد يصيح: «وقِّف.. وقِّف..». تشبث المحافظ بموقفه فرفع صوته «كلمة.. كلمة..». هدد الجندي: «ولا نص كلمة. ارجع يا اللا..». وحين رأى تلكؤًا وعدم رضوخ فوري وسريع، رفع سلاحه وصوَّبه نحو المحافظ وقال بحدة: «يا اللا.. مكانك..». فعاد المحافظ إلى سيارة الإسعاف وجلس مكانه..». إذا كان هذا يحدث مع المحافظ، رجل السلطة التي وقعت على «أوسلو»، فلك أن تتصور ما يحدث مع الآخرين!

وعلى أرض الواقع فإن الخطر الماثل دائمًا هو تزايد الاستيطان واتساع رقعته. هذا ما يدور بخاطر عبد الهادي الشايب في «الميراث»: هم يطبقون على الوادي ويعتلون الجبال ويتمترسون في المرتفعات، كما فعلوا في جبال القدس. القدس حاطوها وخنقوها ثم ابتلعوها وانتهى الأمر، وجبال الضفة بلعوها وسهول غزة وأريحا. هم مازالوا في كل مكان «يتمترسون في كل مكان ويتوسعون في كل مكان، فأين السلطة؟ أية سلطة؟ أبدون السلطة يكون وطن؟». ولدينا مثالان نموذجيان لما يفعله الاستيطان: الأول ما يحدث في مستوطنة «كريات راحيل» المجاورة لتل الريحان. فبعد ثلاثين عامًا من الاحتلال (١٩٩٧) تمت مصادرة التل وإقامة مستوطنة كريات راحيل فوق الهضبة، وإحاطة المستوطنة بسياج كثيف ونقطة تفتيش وحراسة. ها هو المحافظ ـ رجل السلطة وممثلها ـ يرى بيوت المستوطنة عن قرب.. «أرى مساكن مختلفة وملاعب وأدراجًا غريبة وأنابيب مياه ضخمة جدًا تقتحم التل وتحفر ترابه وصخوره.. باتت الأرض غريبة أرض الوطن باتت غريبة، حلم التحرير بات

كتاب الزاوية

الحروب ومذاهب الأمم

اعلم أن الحروب وأنواع المقاتلة لم تزل واقعة فى الخليقة منذ برأها الله . وأصلها إرادة انتقام بعض البشر من بعض ويتعصب لكل منها أهل عصبيته . فإذا تذامروا لذلك وتوافقت الطائفتان إحداهما تطلب الانتقام والأخرى تدافع كانت الحرب وهو أمر طبيعى فى البشر لا تخلو عنه أمة ولا جيل .

وسبب هذا الانتقام فى الأكثر : إما غيرة ومنافسة وإما عدوان، وإما غضب لله ولدينه، وإما غضب للملك وسعى فى تمهيده . فالأول أكثر ما يجرى بين القبائل المتجاورة والعشائر المتناظرة . والثانى وهو العدوان أكثر ما يكون من الأمم الوحشية الساكنين بالقفر كالعرب والترك والتركمان والأكراد وأشباههم لأنهم جعلوا أرزاقهم فى رماحهم ومعاشهم فيما بأيدى غيرهم ومن دافعهم عن متاعه آذنوه بالحرب ولا بغية لهم فيما وراء ذلك من رتبة ولا ملك وإنما همهم ونصب أعينهم غلب الناس على ما فى أيديهم . والثالث هو المسمى فى الشريعة بالجهاد . والرابع هو حروب الدول مع الخارجين عليها والمانعين لطاعتها، فهذه أربعة أصناف من الحروب : الصنفان الأولان منها حروب بغى وفتنة والصنفان الأخيران حروب جهاد وعدل وصفة الحروب الواقعة بين الخليقة منذ أول وجودهم على نوعين : نوع بالزحف صفوفًا ونوع بالكر والفر . أما الذى بالزحف فهو قتال العجم كلهم على تعاقب أجيالهم . وأما الذى بالكر والفر فهو قتال العرب والبربر من أهل المغرب . وقتال الزحف أوثق وأشد من قتال الكر والفر . وذلك لأن قتال الزحف ترتب فيه الصفوف وتسوى كما تسوى القداح أو صفوف الصلاة ويمشون بصفوفهم إلى العدو قدمًا .

شعارًا لا يصل إلى الأرض.. كم حلم فى الظهران ثم لبنان ثم تونس (..) وعاد يسترجع ما كان، كل السنين، كل الشهداء، كل الضحايا والتضحيات، ثم مدريد، ثم أوسلو، ثم هنا.. تل الريحان واسمه الرسمى على اللافتة: كريات راحيل!».

المثال الثانى ما حدث لبيت جميلة نفسها فى قلب القدس: اقتحم شابان أمريكيان بطاقيتين وسوالف الطابق العلوى من دارها وأقاما فيه، ثم استصدرا أمرًا بامتلاك المكان.. «كيف ولماذا وبأى شرع أو قانون؟ هذا ما عجزت الست جميلة عن إيجاد تفسير له. فما تفسير أن يأتى شابان يهوديان من نيويورك ويقطنا دار امرأة رغمًا عنها، ويستصدرا أمرًا بامتلاك الدار، رغم «القوشان» (حجة الملكية) بحوزتها وعليه ختم عثمانى ثم بريطانى ثم الأردن؟»، لمن تتوجه الست جميلة بسؤالها ومن يجيبها عنه؟ إن ما يشغلها هو: من سيرث الدار بعد موتها؟ من سيتابع قضايا المحاكم ويستخلص لها بيتها؟ تمسك جميلة ببيتها هو، تمامًا، تمسك العم بأرض البيارة التى يملكها فى «الميراث»، يقول لابنه المهندس الذى يطلب منه بيع الأرض لإقامة مصنع (فهو تحت وهم أن الضفة سوف تكون هونج كونج العرب، وغزة سوف تكون تايوان الشرق!)، يقول: «بلا قلة عقل.. بعد هالعمر وبعد هالشيب واللى شفناه وتحملناه عشان الأرض أبيعها بالسوق؟ الموت يسبق. طول ما انا عايش ممنوع تتباع.. واللى يبيعها رح اغضب عليه.. روحى من القبر رح تلعنكم إذا بعتوها..». تلك هى الروح التى تغذى الصمود وتُبقى على جذوة النضال رغم الأنواء والعواصف.

ولأنها سلطة هشة، تقف على أرض زلقة، مليئة بالعقبات والعثرات، فطبيعى أن تخطئ وتشتبك خطاها، وطبيعى أيضًا أن يزدهر فى ظلها الانتهازيون والسماسرة وطلاب الربح السريع، أصبح الجميع: المواطنون و«المعاد توطينهم» لا يفكرون إلا فى المشاريع، كيف تُنتهز الفرصة فى هذا الوقت - «وقت البناء وأجواء السلم وقرف الناس من فقر الحرب والانتفاضة والفوضى وتكسير العظام..»، وتقييم مشروعًا مضمون الربح السريع؟، وانهال الناس على المشاريع ذات الخدمات والسياحة والأكل والشرب من غير هدف إلا الربح.. «فحلم التصنيع وتايوان الشرق وكوريا وهونج كونج بات جزءًا من ماضٍ مليء بالأحلام المندثرة، مثل موسكو، مثل كوبا، مثل إيران والجزائر، كلها أحلام، كلها أوهام فكوابيس. وخذوا العبرة يامرتدين!»، لا عجب، إذن، أن يكون سمسار الأرض هو أكثر شخصيات «الميراث» ثباتًا ورسوخًا واطمئنانًا إلى ثروته ونفوذه وحاضره ومستقبله. وأن يأتى هذا الفلسطينى المتخلى بامتياز، بعد أكثر من ثلاثين عامًا، وبعد أن باع حجارة الضفة لأصحاب النفط، وعَبَّ من مستنقع البترودولار حتى اكتظ، وعمل فى خدمة الأمريكيين وهم يجتاحون العراق، ليحاول أن يزرع جذورًا جديدة فى واقع مختلف، شرط دخوله إليه أن يلغى ماضيه، وأن يربح فرصة عذراء كى يستعيد ما سبق أن تخلى عنه: محاولة عابثة وجهد خائب!

ونحن لا نستطيع اعتبار هذين العملين «الميراث» و«صورة وأيقونة وعهد قديم» ثنائية روائية على غرار «الصبار / عباد الشمس». هما عملان يستقل أحدهما عن الآخر، تدور أحداثهما فى عقد التسعينيات من القرن الماضى: أوائله وأواخره، وفيهما معًا تتجلى قدرة الروائية على بناء أعمالها بناءً متوازنًا تتقدم حركته إلى الأمام، رغم الانتقالات الدائمة بين الحاضر المعيش والماضى المستدعى للذاكرة. إنها لا تقدم أعمالاً ذات طابع «تسجيلى» أو «توثيقى» قدر ما تقدم أعمالاً روائية تزخر بشخصيات حية مكتملة، نابعة من قلب الواقع، تختلف أطرها العامة من حيث التكون الفكرى والنفسى، ومن حيث المصالح والاهتمامات، لكنها تتكامل لترسم صورة الواقع زمن الكتابة. فى هذه الصورة تلعب الشخصيات الثانوية أدوارًا ضرورية، بدونها قد لا تكتمل عناصر الصورة وتكتسب الصدق والصحة (فى العمل الأول: شخصيات العم وعبد الهادى وأميرة وأم جريس، وفى الثانى: المطران والسائق عزيز وأبو يوسف صاحب نُزل الناصرة وإيلاى: الفنان الروسى الذى لقى مصرعه فى اضطرابات الأقصى)، إلى جانب صور من الواقع تفلح الروائية فى رسمها، مما يشى بمعرفتها بتفاصيل هذا الواقع، وأن راوية نابلس لم تفقد أبدًا صلتها بما يحدث ومعرفتها بتفاصيله (فى العمل الأول: لقاء النساء بامرأة السمسار وبناته، والنزول إلى نابلس، المختفية تحت السطح، ومعرفتها ببيوت القدس، وفى الثانى: تفاصيل حياة المسيحيين الفلسطينيين فى نابلس والناصرة، والقدس بوجه خاص).

وتبقى أعمال سحر خليفة نافذة مهمة مشرعة على الواقع الفلسطينى، منذ تنبأ أبطال «عباد الشمس» بالانتفاضة الأولى فى ١٩٨٧، حتى شهد أبطال «صورة وأيقونة..» انبثاق الثانية فى أيلول ٢٠٠٠. ■

علاّمة بغداد فى عصرها الذهبى

الجاحظ.. سيد البيان العربى

محمد عبد الرحمن يونس

■■ الجاحظ هو عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى، الليثى، المعروف بين عامة الناس بالجاحظ. ولد فى عام ١٦٣هـ / ٨٦٩م فى مدينة البصرة العراقية، وهو من أشهر كتّاب العربية وأدبائها على الإطلاق، ويعدّ إماماً فذاً من أئمة اللغة العربية، ولا نخطئ حين نصف هذا الرجل العظيم بأنه سيّد البيان العربى فى جماله وصحته وقوته.

لُقّبَ بالجاحظ لجحوظ عينيه ونتوء حدقتيهما، اشتُهر بالذكاء الحاد والذاكرة الحافظة والقدرة البالغة على الإنشاء الأدبى. ودرس علوم عصره الأدبية والفكرية جميعها، وقرأ المصنفات الفلسفية التى تُرجمت إلى العربية من اللغة اليونانية. ومنذ صغره أبدى ميلاً قوياً نحو المعرفة، فأخذ ينهل منها، وكانت المعارف فى عصره سيولاً تتدفق فى ولايات الدولة الإسلامية المترامية الأطراف ومدنها. هو العاشق للماء، والماء يجرى أنهاراً متدفقة أمامه، فأخذ يشرب منه ولا يرتوى، وكلّما شرب ازداد معرفة وعلماً وفهماً لنفسه ومجتمعه وكلّ ما يحيط حوله. ومنذ أن وعى الغلام أخذ يتردّد مندفعاً إلى أماكن العلم والمعرفة، فزار الكتاتيب، وبدأ يتعلّم فيها مبادئ القراءة والنحو والفقه والحساب، ويحفظ بعض الآيات القرآنية الكريمة، وشبّ ونما، ونما معه اندفاعه القوى لتحصيل العلم والمعرفة، وأحسّ أنّ هذه الكتاتيب، بما تقدّمه من معارف وعلوم غير قادرة على إشباع نهمه العميق للتحصيل العلمى والمعرفى، فمضى إلى المساجد التى كانت فى عهد الدولة العباسيّة بمثابة الجامعات العريقة فى أيامنا المعاصرة، وهناك أخذ يستمع إلى المحاضرات بعقل نيّر، وقلب عاشق للمعرفة والأدب، وسرعان ما أبدى نبوغاً واضحاً، إذ أخذ ينهل مما يُقدّم فى هذه المساجد من فقه وعلوم وشريعة، ومن نحو وصرف وعلوم لغة، ومن مناقشات ومحاورات بين الدارسين، أسهمت فيما بعد فى أن دفعته شجاعاً واثقاً من نفسه لولوج عالم الأدب والفكر والثقافة من أبوابها الواسعة. وقد تأثر فى هذه المساجد تأثراً واضحاً برجال الأدب والعلم فى البصرة الذين سيسميهم فى كتابه «البيان والتبيين» بالمسجديين، لأنهم كانوا يجتمعون فى المسجد الجامع بالبصرة، ثمّ أخذ يتردّد إلى سوق المربد بالبصرة، وكانت من أهمّ الأسواق الأدبيّة والتجاريّة الكبيرة والمعروفة فى الدولة الأمويّة، والتى بقيت محافظة على أهميتها فى العصر العباسىّ، وفى هذه السوق بدأ يستمع إلى فصحاء العرب، ويأخذ عنهم اللغة السليمة، ويحفظ ما ينشدونه من الأشعار الكثيرة.



اللوحات من كتاب «الواسطى» إصدار دار الشروق

• نشأ الفتى بسيطاً وفقيراً، وهذه حال المفكرين والمبدعين فى التاريخ الإنسانىّ - قديمه وحديثه - فأخذ يبيع السمك بسيحان إحدى مناطق البصرة، وكان عليه أن يؤمّن دخلاً كريماً له ولوالدته، يدفع عنهما ذلّ الفاقة والجوع، إلاّ أنّ انهماكه الشديد بالدرس والقراءة جعله يتقاعس عن تحصيل أسباب معاشه ومعاش والدته، ممّا جعل هذه الوالدة تبدى تضايقها بهذا الانهماك الشديد.

وتروى الكتب أنّه ذات ليلة رجع من حلقات الدرس إلى منزله، وطلب من أمّه أن تعدّ له طعامه اليومى، فسارعت الأمّ وقدّمت أوراقه وكراريسه على طبق قائلة: «ليس عندى من طعام سوى هذه الكراريس». وأحسّ أنّ أمّه تنبّهه إلى تقاعسه وتوبّخه، وتدعوه إلى العمل والكسب لتقديم ضروريات العيش، فأحسّ بالألم يعتصر فؤاده، فخرج كئيباً حزيناً إلى الجامع. وفى الجامع التقى بصديقه الثرىّ مُوَيس بن عامر، الذى كان من أصدقائه فى الدراسة، فسأله مويس عن سرّ حزنه الشديد، فحدّثه بحديث أمّه، وكيف وضعت له طبق الكراريس بدلاً من الطعام، وسرعان ما صحب الصديق صديقه إلى داره، وأعطاه خمسين ديناراً. وكم كانت فرحة الجاحظ كبيرة بهذه الدنانير، فهى أوّل مرّة فى حياته يحصل فيها على هذا المبلغ الكبير، وأخذ الجاحظ الأموال، ودخل أحد أسواق البصرة، واشترى الدقيق والطعام الكثير، واكترى الحمّالين، وطلب منهم أن يحملوا ما اشتراه إلى داره، ودهشت الأمّ عندما شاهدت ولدها الجاحظ والحمّالين يدخلون دارها بهذه الأطعمة الكثيرة، وسألت ولدها: من أين لك كلّ هذا؟، فقال سعيداً واثقاً بنفسه: من الكراريس التى قدّمتها لى فى المرّة الماضية.

ولم يكتف الجاحظ بنهل علومه من المسجد الجامع فى البصرة فحسب، بل دفعه توقه الشديد إلى المعرفة لأن يعمد إلى دكاكين الورّاقين فيكتريها، ويبيت فيها حتى الصباح متفحّصاً كتبها، قارئاً لها قراءة المجدّ والناقد والمحلل لمضامينها. فقد وهبه الله سبحانه وتعالى ذاكرة قوية حافظة، إذ لم يقع فى يده كتاب إلاّ استوفى قراءته بصبر رجل العلم الباحث عن الحقيقة والمعرفة. وتؤكّد سيرته التاريخية أنّه لم يكن يكتفى بقراءة كتاب فى اليوم بل كان يقرأ عدة كتب. ويقول أبو هفّان عنه، وهو أحد معاصريه: «لم أر قطّ ولا سمعت من أحبّ الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ، فإنّه لم يقع بيده كتاب قطّ إلاّ استوفى قراءته كائناً ما كان».

وعى الرجل أهميّة المعرفة، ودورها فى العصر العباسىّ، فأخذ ينهل منها، ثمّ يمجّدها فيما بعد مبيّناً فضائلها الكثيرة، فقد كتب مقدمة لكتابه «الحيوان» فى حوالى مائة صفحة يمجّد فيها المعرفة والكتب، ويقول فى أولها: «جنّبك الله الشبهة، وعصمك من الحيرة، وجعل بينك وبين المعرفة نسباً، وبين الصدق سبباً، وحبّب إليك التثبّت، وزيّن فى عينيك الإنصاف، وأذاقك حلاوة التقوى، وأشعر قلبك عزّ الحقّ، وأودع صدرك بَرْد اليقين، وطرد عنك ذلّ اليأس، وعرّفك ما فى الباطل من الذلّة، وما فى الجهل من القلّة».

منح الله الجاحظ قدرة فائقة على القراءة والتأليف، وصبراً عجيباً على اكتساب المعرفة، وما كان بمفرده قادراً على تحقيق مطمحه، وتحصيل هذا الكمّ الهائل من المعارف الكثيرة التى أدهشت معاصريه، والذين أتوا من بعده، بل استعان بمجموعة من أصدقائه الورّاقين الذين كتبوا له وكتبوا عنه، ومن هؤلاء الورّاقين: زكرياء بن يحيى، وعبد الوهّاب بن عيسى بن أبى حيّة الورّاق، وهما أشهر ورّاقين استعان بهما الجاحظ فى مسيرته الفكريّة.

ولم تقف ثقافة الجاحظ

عند المسجد الجامع وسوق المربد الأدبيّ ودكاكين الوراقين التي أمدته بزاد كبير من المعارف فحسب، بل اتصل بأهم وبأشهر شيوخ العلم وأئمة الأدب في عصره، ومن هؤلاء: أبو عبيدة والأصمعيّ وأبو زيد الأنصاريّ وأبو الحسن الأخفش وأبو الهذيل العلاّف وبشر بن المعتمر وثمامة بن أشرس، وتخرّج في علم الكلام على يدَ أبي إسحق النظام،ونجده في كتبه الكثيرة يأخذ عن جماعة من الفقهاء، كأبي يوسف صاحب أبي حنيفة، ويزيد بن هارون، والسرّي بن عبدويه.



عاش الجاحظ في العصر الذهبي للأمة العربية والإسلاميّة، عصر الخليفة هارون الرشيد وولده عبد الله المأمون، الذي ازدهرت فيه العلوم والآداب والفنون العربيّة في معاهد البصرة وبغداد والكوفة وقرطبة، وفي هذا العصر ترجم علماء العرب أهمّ ما وقع في أيديهم من ثقافة اليونان والهنود والفرس، من فلسفة وآداب ومعارف كثيرة، وفي هذا العصر الثريّ بالمعارف العديدة المزدهرة امتدّت معرفة الجاحظ لتنهل من جميع فروع الثقافة الموضوعة أو المترجمة في البصرة وبغداد، ويُقال إنّه تعلّم اللغة الفارسيّة وأتقنها، واستخدم كثيراً من مفرداتها في كتبه الكثيرة، ولم يترك الجاحظ علماً من علوم زمانه إلاّ ونظر فيه، وأخذ منه، فقد درس الفلسفة والمنطق والطبيعيات والرياضيات والتاريخ والسياسة والأخلاق والفروسيّة، وقد كان بارعاً في الأدب واللغة والمنطق، راوياً للأخبار والأشعار الكثيرة، باحثاً حقيقياً في علم الحيوان والنبات، ناقداً للأخلاق والعادات في مجتمعه، عالماً بالفلك والموسيقى والغناء، دارساً محللاً لشخوص عصره، وعلاقاتهم، وكرمهم وبخلهم، وتصرفاتهم في أفراحهم وأحزانهم، وجدّهم وهزلهم. لقد كان الرجل بحقّ موسوعيّاً في معرفته، مستوعباً لكلّ الثقافات في عصره من فارسيّة وهنديّة وعربيّة وإسلاميّة.

وفي بداية عهده بتأليف الكتب والرسائل وجد كثيراً من الإهمال في مجتمعه العباسيّ، فاضطرّ عندما كان يؤلّف الكتب والرسائل إلى أن ينسبها إلى بعض الكتاب القدماء المرموقين حتى تلقى رواجاً وإقبالاً، ومن هؤلاء الكتاب: عبد الله بن المقفع، والخليل بن أحمد الفراهيديّ واضع كتاب معجم العين(أول معجم في اللغة العربية)، وسلْم صاحب مدرسة بيت الحكمة في بغداد، فقد تعوّد الناس أن يقرءوا للكتاب المرموقين المعروفين في ذلك العصر، ويهملوا الكتب التي ليس لصاحبها اسم معروف في دكاكين الورّاقين، ومجالس العلماء والوعّاظ.

تمضي الأيام، وتزداد قدرات الجاحظ المعرفيّة، وسرعان ما تضعه في أعلى درجات سلم المجد والشهرة، وتنقله إلى مجالس الخلفاء ورجال الدولة. ويسمع الخليفة عبد الله المأمون بأخبار الجاحظ، ويستدعيه إلى قصر الخلافة ببغداد، ويطلب منه أن يؤلّف كتاباً في عقائد عصره، وينكبّ الجاحظ على تأليف هذا الكتاب، وينتهي منه، ويقدّمه إلى الخليفة، وما إن ينتهي الخليفة المأمون من قراءته حتى يُعجب به إعجاباً لامثيل له، فيستدعيه إلى القصر ليقلّده منصب ديوان الرسائل الرسميّة، وعندما سمع سهل بن هارون أنّ الجاحظ تصدّر ديوان الرسائل قال: «إن ثبت الجاحظ في هذا الديوان أفل نجم الكتاب». ومن قصر الخليفة ببغداد ستطير شهرة الجاحظ إلى آفاق الدولة الإسلاميّة المترامية الأطراف، في مشرقها ومغربها، وجنوبها وشمالها.

غير أنّ الجاحظ الذي اعتاد الانطلاق الرحب في ميادين المعرفة وأرجائها الواسعة، لم يطب له المقام في ديوان الرسائل إلاّ ثلاثة أيام، بعدها حنّ إلى فضاء الحريّة الشاسع المفتوح الذي لن يتحقّق بالنسبة له إلاّ في النوادي الأدبيّة والمجالس العلميّة، والمساجد وحلقات الدرس والحوار الفكريّ، فترك وظيفة ديوان الرسائل، وانصرف إلى القراءة الغزيرة والكتابة الأدبيّة. واستوعب الخليفة المأمون الذي يشهد له التاريخ بحكمته وعقله الراجح، وحبّه للمعارف والعلوم، توق الجاحظ للتحرّر من قيد الوظيفة الحكوميّة، فأعفاه من منصبه، وخصص له راتباً من الدولة، أعانه كثيراً على تصريف شئون حياته.

ويبدو أنّ دمامة الجاحظ التي عُرف بها كانت سبباً حقيقياً في أنه اعتذر عن قبول منصب ديوان الرسائل، فمثل هذه الوظيفة ذات علاقة وثيقة بالناس المرموقين في الدولة من جهة، وذات علاقة أوثق بالخليفة من جهة أخرى. وقد عُرف عن الملوك والمسئولين في التاريخ أنهم كانوا يؤثرون من كان رصيناً وقوراً، والجاحظ عابثاً مازحاً ناقداً. وقد كانت هذه الدمامة فيما بعد السبب الرئيس الذي جعل الخليفة العباسيّ المتوكل على الله يرفض أن يجعل الجاحظ مؤدّباً لأولاده، فعندما اتصل الجاحظ بالفتح بن خاقان وزير المتوكل على الله، وقدّم له كتابه المعروف بـ: «في مناقب الترك وعامة جند الخلافة»، حصلت بينهما مودة عميقة وصداقة ومراسلات، عندها اقترح الوزير الفضل بن خاقان على الخليفة المتوكل أن يستقدم الجاحظ إلى قصر الخلافة، ويعيّنه مؤدباً لبعض أولاده، لكنّ الخليفة عندما رآه نفر منه ورفضه. ويذكر الجاحظ لنا هذه الحادثة قائلاً: «ذُكرت للمتوكل لتأديب بعض ولده فلمّا رآني استبشع منظري، فأمر لي بعشرة آلاف درهم ثمّ صرفني».

وتتوالى الأيام، ويطيب المقام لصاحبنا في بغداد، ويرتاد النوادي الأدبيّة والمساجد، وحلقات البحث والمناظرة، وفي كلّ يوم في بغداد تتسع ثقافته، ويكثر عدد المعجبين بأدبه وكتاباته. ويأتي عهد الخليفة العباسيّ المعتصم بالله، ومعه تتحوّل الخلافة من بغداد إلى سامرّاء، وينتقل الجاحظ معها. وفي سامرّاء ينكبّ الجاحظ على القراءة والتأليف، واصلاً نهاره بليله، كما كان في بغداد، وتزداد شهرته. وفي سامرّاء يعرف كثيراً من الأدباء والمثقفين، وتتوطّد علاقته بأصحاب الحكايات والفكاهات والنوادر أمثال أبي العيناء والجمّاز، وغيرهما من ندماء الخلفاء والمهرّجين في قصورهم. وتبتسم له الأيام السعيدة، وتفرد له جناحيها، إذ يتقلّد الوزارة في عهد المعتصم ابن الزيّات، الكاتب والشاعر المعروف، والعاشق للأدب والتاريخ والثقافة. فيتّصل به الجاحظ، وتنشأ بينهما صداقة عميقة، ويقيم معه الجاحظ في ديوان الوزارة، ويكتب له، ويمدحه. ومن شدّة إعجابه به يقدّم له كتابه الشهير «الحيوان»، فيكافئه عليه ابن الزيات، ويعطيه مالاً وفيراً.

لقد أتاحت إقامة الجاحظ في كنف ابن الزيّات أن يخرج من سامرّاء، ويسافر إلى دمشق وإنطاكية ومصر، وهناك يتعرّف على عادات الناس وتقاليدهم، ويلتقي بالأدباء والكتّاب، وقد وسّع هذا السفر خياله الأدبيّ، وزاده علماً وخبرة ومعرفة بأحوال الشعوب، وبالتالي أثرى كتاباته الجديدة بالمعارف الجديدة والعميقة.

وكما تنشأ ـ عادة ـ عبر التاريخ العداوة والحساسية السياسيّة بين أفراد السلطة في البلد الواحد، نشأت بين الوزير ابن الزيّات والقاضي أحمد بن داود، قاضي القضاة بسامرّاء،عداوة شخصيّة كبيرة، وبحكم الصداقة العميقة بين الجاحظ وابن الزيّات نجد أنّ الجاحظ يقف في صفّ ابن الزيّات، ويتحزّب له ضدّ أحمد بن داود. ويبيّت القاضي أحمد بن داود أمراً ضدّ الجاحظ، ويصمّم أن ينتقم منه، إذا سمحت له الأيام بذلك. وفي سامرّاء يتوفّى المعتصم، ويستلم الخلافة ابنه الواثق، ثمّ تصير الخلافة إلى المتوكل على الله، وكان المتوكل يحقد على ابن الزيّات أحقاداً سياسيّة شديدة، فقبض عليه، وعذّبه، وأدخله في تنوّر محمّى بالنار، ويموت الوزير من شدّة التعذيب. ويصفو الجوّ لابن داود، إذ يقرّبه المتوكل، ويعتمد عليه في أمور سياسيّة كثيرة، فيصبح رجلاً قوياً، ويقرر أن ينتقم من الجاحظ. ويعرف الجاحظ ذلك فيهرب ويختفي بعيداً عن الناس، لكنّ أعوان القاضي يجدّون في طلبه، ويقبضون عليه، ويحضرونه إلى القاضي ابن داود مغلول العنق بسلسلة غليظة، مقيّد الرجلين،في قميص سمل. ويبدو أنّ السعادة والهناءة لا تصفو لأحدّ مهما كان عالي الحسب والنسب والشأن والمقدرة، وكما قال الشاعر الأندلسيّ أبو البقاء الرنديّ:



لكلّ شيء إذا مـا تمّ نقصان
فلا يغرّ بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دول
من سرّه زمن ساءته أزمـان

وفي مـجلس القـاضي ابن داود يقف الجـاحظ منكسراً، فيـاخـذ ابن داود في توبيخه وتعنيفه قائلاً: «والله ما علمتك إلاّ متناسياً للنعمة، كفوراً للصنيعة، معدناً للمساوئ، وما قصّرت باستصلاحي لك، ولكنّ الأيام لا تُصلح منك لفـســاد طويتك(...) وسوء اختـيارك، وتغالب طبعك..».

وباسلوب البلاغة الرفيعة والجمال الأدبي الذي وسم كتابات الجاحظ الكثيرة، يردّ معتذراً قائلاً: «أيدك الله؛ فوالله لأن يكون لك الأمر عليّ خيرٌ من أن يكون عليك. ولأن أسيء وتحسن أحسنُ في الأحدوثة عنك من أن أُحسنَ فتسيء. ولأن تعفو عني في حال قدرتك أجمل بك من الانتقام». فقال القاضي: «جيئوا بحداد». فقال الجاحظ: «أعزّ الله القاضي! ليفكّ عني أو ليزيدني؟» فقال القاضي «بل ليفكّ عنك». فجيء بحداد بالحداد فاشار بعض أهل المجلس إلى الحداد أن يشدّ على ساق الجاحظ، ويتباطا في فكّ القيد، فلطمه الجاحظ قائلاً، باسلوبه الأدبي الساخر: «اعمل عمل شهر في يوم، وعمل يوم في ساعة ،وعمل ساعة في لحظة، فإنّ الضرر على ســـاقي وليس بجـــذع ولاساجة».فضحك القاضي وأهل المجلس منه، وقال القاضي: «أنا أثق بظرفه». ثمّ عفا عنه. ولعلّ العفو عند المقدرة من أهمّ الخصال العربيّة الكريمة الأصيلة في المجتمعات الإسلاميّة، وقد قال الله سبحانه وتعالى في محكم كتابه حاضّاً عليها:(...فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر..). سورة آل عمران، آية ١٥٩. وقد بيّن الشعراء العرب فضل العفو، فهاهو أحد الشعراء العرب يقول:

والعفو عند لبيب القوم موعظة
وبعضه لسفيه القوم تدريب

ثمّ قال القاضي ابن داود: «يا غلام صِر به إلى الحمّام وامط عنه الأذى،واحمل إليه تخت ثياب وطويلة وخفّاً».فذهبوا به إلى الحمام، وغسلوه، ثمّ أتوا به، فأجلسه القاضي في صدر المجلس مرحّباً به قائلاً:«هات الآن حديثك يا أبا عثمان».

وظلّ الجاحظ في كنف القاضي ابن داود سنة كاملة، وكتب كتابه المشهور«البيان والتبيين»، وقدّمه له، فأُعجب القاضي به إعجاباً شديداً، وكافاه عليه بخمسة آلاف دينار.

ثمّ اتّصل الجاحظ بالفتح بن خاقان، وزير الخليفة المتوكل على الله، ونشات بينهما صداقة عميقة. وكان الفتح بن خاقان محبّاً للجاحظ ومعجباً بادبه،و شغوفًا بمجالسه، فما كان من الجاحظ إلاّ أن ألفّ كتاباً بعنوان:«مناقب الترك وعامة جند الخليفة»، وقدّمه له فكافاه عليه الوزير مكافاة كبيرة.

وفي مجلس الخليفة المتوكل كان الوزير الفضل بن خاقان يثني على الجاحظ وعلى قدراته المعرفيّة الكبيرة، وأدبه الجميل، ويأخذ له المكافآت والجوائز الماليّة من الخليفة، وكان المتوكل يثق باقوال وزيره الفضل، وعندها أمر وزيره أن يطلب من الجاحظ أن يصنّف رسالة، ويردّ بها على النصارى وذلك في سنة ٢٣٥هـ. وألّف الجاحظ الرسالة، ونال عليها مكافاة من الخليفة. وهكذا كانت كتب الجاحظ قادرة على أن تدرّ عليه دخلاً مادياً كافياً لأن يعيش مرفهاً، متفرّغاً لقراءاته وكتاباته الغزيرة. وقد عُرف عنه أنّه يهدي كتبه إلى كبار رجال الدولة من الوزراء والقادة. فقد أهدى كتابه الموسوم«بالزرع والنخيل» إلى أحد الرجال المرموقين وهو (إبراهيم بن عباس الصوليّ)،فكافاه عليه مكافاة كبيرة.ولم يكن الجاحظ بحاجة إلى مال كثير ليصرّف به شئون حياته، فهو لم يتزوّج، ولم يُرزق بأولاد، بل كان يعيش مع جاريتين تخدمانه، وكان المال الذي يأتيه من كتبه كافياً للإنفاق على نفسه وعلى جاريتيه.

تتّفق الروايات التي تحدّثت عن الجاحظ أنّه أُصيب بمرض الفالج وهو في أوج عطائه العلميّ، لكنّ هذا المرض لم يمنعه عن الحركة، أو عن القراءة والسهر وتأليف الكتب، بلّ ألّف كتاب الحيوان، والبيان والتبيين، والزرع والنخيل، وكثيراً من الرسائل الأدبيّة وهو مصاب بهذا الفالج. وتروي الكتب القديمة أنّ سبب علّة الجاحظ «أنّه حضر مائدة ابن داود، وفي الطعام سمك ولبن، وكان ابن بختيشوع الطبيب حاضراً، فنهاه عن الجمع بينهما، فقال الجاحظ: إنّ السمك إن كان مضاداً للّبن فإنّي إذا أكلتهما دفع كلٌ منهما ضرر الآخر. وإن كانا متساويين فكأني أكلت شيئاً واحداً! فقال ابن بختيشوع: أنا لا أحسن الكلام، ولكن إن شئت أن تُجرّب فكل. فأكل فأصابه فالج عظيم».

غير أنّه ينبغي القول: إنّه علينا عدم الإيمان القطعي بهذه الرواية، لأنّ الجاحظ كان يشكو من مرضه في عهد ابن الزيّات (ت ٢٣٣هـ)، وقبل أن يكون صديقاً للقاضي أحمد بن داود ومقرّباً منه (ت ٢٤٠هـ). وقد أشار الجاحظ إلى مرضه في كتابه الحيوان الذي أهداه إلى الوزير ابن الزيّات، من دون أن يسمي هذا المرض تحديداً، إذ قال: «وقد صادف هذا الكتاب مني (أي كتاب الحيوان) حالات تمنع من بلوغ الإرادة فيه: أول ذلك العلّة الشديدة، والثانيّة قلّة الأعوان، والثالثة طول الكتاب».

وفيما بعد أُصيب بالنقرس، وعندما قوي عليه هذا المرض في آخر أيامه غادر سامرّاء، ورجع إلى موطنه الأول البصرة، وبقي فيها إلى أن توفي سنة ٨٦٨م.

ويقول المبرّد عن آخر أيام الجاحظ:«دخلت على الجاحظ في آخر أيام حياته، فقلت له: كيف أنت؟ فقال: كيف يكون من نصفه مفلوج لو حُزّ بالمناشير ما شعر به، ونصفه الآخر منقرس لو طار الذباب بقربه لآلمه».

ويروي ياقوت الحموي في كتابه معجم الأدباء أنّ الخليفة المتوكل على الله وجّه إلى الجاحظ في آخر أيامه من يحملونه إلى قصر الخلافة، فقال الجاحظ حزيناً يائساً: «وما يصنع أمير المؤمنين بامرئ ليس بطائل ذي شقّ مائل، ولعاب سائل، وعقل حائل».

توفي الجاحظ بالبصرة مسقط رأسه في عام ٢٥٥هـ/ ٨٦٨م، وترك آثاراً أدبيّة كبيرة ومهمّة في تاريخ الفكر الإنساني لم يتركها أحدٌ من الكتاب الذين أتوا قبله، ولا الذين أتوا بعده، ويقال إنّه كتب ثلاثمائة وستين كتاباً في شتى ألوان المعرفة الإنسانيّة السائدة في عصره. ويقول المسعودي عنه في كتابه مروج الذهب ومعادن الجوهر: «ولا يعلم أحدٌ من الرواة و أهل العلم أكثر كتباً منه». وأثبت ياقوت الحموي في كتابه معجم الأدباء فهرساً باسماء كتب الجاحظ ورسائله، التي بلغت مائة وثمانية وعشرين كتاباً ورسالة، إلاّ أنّ أهم الكتب التي بقيت لنا، واحتفظت بها المكتبة العربية هي: الحيوان، و البيان والتبيين، والتاج أو ما يُسمّى أخلاق الملوك، والمحاسن والأضداد، والبخلاء، والتبصّر بالتجارة،وذمّ القوّاد،والدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير، والعرافة والفراسة، والربيع والخريف، والنبيّ والمتنبيّ، والحنين إلى الأوطان،ومسائل القرآن، وصياغة الكلام، وفضيلة المعتزلة، وكتاب المعلمين، والأصنام، والبلدان، والجواري والقيّان، والنساء، وجمهرة الملوك، والقول في البغال، والبرصان والعرجان والعميان والحولان، والاستبداد والمشاورة في الحرب،وكتاب المغنين، ومجموع رسائل ضمّ أربع رسائل وهي: المعاد والمعاش، وكتمان السرّ وحفظ اللسان، والجدّ والهزل، والحسد والعداوة، وكتاب آخر بعنوان: في مناقب الترك وعامة جند الخلافة،ورسالة بعنوان: التربيع والتدوير، وكتاب بعنوان: الطفيليّون، بالإضافة إلى كثير من المخطوطات الموجودة في المكتبات والتي لم تُحقق بعد.

ويبدو أنّ معظم كتب الجاحظ قد ضاعت، مثلها مثل كثير من كتب الأدباء العرب والمسلمين، وهذا الضياع شكّل خسارة كبيرة للمكتبة العربيّة، وكان سببه الفوضى السياسيّة، والخصومات والصراعات الكثيرة التي عصفت بالأمّة الإسلامية أيام الدولة العبّاسيّة،والتي أدّت بدورها إلى التدمير والانتقام والتخريب، وأسهمت فيما بعد في ضياع كثير من مخطوطاتنا الأدبيّة.

وكان الجاحظ في جميع ما كتبه عبقرياً، موسوعياً، يدلّ على ثقافته الغزيرة، وعقله الوافر، وقدرته الكبيرة على الحفظ والترتيب والتبويب، ولا ننسى فضل الورّاقين الذين أمدّوه بكثير من مادّته العلميّة. ولا عجب أن يكون لكتب الجاحظ تاثير كبير على الأدباء الذين أتوا بعده،إذ أسهمت هذه الكتب في تقويم ألسنتهم، وزيادة ثقافتهم، فنهلوا منها، وأخذوا عنها، فقد كان الجاحظ في رسائله

عاش الجاحظ في العصر الذهبي للأمة العربية والإسلاميّة، عصر الخليفة هارون الرشيد وولده عبد الله المأمون، الذي ازدهرت فيه العلوم والآداب والفنون العربيّة في معاهد البصرة وبغداد والكوفة وقرطبة



ومصنّفاته باحثاً علمياً، من حيث تعليلاته واختياراته، ولا يبزّه أىّ باحث آخر فى العصر القديم والحديث، ولقد كان قدوة للكتّاب بعده،فكثر طلابه ومقلّدوه، وكثر خصومه وأعداؤه فى الوقت نفسه، إذ حسدوه على قدراته الكثيرة، وعلى صبره، وعلى كتبه الكثيرة، وعلى الحظوة التى نالها من الخلفاء والوزراء ورجال الدولة، وقديماً قالوا: «كلُّ ذى نعمة محسود»، إلاّ أنّ خصومه على الرغم من هجومهم الشديد عليه وتحاملهم، لم يتمكّنوا من إسقاطه. فقد كان الرجل قامة شامخة، لا يزيدها الهجوم إلاّ شهرة وشموخاً. والغريب فى الأمر أنّ الذين هاجموه وحطوا من قيمته، قد قلّدوه فى طريقة كتابته، وأخذوا طريقته فى ترتيب موضوعاتهم وتبويبها، فعلى سبيل المثال نجد أنّ ابن قتيبة،الذى كان يكره الجاحظ،قد سار على خطّته فى كتابه «عيون الأخبار»، إذ «قلّده فى تناول الأغراض المختلفة، وبحث مثله عن الطبائع والأخلاق والحيوان والبخلاء والطعام»، ومن الأدباء الذين تتلمذوا على كتابة الجاحظ أبو العبّاس المبرد، وابن عبد ربّه الأندلسىّ، وأبو القاسم الآمدىّ، والقاضى الفاضل، أمّا ابن العميد فقد سلك طريقة الجاحظ من حيث قصر الجملة وتقطيعها، والإكثار من الشواهد الشعريّة والنثريّة. ولا أحد يستطيع أن ينكر مكانة الجاحظ العلميّة الرفيعة مهما كان جاحداً، ومختلفاً معه، وكارهاً له، فكتب الجاحظ «تجلو صدأ الأذهان وتكشف واضح البرهان، لأنّه نظمها أحسن نظم، ورصفها أحسن رصف، وكساها من كلامه أجزل لفظ. وكان إذا تخوّف ملل القارئ وسآمة السامع خرج من جدّ إلى هزل، ومن حكمة بليغة إلى نادرة طريفة»، كما يقول المسعودى عنه فى كتابه مروج الذهب ومعادن الجوهر. وكتب الجاحظ «تعلّم العقل أولاً، والأدب ثانياً»، كما يقول أبو الفضل بن العميد لصديقه أبى القاسم السيرافى. وأمّا القاضى الفاضل فإنّه يقول فى الجاحظ:

«وأمّا الجاحظ فما منّا معشر الكتّاب إلاّ من دخل داره، أو شنّ على كلامه الغارة». أمّا الجاحظ فقد كان يعرف قدر نفسه، ويعرف قيمة كتاباته، وقدرتها على النفاذ إلى قلوب العامة والخاصّة، وجذبهم، والتأثير فيهم، فهاهو يقول فى مقدمة كتابه الحيوان: «وهذا كتاب تستوى فيه رغبة الأمم، وتتشابه فيه العُرْب والعجم، لأنّه وإن كان عربياً أعرابياً، وإسلاميّا جَماعياً، فقد أخذ من طُرَف الفلسفة، وجمع بين معرفة السماع وعلم التجربة، وأشرك بين علم الكتاب والسنة، وبين وجدان الحاسّة، وإحساس الغريزة. وتشتهيه الفتيان كما تشتهيه الشيوخ، ويشتهيه الفاتك كما يشتهيه الناسك، ويشتهيه اللاعب ذو اللّهو كما يشتهيه المجدّ ذو الحزْم،و يشتهيه الغُفْل كما يشتهيه الفُطن،».

كان هدف الجاحظ فى كتابته أن يقدّم للناس جديداً وبديعاً، يستميل به قلوبهم بالدعابة المحبّبة، والهزل والفكاهة اللذين يبعدان السام والضجر عن نفوسهم، وكان حريصاً، فى جميع أعماله، على استرضاء عامة الناس من ذوى الثقافات المتوسطة، ولم ينس فى الوقت نفسه استمالة خاصّة القوم من المثقّفين والحكّام ذوى الثقافات العاليّة فى الآداب والعلوم والفلسفة، وفن السياسة والأخلاق، والفقه واللغة والبيان، وجميع معارف العرب فى تلك الفترة الذهبيّة من العصر العبّاسىّ. لقد كان فى كتاباته جاداً مرّة وضاحكاً ساخراً مرّة أخرى،وأديباً مرّة أخرى، وفيلسوفاً فى بعض الأحيان. وهو يعلّل ذلك قائلاً فى رسالته الموسومة بـ(التربيع والتدوير): «ولو استعمل الناس الرصانة فى كلّ حال والجدّ فى كلّ مقال(...) لكان السفه الصّراح خيراً لهم(...) ولكن لكلّ شىء قدر ولكلّ حال شكل، فالضحك فى موضعه كالبكاء فى موضعه».

إنّ الجاحظ هو أولّ أديب عربىّ يخرج بالكتابة العربيّة السائدة آنذاك من دائرة النقل والرواية إلى دائرة الاستنباط والإبداع، ووصف الواقع، وتصوير عاداته بجرأة كبيرة لم تشهدها الكتابات العربيّة قبله، فقد صوّر أخلاق مجتمعه وحياة سكانه من دون رياء أو نفاق، حيث صوّر خفايا المجتمع، وطبقاته، وخيره وشرّه ولصوصه وشحاذيه، وعبيده، ومغنياته، وخلفائه، ووزرائه، وقضاته، وقادته، وأهل الذمّة فيه من المجوس والنصارى واليهود، وتحدّث عن الحيوان والنبات، والعرب والعجم، والشعوب وعاداتها وفضائلها، وهو ينتقل فى ذلك من حادثة إلى أخرى، ومن حكاية إلى أخرى، ومن آية قرآنيّة كريمة إلى حديث نبوىّ شريف، ومن قصيدة إلى أخرى، ثمّ نراه يدلف إلى شوارع المدن التى عاش فيها ليصف الأزقّة والحوانيت الصغيرة والكبيرة، ودور النخاسة والجوارى فيها، ثمّ يدخل قصور الأغنياء، ويصف ترفها ونعيمها وبطرها. ولم ينس أن يدخل بيوت البصرة و بغداد وسامرّاء البسيطة،ليصف سكانها ببؤسهم وفقرهم ومعاناتهم. لقد وصف الشعب بكلّ طبقاته، وعاداته وقيمه، وأعرافه. ومن هنا أحبّه الناس لأنّهم رأوا فى كتبه شيئاً جديداً، لم يسبقه إليه أحد من قبل.

كان بلاغيّاً وفيلسوفاً عميقاً فى تحليلاته، وساخراً فذّاً فى سخريته من عادات مجتمعه. ولعلّ هذا الجانب الساخر هو الأهمّ والأجمل فى كتاباته. وهاهو يصوّر مظهراً من مظاهر سلوك أحد معلّمى الصبيان فى كتابه (المعلّمون) قائلاً: «كنت ألّفت كتاباً فى نوادر المعلّمين وما هم عليه من الغفلة، ثمّ رجعت عن ذلك وعزمت على تقطيع الكتاب. فدخلت يوماً قرية، فوجدت فيها معلّماً فى هيئة حسنة، فسلّمت عليه فردّ علىّ أحسن ردّ، ورحّب بى، فجلست عنده، وباحثته فى القرآن، فإذا هو ماهر، ثمّ فاتحته فى الفقه والنحو وعلم المعقول وأشعار العرب، فإذا هو كامل الأدوات، فقلت: هذا والله مما يقوى عزمى على تقطيع الكتاب. وكنت أختلف إليه وأزوره، فجئت يوماً لزيارته وطرقت الباب، فخرجت إلىّ جارية وقالت: ماذا تريد؟ قلت: سيّدك. فدخلتْ وخرجت، وقالت: بسم الله! فدخلت إليه، وإذا به جالس كئيباً، فقلت: عظّم الله أجرك (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة)، (كلّ نفس ذائقة الموت)، فعليك بالصبر، ثمّ قلت له: هذا الذى توفّى ولدك؟ قال: لا. قلت: فوالدك؟ قال:لا. قلت: فأخوك؟ قال: لا. قلت: فزوجتك؟ قال: لا. فقلت: وما هو منك؟ قال: حبيبتى. فقلت فى نفسى: هذه أولّ المناحس، فقلت: سبحان الله! النساء كثير، وستجد غيرها. فقال: أتظن أنّى رأيتها؟ قلت: هذه منحسة ثانية، ثمّ قلت: وكيف عشقت من لم تر؟ فقال: اعلم أنّى كنت جالساً فى هذا المكان، وأنا أنظر من الطاق إذ رأيت رجلاً عليه بُرْد وهو يقول:

يا أمّ عمرو جزاك الله مكرُمة
ردّى علىّ فؤادى أينما كانا
لا تأخذين فؤادى تلعبين به
فكيف يلعب بالإنسان إنسانا

فقلت فى نفسى: لولا أنّ أم عمرو هذه ما فى الدنيا أحسن منها ما قيل فيها هذا الشعر، فعشقتها، فلمّا كان منذ يومين مرّ ذلك الرجل بعينه، وهو يقول:

لقد ذهب الحمار بأمّ عمرو
فلا رجعت ولا رجع الحمار

فعلمت أنّها ماتت، فحزنت عليها، وأغلقت المكتب، وجلست فى الدار. فقلت: يا هذا: إنى كنت ألّفت كتاباً فى نوادركم معشر المعلّمين، وكنت حين صاحبتك عزمت على تقطيعه، والآن قد قوّيت عزمى على إبقائه، وأوّل ما أبدأ فيه بك إن شاء الله تعالى».

وهاهو الجاحظ يصوّر فى كتابه البخلاء أحد بخلاء البصرة الأثرياء ساخراً منه، مستهزئاً به، لأنّه يبخل على أخيه الفقير، ولا يدفع عنه الفاقة والحرمان، ويقول: «قال ابن حسّان: كان عندنا رجل مقلّ، وكان له أخ مكثر، وكان مفرط البخل، شديد النّفج، فقال له يوماً أخوه: أنا فقير معيل، وأنت غنىّ خفيف الظهر، لا تعيننى على الزمان، ولا تواسينى ببعض مالك، ولا تفرّج لى عن شىء! والله ما رأيت قطّ، ولا سمعت بأبخل منك!. قال: ويحك! ليس الأمر كما تظنّ، ولا المال كما تحسب، ولا أنا كما تقول فى البخل ولا فى اليسر، والله، لو ملكت ألف ألف درهم لوهبتك منها خمسمائة ألف درهم. يا هؤلاء، فرجل يهب فى ضربة واحدة خمسمائة ألف درهم يقال به: بخيل!». (البخلاء، دار الفكر، بيروت، دون تاريخ، ص ٢٢١).

وقد شهد عصر الجاحظ تباينا طبقيا حادا حيث أثرى السلطان وحاشيته والتجار الكبار ثراء فاحشا، وعانى البسطاء فيه فقرا شديدا، وكانت كتابات الجاحظ شاهدا معريا لمظاهر الثراء التى تزامنت مع حالات بخل بدت أقرب إلى الأسطورة، فأثرياء الجاحظ بخلاء أنانيون، يأكلون حقوق الناس، ونادرا ما يجودون، وإن جادوا فإنهم لا يجودون إلاّ فى حالات السكر، وعندما يصحون من الثمالة سرعان ما يندمون ويطالبون باسترجاع ما وهبوه. وهذه حال الصيرفى

لقد أتاحت إقامة الجاحظ فى كنف ابن الزيّات أن يخرج من سامرّاء، ويسافر إلى دمشق وانطاكية ومصر، وهناك يتعرّف على عادات الناس وتقاليدهم، ويلتقى بالأدباء والكتّاب، وقد وسّع هذا السفر خياله الأدبىّ، وزاده علماً وخبرة ومعرفة بأحوال الشعوب



القرى زبيدة ابن حميد، الذى يروى الجاحظ عنه الحادثة الآتية: «وأمّا زبيدة بن حميد الصيرفي، فإنّه قد استلف من بقال كان على باب داره درهمين وقيراطا، فلما قضاه بعد ستة أشهر، قضاه درهمين وثلاث حبات شعير، فاغتاظ البقال وقال: سبحان الله انت ربّ مائة ألف دينار، وانا بقّال لا أملك مائة فلس، وإنّما أعيش بكدى، وباستفضال الحبّة والحبّتين، صاح على بابك حمّال، والمال لم يحضرك، وغاب وكيلك، فنقدت عنك درهمين وأربع شعيرات، فقضيتني بعد ستة أشهر درهمين وثلاث شعيرات؟ فقال زبيدة: اسلفتنى فى الصيف فقضيتك فى الشتاء،وثلاث شعيرات شتويّة ندية أرزن من أربع شعيرات يابسة صيفية، وما أشك أنّ معك فضلاً». وهاهو زبيدة الثرى يندم على ثوب كان قد وهبه إلى احد ندمائه، ويحاول استرجاعه. يروى الجاحظ الحادثة قائلاً: «وسكر زبيدة فكسى صديقاً له قميصاً، فلما صار القميص على النديم خاف البداوات، وعلم أنّ ذلك من هفوات السكر، فمضى من ساعته إلى منزله فجعله برشكاناً (من ثياب النساء) لامرأته، فلما أصبح سأل عن القميص وتفقّده، فقيل له: إنك قد كسوته فلاناً! فبعث إليه ثمّ أقبل عليه فقال: ما علمت أنّ هبة السكران وشراءه وبيعه وصدقته وطلاقه لا يجوز؟. وبعد فإنى أكره أن لا يكون لى حمد، وأن يوجه الناس هذا منى على السكر، فردّه علىّ حتى أهبه لك صاحياً، عن طيب نفس، فإنى أكره أن يذهب شيء من بالى باطلاً.

فلما رآه قد صمم، أقبل عليه فقال: ياهناه إنّ الناس يمزحون ويلعبون ولا يؤاخذون بشيء من ذلك، فردّ القميص عافاك الله. قال له الرجل: إنى والله قد خفت هذا بعينه، فلم أضع جنبى إلى الأرض حتى جيّبته لامرأتى، وقد زدت فى الكمين وحذفت المقاديم، فإن أردت بعد هذا كله أن تأخذه، فخذه، فقال نعم آخذه لأنه يصلح لامرأتى كما يصلح لامرأتك، قال: فإنه عند الصبّاغ، فهاته. قال: ليس أنا أسلمته إليه. فلما علم أنّه قد وقع قال: بأبى وأمى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيث يقول: (جمع الشر كله فى بيت وأغلق عليه فكان مفتاحه السكر)».

ولم يكن الجاحظ يسخر من مجتمعه وعاداته وقيمه والبخلاء فيه فحسب، بل كان جريئاً على نفسه، وكان لا يجد عيباً أو منقصة من أن يسخر من نفسه إذا وجد ذلك طريفاً ومسليّاً. فها هو يقول ساخراً من نفسه ومن إحدى الجوارى الأجنبيّات التى لا تعرف نطق الحروف العربية بسلاسة ودقّة: «أتيت منزل صديق لى، فطرقت الباب، فخرجت إلىّ جارية سنديّة. فقلت لها: «قولى لسيدك: الجاحظ بالباب». فقالت: «الجاحد بالباب؟» على لغتها، فقلت: «لا، قولى: الحدقى بالباب». فقالت: «أقول الحلقى؟» فقلت: «لا تقولى شيئاً»، ورجعت». وهاهو يسخر من أحد الثقلاء قائلاً: «أتانى بعض الثقلاء فقال: «سمعت أنّ لك ألف جواب مُسكت، فعلّمنى منها»، فقلت: «نعم»، فقال: «إذا قال لى شخص: «يا.. يا ثقيل الروح، أىّ شيء أقول له؟» قلت: «قل له صدقت».

كان الجاحظ جريئاً على نفسه، وعلى شكله القبيح، مثلما كان جريئاً على عيوب مجتمعه وعلى البخلاء فى هذا المجتمع، لأنّ ذلك يخدم أدبه، ويزيده تأثيراً فى نفوس القرّاء، ويمكن أن ينطبق عليه المثل الشعبيّ القائل: «من ساواك بنفسه ما ظلمك». ويُروى أنّه كان هناك امرأة ثريّة فى البصرة، ولديها خاتم نفيس، وقد أرادت يوماً أن تزيّن فصّ هذا الخاتم برسم، فذهبت إلى أحد الصاغة، وقالت له: أريد أن ترسم لى صورة الشيطان على فصّ هذا الخاتم. فقال لها الصائغ: والله يا سيدتى لا أعرف كيف يكون شكل الشيطان حتّى أرسمه لك. أحضريه وأنا أرسمه لك.فخرجت المرأة من محلّ الصائغ، ودارت فى أزقّة البصرة وشوارعها فوقعت عيناها على الجاحظ، فقالت له: أرجوك يا سيّدى أن تأتى معى. فأتى معها إلى محلّ الصائغ، وهو لا يدرى إلى أين هو ذاهب. وعندما وصلا إلى محلّ الصائغ، قالت المرأة للصائغ: هذا هو مطلبى فارسمه لى.ويروى الجاحظ هذه الحادثة الغريبة المضحكة قائلاً: «ما أخجلنى إلاّ امرأة مرّت بى إلى صائغ فقالت له: اعملْ مثل هذا، فبقيت مبهوتاً.ثمّ سألت الصائغ، فقال: هذه امرأة أرادت أن أعمل لها صورة شيطان، فقلت: لا أدرى كيف أصوّره، فأتت بك لأصوّره على صورتك».

لقد أثرى الجاحظ المكتبة العربيّة بأهم المؤلّفات التى تركت أثراً عظيماً فى الأدب العربيّ والثقافة العربيّة، ولا نغالى إذا قلنا إنّ الأدب العربى ابتداءً من العصر العبّاسىّ حتّى أيامنا هذه لم يعرف كاتباً كبيراً وموسوعيّاً حقّق حضوراً قويّاً فى مجالس الأدب والعلم والمعرفة مثل الجاحظ، ولم يعرف كاتباً أكثر تأليفاً للكتب والرسائل الأدبيّة من هذا الرجل العظيم الذى استوعب ثقافة عصره، والثقافات الأجنبيّة الأخرى الوافدة على هذا العصر.

وعلى الرغم من بعد المسافة الزمنيّة بيننا وبين عصره فإنّه يظلّ حاضراً فى نفوسنا وأذهاننا حضوراً كبيراً وأليفاً، إذ تظلّ كتاباته منهلاً عذباً ننهل منه الفصاحة والبيان والجمال الأدبىّ والحكم والمواعظ وفلسفة الحياة والمعارف الغزيرة المختلفة. ■

كتاب الزاوية

الظلم مؤذن بخراب العمران

اعلم أن العمران على الناس فى أموالهم ذاهب بآمالهم فى تحصيلها واكتسابها لما يرونه حينئذ من أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم، وإذا ذهبت آمالهم فى اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السعى فى ذلك. وعلى قدر الاعتداء ونسبته يكون انقباض الرعايا عن السعى فى الاكتساب، فإذا كان الاعتداء كثيراً عامّا فى جميع أبواب المعاش كان القعود عن الكسب كذلك لذهابه بالآمال جمله بدخوله من جميع أبوابها. وإن كان الاعتداء يسيراً كان الانقباض عن الكسب على نسبته. والعمران ووفوره ونفاق أسواقه إنما هو بالأعمال وسعى الناس فى المصالح والمكاسب ذاهبين وجائين. فإذا قعد الناس عن المعاش وانقبضت أيديهم عن المكاسب كسدت أسواق العمران وانتقضت الأحوال.

وانظر ما حكاه المسعودى فى أخبار الفرس عن الموبذان صاحب الدين عندهم أيام بهرام بن بهرام وما عرض به للملك فى إنكار ما كان عليه من الظلم والغفلة عن عائدته على الدولة بضرب المثال فى ذلك على لسان البوم حين سمع الملك أصواتها وسأله عن فهم كلامها فقال له: إن بومًا ذكراً يروم نكاح بوم أنثى، وإنها شرطت عليه عشرين قرية من الخراب فى أيام بهرام فقبل شرطها وقال لها: إن دامت أيام الملك أقطعتك ألف قرية وهذا أسهل مرام. فتنبه الملك من غفلته وخلا بالموبذان سأله عن مراده فقال له: أيها الملك إن الملك لايتم عزه إلا بالشريعة والقيام لله بطاعته والتصرف تحت أمره ونهيه ولا قوام للشريعة إلا بالملك ولا عز للملك إلا بالرجال ولا قوام للرجال إلا بالمال ولا سبيل إلى المال إلا بالعمارة ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل.

إصـــــدارات جـــــديـدة

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

سفر الموت من أفغانستان إلى العراق

محمود المراغى

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢، ٢٢٨ صفحة



بعد كتابه «حرب الجلباب والصاروخ» والذى اعتمد فيه على وثائق الخارجية الأمريكية فى تحليل أسباب ودوافع وأهداف العدوان الأمريكى على أفغانستان، يأتى هذا الكتاب الذى يعتمد أيضًا على وثائق الخارجية الأمريكية، خصوصًا تلك التى تتناول الإرهاب حول العالم، حيث تبدو الولايات المتحدة الأمريكية ساعية وبقوة نحو إعادة تشكيل العالم بزعم مقاومة هذا الخطر الجائم الذى أجمع ٩١٪ من الأمريكان فى استقصاء للرأى أعقب أحداث الحادى عشر من سبتمبر أنه الإرهاب.

ستمتد الحرب ضد الإرهاب إلى عشر سنوات قادمة، هذا ما أكدته الإدارة الأمريكية، التى أعطت نفسها الحق فى التدخل فى أى مكان فى العالم لدحر الإرهاب ومطاردة الإرهابيين فى الكهوف وفى الجبال وبين الأحراش، هذا هو ما يسميه المؤلف «سفر الموت» وبدايته التقرير السنوى الذى أصدرته الخارجية الأمريكية حول الإرهاب فى العالم وحددت فيه الخصوم والأعداء أو من أطلقت عليهم «محور الشر».. ففى انتظار العالم مزيد من الحرائق.

■

الوصايا فى عشق النساء

أحمد الشهاوى

الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٣، ٢٥٥ صفحة



قانون العشق الأول - كما يقول الناقد الدكتور محمد عبد المطلب فى تذييل الديوان - هو الوصال الذى يستغرق الروح والجسد، فإذا كانت الروح تهوى الصعود إلى السماء، فإن الجسد هو فردوسها الأرضى، وهذه الوصايا بلا نهاية، فما أن تنتهى واحدة حتى تبدأ منها أخرى وهكذا.. من الوصايا:

إذا رأيت عاشقك فى وجد عظيم عليك، فلا تفارقيه، افديه وابذلى الود، لا تتمنعى، فابتلاء الرجل بمحبة امرأته، ولعب الغرام بقلبه أمر جلل، لا يقع للمرء إلا مرة واحدة.

■

الجماعات الإسلامية المسلحة

ترجمة: عبد الرحيم خَزَل

الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، ٢٠٠٣، ١٧٥ صفحة



يسعى مؤلفو الكتاب إلى رسم خريطة للجماعات الإسلامية المسلحة، وهو فى الأصل ملف أعدته مجلة «دفاتر الشرق» الفرنسية، ويبدأ بدراسة عن الدولة والجيش والعنف فى الجزائر كتبها «محمد مداوى». تصل إلى استنتاج مبدئى هو أن الازدواجية التى جمعت جبهة التحرير الوطنى وجيش التحرير الوطنى، جعلتهما معًا يشكلان جهازًا سياسيًا وعسكريًا، حتم ألا تنتقل الدولة المستقلة من حكومة أحادية يجسدها حزب وحيد وعسكرية تكون الغلبة فيها للسلاح.

ويتابع المؤلف صراع العشائر فى سبيل تكوين دولة وطنية، ثم وصول بديله إلى السلطة فى ١٩٦٢ وخلعه الذى أكد سطوة الجيش واستحالة تحديه أو تقليص سلطاته، وهو ما انعكس على فترة ولاية بومدين الذى توفى فى عام ١٩٧٨، لكن وفاته لم تؤثر على موازين القوى وبقى للجيش حضوره القوى فى المجالين السياسى والاقتصادى، وتأكد هذا الحضور مع الشاذلى بن جديد، لكن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية المتردية أفرزت حالة من الاحتقان الاجتماعى على خلفيتها جماعات إسلامية، رأت أن حل مشكلات الجزائر يكمن فى تطبيق الشريعة وإكمال بناء الدولة الإسلامية لتكون سبيلاً جديدًا بين الاشتراكية والليبرالية، ومهدت انتفاضة أكتوبر عام ٨٨ لظهور الإسلاميين بقوة، وسطع نجم الجبهة الإسلامية للإنقاذ، واكتسحت الانتخابات التشريعية واعتقل قادتها عباس مدنى وعلى بلحاج وألغيت نتائج الانتخابات، وبقية القصة معروفة، ومازالت الجزائر تعانيها حتى اليوم، والتى يرجعها المؤلف إلى صراع العشائر، سواء فى صفوف الجيش أو الإسلاميين.

وتحت عنوان الجماعة السلفية للدعوة والقتال، يتابع جون ميشيل سالكون دور هذه الجماعة التى تشكلت فى عام ١٩٩٨ فى إذكاء وتأجيج عمليات العنف فى الجزائر حتى اليوم، وبالذات مواقف الأمير «حسن خطاب» وعمليات القتل المتبادل فى صفوف الجماعة وصفوف العسكريين، ويرصد كيف استطاعت هذه الجماعة أن تجند عشرات الأشخاص فى مناطق مختلفة من الجزائر، ويكشف عن مصادر تمويلها فى الداخل والخارج.

ويقدم «آلان كرينيان» قراءة تاريخية للجماعات الإسلامية المسلحة، ينتهى فيه إلى أن هذه الجماعات مازالت نشيطة على الساحة برغم ما نالت من ضربات، ومازالت بداخلها عناصر من تلك التى كان يتزعمها عنتر الزوابرى وحسن خطاب، وأن قدرتها على تحدى العسكر والمجتمع مازالت قائمة.

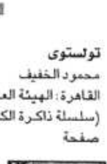
ويرصد «ريشار لابيفيير» فى دراسة أخرى الشبكات الإسلامية العاملة فى أوروبا. ويبدأ من جمال لونيسى، الذى اعتبرته دوائر أوروبية عديدة المحرك الرئيسى لتزويد الشبكات الجزائرية بالسلاح، وتشكل بريطانيا أهم بؤرة أوروبية لتجمع الإسلاميين الجزائريين، ويقدم الباحث تفاصيل أخرى عن شبكات الجماعات الإسلامية فى بلجيكا وسويسرا وألمانيا وإيطاليا والسويد وفرنسا، وينتقد فى الختام الخطاب الإصلاحى الذى يبشر به طارق رمضان فى أوساط الإسلاميين العائشين فى أوروبا.

■

تولستوى

محمود الخفيف

القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة (سلسلة ذاكرة الكتابة)، ٢٠٠٣، ٤٣١ صفحة



صدر هذا الكتاب لأول مرة قبل خمسين عامًا، وهو أول دراسة عميقة فى المكتبة العربية عن الأديب الروسى الأشهر ليو تولستوى.

ودراسة المؤلف عن صاحب الحرب والسلام لا تتوقف عند تحليل آثاره الأدبية وأعماله الفكرية، وإنما تتجاوزها إلى مواقفه الإنسانية، ذلك أن تولستوى لم يكن مجرد أديب ترك أعمالاً خالدة مازال باقية حتى اليوم، وإنما كان صاحب دعوة للعدالة والسلام والمساواة، وقد وضع أفكاره العظيمة موضع التطبيق، حتى أنه - وقد كان غنيًا يمتلك مساحات هائلة من الأراضى التى يعمل فيها عشرات المزارعين - وزّع جزءًا كبيرًا من أرضه على المزارعين الذين يعملون لديه، وافتتح لأبنائهم مدارس كان يدرس لهم فيها بنفسه، وأنفق ثروته كلها تقريبًا على الأقنان والفقراء حتى أن زوجته هجرته لاعتقادها أنه صار سفيهًا غير مسئول عن تصرفاته، هذه الدراسة الشاملة تلقى أضواءً باهرة على تولستوى الأديب الكبير والإنسان صاحب المبادئ العظيمة.

■

فلسطين.. من النكبة إلى أوسلو (طبعة ثانية)

عماد جاد

القاهرة: مؤسسة الأهرام، ٢٠٠٣، ٣٦٨ صفحة



بنهاية الحرب الباردة تزايدت الآمال بقرب التوصل إلى مستويات شاملة للصراعات الإقليمية، وهو ما جرى فعلاً فى عديد من تلك الصراعات تحت مظلة النظام العالمى الجديد، لكن بقى الصراع العربى الإسرائيلى يراوح مكانه حتى بعد المبادرة الأمريكية بعقد مؤتمر دولى فى مدريد ٤ أكتوبر ١٩٩١، لكن يوميات الصراع تشير إلى أن الأمور ازدادت سوءًا منذ ذلك الحين ومازالت ، فهل تكمن الأسباب فى طبيعة الصراع بوصفه نموذجًا لصراع اجتماعى ممتد، أم فى الانحياز الغربى - والأمريكى خصوصًا - للجانب الإسرائيلى.

من النكبة إلى أوسلو، يتابع المؤلف يوميات الصراع، وهو يعطى أهمية كبيرة للعامل الديموجرافى والهجرات والنزوح ومعدلات الزيادة السكانية وطبيعة الأنشطة التى يمارسها السكان الفلسطينيون والإسرائيليون، والأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لهم وتأثير ذلك على هويتهم، ثم يبحث فى الخيارات

المطروحة لحل الصراع وخطوط كل منها من النجاح، ويتابع مسيرة التفاوض والحل السلمي وما انتهت إليه في أوسلو.

العلم والفرضية

هنري بوانكاريه
ترجمة وتقديم: حمادي بن جاد بالله
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٣، ٣٤٣ صفحة



الكتاب هو أول إصدار للمنظمة العربية للترجمة، وهو من أبرز ما كتب الفيلسوف بوانكاريه، وفيه يضع الحقائق العلمية موضع الشك والتساؤل، ويؤكد على أن ما يمكن بلوغه من العلم ليست الأشياء في ذاتها، بل العلاقات الرابطة بين هذه الأشياء. الكتاب مقسم إلى أربعة أقسام تتضمن ١٤ فصلاً.

المغرب في حلي المغرب

أكمل تأليفه: ابن سعيد الأندلسي
تحقيق: زكي محمد حسن ـ شوقي ضيف ـ سيدة كاشف
القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة الذخائر، ٢٠٠٣، ٤١٨ صفحة



يختص هذا الجزء من هذا السفر الذي خلفه علماء المسلمين في الأندلس بالفسطاط، ويتحدث عن الأقاليم الواقعة شرقي النيل، وهو يحتوي على عديد من التراجم والأخبار عن شعراء وأدباء وفقهاء وأماكن تذكر بأسمائها التي عرفت بها آنذاك، وهو كتاب شارك في تأليفه ستة مؤلفين حتى انتهى إلى مؤلفه (ابن سعيد الأندلسي) الذي أكمل تأليفه، وقد عنيت بهذا الكتاب الأسرة ذاتها أسرة ابن سعيد التي كانت نموذجًا للأسر التي عنيت بالعلوم والآداب في ذلك الزمن، والكتاب يكشف عن الحالة الاجتماعية والفكرية التي كانت عليها المدينة آنذاك، فضلاً عن علمائها وشعرائها الأفذاذ، كما أنه يجمع أخبارًا تتنوع بين الطرافة والجدة.

لماذا يكرهوننا.. لماذا نكرهم؟



كراهية تحت الجلد

صلاح الدين حافظ
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٣، ٣٨٣ صفحة

بحسب ما يقول الأستاذ محمد حسنين هيكل في تقديمه للكتاب، فقد تحولت الولايات المتحدة الأمريكية من قوة عظمى إلى قوة أعظم، ثم هي تنعم الآن بوصف القوة الكاسحة (Hyper-Power).

وهذا الكتاب يسعى للإجابة عن السؤال: لماذا يكرهوننا.. لماذا نكرههم؟

ويقدم الإجابة تقريبًا ـ العنوان التالي للكتاب: إسرائيل عقدة العلاقات العربية الأمريكية.

الإجابة السهلة الساذجة قدمها المنظرون وصناع السياسة الأمريكية عقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر، التي كانت صاعقة وانعطافية بدرجة مذهلة، قالوا: إنهم يكرهوننا لأننا أقوياء متقدمون وديمقراطيون.

وهي كما نرى إجابة استعلائية فضلاً عن كونها بعيدة الصلة بالحقائق أو منبتة عنها، فإسرائيل ـ كما يقول المؤلف ـ هي عقدتنا وعقدتهم، ولأن إسرائيل تدرك القضية على وجهها الصحيح، فإنهم لم يفوتوا الفرصة.

وبدأ الإسرائيليون يطرحون قضيتهم على الرأي العام الأمريكي وعلى صناع السياسة وفق معادلة بسيطة، أنهم مع الأمريكيين ضد الإرهاب الذي طال رموز حضارتهم السياسية والعسكرية والاقتصادية، وتصفيتهم للفلسطينيين وسحقهم، هي جزء من هذه الحملة الدولية ضد الإرهاب العالمي.

المؤلف يبدأ بالبحث في أصول هذه الكراهية وجذورها، فالعرب تعرفوا بالأوروبيين عبر احتكاكات وصدامات وصراعات عنيفة وسنوات طوال من الاستعمار والقهر، أما الأمريكيون فإن الاحتكاك بهم تميز بمسحة تبشير دينية، منطلقة من مبادئ الرسالة الإلهية التي خص بها الرب الأمريكيين أصحاب الحضارة الجديدة.

وعبر الإيمان بهذا الدور توافدت الإرساليات الأمريكية حاملة الدعوة البروتستانتية، لكن شيئًا فشيئًا تحولت هذه المهمة الرسولية الهادئة الهادية إلى دعوة سياسية تستدعي أنياب القوة وحوافرها عند اللزوم، ولم تكن إسرائيل بعيدة عما يجري، فقد استغلت هذا التحول، واقتربت بالدوافع الرسالية ذاتها من سيدة العالم الجديد التي صارت صاحبتها وربيبتها، وانتعشت فكرة ظهور المسيح من جديد بين اليهود وفوق أرض صهيون، فلا بد إذن من إقامة وطن يتجمع اليهود فيه حتى يظهر المسيح ويخلص المؤمنين، ويقودهم إلى الانتصار على قوى الشر ويقيم مملكة السلام لألف عام حتى قيام الساعة.

وبقوة السياسة وسحرها، انتقل الفريقان إلى مرحلة التحالف، التي لعبت فيها المعتقدات الدينية دورًا رئيسيًا، ورسخت في العقل الأمريكي عدة مبادئ مفادها أن حماية إسرائيل واجب ديني وقومي، وصارت إسرائيل جزءًا أصيلاً في نسيج المجتمع الأمريكي بوصفها جزءًا من الحضارة الغربية، ولدورها في حماية مصالح أمريكا والغرب، ولردع الطموحات الأصولية في العالم العربي.

فلا عجب إذن أن يكيل الأمريكان بمكيالين إذا كانت إسرائيل طرفًا في خصومه ـ وأن يناصروها على طول الخط، دفاعًا عن مصالحهم التي اكتست غطاء دينيًا زائفًا.

لكن العجب ـ بعد هذا كله ـ أن يتساءل الأمريكيون: لماذا يكرهنا العرب والمسلمون؟

أسفار موسى (العهد الأخير)

موسى حوامدة
عمان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٣، ١٤٢ صفحة



بامتلاكه الاسم، توهم الشاعر أنه موسى كليم الله فراح يناجيه، ويطلب منه أن يعود إلى أرض ميعاده (فلسطين) كما فعل موسى.

إنه يقاوم روح الطغيان ـ كما يقول الدكتور صلاح فضل ـ باستثارة انبل المكنون في تراثه الأصيل، وإذا كان عدوه الصهيوني المهووس قد أقام حلمه القومي المتعصب على أساس التأويل التوراتي، فإن التوظيف القرآني الناجح يصبح مصدر الرؤية الخلاقة للمستقبل.

يضم الديوان عددًا من الأسفار هي سفر الخطيئة، سفر الهزيمة، سفر اللعنة، سفر التثنية، سفر الرؤيا، سفر الأيام، سفر الرموز، سفر الخيانة، سفر العبث، سفر القرن العشرين.

من أجواء الديوان:

أراني/ غريبًا في بلاد الناس
غريبًا في بلادي
سجينًا في قيودي
طليقًا في قصائد لم تلاسني
نشيدًا في مدائح لم تغنِّ
حروفًا في رسائل لم تكاتبني.

صناعة العداء للإسلام

رجب البنا
القاهرة: دار المعارف، ٢٠٠٣، ٤٦٥ صفحة



يضم الكتاب ملفًا بأقوال وكتابات زعماء ومفكرين من أوروبا وأمريكا عن الإسلام والمسلمين، فضلاً عن أعمال سينمائية وتليفزيونية غربية تناولت المسلمين، تكشف عن جذور العداء الغربي للحضارة الإسلامية والتي تفجرت في أعقاب أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١.

ويبين ما يقدمه المؤلف تقرير بريطاني أعدته لجنة خاصة لدراسة الإسلاموفوبيا هناك، وقال التقرير إن المسلمين في بريطانيا يعانون من الظلم والحرمان والإقصاء والتفرقة في التعليم وفي المعاملة فضلاً عن التحرش

والعنف الذي يصل إلى حد المواجهة الصراعية، ويشير التقرير إلى أن هذه الإسلاموفوبيا هي السبب في أنه لم يظهر حزب إسلامي في بريطانيا، ولا يوجد عضو مسلم واحد في مجلس اللوردات ولم يظهر مرشح واحد في مجلس العموم برغم أن مسلمي بريطانيا يبلغ عددهم نحو مليون شخص. كما يشير المؤلف إلى تقرير نشرته مجلة الإيكونوميست في أغسطس عام ١٩٩٤ عنوانه: الإسلام والغرب.. الحرب القادمة، ونشرت رسمًا بحجم صفحة كاملة يمثل الحروب الصليبية وغزو أوروبا للإسلام، وتحذر من أن هذه الحرب الصليبية ستتكرر، وتطالب بمنعها، ويتناول المؤلف بالتحليل كتاب جاك فريمو «فرنسا والإسلام»، والذي يؤكد مؤلفه أن فرنسا اكتشفت من خلال حرب الاستقلال الجزائرية أن الإسلام هو المحرك الذي أشعل نيران الثورة في نوفمبر عام ١٩٥٤، أما شعور فرنسا بالخطر الإسلامي فجاء في أعقاب الثورة الإيرانية وتداعياتها، ثم العديد من مظاهر العنف في عواصم عربية عديدة، خلقت حالة من العداء للإسلام والخوف من أصحاب هذه الديانة، وشعورهم أن المسلمين يمكن أن يهددوهم في عقر دارهم، أما في أمريكا فإن الجماعات اليهودية المتعصبة واليمين المسيحي المتطرف كان له دور كبير في إذكاء نار العداء للإسلام والمسلمين والذي زادت حدته اضعافًا في أعقاب أحداث سبتمبر.

الكتاب يضم نحو ثلاثين مقالاً يدور جميعها في هذا الإطار ويتساءل عما فعله المسلمون لمواجهة هذا التشويه.

■

تورا بورا أولى حروب القرن

يوسف الجهماني

دمشق: دار الكتاب العربي، ٢٠٠٣، ٢٩٦ صفحة



النفط هو عنوان أولى حروب القرن في افغانستان وأبرز دوافعها، كما أنه - وفق تحليلات عديدة - أحد أهم أسباب المحاولات الأمريكية لضرب العراق.

الإرهاب وملاحقة فلول الطالبان والقاعدة والإيقاع بأسامة بن لادن حيًا أو ميتًا أسباب ظاهرة مرددها الرئيس الأمريكي وإدارته، لكن ثمة أسبابًا أعمق وأهم تغلي تحت السطح البارد.

الكتاب يشير إلى تلك الأسباب في إطار ما يسميه بالمؤامرة الأمريكية الصهيونية الكبرى، مستعرضًا في الوقت ذاته بعض الموضوعات ذات الصلة، ومواقف دول عديدة تبدو في خلفية الحدث، لكنها تؤثر عليه بدرجة أو بأخرى، مثل الصين وباكستان وروسيا وإيران ودول أوروبا، وعلاقة ما جرى في أفغانستان بالصراع العربي الإسرائيلي وتأثيرها عليه، كما يتضمن نحو سبعة عشر ملحقًا ووثيقة ليوميات الصراع في تورا بورا وما آل إليه.

■

سيكولوجية الذاكرة

محمد قاسم عبد الله

الكويت: عالم المعرفة، ٢٠٠٣، ٥١٥ صفحة



الذاكرة هي جوهر العمليات المعرفية، وهي ضرورية جدًا لاسترجاع ما تم تعلمه، وهي حين تعاني ضعفًا أو اضطرابًا فإن ذلك ينعكس مباشرة على الشخص نفسه. وهذا الكتاب يقدم خلاصة لأهم وأحدث النتائج عن الموضوعات التي تخص الذاكرة، طبيعتها، علاقتها بالتعلم، بالإبداع، بالتغذية، أشكال الذاكرة وروابطها بالصحة النفسية وكبر السن والأمراض المزمنة.

لكن النسيان ليس دائمًا مما ينكب به الفرد، فبحسب علماء مختصين يشير إليهم المؤلف، فإنه - أي النسيان - من المظاهر المهمة للذاكرة طويلة المدى، وهو ضروري للإنسان، ولولاه لغدا التفكير مضطربًا وغير منتظم.

ومما يدهش في هذه الدراسة المهمة ما يذهب إليه المؤلف من وجود ذاكرة لدى النبات، تمكن من الاستجابة الطبيعية لعوامل نموه كالماء والهواء والشمس (راقب زهرة عباد الشمس في اتجاهها الدائم نحو الشمس مثلاً)، كما أن بعض النباتات تفرز مواد كيماوية معينة كي تقتل بها الآفات الضارة، فيما تفرز بعضها مواد أخرى تجذب إليها حشرات تقتات عليها، علماء كثيرون يوافقون على أن هذه ذاكرة موجودة في الحمض النووي الريبوزي DNA، وهي عبارة عن تعليمات تحرك النباتات وتتحكم في تصرفاتها. وبالمثل فإن للحيوانات والحشرات ذاكرتها.

وضمن فصوله الـ ٢٢، يجيب المؤلف عن السؤال: لماذا تضعف ذاكرة كبار السن، ويجيب بأن التقدم في العمر يصاحب عادة بتغيرات بيولوجية وكيماوية تؤثر على وظائف الدماغ، فتموت عديد من الخلايا ويحدث ضعف عام في عمليات الهدم والبناء، وبشكل عام فإن المتقدمين في السن يعانون انخفاضًا في أداء الذاكرة طويلة المدى، ويصبحون أقل قدرة على استدعاء الأحداث والذكريات السابقة.

التذكر إذن إحدى العمليات المهمة التي تجري في المخ، والمؤلف في سياق دراسته المطولة يشير إلى ما يعرف بالذاكرة الكاذبة أو المزيفة، والذكريات اللاشعورية، والذاكرة التي تعرضت لصدمة، وذاكرة الخاضعين لاستجوابات في قضايا معينة، وغيرها.

■

أسرار وحكايات في بلاط صاحبة الجلالة

محمود صلاح

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢، ٢٨٧ صفحة



يضم الكتاب مذكرات الكاتب الصحفي الشهير الذي لقب بأمير الصحافة العربية محمد التابعي، وقد كان على صلة وثيقة بالقصر ورجاله، كما ربطته صلات وطيدة بزعماء الأحزاب السياسية جميعًا، وقد أتاحت له هذه الصلات أن يتابع عن كثب مجريات الأحداث وأن يقترب بشدة من صناع القرار والسياسة في مصر قبل الثورة، وكان ضيفًا في الرحلات الملكية إلى أوروبا، والتي لم تكن متاحة إلا للمقربين جدًا، وهو الذي كتب حكاية الملكة نازلي ورئيس الديوان الملكي أحمد حسنين.

لكن المؤلف يتخير في هذا الكتاب ما كتبه التابعي عن حادث ٤ فبراير عام ١٩٤٢ الشهير، حين حاصرت الدبابات الإنجليزية قصر عابدين وأجبرت الملك على أن يأتي بحزب الوفد، صاحب الجماهيرية الكبيرة إلى الحكم، كي يتحقق الاستقرار الذي تتمناه إنجلترا أثناء الحرب، وتداعيات هذا الحادث الخطير على البلاد وردود أفعال الأحزاب والقوة السياسية تجاهه.

كما يتناول المؤلف مذكرات اللواء محمد نجيب أول رئيس جمهورية مصري في أعقاب ثورة يوليو ١٩٥٢، حيث يحكي تفاصيل مثيرة عن حياته تحت الإقامة الجبرية في فيلا المرج.

ويحاور المؤلف زكريا محيي الدين، وهو واحد من أبرز رجال الثورة الذين لعبوا أدوارًا مهمة وتقلدوا مناصب خطيرة، وقد عرف زكريا محيي الدين بلقب الرجل الصامت، فقد كان عزوفًا عن التحدث إلى الصحافة، لا يرد حتى على من يسيئون إليه، وفي هذا الحوار يتكلم عن فكر الضباط الأحرار في بداية الثورة وعن القوائم السوداء ومراقبة التليفونات، وغيرها من الموضوعات والأسرار المهمة في التاريخ المصري.

■

وشم على ريم الفراغ

خالد أمين حجازي

القاهرة: هيئة قصور الثقافة (سلسلة إبداعات)، ١٧٥ صفحة



ديوان بالعامية لواحد من جيل الشعراء الشباب في مصر يحتفي بالخيال والتشكيل ويعتمد المفارقة وسيلة لإدهاش قارئه.

من قصائد الديوان:

غيمانه في المدارات
تحضن عصافيري/ وتقول لها طيري
وفي الهوا الجناحات/ ندخل دواير عشق
ونلملم المسافات/ ننزل على الجنة
علشان ما نتحنّي/ ما نلاقي غير جمرات

■

الغزل في عصر صدر الإسلام

حسن جبار الشمس

عمان: الوراق للنشر والتوزيع، ٢٠٠٣، ٢٦٠ صفحة



وضع القرآن حدودًا أخلاقية للشعر والشعراء، وفسر الزمخشري «والشعراء يتبعهم الغاوون»، بأن الناس لا ينبغي أن تتبعهم على باطلهم وكذبهم وما هم عليه من الهجاء وتمزيق الأعراض والقدح في الأنساب، فالأساس الذي ينشده الإسلام في الشعر هو الصدق والخير، وكذلك كان للرسول الكريم والخلفاء الراشدين الموقف ذاته، وانعكس ذلك الموقف العام على الموقف الأخلاقي للإسلام من شعر الغزل وموضوع الحب، فقد سعى إلى تحقيق الألفة بين القلوب، وجعل العلاقة بين الرجل والمرأة قوامها العفة والمودة والرحمة.

ويرى كثير من الباحثين الثقات مثل الدكتور شوقي ضيف والدكتور يوسف خليف أن الحياة الإسلامية كانت سببًا في أن يصبح الحب العذري هو اللون السائد في اللوحة البدوية الإسلامية، ومن ثم سادت موجة الغزل العذري في صدر الإسلام، وتطور الغزل العذري الذي طهر النفوس وبرأها من النوازع الحسية الرخيصة. وإلى الغزل العذري، يخصص الفصل الثاني للغزل الحسي، والرابع

لغزل الجند ومعاني الفروسية، ويقدم في الفصل الثالث طبيعة الغزل في مقدمات القصائد، ويحلل في الفصل الخامس أبرز العناصر الفنية لشعر الغزل.

وينتهي المؤلف إلى عدة نتائج منها: أن الشعراء نظموا الغزل في صدر الإسلام كما فعل الجاهليون والأمويون، وأن الإسلام لم يمنع الغزل بل شجعه وفق شروط أخلاقية محددة، وأن الغزل العذري تمتد جذوره إلى العصر الجاهلي، وأن بعض الشعراء تغزلوا في زوجاتهم وكان الإسلام سببًا في ظهور قصائد هذا الغزل، كما أن الإسلام لم يهدم الموروث الجاهلي في نفوس الشعراء المسلمين، ولهذا جاء أكثر غزلهم الحسي امتدادًا لغزل الجاهليين في صوره ومضامينه.

ويقدم المؤلف نماذج عديدة لهذه الأنواع من الغزل بأغراضه المختلفة.

مقالة في النقرس

أبو بكر الرازي

تحقيق: يوسف زيدان

الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية، ٢٠٠٢، ٥٥صفحة



اشتهر أبو بكر محمد بن زكريا الرازي المتوفى في ٣١٣ هجرية بأنه من أهم الشخصيات التي تألقت في سماء التاريخ العلمي الإنساني، واشتهر بمنهجيته العلمية وبإرسائه الطب على قاعدة البحث الإكلينيكي دون أن يغرق نفسه في البحوث الإكلينيكية، واعتبر كتابه الحاوي أهم موسوعة طبية إكلينيكية في الإسلام، فقد سجل فيه الرازي آلاف الحالات المرضية والطرق العلاجية، وإلى كتابه الحاوي، للرازي رسائل فلسفية وطبية، وتعد هذه المخطوطة «مقالة في النقرس»، أقدم مخطوطة طبية بالإسكندرية، وهي ضمن مقتنيات بلدية الإسكندرية وتقع في عشرين صفحة، وقد سار فيها على طريقته في الاهتمام بالجانب الإكلينيكي لمرض النقرس ومتابعة أعراضه وعلاماته وارتباطه بالبنية العامة للجسم وأجهزة الجسم المختلفة، وهي نظرية كلية تشير إلى أثر الفلسفة في كتابات الرازي الطبية، والكتاب يتضمن ترجمات إنجليزية وفرنسية وألمانية للرسالة، تأتي ضمن مشروع النشر الذاتي متعدد اللغات للمكتبة.

إشـــراقة

التجاني يوسف بشير

القاهرة: هيئة قصور الثقافة (سلسلة آفاق عربية)، ٢٠٠٣، ١٩٦ صفحة



يعد الشاعر واحدًا من أكبر شعراء الفكر الصوفي في السودان، وفي فكره الشعري مضمونًا وشكلاً وتصوفًا فلسفيًا يصله بأهم النظريات الفلسفية عند المتصوفة.

من أجواء الديوان:

اقم له بين الربى مأتمًا
واستعبر البنيان حر الأسف
وصغ له الأصداف قبرًا فما
يستبطن الدرة غير الصدف
واسكب على قبر النبوغ الدما
وانثر على قبر الشباب الطرف
واختر بواكير الربا أنجما
واجمع لمجد الشعر مجد الترف

العولمة والفكر العربي المعاصر

الحبيب الجنحاني

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢، ١٢٠صفحة



الشرط الأساسي الذي يضعه المؤلف كي تكسب دول العالم النامي وفي مقدمتها الدول العربية رهان العولمة، هو أن تصلح شئونها السياسية إصلاحًا جوهريًا، ويحذر من أنه ما لم تنجح الشعوب العربية في كسب رهان الديمقراطية ستتخلف عن التحديث قرنًا ونصفًا على الأقل، وستجد نفسها مطالبة في نهاية المطاف بالعدل السياسي والحرية، وقد كانا مطلبي جيل الرواد مطلع القرن الماضي.

المؤلف يبدأ بتحليل العولمة كظاهرة وكشف تجلياتها في السياسة والاقتصاد والإعلام وسواها من شئون الحياة، والقى أضواء على مجالها الحضاري بأبعاده التربوية والثقافية والاتصالية، ويشير إلى أن قوة المجتمع المعاصر تكمن في سيطرته على الفضاء ووسائل الاتصال، كما أن تحول المجتمع العالمي من مجتمع صناعي إلى مجتمع معلوماتي يستلزم الانتباه إلى شروط هذا التحول وتكلفته.

وإزاء التحولات المهمة في عصر العولمة، يؤكد المؤلف على أن عصر الأبطال والزعامات قد ولى، وأن العصر هو عصر الشعوب والتضامن والحلول الحوارية والتوفيق بين الممكن والمأمول، عصر المنظمات غير الحكومية والأفكار التحررية، وليس مقبولاً - بحسب المؤلف - أن «تفكر عالميًا وتتصرف محليًا» وهي المقولة التي عدت قاعدة ذهبية للعولمة، وإنما صار الأصوب هو أن تفكر عالميًا وتتصرف عالميًا.

وفي القسم الخاص بالعولمة والفكر العربي المعاصر يناقش المؤلف الأفكار المحورية الواردة في نماذج من أبرز النصوص التي تناولت العولمة، خصوصًا عند حسن حنفي وعابد الجابري وإسماعيل صبري عبد الله، وينتهي إلى عدة ملاحظات منها: أن الحديث عن العولمة الاقتصادية يقتضي بالضرورة بحث موضوع نمط الإنتاج في ضوء التطورات التكنولوجية وثورة الاتصالات، ويوجه المؤلف الانتباه إلى أن مقولة الطريق الثالث التي ظهرت في أوروبا لم يتم التعامل معها في بلداننا بالجدية الواجبة، فهي تستلزم مؤسسات مجتمع مدني قوي ومؤثر، كما تستلزم تنسيقًا بين الدول العربية حتى في المجال الاقتصادي، وانعدام التنسيق في هذا المجال يجعلها فريسة لليبرالية الجديدة.

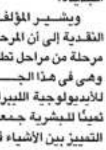
ويشير المؤلف ضمن ملاحظاته النقدية إلى أن المرحلة لا تعدو كونها مرحلة من مراحل تطور المجتمع البشري، وهي في هذا الجانب تعد قفوزًا للأيديولوجية الليبرالية الجديدة وكسبًا ثمينًا للبشرية جمعاء، ومن ثم فإن عدم التمييز بين الأشياء في هذا الإطار يضعها في مقابلة خاطئة على هذا النحو: الاشتراكية هي النقيض الفعلي للعولمة».

وأخيرًا يركز المؤلف كما بدأ على الجانب السياسي قبل أي جانب آخر، ويراه الجانب الأساسي في الفوز بثمار العولمة.

الفلسفة في الوطن العربي في مائة عام

مجموعة من الكتاب والأكاديميين

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٢، ٦٤٦ صفحة



يحتوي الكتاب على أوراق ندوة «الفكر الفلسفي العربي في مائة عام»، والتي عقدت بمناسبة تحول العالم من قرن إلى قرن ومرور ربع قرن على إشهار الجمعية الفلسفية المصرية. ويعرض الكتاب لخمس إشكاليات رئيسية هي: التقليد والحداثة، العقل والعقلانية، الحرية في الفكر الفلسفي العربي المعاصر، الأخلاق أو الحكمة العلمية عند القدماء، الإشكال السياسي.

ويستعرض التيارات الرئيسية الثلاثة التي سادت الفكر الفلسفي العربي منذ القرن التاسع عشر وهي الإصلاحي والليبرالي والعلماني، بالإضافة إلى دراسة نماذج من المؤسسات الفلسفية في مصر والعراق ونماذج من رموز عربية للمشتغلين في حقل الفلسفة.

حياة البوذا

دايساكو إكيدا

ترجمة: محمود منقذ الهاشمي

دمشق: منشورات وزارة الثقافة، ٢٠٠٢، ١٩٠صفحة



تهتم الديانة البوذية بمبدأ أساسي يدور حول ما إذا كان الشخص يدرك في داخل نفسه مبادئ الحقيقة الخالدة أم لا؟ هذا هو ما حققه البوذا بحسب ما يرى أتباعه، الذين يرون أن كل شخص ينتمي إليه عليه أن يسير على الدرب ذاته.

«شاكيموني» هو الاسم الحقيقي لمؤسس تلك الديانة العالمية، أما لقب البوذا الذي اكتسبه فإنه يعني «الواحد المتنور بالواقع الجوهري»، وقد ولد في شبه الجزيرة الهندية ابنًا لحاكم دويلة صغيرة تسمى «شاكية»، كانت ثروتها على وشك الاضمحلال ومقدرًا للدويلة ذاتها الانهيار أو الالتحاق بأخرى كبيرة في أحسن الظروف، لكن «شاكيموني» وريث العرش، اختار طريقًا آخر، فتخلى عن العرش وباشر حياة التقشف الديني بحثًا عن جوهر الوجود، حتى بعد أن تزوج وأنجب، فقد كان قراره أن يغادر بيته وأسرته ويلتحق بالحياة الدينية وهو مازال بعد في التاسعة عشرة من عمره.

انخرط شاكيموني في التقشف حتى أضعف جسمه إلى حد الهزال وجلس عند جذع شجرة تين هندي واستسلم لتأمل عميق حيث وصل إلى «التنور» - الحقيقة المطلقة - وهو في أواسط الثلاثينيات.

وقد درس «شاكيموني» اليوجا على يد أستاذين حتى يكون أقدر على التأمل والانعتاق من رغبات الجسد، لكنه في رحلة البحث الطويلة، انتهى إلى أن البوذية التي ينشدها ليست تعليمًا ينحو إلى الزهد والتقشف، ولا هي مجرد فلسفة تأملية مثالية، إنها ديانة السبيل الوسط.

A Medeival Islamic City Reconsidered: An Interdisciplinary Approach to Samarra

(سامراء فى القرون الوسطى: إعادة نظر فى مدينة إسلامية)

Chase Robinson (محرر)

Oxford University Press, 2003, 250PP., $60.00

تعتبر مدينة سامراء العراقية الآن من أهم المواقع الأثرية فى العالم. وخلال القرون الوسطى، ازدهرت سامراء عندما اختارها الخليفة العباسى المعتصم عاصمة له، بعد أن واجهته بعض المشاكل السياسية فى بغداد. واستمرت سامراء عاصمة للدولة العباسية منذ عام ٨٦٣م وحتى عام ٨٩٢ عندما عادت بغداد مرة أخرى عاصمة للخلافة العباسية.

يقدم هذا الكتاب مجموعة من الدراسات عن مدينة سامراء فى العصور الوسطى، تنتمى إلى حقول بحثية متباينة، من تاريخ وعمارة وفن وأدب. ويتخذ الكتاب فى مجمله من مدينة سامراء نموذجًا للمدينة الإسلامية والمدنية الإسلامية، بكل ما تضمنه من الحياة الثقافية والفنية ونظم إدارية وسياسية. يتناول أحد الفصول الفن المعمارى الذى ميز قصور سامراء ومساجدها، حيث يوجد بها الجامع الشهير بالمئذنة الملوية. ويتناول آخر ثقافة البلاط، وما يسمى بالقصيدة السامرائية، وغيرها من المظاهر الأدبية. كذلك يوجد فصل عن المفهوم الأيديولوجى خلف بناء المدينة وتصميمها، ورمزية البناء والزخرفة فى قصر الخلافة.

الكتاب صادر ضمن سلسلة دراسات أكسفورد فى الفن الإسلامى

Dead Cities

(مدن ميتة)

Mike Davis

The New Press, 432PP.,2003 £14.95



مؤلف هذا الكتاب أمريكى يحذر من أن بلاده فى خطر شديد ويركز على مجال واحد يعتقد أن الكارثة قادمة لا محالة مالم تتحرك السلطات الأمريكية. إن التقدم الأمريكى فى شتى المجالات كانت له تكاليفه المهلكة، خاصة فى مجال البيئة ويشير إلى أن مياه المحيط الهادى على الساحل الأمريكى لم تعد صالحة لكى يسبح الأمريكيون فيها، والتلوث امتد من الساحل ليشمل مدنًا بأكملها، إن الغرب الأمريكى معرض لكارثة بيئية ومدن مثل كاليفورنيا ونيفادا وأوتا وغيرها تواجه ليس فقط كارثة بيئية، بل اجتماعية أيضًا، فالتوسع السكانى الرهيب أضر للغاية بهذه المناطق.

ويقول المؤلف إن لوس أنجلوس أصبحت تستورد الماء والطاقة وتصدر التلوث والقمامة. ويشير إلى أن الانفجار السكانى فى مدينة ما يعادل تآكل جبل، فهذا الانفجار السكانى يعنى التوسع غير العقلانى على حساب كل شىء جميل فى المدينة. إن إقامة محلات السوبر ماركت العملاقة ومواقف السيارات الضخمة كل ذلك يؤثر سلبًا على البيئة. ويعتقد المؤلف أن حديثه عن هذه المدن ليس سوى مثال لما يحدث فى أمريكا ككل.. إنها ليست فقط لوس أنجلوس ولكنه الحلم الأمريكى، فهل يقوم الأمريكيون باغتيال هذا الحلم.

Jarhead: A Marines Chronicle of the Gulf War

(جندى أمريكى من المارينز يؤرخ لحرب الخليج)

Anthony Swofford

Scribner, 2003, 272PP., £14.99



المذكرات الشخصية لأحد الجنود الأمريكيين الذين حاربوا فى حرب الخليج التى دارت عام ١٩٩١. أنتونى سوفورد كان عمره آنذاك عشرين عامًا، ومذكراته التى يضمها هذا الكتاب تصور شكل الحياة داخل قاعدة عسكرية أمريكية خاصة بالمارينز كانت مقامة فى السعودية.

يبين سوفورد فى كتابه مدى العنف والإباحية التى ميزت ممارسات الجنود الأمريكيين مع بعضهم داخل القاعدة، فهم يمضون وقتهم فى الحديث عن الجنس ومشاهدة أفلام البورنو والأفلام الحربية. كما يقوم البعض باغتصاب البعض الآخر أحيانًا، وكثيرًا ما تتطور انفعالاتهم ومعاركهم الشخصية إلى حد التهديد بالسلاح.

كذلك تبين مذكرات سوفورد مدى المعاناة الشخصية والعائلية التى يعانيها معظم هؤلاء الجنود، إلى جانب السطحية وعدم النضوج الذى تتسم به شخصياتهم. وقد أقام بعضهم «حائطًا للعار» يعلقون عليه خطابات وصور الزوجات والصديقات الخائنات. ويروى سوفورد كيف كان بعضهم يمثل بجثث الضحايا فى العراق، مسهبًا فى شرح الدوافع النفسية والعصبية التى تجعل الجندى يقوم بمثل هذه الممارسات الوحشية.

A Concise History of Greece

(تاريخ موجز لليونان)

Richard Clogg

Cambridge University Press, 291PP., £40.00



يأتى كتاب البروفيسورة ريشارد كلوج ليسد فراغًا كبيرًا ويتناول الكتاب اليونان منذ نهاية الحكم العثمانى فى القرن التاسع عشر وحتى الآن، وهناك فصل خصصته المؤلفة عن اليونان فى التسعينيات من القرن العشرين. كما تفرد فصلاً آخر عن الهجرة التى أصبحت ملمحًا مميزًا لليونانيين، وعلى سبيل المثال كانت هناك جالية يونانية كبيرة فى مصر. كما يتناول الكتاب السياحة فى اليونان وزيارة الآثار التاريخية ومشكلة بعض الآثار التى استولت عليها الدول الاستعمارية سابقًا قبل بريطانيا.

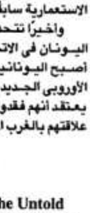
وأخيرًا تتحدث المؤلفة عن عضوية اليونان فى الاتحاد الأوروبى وكيف أصبح اليونانيون جزءًا من النسيج الأوروبى الجديد بعد أن كان البعض يعتقد أنهم فقدوا خلال القرون الماضية علاقتهم بالغرب المتقدم.

A Time to Die: The Untold Story of the Kursk Tragedy

(وقت الموت: القصة غير المروية لمأساة كورسك)

Robert Moore

Crown, 271PP.,2003 $ 25.00



فى الساعة ١١،٢٨ صباح يوم السبت ١٢ أغسطس ٢٠٠٠، كانت الغواصة النووية الروسية كورسك أسفل سطح بحر بارنتس تستعد لإجراء مناورة عسكرية.. وكانت الأمور لا تنبئ بأى شىء غير متوقع.. لكن العكس حدث وغرقت الغواصة بعد انفجار كبير. وتسرب الوقود ولم تعد الغواصة قادرة على العمل، بل استقرت فى الأعماق. وفى هذا الكتاب لا يشغل المؤلف نفسه كثيرًا بالحديث عن أسباب غرق الغواصة، لكنه يركز على فشل جهود إنقاذ بحارة الغواصة، لقد تمكن ٢٣ رجلاً من النجاة من الانفجار الذى حدث فى الغواصة، وكذلك غرقها لكن جهود الإنقاذ فشلت فى العثور عليهم أحياء.

ويتحدث المؤلف وهو صحفى تليفزيونى بريطانى عن عدم استعداد أطقم الإنقاذ الروسية جيدًا وعدم قدرتها على تحديد مكان الغواصة الغارقة فى البداية، الأمر الذى استدعى الاستغاثة بأطقم غواصة بلجيكية وبريطانية، وكان الوقت قد فات ليموت هؤلاء الناجون!

إن البعض اعتبر غرق الغواصة بمثابة دليل على الوضع الحالى الذى وصلت إليه روسيا وريثة الاتحاد السوفيتى. وأكثر ما فى الكتاب إثارة التحقيق الصحفى الذى أجراه المؤلف حول الجهود اليائسة لفتح باب الغواصة الغارقة والخلافات بين الروس والبلجيكيين حول طريقة الفتح.

Remembering Childhood in the Middle East: Memoirs from A Century of Change

(تذكر الطفولة فى الشرق الأوسط: مذكرات عبر قرن من التغيير)

Elizabeth Warnock Fernea

American Universiy in Cairo Press, 2002, 354PP.



يضم هذا الكتاب ستًا وثلاثين سيرة ذاتية لستة وثلاثين رجلاً وامرأة من مختلف أنحاء الشرق الأوسط. وتتناول هذه السير التى كتبت خصيصاً لهذا الكتاب تجربة الطفولة والنشأة لصاحبها أو صاحبتها.

وقد قامت المحررة إليزابيث فيرنيا بتجميع هذه الكتابات عبر عشر سنين، ثم قامت بتبويبها حسب الجيل والحقبة التاريخية التى تمثلها كل مجموعة من الشخصيات، بحيث تقدم صورة شاملة للحياة الاجتماعية فى الشرق الأوسط خلال العقود المختلفة من القرن العشرين.

يبدأ القسم الأول فى مرحلة انتهاء الإمبراطورية العثمانية، أى فى العشرينيات من القرن العشرين. وهو يضم مذكرات الطفولة والنشأة لكل من محمد فاضل الجملى من العراق، تشارلز عيسوى من مصر، وسلمى خضرا الجيوسى من فلسطين وآخرين من سوريا والأردن والسعودية.

القسم الثانى يتناول مرحلة الأربعينيات وتأسيس دولة إسرائيل، والحكم الاستعمارى الأوروبى، ثم بداية ظهور القومية العربية، ويضم مذكرات عربية وتركية وإيرانية.

أما القسمين الثالث والرابع فيشملان الأجيال التى نشأت فى الخمسينيات والستينيات والسبعينيات ويعبران عن

مرحلة تكوين الدولة القومية، والثراء الذى أحدثه التوسع فى استخراج البترول، إلى جانب الحروب الإسرائيلية العربية، ومعاهدة كامب ديفيد، والثورة الإسلامية فى إيران.

وتوضح المحررة فى بداية كتابها كيف أن اختيارها للشخصيات لا يعنى أنهم عينة ممثلة لشعوبهم أو أجيالهم ولكنهم مجرد أمثلة معبرة، منهم الشعراء والأدباء ومنهم الأساتذة والباحثون ومنهم موسيقيون وفنانون. كذلك فإن بعضهم ينتمى إلى الطبقات الأرستقراطية وبعضهم ينتمى إلى طبقة العمال الزراعيين، كما يمثلون أعراقًا وأديانًا مختلفة. الكتاب يعد تجربة فريدة فى رؤية التغيرات التى طرأت على الشرق الأوسط خلال القرن العشرين من خلال قراءة فى التاريخ الشخصى لمجموعة من الأفراد.

■

China's New Rulers.. The Secret Files

(حكام الصين الجدد.. الملفات السرية)

Edited by Andrew Natham and Bruce Gilley

Granta, 120PP., £14.99



فى منتصف مارس الماضى اكتملت عملية الانتقال السلمى الأولى للسلطة فى الصين منذ قيام الثورة الشيوعية عام ١٩٤٩. وهذا الكتاب عبارة عن مجموعة من الملفات السرية التى سبقت المؤتمر العام الأخير للحزب الشيوعى الصينى الحاكم والذى تم خلاله الموافقة على التغيرات والتى أصبح بمقتضاها هوخنتاوا سكرتيرًا عامًا للحزب الشيوعى الصينى ثم رئيسًا للبلاد.

وهذه الملفات سربها شخص ما فى الحزب الشيوعى الصينى إلى الخارج. ويقول المؤلفان أن هناك تقليدًا لدى الزعماء الصينيين مفاده نشر الوثائق المهمة، التى لا يمكن توزيعها محليًا، فى الخارج وعلى سبيل المثال الوثائق التى تم تسريبها فى السبعينيات من القرن الماضى عن حياة زوجة الزعيم الراحل ماوتسى تونج.

■

Politics of Mass Consumption in Post war America

(جمهورية المستهلكين: سياسات الاستهلاك الجماهيرى فى أمريكا ما بعد الحرب)

Elizabeth Cohen

Alfred. A.Knopf, 567PP., $35.00



بعد هجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١، دعا الرئيس الأمريكى جورج بوش الأمريكيين إلى الخروج للشراء ومساعدة الاقتصاد الأمريكى فى النهوض من الأزمة التى وقع فيها، ولم تكن تلك هى المرة الأولى التى يظهر فيها مصطلح «الاستهلاك العام» أى أن المستهلك يشترى أكثر لمساعدة بلاده، فبعد نهاية الحرب الثانية شجعت الحكومة الأمريكية مواطنيها على زيادة استهلاكهم بأكبر قدر ممكن لمساعدة الاقتصاد.

وتجادل المؤلفة اليزابيث كوهين فى هذا الكتاب بأن المستهلكين أعادوا رسم خريطة المجتمع الأمريكى خلال العقود الماضية، حيث رأى هؤلاء المستهلكون بلادهم كنموذج لمجتمع ملتزم بالاستهلاك الضخم لخدمة الاقتصاد الوطنى. إن هناك مستهلكًا حسب المؤلفة، ينظر إلى مسألة الشراء من ناحية مصالحه الخاصة، بينما هناك آخر يعتقد أن هذه العملية، أى الشراء قوة يمكن أن تساعده وتساعد المجتمع كذلك.

■

The Book of Clouds

(كتاب السحاب)

John A.Day

Silver Lining Books, 2002, $19.95



يعرف جون داى مؤلف هذا الكتاب حول العالم بأنه «رجل السحاب»، فقد كرّس حياته لدراسة وتأمل السحب سواء للأغراض العلمية أو للأغراض الجمالية والفنية. بدأ جون داى مشواره مع السحاب منذ دراسته للفيزياء فى الجامعة، ثم قام بدراسات عليا فى علم الطيران وبدأ يعمل فى الأرصاد الجوية.

أما هذا الكتاب، فهو مقدمة للقارئ العادى لفهم ظاهرة السحاب. كيف يتكون؟ من أين يأتى؟ وإلى أين يذهب؟ ولماذا يتشكل بهذه الأشكال؟ وكيف نعرف طقس الغد بمجرد ملاحظة نوع السحاب؟

ديمقراطية فى خدمة الاقتصاد



The Future of Freedom: Illiberal Democracy at Home and Abroad

(مستقبل الحرية: الديمقراطية غير الليبرالية فى الولايات المتحدة وخارجها)

Fareed Zakaria

Norton, 2003, 256PP., $24.95

فى الوقت الذى تشن فيه الولايات المتحدة حربًا فى الشرق الأوسط بدعوى إرساء نظم حكم ديمقراطية فى المنطقة، يأتى كتاب فريد زكريا الصادر حديثًا برسالة مهمة، مضمونها أن الديمقراطية ليست خيرًا مطلقًا وتحتاج إلى قيود كثيرة لكى تعمل بكفاءة، خاصة فى دول العالم الثالث. وفى حوار أجرته معه إحدى الدوريات بمناسبة قرب صدور كتابه، صرح فريد زكريا رئيس تحرير مجلة نيوزويك الدولية ومدير تحرير مجلة فورين أفيرز الأمريكية سابقًا، أن الولايات المتحدة أدركت أن الحكومات التى لا تعمل بكفاءة تمثل تهديدًا ليس فقط لشعوبها وإنما للولايات المتحدة ذاتها، حيث ينتج عنها حركات الإرهاب المختلفة. كذلك كان من الخطأ التركيز على الإصلاح الاقتصادى والتطوير التكنولوجى فى تلك الدول خلال التسعينيات وإهمال أساليب الحكم السياسى، لأنه فى غيبة الإدارة السياسية الكفء لن يعمل الاقتصاد بكفاءة ولن يستقر النظام الاجتماعى.

يبين زكريا فى كتابه خطورة المبالغة فى التركيز على الديمقراطية والانتخابات الحرة. فيذكر كيف أن الانتخابات الحرة هى التى أتت بهتلر والنازية فى عام ١٩٣٣. أما الحكومات الغربية فتجمع بين الديمقراطية والليبرالية معًا وهذا هو الضمان المهم من وجهة نظره. فالديمقراطية التى تتبناها الولايات المتحدة وتحاول فرضها على باقى العالم هى الديمقراطية الليبرالية، التى تركز على التحرير الاقتصادى ودور الفرد، بعكس الديمقراطية الاشتراكية التى تركز على المساواة الاقتصادية.

لذلك يمتدح زكريا تجارب دول مثل سنغافورة وتشيلى والمكسيك لأنهم قاموا بتحرير الاقتصاد أولاً قبل تحرير النظم السياسية. أما الدعوة الخطيرة التى يوجهها للإدارة الأمريكية فهى أهمية تشجيع دكتاتور مثل بيرويز مشرف الباكستانى لأنه يؤيد التحرير الاقتصادى، بينما يجب التوجس من الرئيس الفنزويلى هوجو شافيز الذى جاء ديمقراطيًا عبر الانتخابات الحرة.

«هذه الدروس ينبغى أن تأخذها الإدارة الأمريكية فى الاعتبار وهى تقوم بإعادة البناء فى كل من العراق وأفغانستان»، هكذا أكد زكريا. «لأن الانتخابات الحرة قد تأتى بمشاكل سياسية كبيرة مثل ما حدث فى البوسنة بعد عام من معاهدة دايتون للسلام، حيث دعمت الانتخابات القوى الإثنية البشعة وجعلت من بناء حكم ديمقراطى ليبرالى أمر أكثر صعوبة».

ويضيف زكريا أنه فى العراق، سيكون هناك ضغط من أجل إجراء الانتخابات بسرعة لإضفاء الشرعية. ولكن الشرعية لن تؤدى إلى حكومة ذات كفاءة. بل إن كفاءة الحكومة ستتحقق باستمرار الوجود الأمريكى هناك لإتمام عملية بناء المؤسسات.

هذا بالنسبة لرؤية زكريا لما يجب أن تكون عليه الحكومة فى العراق وأفغانستان وباقى البلدان، أما فى الولايات المتحدة فيرى أيضًا أن الديمقراطية قد اتخذت فيها شكلاً شعبويًا غير مطلوب. وهو يدعو إلى زيادة الأجهزة المعينة على حساب الأجهزة المنتخبة مثل المحكمة العليا الأمريكية وأيضًا مثل منظمة التجارة العالمية. مثل هذه الأجهزة تعمل بكفاءة من وجهة نظر زكريا لأنها تعمل بعيدًا عن الضغط الشعبى الذى يؤثر فى أداء قرارات الأجهزة المنتخبة.

يذكر أن فريد زكريا من أبرز الخبراء الحاليين فى مجال السياسة الخارجية بالولايات المتحدة الأمريكية. وقد وصفته مجلة إسكوير مؤخرًا بأنه واحد من أهم واحد وعشرين شخصية فى القرن الواحد والعشرين. وقد ولد زكريا فى مدينة مومباى بالهند ودرس فى جامعات ييل وهارفارد فى الولايات المتحدة. وهو يعد أصغر من تولى إدارة تحرير مجلة فورين أفيرز «شئون خارجية» التى يصدرها مجلس العلاقات الخارجية، حيث كان عمره آنذاك ٢٨ سنة.

هـديل غنيـم

... مـــن دفتـــر

«علينا منع أى دولة معادية من السيطرة على مناطق يمكن لمواردها أن ترفع هذه الدولة إلى مصاف الدول العظمى.. وعلينا تثبيط عزيمة الدول الصناعية المتقدمة عن محاولة تحدى زعامتنا أو لقلب النظام السياسى والاقتصادى القائم.. كما أن علينا العمل على عدم بروز أى منافس كبير فى المستقبل».

من دليل السياسة الدفاعية الأمريكية ١٩٩٢ - ١٩٩٤

«لقد فشل مجلس الأمن.. والولايات المتحدة ستقوم هنا بما تقاعس عن القيام به».
«على العسكريين العراقيين عدم إطاعة أوامر قادتهم. كما أن عليهم التصرف بشرف من خلال السماح للقوات الأمريكية بدخول العراق».

جورج دبليو بوش
رئيس الولايات المتحدة
(فى الانذار الشهير)

«التحالف مع الولايات المتحدة أهم من الناحية الاستراتيجية من التحالف مع الأمم المتحدة».

جون هيوارد
رئيس وزراء أستراليا

«مسئولية الولايات المتحدة مؤكدة فى العراق بعد الحرب. قواتنا لن تغادر فجأة لتترك المكان للأمم المتحدة. لذا علينا أن نعمل سويًا.. فالمنظمة الدولية ستكون مزودة بقبعتين: الأولى باعتبارها الأمم المتحدة، والثانية باعتبارها جزء من التحالف الذى قام بالعملية العسكرية».

هارود ليتش
السفير الأمريكى لدى فرنسا

عندما كنت أذهب لتغطية المناورات العسكرية، كنت أحرص على تسجيل اسمى ضمن قائمة المصورين، والذين - لطبيعة دورهم - كان يسمح لهم بالاقتراب أكثر مما يجرى. وقتها لاحظت أن القادة الميدانيين يمسكون عادة بقلم من الرصاص، ودفتر من الورق، يؤشرون فيه طوال الوقت. ورغم أنه فاتنى أن أسأل: لماذا هو من الرصاص، إلا أن الأمر كان كافيًا لكى يرتبط لدى مشهد مراقبة الحرب بدفتر الملاحظات.

ها هى إذن الحرب «الميدانية» قد اندلعت. ذهب إليها قادة البنتاجون باطمئنان الذاهب إلى مناورات «النجم الساطع» الروتينية. فالموعد حددوه سلفا (حسب التوقيت المحلى لمدينة واشنطن DC). ومقر القيادة الوثير قد تم تجهيزه بعناية. والصحافيون تلقوا تدريبات (مدفوعة) على أجهزة المحاكاة الإلكترونية. ليتم «تسكينهم» ضمن نظام محكم داخل الوحدات العسكرية الميدانية. وعقود توريد الأغذية و«الكولا» تم توقيعها بالفعل. ومكان التسليم، طبقًا لخطة التحركات العسكرية للحرب/المناورة، داخل الأراضى العراقية.

أيًا ما كان الأمر، فقد اندلعت الحرب، وأيًا ما كانت النتائج القريبة والبعيدة سيبقى فى المشهد «دفتر الملاحظات».

[١]

الزمان: التاسع عشر من الشهر الثالث من العام الثالث من القرن الحادى والعشرين.

بانوراما المشهد (بعرض العالم) كالآتى:

فى العاصمة «الدبلوماسية» لعالم ما بعد الحرب العالمية الثانية «نيويورك»، يجتمع مجلس الأمن «الدولى» على مستوى وزراء الخارجية ليتحدث عن «السلم». وليستمع إلى تقرير المفتشين الدوليين الذين ذهبوا إلى العراق بقرار منه، ثم عادوا راكضين مهرولين تحت سلاح إنذار الـ ٤٨ ساعة الأمريكى الشهير.

وفى واشنطن، التى ينظر إليها الكثيرون على أنها العاصمة «الفعلية» للعالم الجديد. كان «الرئيس» - بأداة التعريف، كما يشير إليه تونى بلير فى مؤتمرات صحفية (غير مشتركة) - يجتمع مع أركان حربه قبل أن يضغط على الزناد، عند منتصف الليل. لتنطلق الصواريخ على الناحية الأخرى من العالم. حيث «ميدان ضرب النار» والتعبير للأستاذ هيكل. الذى سبق الكثيرين، وربما صدمهم بالتنبيه مبكرا إلى «الأبعاد العولمية» لحرب «الصدمة والترويع» كما أسماها تومى فرانكس قائد القوات الأمريكية فى الخليج.

وقد تكون التسمية صحيحة - بغض النظر عن القصد - إن أدركنا ما هو المقصود بالصدمة.. ومن هم هدف للترويع.

[٢]

«لحظة الحقيقة» هى إذن كما قال جورج دبليو بوش. بعد أن بدا واضحًا - لكل من يريد أن يرى - «حقيقة» العالم الذى تريده أمريكا. وبعد أن كشفت مباريات مجلس الأمن، والتصريحات المنفلتة. من هم المقصودون «شرقًا وغربًا» بالضربات «الاستباقية».

أيًا ما كان الأمر. فإننا - على الأغلب - أمام «لحظة فارقة» فى التاريخ وإذا كان صحيحا أو محتملا أن غبار الحرب سينقشع عن نظام دولى جديد. بديل عن نظام الأمم المتحدة الذى جاءت به الحرب العالمية الثانية، فقد يكون من الصحيح أيضًا أن الحدث - إقليميًا - ربما يأتى بنظام بديل لنظام الجامعة العربية. الذى نشأ فى وقت متزامن مع نشأة المنظمة الدولية. وهنا احتمالان، قد لا يكون هناك ثالث لهما. إما أن تذهب الفكرة ذاتها إلى صفحات التاريخ. سواء غاب التنظيم، أو بقيت هياكله. أو أن يدرك ذوو الصلة - والحاجة - أن القيمة واجبة وأن الأمل ممكنٌ. فى تلك اللحظة الفارقة التى يعاد فيها ترتيب الأوراق ويُصار فيها إلى رسم الخرائط. وإن كان لهذا بالضرورة حديث آخر. فقد يكفى التذكرة فقط بالحقائق التالية:

١- أن المظاهرة الوحيدة فى العالم كله التى قامت تأييدًا للحرب، شهدتها شوارع عاصمة عربية.

٢ - أن دولة «غربية» مثل بلجيكا، رفضت السماح للطائرات الأمريكية بالتوقف فى مطاراتها للتزود بالوقود، وهى فى طريقها إلى حرب «غير شرعية». حسب تعبير المسئولين فى بروكسل.

٣ - ولعلها ثالثة الأثافى. تبقى الحقيقة المجردة، التى لا بد من رؤيتها واضحة، فضلاً عن الاعتراف بها. أنه ورغم قرار على أعلى مستوى من القمتين العربية والإسلامية «بعدم المشاركة» فى الحرب التى وضع الملوك والأمراء والرؤساء توقيعاتهم على قرار برفضها، إلا أن الحاصل أن الصواريخ التى قصفت عاصمة الخلافة الإسلامية الزاهرة وقت العباسيين، انطلقت من قواعد فى أرض عربية. وأن الطائرات التى دكت «التخوم الشرقية» كما كان يسميها دائمًا المتحدثون عن مفهوم الأمن القومى العربى، إنما جاءت من «الداخل».

وإذا كانت القاعدة السيكولوجية تقول إن المرء يميل إلى أن يتجاهل ما لا يحب أن يراه، إلا أن التاريخ يبقى بلا عواطف.. وروزنامته لا تحكمها السيكولوجيا. وكما أن لكل حدث حديثا، كما يقول العرب. تبقى لكل الأحداث مترتبات ونتائج.. وللحديث - بضرورة الحدث - بقية.

[٣]

«حرب الحواسم»! يبدو أنها المرة الأولى التى تختار فيها الآلة الدعائية العراقية شعارًا - وبغض النظر أيضا عن القصد - يبدو صحيحًا. فتلك الحرب التى يخطئ الكثيرون حين يؤرخون لبدايتها (الحقيقية) بالتاسع عشر من مارس، والتى لم يحدد من ذهب إليها - أو لم يعلن لنا بشفافية - متى يعتبرها انتهت، يبدو أنها ستحسم الكثير والكثير من الأمور. وسترسم الكثير من الخطوط المتلاقية حينًا والمتقاطعة والمتشابكة أحيانًا. إن لم يكن على خرائط الجغرافيا، وهذا وارد، فعلى خرائط (واسعة) للسياسة، والاقتصاد.. والقوة.

ويخطئ من يعتقد أن مشهد «قطع الدومينو المتتالية» سيتوقف عند أفق يحده المحيط أو الخليج. فكما أن تظاهرات الـ (لا للحرب) لم تعف السنغال أو جزر الهاواى، فإن نتائج الحرب ستطال على المدى القريب أو البعيد (ولا مبالغة) المستقبل السياسى لقادة ذهبوا إليها مثل بوش وبلير. أو أيدوها مثل أزنار وهيوارد. أو عارضوها مثل شيراك وجيرهارد شرودر.

«حرب الحواسم» هى إذن. والتى ستحسم - أيًا ما كانت نتيجتها النهائية (القريبة أو البعيدة) المصير النهائى لكثير من رموز وصراعات النصف الثانى من القرن العشرين. إقليميًا ودوليًا.. وفكريًا:

١ - النظام الدولى.. قانونًا وأفكارًا ومؤسسات: ففى جزر الأزور أعطى جورج دبليو بوش لمجلس الأمن (الدولى) انذارًا لمدة ٤٨ ساعة «ليتخذ القرار الذى نريد». وإلا سنذهب «نحن» للقيام بالمهمة.

يومها سحب كوفى عنان رجاله «الدوليين» خوفًا على حياتهم. ولم يكن هناك نيكيتا خرشوف آخر يخلع حذاءه ليطرق به المنصة احتجاجًا. فهذا كان زمان القادة. وتلك كانت مناخات التوازن.

٢ - النظام العربى وأفكاره.. وجامعته: وبغض النظر عن الاختلاف الذى لن يحسم أبدًا حول «منطقية» الرئيس بشار، و«واقعية» الوزير حمد، وأفكار العقيد القذافى.. ودبلوماسية الأمين العام.

٣ - حزب البعث العربى الاشتراكى: هل تذكرون بداية القصة. وهل تذكرون ميشيل عفلق. وهل تذكرون نصف قرن من الأحلام.. والدماء. ربما نشهد الآن نهاية تراجيدية للقصة الدرامية العاصفة.

٤ - الاتحاد الأوروبى: والذى لا يعرف

ملاحظات الحرب

أيمن الصياد

الآن إن كان قد توسع ليقوى بـ «أوروبا الجديدة» أو ليضعف بها.

٥ ـ حلف الناتو: بين مبرر النشأة.. ودواعى الاستمرار.. ورياح الخلافات والانقسام.

٦ ـ القضية الفلسطينية: محور «المسألة» العربية، والضحية الأولى (المحتملة) للمراهنات.. والمقامرات.. وإعادة ترتيب الأوراق.

[٤]

عندما قال لى سائق التاكسى متحمسًا أنه «لا يوجد بين العرب رجل غير صدام»! عرفت أن الديمقراطية هى الخاسر الأول فى هذه الحرب، وأدركت كم أن الأمريكيين أغبياء عندما يفرطون فى الاعتماد على محللى الرأى العام الجالسين فى مكاتبهم الوثيرة فى نيويورك والذين ربما كانوا يجيدون أكثر اختيار لون رابطة العنق، ونكهة القهوة، وموقع غرفة الاجتماعات.. حيث تطل النافذة الواسعة ولابد على الـCityscape.

وكان صديق ينتمى إلى عائلة مالكة خليجية قد قال لى فى إطار تعليقه على ما يجرى: «ليس هذا وقت الحساب.. هذا وقت العواطف، والعواطف لا تعرف حسابات الحقل والبيدر، تعرف فقط أواصر القربى.. ورابطة الدم.. إذا أخطأ ابنك ربما تعاقبه ضربًا بالعصا.. ولكنك لن تسمح لغيرك بإذلاله..».

هل يفهم الأمريكيون القابعون أمام شاشات الكمبيوتر الباردة هذا المنطق.

لم يفهم خبراء الحرب النفسية فى الجيش الأمريكى فى فورت براج بولاية نورث كارولينا لماذا يقاتل جندى عراقى فقير «فى معركة ميئوس منها وغير متكافئة.. ودفاعًا عن طاغية دموى». الـSlogans التى عكف خبراء الدعاية الأمريكيون على صياغتها بعناية قبل أن «يبيعوها» للجيش الأمريكى، حملتها ملايين (٨ ملايين) المنشورات من الورق الملون المصقول والتى ألقيت على قوات الجيش العراقى طوال الأيام السابقة لاندلاع الحرب.

هل يفهم البراجماتيون لماذا لم يلقهم العراقيون «المعذبون افتراضًا» بالورود؟! وهل يدركون كيف تتوارى ـ فى هذه الثقافة ـ حسابات المكسب والخسارة حينما يتعلق الأمر بالكرامة والشرف.. والأرض والوطن؟! وهل نسوا كيف أساءوا فهم أن تترك فتاة فلسطينية جميلة فى ربيع العمر آمالها وأحلامها للتزنر بحزام من متفجرات؟! وكيف كان الحديث عن «الفقر المؤدى للتطرف والعنف» مضللاً حين اكتشفوا أن صفوة القاعدة جاءت من بلاد الخليج الغنية.

وقد يبقى أمرًا مضحكا أن يعتقد هؤلاء الخبراء والذين ألقوا بـ ٣٠ ألف جهاز راديو ثابت الموجة على ثكنات الجيش العراقى، أن جنوده ولأن غالبيتهم من الشباب بطبيعة الحال، ستستمع إلى الإذاعة الخاصة التى وجهوها إليهم «لأنها تذيع أغانى البوب والروك الأمريكية الشبابية»! وليت أحدهم كان معى فى التاكسى.. ليرى كيف لم يرض سائقه «الشاب» بالاستماع إلى الإذاعة المحلية، والتى اعتبرها هابطة، وأخذ يجهد مؤشر المذياع بحثًا عن مارشات عسكرية كما قال لى.

أيًا ما كان الأمر، فقد بدا أن الالتباس فى كلام سائق التاكسى «البسيط» فى الزقاق القاهرى الفقير، حيث حملنى إلى الأزهر لأشهد «رد الفعل العفوى» عن قرب، وجد صداه «المرتبك» فى مانشتات الصحافة، وفى كتابات المثقفين فى صحف عربية تصدر هنا.. أو هناك فى عواصم أوروبية، وفى آرائهم «كضيوف المناسبة» فى شبكات التليفزيون الأمريكية.

حالة من الاستقطاب والفوضى والارتباك الفكرى، إن أشدت بمقاومة العراقيين المحاصرين منذ اثنى عشر عامًا لأكبر قوة عسكرية فى التاريخ، اتهمك المعارضون العراقيون و«المبشرون الأمريكيون» بأنك ضد الديموقراطية وضد الكويت، وأنك لا تعير اهتمامًا لمذابح حلبجة الكيماوية، ولا لحقيقة أن أطباق الاستقبال الفضائية محظورة فى العراق. وإن أنت أشرت إلى مثالب النظام العراقى، وجدت فورًا من يصرخ فى وجهك (بالقلم وعلى الفضائيات) بالخيانة والعمالة والتنكر لدماء العراقيين الذين قضوا فى ملجأ العامرية أو فى سوق الشعب.

والحاصل أن المشهد البادى فى أعمدة الصحف وبيانات المثقفين وشاشات التليفزيون يجسد «أزمة المثقف العربى» المتوارثة والمزمنة.

تتكاثر الأسئلة.. بلا إجابة، كما تتناثر القنابل العنقودية فى سماء المعركة.

ونكتب.. ولما تضع الحرب أوزارها بعد.. ويظل دفتر الملاحظات مفتوحًا بالضرورة.. يقبل الإضافة.. والتعديل.

وربما تلك هى الحكمة من «القلم الرصاص». ■

«تلك الحرب تشن من وراء ظهر مجلس الأمن الدولى وبما يخالف القانون.. إنه لأمر يدعو للسخرية، أن تدمر بلداً بدعوى تحريره ونشر الديمقراطية.. إن ما تفعله الولايات المتحدة وبريطانيا هو محاولة لفرض نظام سياسى بالقوة على دولة ذات سيادة.. العراق دولة مستقلة وعضو فى الأمم المتحدة. ومطالبة واشنطن بقطع العلاقات معها تحد للمجتمع الدولى».

إيجور إيفانوف
وزير الخارجية الروسى

«من الناحية القانونية البحتة فإن الغزو الأمريكى للعراق لا يختلف عن الغزو العراقى للكويت قبل عقد من الزمان».

صحيفة «لوفيجارو» الفرنسية

«الأمريكيون لا يريدون إعطاء مهلة أسابيع للتأكد من تنفيذ قرار لمجلس الأمن صدر قبل أشهر. لماذا لا ينفذون القرار ٢٤٢ الصادر قبل ٣٥ عامًا؟».

روبين كوك
زعيم الأغلبية فى مجلس العموم البريطانى
والذى قدم استقالته احتجاجًا على الحرب

«أردنا التعبير عن ضيقنا وتوجيه ضربة توجع الأمريكيين فى حافظات نقودهم. لم يشتك الزبائن. على العكس معظمهم يرحب بهذه الخطوة».

فابيو إنجيلى
صاحب مطعم «أوستريا» فى برلين
(أحد المطاعم التى حذفت الكوكاكولا والمنتجات الأمريكية الأخرى من قوائمها احتجاجًا على الحرب)



حـركـات الاحـتـجـاج عـنـدنـا وعـنـدهـم..

تمثل حركات الاحتجاج فى ثقافة الغرب السياسية تقليدًا يمتد إلى جذور بعيدة فى التعبير عن آراء الشعوب وإرادتها، وذلك حين تتسع الفجوة بين السياسات التى تنتهجها حكومة ما وبين ما تؤمن به وما تدعو إليه قطاعات واسعة مؤثرة من الشعب إزاء قضية معينة. وتزداد هذه الحركات قوة وزخمًا فى النظم الديمقراطية، لتجتذب إلى صفوفها تيارات اجتماعية مختلفة واتجاهات سياسية متباينة، قد لا تكون بينها وشيجة صلة. كلما استقوت الحكومة بأغلبية برلمانية تحميها من غضب الشعب وتضفى عليها الشرعية المطلوبة.. ويحدث هذا بشكل خاص فى القضايا المصيرية، التى تتعلق بالحرب والسلام، أو بالأزمات والقرارات الاقتصادية التى تمس حياة المواطن العادى.

ولم يحدث أن شهد العالم منذ حرب فيتنام فى الستينيات من القرن الماضى، مسيرات احتجاج جمعت بين صفوفها هذه الأعداد المليونية الهائلة فى وقت واحد عبر المئات من المدن والعواصم العالمية، على نحو ما حدث فى المسيرات والمظاهرات التى غطت الشوارع والميادين احتجاجًا على الخطط الأمريكية البريطانية للحرب ضد العراق. وكانت مسيرات الاحتجاج الأكبر عددًا والأوسع مددًا، هى تلك التى نظمت فى بلاد تؤيد الحرب، أو تواجه ضغوطًا للانضمام إلى الحرب مثل أمريكا وبريطانيا وإسبانيا فى الحالة الأولى، وفرنسا وألمانيا فى الحالة الثانية.

وخلال السنوات الأخيرة، جرت مسيرات احتجاج عديدة تعبيرًا عن الرفض والمعارضة لقضايا إقليمية أو عالمية. مثل قضايا العولمة والتجارة العالمية وسيطرة الهيئات الاقتصادية الدولية على مصير العالم، والغبن الذى تتعرض له الدول النامية والفقيرة فى توزيع الثروة. ولابد أن نلاحظ هنا كيف نجحت حركات الاحتجاج الغربية فى إعادة إنتاج أشكال الرفض وأساليب التعبير عن مقاومة الاتجاهات الرسمية السائدة.. وكيف استفادت من مهرجانات الغناء والعروض الفنية التى تشارك فيها أعداد غفيرة من أعمار وأجناس مختلفة. فضلاً عن المهارة العالية فى تنظيم مسيرات حاشدة بمئات الألوف.. واستخدام الأقنعة والوجوه الكاريكاتيرية والشعارات الساخرة واللافتات المبتكرة والملابس التنكرية وأضواء الشموع وغيرها من الأساليب المتجددة فى تغذية مشاعر الاحتجاج والتعبير عنها: دون حاجة للجوء إلى العنف والصدام مع الأجهزة النظامية أو تحطيم المرافق العامة.. بحيث يمكن أن يقال إن مسيرات الاحتجاج التى ولدت فى أحضان حقوق العمال بالإضراب عن العمل دفاعًا عن قضايا عمالية أو نقابية، سرعان ما اتسعت وتحولت لتكتسب أبعادًا جديدة وآفاقًا غير مألوفة دفاعًا عن قضايا دولية ومشاكل اجتماعية واقتصادية عابرة للحدود والثقافات، بل والقارات.

غير أن ما يجعل لحركات الاحتجاج فى الغرب قيمة وتأثيرًا فى الحياة السياسية، هو أنها جزء من الحريات العامة والممارسات السياسية المتصلة التى يُنشأ عليها المواطن منذ مراحل حياته الأولى وإلى أن يصبح له حق الانتخاب كمواطن فى مجتمع تتوافر له فيه حقوق وواجبات سياسية ومدنية معينة.. بحيث لا تقف الأمور عند حد مسيرات الاحتجاج والتظاهر، ولكنها تمتد بعد ذلك لتؤثر على الاقتراع فى الانتخابات المقبلة. وهو ما يمكن أن نستقرئه فى الضغوط التى يتعرض لها أنتونى بلير من جانب حزبه فيما يختص بمعارضة حرب العراق، وعلى نحو يهدد مستقبله السياسى ومستقبل حزبه.

وفى هذا الإطار يلعب المثقفون والمفكرون ورجال الدين والسياسة دورًا أساسيًا فى تقديم المسوغات الفكرية والسياسية لحركات الاحتجاج.. وفى حالة الحرب مع العراق لم تتردد أعداد كبيرة من الأدباء والمفكرين والعلماء، وبعضهم من الحاصلين على جائزة نوبل، فى إعلان معارضتهم لهذه الحرب لأسباب إنسانية وأخلاقية وقانونية. وشكل الفنانون والممثلون من نجوم السينما الأمريكية قطاعًا مؤثرًا فى إدانة هذه الحرب. وشارك بعضهم فى الصفوف الأولى من مسيرات الاحتجاج. غير أن هذا لم يمنع نشوب مجادلات حادة بين المثقفين والسياسيين على الجانبين، من المؤيدين والمعارضين للحرب، قطعت الطريق على كثير من الحجج الزائفة أو التى تفتقر إلى المنطق، وأوضحت بجلاء سلامة حجة المناهضين للحرب ووسعت صفوفهم.

لهذه الأسباب، أو ربما لغياب هذه الأسباب والعوامل، لم تنجح حركات الاحتجاج فى بلادنا فى تشكيل ثقافة احتجاج ذات تقاليد راسخة معترف بها، سواء من جانب السلطة أو فى الإطار الفكرى العام. فالمثقفون والمفكرون فى بلادنا العربية لا يقودون حركات الاحتجاج، ولا يتصدون. بالفكر والمعرفة والفهم وليس ضروريًا بالسير فى المظاهرات. لفكر الرفض والخلاف والمعارضة القائمة على منطق متكامل. ولذلك بقيت مراحل التغيير فى بلادنا منوطة بما يعتنقه السياسيون أو الذين تملكوا السلطة من العسكريين تساعدهم طبقة من السياسيين والتكنوقراط والمثقفين، تزين لهم أكثر الأساليب تفردًا وجنوحًا إلى الرأى الواحد، وتمكن لهم فى الأرض لإحكام قبضتهم، وتحقق المنفعة الخاصة لهم من وراء ذلك.

بعض هؤلاء هم من أكثر المثقفين ازدراء لمسيرات الاحتجاج واستهانة بها وخوفًا من عواقبها.. فهم لا يرون لها جدوى إلا إذا خضعت لتنظيم الحزب الحاكم. وأصبحت مسيَّرة فى طريق واحد ولخدمة هدف واحد. والنتيجة الطبيعية لذلك أن تظل مثل هذه المسيرات مقصورة على فئات محدودة من الطلبة أو العمال أو المصلين فى جامع، ولا تضم بين صفوفها كافة فئات الشعب وأجناسه وطبقاته كما يحدث فى بلاد أخرى.. إلا إذا فقدت تلقائيتها وتركت قيادها لممثلى السلطة يوجهونها كيفما شاءوا.

لا توجد لدينا مبادرات تلقائية للاحتجاج تثرى روح الديمقراطية. بل مجرد فوران وردود فعل تقتصر على إصدار بيانات يوقعها عشرات أو مئات من المثقفين، ويتنازعون على مضمونها ولغتها والجهات التى تخاطبها.. وذلك على العكس تمامًا من مسيرات الاحتجاج التى شهدناها فى عواصم الغرب، حيث تتحرك الجموع بصورة تلقائية فى أيام محددة من نهاية الأسبوع، حتى لا تتعطل الأعمال ولا تتوقف عجلة الإنتاج، ولا تتأثر العملية الاقتصادية بسبب فقدان ساعات العمل وما تساويه من أجور.

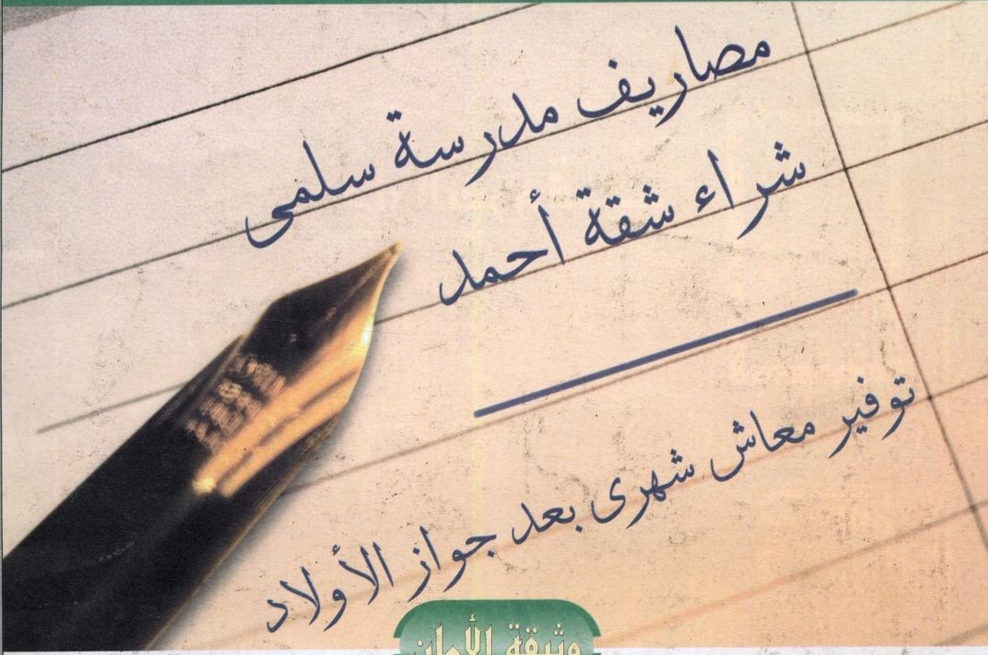
عندنا، لا يتصدر المثقفون حركات الاحتجاج ولا حركات التغيير الطبيعية أو الثورية. بل يأتون ـ فى معظم الأحيان ـ فى ذيل الحدث وقرب نهايته واكتماله.

وفى قضية التنحى التى أثيرت فى المراحل الأخيرة للأزمة العراقية قبل أن تندلع الحرب التى خططت لها أمريكا كنتاج ليس لتغيير الوضع فى العراق فحسب، بل لتغيير الوضع فى المنطقة العربية بأسرها، ردًا على أحداث سبتمبر، لم يكن إسهام المثقفين فى مواجهة الأخطار المحدقة إلا فى البحث عن مخرج سهل يستجيب للمطالب الأمريكية ولا يمس جوهر القضية ولا يحيط بجوانبها المعقدة.

فقد بقى نظام الحكم القائم فى العراق أكثر من ربع قرن، لا يحاكمه المثقفون بالنقد أو مطالب التغيير إلا عندما ضيق الأمريكيون الحصار عليه لأسباب خاصة بهم، على الرغم من المظالم والكوارث التى ارتكبها على امتداد السنين فى حق شعبه وفى حق الأمة العربية.. ولو أن صفوة المثقفين اختاروا فى وقت من الأوقات أن ينكروا على هذا النظام ما ينكرونه عليه الآن، وأن يكونوا فى طليعة المعارضين والمحتجين منذ أصبح نظام البعث عبئًا على مبادئه التى نادت بها طلائع فكرية، فلربما كان العراق قد شهد مصيرًا غير هذا المصير، ولربما كانت الشعوب العربية قد أعادت رسم خرائطها بنفسها وليس بيد الآخرين.

إن إنكار حق الخلاف والرفض والاحتجاج فى الثقافة العربية المعاصرة، تكاد تكون هى المقتل الذى تنفذ منه سهام الضعف والاضمحلال والنكوص. ليس فى حياتنا السياسية فحسب، بل وفى حياتنا الدينية والاجتماعية. ويوم يتخلى المثقف عن دوره كمدَّاح فى بلاط السلطة، فسوف تكون هذه هى البداية الحقيقية لكى تتجذر لدينا ثقافة الاحتجاج والمعارضة على أسس سليمة!

سلامة أحمد سلامة


مصاريف مدرسة سلمى
شراء شقة أحمد
توفير معاش شهرى بعد جواز الأولاد